



१०५४६७८९१०१११२१३१४१५१६१७१८१९२०२१२२२३२४२५२६२७२८२९३०३१३२३३३४३५३६३७३८३९४०४१४२४३४४४५४६४७४८४९५०५१५२५३५४५५५६५७५८५९६०६१६२६३६४६५६६६७६८६९७०७१७२७३७४७५७६७७७८७९८०८१८२८३८४८५८६८७८८८९९०९१९२९३९४९५९६९७९८९९



المملكة العربية السعودية
جامعة الملك عبد العزيز
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا الشرعية
فرع العقيدة

النَّبَشِيرُ وَالْإِسْتِغَارُ فِي نَجِيرِيَا

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب

حضرت مصطفیٰ (الینجیری)



إشراف

فضيلة الشيخ محمد قطب

✓

1499 149A

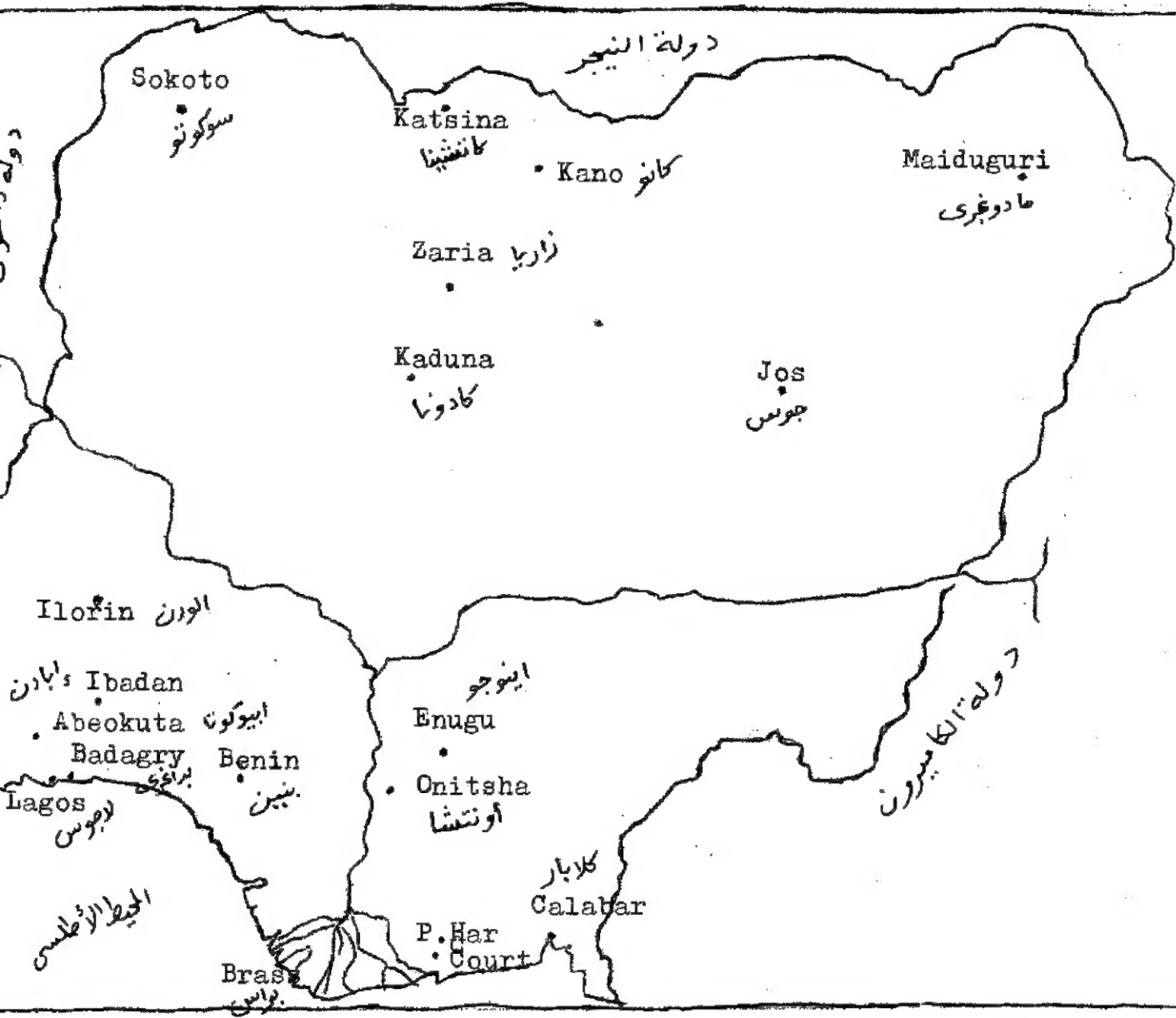
[Handwritten signature]

19V9 P 19VA

1122



(جمهورية نيجيريا الفدرالية)





— المقدمة :

لمحة تاريخية عن ماضي الاسلام في بلاد السودان الغربي ودوافع

١ الغزو الأوربي للعالم الاسلامي

٢ التمهيد الأول : عرض وجيز لتاريخ الاسلام في غرب أفريقيا

١٧ التمهيد الثاني : دوافع الغزو الأوربي للعالم الاسلامي

٢٨ الباب الأول : الاستعمار في نيجيريا والرحلات التجارية والاستكشافية

والاحتلال البريطاني وآثاره :

٢٩ * الفصل الأول : دخول الاستعمار والرحلات التجارية والاستكشافية

٣١ . البحث الأول : الرحلات التجارية

٣٩ . البحث الثاني : الرحلات الاستكشافية

٤٠ * الفصل الثاني : احتلال بريطانيا لنيجيريا وآثار غزوها الاستعماري

وولايات نظام حكمها

٤٥ . البحث الأول : احتلال بريطانيا لنيجيريا

٦٦ . البحث الثاني : آثار الغزو الأوربي

٧٠ . البحث الثالث : ولايات نظام الحكم الاستعماري في

٧٦ هذه البلاد

٧٦ الباب الثاني : التبشير المسيحي في مختلف مناطق نيجيريا ووسائل

دعايته المختلفة وظهور الحركة القومية في الكنيسة المسيحية

٨٣ * الفصل الأول : حركة الغزو الصليبي في مختلف مناطق نيجيريا

٨٤ . البحث الأول : التبشير في جنوب نيجيريا

١٠٦ . البحث الثاني : معركة الصليب مع الهلال في المناطق

١٠٦ الشمالية



الفصل الثاني : وسائل المبشرين في نشر الدعاية التبشيرية ١٢٥

• البحث الأول : التعليم الغربي ميدان فسيح للتبشير

ونشر العلمانية اللادينية ١٣٠

• البحث الثاني : ميدان التطبيب ٢٠٥

• البحث الثالث : دور وسائل الإعلام في نشر الدعاية التبشيرية ٢١٨

• البحث الرابع : وسائل أخرى ذات أهمية في الدعاية التبشيرية ٢٣٤

الفصل الثالث : ظهور الحركة القومية في الكتيبة وامتدادها إلى ٢٦٠

شئون الحكم والسياسة ٢٦٠

الباب الثالث : آثار النفوذ الغربي على مختلف شئون الحياة في

هذه البلاد ٢٨٧

— البحث الأول : التخيير السياسي ٢٩٢

— البحث الثاني : التخيير الاجتماعي والخضارى ٣٠٨

— البحث الثالث : التخيير الدينى ٣١٥

— الخاتمة : الاستشراق نحو مستقبل زاهر ٣٢٩

— قائمة المراجع ٣٤١



المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله
ولو كره المشركون • والصلاة والسلام على أشرف المرسلين المبعوث رحمة للعالمين
وعلى آله الطيبين وصحابته الكرام أجمعين • وبعد •

فإن المتتبع لتاريخ علاقات الدول الغربية المسيحية مع العالم الخارجى يلاحظ
أن الحروب الاستعمارية الصليبية التى كانت تجتاح البلاد الإسلامية منذ قرون طويلة
كان دافعها الأول أحقاد دينية متأصلة فى أعماق قلوب الغربيين • ومن وراء تلك
الأحقاد الشديدة يكمن خوف رهيب من قوة الإسلام الهائلة •

إن للغرب الصليبي مواقف عدائية عنيفة تجاه الإسلام والمسلمين لم تتغير على
مر العصور ومعاقب الأجيال • ولا يمكن أن تتغير إلا إذا حققوا مطالبهم — لا قدر الله —
فى محو الإسلام من الوجود والقضاء على الأمة الإسلامية • ولا يزالون يقاتلونكم حتى
يبردكم عن دينكم إن استطاعوا (١) الآية • ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى
تتبع ملتهم (٢) الآية • ولقد حاولت دول أوروبا تدمير الإسلام فى الحروب الصليبية الرهيبة
فشلت محاولاتها وجهودها فشلاً ذريعاً وردت جيوشها على أعقابها • ثم أعادت الكرة
علينا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين • التاسع عشر والعشرين الميلاديين
وأعدت للحرب عدتها من جديد ودامت حصوننا المنيعة بحملات عسكرية جارية ومشات
تبشيرية وأفكار وهادى • ونظم جديدة لا يختلف هدفها عن هدف الحملات الصليبية
الأولى •• إن هدفها هو تخطيط الإسلام والقضاء على المسلمين • ومنذ النصف الأول من

(١) سورة البقرة (٢١٢)

(٢) سورة البقرة (١٢٠)

القرن التاسع عشر الميلادي اشتدت روح التنافس بين الدول الغربية تبعا لشدة
 أطماعها وجشعها في الحصول على المواد الأولية والثروات الطبيعية الضخمة التي
 أودعها الله في أرض أفريقيا الخضراء، وفتح الأسواق واستغلال الأيدي العاملة من
 أبناء شعوب المستعمرات، والاستيلاء على الطرق البرية والبحرية، واحتلال المراكز
 الاستراتيجية الهامة . وقد امتد سباق هذه الدول وتزاحمها الشديد في طول
 البلدان الأفريقية وعرضها من أجل اقتسامها فيما بينها .

وشاء القدر أن تقع دلمتيجيريا في نصيب الحكومة البريطانية الاستعمارية
 فواصلت غزواتها وحروبها الضارية غربا وشرقا وشمالا واستخدمت فيها الأسلحة الحديثة
 الفتاكة وهي تهدد وتتوعد وتضرب بقسوة في سبيل تحقيق غاياتها الاستعمارية وأطماعها
 التوسعية وأهدائها الصليبية . وقد ظلت هذه البلاد تحت نير الاستعمار البريطاني
 فترة لا تقل عن قرن من الزمان منذ أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر
 الميلادي حتى سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م التي نالت فيها الاستقلال . ولئن كان
 الاستعمار شرا مستطيرا ، فإن التبشير المسيحي أشد ضررا وأبلغ خطرا من الاستعمار
 لأنه هو طليعة جيوش الاحتلال الاستعماري التي مكنت الاستعمار من النفوذ إلى
 مناطق كثيرة من هذه البلاد . وإن المبشرين والمستعمرين والتجار الأوروبيين جميعا
 وإن اختلفت وظائفهم وتباينت أهدافهم وأطماعهم وتوعدت وسائلهم وخططهم يلتقون عند
 غاية قصوى واحدة هي تحطيم الاسلام ، وكسر شوكة المسلمين واستعمار بلادهم والسيطرة
 على شئونهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

إن القضية خطيرة للغاية إذ لا تزال الحملات الصليبية الحديثة تهدد كيان
 الأمة الاسلامية وتحاول ابتلاعها .
 إن ألوف الأغرار من الناس حينما ينظرون إلى الحروب الاستعمارية الغربية يعميهم

مجردة يعتقدون أن الدافع إليها مجرد أطماع توسعية وظروف اقتصادية قاسية
أدت بأوروبا فترة من الزمن إلى التطلع إلى خارج بلادها بحثا عن الثروات الطبيعية الضخمة
التي حباها الله شمويا للبلدان الأفريقية لتستغلها لصالحها الذاتية على كره من
أهلها . كما أن هناك كثيرا من أبناء المسلمين اليوم وعلى الأخص تلك النخبات المثقفة
التي ارتضعت لبان التعليم الغربي والثقافة الأوروبية ينظرون إلى الحروب الاستعمارية
الحديثة في مختلف مناطق هذه البلاد على أنها حروب مجردة عن النزعات الدينية
والأحقاد التي تغل في صدور الأوروبيين الصليبيين . ولقد أسفر الصبح لدى الصينيين
ووقفنا على ما يكيد لنا أعداؤنا ولمسنا البراهين القاطعة التي كشفت لنا نوايا المستعمرين
والمبشرين وعلماءهم المحليين ، ونضحت مؤامراتهم وكأيدهم ومخططاتهم ؛ وظهروا
لنا جليا دوافع الغزو الاستعماري الغربي على أنها أحقاد دينية متروكة في أعماق قلوب
الغربيين تهدف إلى تحطيم الإسلام وتدمير قوة المسلمين ، وجانب ذلك أطماع
دينية تتمثل في سعى الغربيين الحثيث لتحقيق السيطرة السياسية والاقتصادية
والاجتماعية والثقافية .

وتظهر أهمية دراسة الغزو الاستعماري الصليبي لهذه البلاد من حيث إنها تكشف
النقاب عن وجوه المستعمرين المظلمين والمبشرين ، وتكشف كل الذرائع التي يستنبطون
وراءها للنيل من الإسلام والمسلمين في هذه البلاد ، كما توقف المسلمين على معرفة
ما يحاك ضد هم من المكاييد وما يدبر لهم من المؤامرات وما يتعرضون له من الأخطار ،
ليسارعوا إلى مجابهته وقاومته والدفاع عن أنفسهم وتحريرهم وقيمهم ووطنهم وحضارتهم .
” يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا “ (١) الآية .
” وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين
من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم “ (٢) . . . الآية .

(١) سورة النساء (٧١)

(٢) سورة الأنفال (٦٠)

هذا ولم يحاول أحد قبل وضع كتاباً وإعداد رسالة أو بحث باللغة العربية في هذا الموضوع يستعرض فيه نشاط المبشرين وجهود الإرساليات التبشيرية في نشر المسيحية في نيجيريا ويوضح فيه مساعي رجال الاستعمار ومخططاتهم في سبيل السيطرة على شئون هذه البلاد .

وإن هناك بعض الكتاب الأوروبيين وهذا قليلا من أبناء هذه البلاد المثقفين المسيحيين الذين تتلمذوا على الأوروبيين وترعرعوا في أحضان المبشرين ، قد تولوا دراسة أعمال التبشير وأيام الاستعمار الغربي في هذه البلاد وقدموا فيها بحوثاً ومؤلفات في اللغة الإنكليزية وإن كانت دراساتهم وبحوثهم لا تنسم بالدقة والعمق ، ولا تستوعب جميع جوانب الموضوع ، ولا تتخل عن الميول الشخصية سميها وراء تحقيق أهداف معينة ، مما جعلنا لا نعتمد على كثير مما ورد في تلك البحوث والدراسات لأنهم كانوا ينظرون إلى الموضوع من زاوية معينة محدودة ومنظار خاص لا يتفق مع المنهج الذي وضعناه في دراسة هذا الموضوع والهدف الذي نسعى وراء تحقيقه . ولقد ركزوا تركيزاً كبيراً على الجانب التاريخي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي وجانب نشر المدنية والحضارة والديانة المسيحية من أعمال الاستعمار وجهود الإرساليات التبشيرية . وقد فسروا ذلك كله على النحو الذي يحقق لهم المزيد من الانتصار في معركتهم الضارية التي شنوها على شعوب المستعمرات وضربوا صفحا عن الجانب الأهم الذي هو أساس المشكلة وهو جانب الحق الديني الذي دفعهم إلى أتون المعركة . فكلما مروا في كتاباتهم وبحوثهم بالصراع الذي كان يجري على أشده مروا به مرور الكرام لأنهم يريدون أن تجري الأمور وتسير الخطط والناس عنها غافلون حتى لا يتهيأوا إلى الأخطار التي تهددهم فيعدوا المدة الكفيلة بمجابهتها والتغلب عليها .

ولما رأيت أنه لم يسبق إعداد رسالة أو وضع كتاب في هذا الموضوع باللغة العربية رأيت من الواجب علي أن أسد هذه الثغرة التي طالما بقيت نقصاً وتقصيراً كبيراً من جانبنا

فى سبيل خدمة ديننا والمحافظة على كيان الأمة الاسلامية الذى بات مهددا بالخطر منذ أمد طويل * ولقد حاولت تتبع جميع جوانب هذا الموضوع ، وقصصت آثار المبشرين ونشاطهم ، وتلمست وسائلهم فى الدعاية التبشيرية كما تقصيت أعمال المستعمرين ودرست خططهم وتلمست غاياتهم فى مختلف مناطق هذه البلاد ، ثم قدمت خلاصة ذلك كله فى هذه الصفحات . وأرجو أن ينفع الله بهذه الرسالة المسلمين ممن لا يعرفون اللغات الأجنبية أو لا تسمع لهم ظروف أعمالهم الخاصة بتفتح كل ما يكتبه الغربيون والأفارقة المسيحيون فى هذا الموضوع ، وأن ينفع الله بها أيضا الشبان المثقفين حتى يقفوا على راسب الاستعمار والغزو الفكرى الغربى الذى لا يزال يجتاح أنحاء العالم الإسلامى بعد رحيل الاستعمار الرسمى عنه ، وكذلك الأخطار والمزالق التى تلقى فى طريق الشبان المسلمين بقصد اجتثاثهم مع تيارات هذا الغزو المخطط المقصود .

وليس قصدى فى هذه الرسالة أن أؤرخ للتبشير المسيحى كحركة دينية فى تطورها وامتدادها وأخبار مبشريها والنزاعات والمشاكل الداخلية القائمة بين الفرق المسيحية * كما أننى لا أريد أن أتمرض للاستعمار ك فكرة توسعية مجردة قاموا فى الدول الأوروبية وامتدت صولتها إلى مختلف بقاع العالم ، ولكننى سأحاول إبراز دوافع التبشير والاستعمار وتوضيح وسائل المستعمرين والمبشرين وخططاتهم وغاياتهم ، وآثار أعمالهم وصاعيتهم على شئون حياة شعوب دولة نيجيريا من نواح مختلفة * ويجب على المسلمين فى بلادنا أن يكونوا فى غاية اليقظة والحذر ، وأن يتنبهوا للمساءل التى عددناها فى ثنايا هذه الرسالة من نشاط الدعاية التبشيرية وانتشار التعليم الغربى اللادينى والثقافة والحضارة الغربية المادية ومجال الطبیب ووسائل الإعلام المختلفة ، والأعمال الاجتماعية وما إلى ذلك .

إن كل هذه إلا سهل متشعبة تهدف إلى غاية قصوى هي تمكين النفس والأجنى وانتشار مبادئه وأفكاره وقيمه ونظمه وحضارته المادية . وقد كان المستعمرون والمهشرون يقومون بأعمال كثيرة تبدو في ظاهرها أنها أعمال خير تهدف إلى سعادة هذه البلاد ، وقد كشفت الأيام عن النيات التي يسمون وراءها . . إنهم يريدون أن ينفذوا من خلال هذه المظاهر إلى تحطيم الأديان وحو الحضارات وخاصة الإسلام والحضارة الإسلامية ، حتى يستطيعوا أن ينفذوا من خلال ذلك إلى النيل من المسلمين وتقويض البناء الإسلامي من أساسه . وقد رأينا كيف استطاعوا أن يحدثوا في هذا البناء ثغرات متعددة وثقوبا كثيرة دخلوا علينا من خلالها ، فيجب علينا أن نقوم بجهد متواصل وعمل كبير لسد هذه الثغرات وتلك الثقوب قبل أن ينهار البناء كله من أساسه .

وسأناول الكلام في هذه الرسالة عن مختلف مناطق هذه البلاد . ولكنني سأركز تركيزا كبيرا على المناطق الشمالية الإسلامية، وعلى جماهير المسلمين في المناطق الغربية . ورغم أن الموضوع واسعة آفاقه ، مترامية أطرافه ، تستصعب الإحاطة بجميع جوانبه ويصعب استقصاء جميع مجالاته ، فقد بذلت أقصى المجهود في معالجته لأهميته ، ولمسحى حاجة المسلمين في الوقت الحاضر إلى أمثال هذه البحوث والدراسات التي تسلط الأضواء الكاشفة على كيد الأعداء وما يزرعون في بلادهم من الألفاظ والمتاعب لئلا يسارعوا إلى إبطال مفعولها قبل نوات الأوان وثفاقم الأخطار .

ولقد قسمت الرسالة إلى ثلاثة أبواب رئيسية ، تتضمن عدة فصول ومباحث . وقد مت لها بتمهيدين استعرضت في أولهما نبذة تاريخية عن ماضى الإسلام في بلاد

السودان الغربي وأخبار الممالك الإسلامية التي قامت فيها في أحقاب التاريخ الطويلة الماضية ، وما للإسلام فيها من أيام مشرقة وأمجاد تليدة على طول تاريخ هذه البلاد ، كما تتبع في ثانيهما دوافع الغزو الأوربي للممالك الأسلامية ، وقصص الأحداث التاريخية الهامة من الحروب الصليبية الرهيبة حتى الغزو الاستعماري الحديث . وقد توصلت إلى حقيقة مهمة طالما حاولت الدول الغربية إخفاءها عنا : هي أن الدافع الأول للغزو الأوربي الحديث في زحفه الاستعماري وحمالاته التبشيرية هو الحقد الصليبي الساذي تتأجج ناره في قلوب الغربيين الحاققين على الإسلام والحاقدين على المسلمين ، وأن الدوافع الأخرى من ملامح دينية سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وحضارية لم تكن إلا بواعث وجدت أثناء الطريق إلى الهدف الأكبر .

ويحتوي الباب الأول على فصلين ، تحدث في أولهما عن دخول الاستعمار إلى نيجيريا ، والرحلات التجارية والاستكشافية التي قامت بها الدول الاستعمارية الغربية إلى هذه البلاد تمهيدا لغزوها واحتلالها ، وبالتالي التمكن من السيطرة على شؤون البلاد واستغلال خيراتها . وأما الفصل الثاني فقد تناولت فيه الحديث عن احتلال بريطانيا لهذه البلاد قبضها على زمام الحكم ، وشرحت آثار غزوها الاستعماري في أحداث تحولات خطيرة في شؤون البلاد سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، وبينت ويلات الحكم الاستعماري البريطاني في هذه البلاد ، مما لا تزال البلاد تعاني آثاره رغم استقلالها عن السلطة الاستعمارية المباشرة وانتقال السلطة إلى أيدي النخبات الوطنية التي رباها الاستعمار والتبشير .

وأما الباب الثاني فيحوي ثلاثة فصول ، تحدث في الفصل الأول منها عن حركة التبشير في مختلف مناطق هذه البلاد ، وركزت كثيرا على المناطق الشمالية الإسلامية حيث دخل الصليب غمار حرب ضارية مع الهلال . ثم استعرضت في الفصل الثاني وسائل

وخطط المبشرين في نشر الدعاية التبشيرية، وسطت الكلام في ميدان التعليم نظرا لأهميته عند المستعمرين والمبشرين أنفسهم، ولقد ور الكمبر الذي يلعبه في تثبيست أغلال الاستعمار في أيدي شعوب البلدان المستعمرة، وذر بذور المهادى المسيحية والأفكار الغربية اللادينية ومهادى الحضارة المادية في نفوس الناس وخاصة الصغار. ثم تكلمت عن ميدان الطب، وبينت النشاط الكبير الذي تقوم به الإرساليات التبشيرية في هذا الميدان، وفي مجال الإعلام ومئاته المتعددة، كما عرجت على ذكر مجالات أخرى ذات أهمية كبيرة في مجال التبشير والتغيير الاجتماعى .

وفي الفصل الثالث تحدثت عن الحركة القومية التي نبتت في الكنائس المسيحية نتيجة بعض الأوضاع والظروف المحيطة بها . ذكرت أن هذه الحركة وإن كانت فى أساسها خطرا على مصالح الاستعمار والتبشير في هذه البلاد، فقد تمسكت القوى الصليبية الاستعمارية نفخ روحها في نفوس شعوب المستعمرات وتحميق جذورها وتضخيمها لمنع قيام انبعاث روحى إسلامى كانت هذه القوى تعلم علم اليقين أنه هو الخطر الأكبر على كيانها ومصالحها وغاياتها . وقد استطاع الاستعمار أن يسوق المسلمين نحو الاتجاهات التى مهد لها كل التمهيد، قبلوا السير على الطريق الذى أراد الاستعمار أن يسيروا عليه، ووضع من أجله خططا مدروسة حتى انجرفوا مع تيارات التيارات القومية، وتعلقوا بأهداب الشمروبية والإقليمية، قاتلوا تحت لواء الحميصة الجاهلية، ولم يعمدوا يفكرون في رابطة المقيدة التى هى أساس التجمع والوحدة الحقيقية، وسمو وارتقاء الجنس البشرى .

وفي الباب الثالث استعرضت آثار النفوذ الغربى على مختلف شؤون الحياة فى هذه البلاد . وقد قمت بدراسة التغييرات التى حدثت في شتى مجالات الحياة وأفردت كل مجال بحديث مفصل ودراسة مسترجعة . وقد تناولت الحديث عن مجال السياسة والشئون الاجتماعية والاقتصادية ومجال الحضارة والثقافة وأخيرا شرحت التغيير الذى

حدث في مفهوم الدين في نفوس الناس من حيث التصور والسلوك . ثم ختمت الرسالة بفصل مستقل في الاستشراق نحو مستقبل زاهر للإسلام والمسلمين في نيجيريا وهذه هي خلاصة الخطوات التي سلكتها في البحث .

ولقد حرصت في هذه الرسالة على وضع القارئ أمام وجهات نظر عديدة من مصادر أوروبية وحلية وهندية . ولم تكن الدراسة بالسهلة المبهدة ، لأنها دراسة متسمة بسبب تشعب مجالاتها، وتراعى أطراف البلاد ، وطول أمد الاستعمار، وانتشار أعمال التبشير في ربيع البلاد . وقد واجهت صعوبات كثيرة في العثور على بعض المراجع والمصادر لأن الإرساليات كانت تحمل جاهدة لمنع طبعها ونشرها في المجتمع . وقد حاولت الاطلاع على السجلات والتقارير الرسمية للإرساليات التبشيرية ولكنني منعت من الإطلاع على بعضها لما علم القارئون بشئون مكبات الإرساليات بأننى مسلم رغم أننى لم أعرف نفسى لهم . وأذكر بوجه خاص مكتبة الإرسالية الكاثوليكية في مدينة لاجوس العاصمة . وقد زاد في الصعوبات التي واجهتني أثناء العمل الميداني أن معظم المراجع والمصادر التي تنصب عليها المباحث والمواضيع الواردة في هذه الرسالة هي من مؤلفات الغربيين المشهورين بالروح الاستعمارية التي تحكمته في بلدان أفريقيا وصغرت شمعها واستغلت قوى سواعدها ومواردها لرفعها لها الحمايات الذاتية ولشراء شركاتها الاحتكارية . ولقد اتسمت بحوث الغربيين ومؤلفاتهم بخطين بارزين أحدهما الغرض الاستعماري الذي مال بهم كل الميل وجعل بلدان أفريقيا في أنظارهم بلاداً متخلفة تفيض في ظل الجمود والركود بحيث تمر من حولها مواكب الحضارة والمدنية ، وهي ذاهلة عنها لا تفقه شيئاً مما يجري حولها . والخلة الثانية هي تزيين العمل الاستعماري وتزويقه وإحاطة أعمال التبشير بهالة من التقديس، ورواج ادعاءات كثيرة في شأن الاستعمار والتبشير ، ويراد من وراء ذلك كله تسميم أفكار

الطبقة المثقفة من شعوب هذه البلاد برجه خاص ، ولبحملوا الناس من خلال ذلك على الاعتقاد بأن أفريقيا لم تكن شيئاً مذكوراً قبل دخول الغزوة الاستعمارية الذي أدخل إليها الحياة النابضة بالحركة الموارقة، ونشر فيها المدنية والحضارة .

إن هناك بعض أبناء هذه البلاد من المثقفين المسيحيين الذين درسوا على الأوربيين المستعمرين والمبشرين، قد بحثوا مشكلات هذه البلاد وكتبوا عن أعمال التبشير وأيام حكم الاستعمار فيها ، وقارنوا بين وضع البلاد الحالي من نواح مختلفة وبين ما كان عليه في الماضي . ولكننا رأينا أن هؤلاء الناس قد ألقوا على أبصارهم غشاوة سمكة حتى لا يروا الحقيقة الماثلة أمامهم، بل راحوا ينظرون إلى الأمور بمنظار أساتذتهم الغربيين، فجماع بحوثهم ودراساتهم لتحقيق أهدافا وغايات مهد لها الاستعمار كسل القمهد ، كما أنها في نفس الوقت تسير على الخطوات التي سارت عليها مؤلفات الغربيين وتقرر الترهات والأضاليل التي وردت في كتابات الغربيين وحوشهم فلا الحليل تشفى ولا الحليل تروى . ولقد عانيت صعوبات كثيرة في انتقاء الأخبار وتمحيص الروايات المتضاربة في الوقائع والأحداث التاريخية وصعوبة الحقائق الكامنة وراءها . ولم أجده أحدا من بين هؤلاء الكتاب الأوربيين والأفارقة يمكن أن تقول إنه اتخذ في دراسته موقفا متزنا غير متحيز . ولم يكن لي يد من الاطلاع على كتابات هؤلاء الناس ومؤلفاتهم والتزود بالمعلومات الواردة فيها ، إذ لا توجد مراجع أخرى في الموضوع غيرها . ولقد وجدت نفسي في صحراء واسعة لا صوى فيها ولا معالم واستمعت بالله العلى القد يسر أن يلهمني الصواب ويهيننى على أمرى ويهينى لي منه رشدا .

وهكذا بدأت أستقرى الخطوط العريضة وأطرق كل باب يمكن أن ينفذ إلى الناية المنشودة ، كما أخذت أتلصق قرائن الأحوال وأدرس الأوضاع المحيطة بالأحداث والنتائج المترتبة على الوقائع لاستخراج من ذلك كله مقدمات أشير من حولها لتطبيقات لأبنى عليها النتائج التي يمكن أن أتوصل إليها من خلال هذه الدراسة . وأرجو

أن أكون قد وفقت في هذا الجهد المتواضع .

قد استطعت بفضل الله تعالى أن أضمن هذا البحث حقائق كثيرة كانت مخفية عن معظم المسلمين في بلادنا . وأرجو أن أكون قد وفيت الموضوع حقه واستوفيت جميع جوانبه لإظهار حقيقة قائمة يجب أن يتنبه لها المسلمون وألا تغيب عن أذهانهم لحظة واحدة ، وهي أن الاستعمار الغربي في زحفه العسكري وغزوه الفكري وحملاته التهشيرية يصدر عن أحقاد دينية وأطماع دنيوية غاياتها استعباد شعوب البلدان المستعمرة واستغلال خيراتها ومخزونها وقيمها وثقلها وخضارتها وإغساد أخلاقها وسوقها ذليلة وراء مظلماها أزمانا ذليلة لا تنقطع ولا تنتهي . وأن على المسلمين أن يكونوا في غاية اليقظة والحذر من أخطار التيارات المتدفقة من الدول الغربية إلى بلادهم ، وأن يكونوا على بصيرة من أمرهم ، وينظروا بعين غاحصة إلى واقعهم ليعرفوا مدى مطابقة واقع حياتهم لمبادئ دينهم الحنيف وتعاليمه القيمة ، أو يعرفوا من الجانب المقابل مدى انحراجه عن المخطط المستقيم ومدى انحرافهم عن حقيقة دينهم ، ليسارعوا إلى العودة إلى حقيقة الدين ، ويطبقوا جميع تعاليمه ومبادئه على شئون حياتهم ويقيموا أساس /مجتمعاتهم على دعائم ثابتة لا تتزعزعها المواقف العارضة ولا تهدمها التيارات الجارفة ، ويقوموا بتصفية جميع رواسب الاستعمار وآثار غزوه الفكري التي انتشرت في أنحاء البلاد وسيطرت على واقع حياتهم حتى يكونوا كما وصفهم الله تعالى في كتابه العزيز " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله " (١) الآية . ولتحقق فيهم وعد الله لهم ، المؤمنين " وهذا الله الذين آمنوا منكم وهملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا . . . الآية " (٢) .

(١) سورة آل عمران (١١٠)

(٢) سورة النور (٥٥)

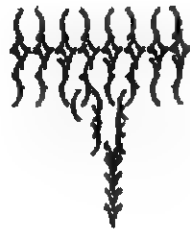
وإن من حق العلم على أن أرفع آيات الشكر وكلمات الشناء والتقدير إلى سمادة الأستاذ محمد قطب الذي تفضل بالإشراف على هذه الرسالة • ولقد أعطاني ممن أوقاته الغالية وزودني بأفكاره النيرة وتوجيهاته وإرشاداته القيمة ما أنا عاجز عن شكره له كما ينبغي • ولا يمكن أن أنسى بعض الفترات الصعبة التي مررت بها أثناء كتابة هذا البحث فتفضل سمادته بتقديم توجيهات قيمة كانت بمثابة فتح كبير مكنتني بفضل الله وتوفيقه من التغلب على ما واجهني من مشكلات وشكوك فالحمد لله وحده هو القادر على أن يجزيه عن كل الخير ، وأسأله جل ولا أن يمدني في عمره وسهبه الصحة والعافية ويحقق من الخير على يديه فيما يأتي من الأيام أكثر مما حقق على يديه فيما مضى من عمره حتى يلقي الله وهو عنه راض •

ولا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى فضيلة الشيخ محمد على الحركان الأمين العام للرابطة العالم الإسلامي الذي تفضل مشكورا بإعطائي المنحة الدراسية طيلة فترة دراستي بجامعة الملك عبد العزيز شطرمكة المكرمة ، جمل الله مساعي الرابطة مشكورة وكلل جميع أعمالها بمزيد من النجاح والتوفيق •

كما أنني أشكر جامعة الملك عبد العزيز شطرمكة المكرمة على ما أتاحتها لى من فرصة ثمينة للدراسة فيها وما وفرتة لى من وسائل وإمكانات حتى تمكنت من أن أنهى من مناهل العلم والمعرفة التي توفرها لأبناء المسلمين الوافدين عليها من شتى بقاع العالم • فعزى الله القائمين بأعمالها خير الجزاء •

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به عباده
المؤمنين ويأخذ بأيدي الصالحين إلى ما فيه تمكين دينهم الذي ارتضوا له
وإلى ما فيه قوام حياتهم وصلاح دنياهم وآخرتهم * إنه سميع مجيب *
وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . ﷻ

خضر مصطفى النجدي
مكة المكرمة



لمحة تاريخية عن ماضى الاسلام فى بلاد السودان الغربى ودافسع
الغزو الأوربى للعالم الإسلامى
=====

التمهيد الأول : عرض وجيز لتاريخ الاسلام فى غرب إفريقيا

التمهيد الثانى : دوافع الغزو الأوربى للعالم الإسلامى

التصميم الأول

عرض وجيز لتاريخ الاسلام في غرب أفريقيا

إن لنيجيريا أياما مشرقة على جبين التاريخ في مضمار الحضارة والمدنية العريقة بلغت أوج العظمة والمجد وامتدت إلى أكثر من ألفى عام ، وكان للاسلام فيها تاريخ مجيد عسير القرون الفائرة والأجيال المتعاقبة إلا أن هذه البلاد لم تنصهر في بوتقة هذا الاسم الذي يعرف به اليوم ، ولم تتحد القبائل المتناثرة التي تشكل دولة نيجيريا اليوم تحت حكومة واحدة قبل الاحتلال الأوربي الغاشم ، وإنما عرفت في جملة النواحي التي يسميها العرب بالسودان الغربي أو بلاد التكرور - وهي التي نطلق عليها اليوم غرب أفريقيا .

فالحديث عن ماضي الاسلام في نيجيريا يقضي بنا بطبيعة الحال إلى استعراض تاريخ الاسلام في غرب أفريقيا كله .

يرجع تاريخ دخول الاسلام إلى السودان الغربي إلى أواخر القرن الأول الهجري الذي تم فيه فتح شمال أفريقيا ، وجزء كبير من غربها على يد القائد العظيم - فاتح أفريقيا - عقبة بن نافع الفهري .

يقول الشيخ عبد الله بن قودي : " إن دخول الاسلام إلى الغرب - غرب أفريقيا -

كان بالقرن الأول الهجري على يد عقبة بن نافع الصحابي الجليل ، إذ إنه وصل إلى قبيلة من قبائل الروم فدعاهم إلى الاسلام فأسلم ملكهم من غير قتال وتزوج عقبة بنت ذلك الملك واسمها بيج منع فولدت له أولادا نشأوا في بلاد أصهم وتكلموا بلغة أبيهم (١) .

ويذكر أن دخول الاسلام للمرة الأولى إلى غرب أفريقيا كان عن طريق دول البرابرة الأتارقة في شمال أفريقيا وقبائل المسلمين في مناطق البحر الأبيض المتوسط الذين اعتنقوا الاسلام منذ القرنين الأول والثاني الهجريين السابع والثامن الميلاديين والذين هاجروا إلى وسط دولة موريتانيا وسيطروا على مراكز السلطة في مدينة أداغوست في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي وكذلك عن طريق التجار المسلمين من شمال أفريقيا .

(١) من كتاب الاسلام في نيجيريا - للأستاذ آدم عبد الله الإلورى ص ١٧
(عن كتاب تزيين المورقات للشيخ عبد الله بن قودي) .

ولو تصفحنا بطون كتب التاريخ التي كتبت عن الفتوحات الإسلامية الجبارة في أفريقيا واستندنا السطور المشرقة التي سجلت تاريخ امتداد الإسلام فيها لرأينا الشيء الكثير من الانتصارات الباهرة التي حققها ذلك ^{الشيخ} الصحابي الجليل القاعد العظيم - عقبة بن نافع الفهري والي عبد العزيز بن مروان على شمال أفريقيا .

كان عقبة يواصل فتوحات ^{أفريقيا} التي بدأت منذ خلافة عمر بن الخطاب ^{أما} نحو الغرب حتى وصل بلاد السوس ، وأخذ يقطع الأراضي الفخية غازيا ومجاهدا في سبيل الله إلى أن انتهى إلى البحر المحيط ، وقال قوله الشهيرة الخالدة رمز الشجاعة وعنوان البطولة : " اللهم يارب لو أني أعلم أن وراء هذا البحر برا لمضيت مجاهدا في سبيلك " ثم سار نحو الجنوب في بلاد السودان ودخل بلاد قانة وتكرور ، وأسلم على يديه عدد من أهلها .

ويؤيد الاستاذ آدم عبدالله اللوري مقاله الشيخ عبدالله بن فودي عن عقبة بن نافع فيقول : " ليس هناك ما يمنع عقبة من السير صوب الجنوب في بلاد السودان كما منعه البحر عن السير صوب الغرب . ولذلك يحتمل أن يجتمع بقبيلة من بقايا الروم ، وأن يسلموا على يديه وأن يتزوج منهم بنتهم وأن يخلف فيهم أولادا تنشأ منهم القبيلة الفلانية التي اشتهرت بالعلم والدین وحماية الإسلام واقامة دولتهم على أعقاب الأجيال المتعاقبة في غرب إفريقيا . (١)

ومهما يكن الأمر فقد ثبت وجود الإسلام في غرب أفريقيا في أواخر القرن الأول الهجري سواء كان ذلك عبر فتوحات عقبة بن نافع الممتدة على طول شمال أفريقيا إلى البحر المحيط - كما تقول رواية الشيخ عبدالله بن فودي - أو عن طريق قبائل الطشيين في مناطق البحر الأبيض المتوسط الذين اشتهروا بالهجرة والتنقل أو كان عن طريق براية شمال أفريقيا والتجار منهم بوجه خاص - الذين كانوا يزاولون أعمالهم التجارية مع أهالي السودان الغربي منذ القرون الأولى .

ومن تلك النقطة من تاريخ الاسلام الطويل في هذه البلاد بدأ امتداد الاسلام في بلاد السودان^{الزنج}، وكان محدودا في بداية الامر، ثم أخذ في الاتساع والانتشار حتى استطاع اهل بلاد السودان^{الزنج} أن يقيموا حكومات اسلامية على أنقاض الممالك الوثنية .

وقد سجل التاريخ للتجار المسلمين والعلماء العاطلين مواقف مشرفة وأعمالا جليلة في سبيل الدعوة الاسلامية لا تزال ذكرياتها باقية الى يومنا هذا .

قامت ممالك اسلامية عديدة في غرب افريقيا وكان لها تقاليدها المريقة وثقافتها المتوارثة وأماها التليدة الا أن معلوماتنا عن تاريخها قبل دخول الاسلام اليها قليلة جدا فيما عدا مملكة غانة التي يمتد تاريخها المعروف قرونا قبل بزوغ فجر الاسلام .

مملكة غانة أقدم ممالك غرب افريقيا

نشأت مملكة غانة منذ القرن الثامن الميلادي ، وكانت قبائلها التي تقم على حافة الصحراء تشتغل بالتجارة والرعى ، وقد وضعت لنفسها أسسا اجتماعية وسياسية وعسكرية تناسب زمانها على ضوء ديانتها الوثنية . ثم تأثرت بالزحف الاسلامي الذي اجتاحت شمال افريقيا منذ القرن الاول الهجري ، ودخلها الاسلام منذ ذلك الوقت فأخذت الاوضاع الاجتماعية والسياسية والحرانية تتحسن شيئا فشيئا بفضل انتشار الاسلام والحضارة الاسلامية لكن ذلك كان في نطاق ضيق ومحدود .

بلغت هذه المملكة أوج مجدها وقوتها في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي وازدهرت فيها الحياة وتدفقت موارد البلاد وكانت تجارة الذهب تلعب دورا هاما في مجالاتها الاقتصادية وكانت القوافل التجارية تقوم متجهة صوب شمال افريقيا محطة بالذهب والجلود والصباغ والطبول (١) والمطاط والعسل والقطن .

(١) نوع من الفاكهة لا يوجد الا في هذه المنطقة .

وانتشرت المراكز التجارية في أنحاء البلاد ووجد اليها التجار المسلمون من شمال افريقيا واستقروا بها يزاولون شئونهم التجارية .

وصف الرحالة العربي المشهور البكري^{عاصمة} مملكة غانة بوصف دقيق في القرن الرابع الهجري وفي ذلك يقول البكري : " مدينة غانة مدنتان سهليتان ، احدهما المدينة التي يسكنها المسلمون ، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا ، احدهما يجمعون فيه (اي يقيمون فيه صلاة الجمعة) ولها الائمة والمؤذنون ، وفيها فقهاء ، وحملة علم ، وحواليها آبار عذبة ، ومنها يشربون وعليها يعتكفون الخضروات ومدينة الملك على ستة اميال من هذه وتسمى بالغابة ، والمساكن بينهما مفصلة ، ومبانيهم من الحجارة وخشب المنط ، وللملك قصر وقباب ، وقد احاط بذلك كله حائط كالسور . في مدينة الملك مسجد يصلح فيه من يفد عليه من المسلمين ، على مقربة من مجلس حكم الملك " (١)

كانت الاسرة الملكية الحاكمة ومعظم اهالي مملكة غانة يدنون بالوثنية وعبادة الاصنام قبل قيام جهاد المرابطين في اواخر القرن الخامس الهجري . وقد انكسرت شوكة مملكة غانة الوثنية سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) حين هاجمتها جيوش البرابرة المرابطين بقيادة الامير القائد ابي بكر بن عمر وكان اختفاؤها نهائيا عن وجه التاريخ عند ما احتلها " سند هاتاكيتا " (SUNDIATA KEITA) ملك مملكة مالي وذلك في القرن السابع الهجري " الثالث عشر الميلادي " .

دولة المرابطين الاسلامية

قامت دولة المرابطين الاسلامية في القرن الرابع الهجري وتولى تأسيسها قائدان عظيمسان هما : عبد الله ياسين وابوبكر بن عمر اللتوني . وكان القائد عبد الله بن ياسين هذا من تلاميذ شيخ علماء السوس ابي محمد اللطفي ، استقدمه الملك يحيى احد ملوك الطوارق من مدينته القيروان في طريق عودته من الحج . وعهد اليه بمهمة الدعوة الى الاسلام ، وقد اسلم على يديه عدد قليل من القبائل البرابرة ، ولم تخذ فترة طويلة حتى شمر الوثنيون بقوة الاسلام الهائلة التي تهدد كيانهم الوثنية البالية ، وقد تضايقوا كثيرا من شرسة

(١) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب لابي عبد الله بن عبد العزيز البكري

انتشار الاسلام وأخذوا يضعون السراويل والمواثق في طريق نجاح دعوة ابن ياسين ، حتى وصل بهم الامر الى احراق داره ثم اخراجه أخيراً من بلدهم . وبسبب هذه الظروف القاسية التي تعرضت لها دعوته استمضى عليه احراز أي نجاح في صفوف هذه القبائل الزنجية الوثنية فانحاز الى بحيرة في جنوب الصحراء وتبعه عدد قليل من تلاميذه وبنى في هوض السنغال رباطا ومسجدا وممسكرا لتدريب الجيوش ، ثم كون من تلاميذه جماعة سماهم المرابطين - كانت مهمتهم الاولى اخراج الوثنيين من ظلمات الكفر الى نور الاسلام .

وبما أن مملكة "غانة" كانت دولة وثنية فقد انطلقت جيوش المرابطين لفتحها ، وكانت تحول دون تقدم جيوش المرابطين صوب الجنوب ، فاضطروا الى التقدم نحو الشمال وفتحوا المغرب . وقد قتل عبدالله بن ياسين اثنا الممركة وأخذ القائد يوسف بن تاشفين يواصل خططه الجهاد الذي بدأه عبدالله بن ياسين فانتصر على مسيحي بلاد أسبانيا وأقام دعائم دولته في بلاد المغرب . وتقدم القائد أبو بكر صوب الجنوب الغربي من بلاد السودان الغربي وزحف على مملكة "غانة" وسيطر عليها وعلى القبائل الصحراوية الفوضوية ، وبذلك هب الله له فرصة تأسيس دولته الحضارية التي تمتد في تلك العصور الفارقة للقضاء على ممالك الزنوج الوثنية ورفعت لواء الاسلام خفاقة في سماء تلك البلاد ، واعتنقت قبائل سوننكي (Soninke) الفانسية الاسلام ، وقد مدت خدمات جليلة في سبيل نشره ، وقد أدى سقوط مملكة "غانة" الى انتصار سياسي كبير للاسلام في بلاد السودان حيث أصبح الاسلام دولة قوية على أنقاض المملكة الوثنية وعاش الناس في ظلها آمنين مستقرين وانتشر الاسلام انتشارا كبيرا شمل جميع الجهات الممصرة في شمال غانة ، وشمال السنغال وشمال نيجيريا وشمال داهومي . وقد سقطت دولته المرابطين في بلاد السودان على اثر وفاة الامير ابي بكر بن عمر سنة ١٠٨٧ هـ (١١٩٦ م) وبقيت في المغرب والاندلس فترة طويلة من الزمن .

مملكة مالي الإسلامية

قامت مملكة مالي الإسلامية في أعقاب فترة تدهور وانحطاط مملكة غانة وذلك في عهد الملك عثمان غورو في أوائل القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، وتمتد هذه المملكة أعظم ممالك السودان الإسلامية . وقد مارست نشاطات واسعة النطاق في شتى ميادين الحياة في الاقتصاد والسياسة والصناعة والممران . وأقام ملوكها المجاهدون وعلماءها المأطون وتجار المسلمين ضريح مجد الاسلام في بلاد السودان الغربية .

وقد بلغت مملكة مالي ذروة قوتها واثرائها في عهد منسى موسى ٧٠٧ هـ - ٧٣٣ هـ (١٣٠٧ م - ١٣٣٢ م) الذي استطاعت جيوشه ان توسع رقعة مملكته حتى امتدت من بلاد التكرور غربا إلى مدن قبائل دندى شرقا ومن مدینه ولاته (Walata) في الصحراء إلى المرتفعات فوجالون (Futa Jallon) جنوبا . (١)

وقد رفع منسى موسى رؤية الاسلام في بلاد السودان حيث جعله دينا رسميا للدولة وعلمها جميع تمالييه في شئون الحياة وأمر ببناء المساجد والمدارس وعين القضاة وأوجب اجراء الاحكام وفق الشريعة الإسلامية وجعل عيد الفطر عيدا رسميا للدولة ثم بعث الدعاة الى الأفاق لنشر الاسلام بين القبائل الوثنية .

وروند ذلك الحين أصبح على الممالك الإسلامية في غرب افريقيا ان تأخذ الطابع الاسلامي الكامل في بناء دولتها والسير على نهج الدول الإسلامية في شرق أفريقيا (٢) .

كان ملوك مالي يحجون بيت الله الحرام كل عام ولكن زيارة منسى موسى للأراضي المقدسة كان لها دوى كبير في مصر وجميع بلاد العرب ، (فقد كانت حاشيته تضم نحو ستين ألف شخص ، وفي القافلة أكثر من ثمانين جملا محملة بالذهب وكان يتقدم فرس منسى موسى خمسمائة همد كل واحد منهم يحمل قضيبا من الذهب) وقد استقدم في طريق عودته من الحج مهندسا مماريا هو ابواسحاق الساحلي أو الساحلي من أهل غرناطة ببلاد الأندلس واليه يرجع الفضل

(1) E.O. Babalola, The Advent and Growth of Islam in West Africa, Ibadan, 1976;
(2) S.J. Hogben, An Introduction to the History of the Islamic States of Northern Nigeria, London, 1967; P.27

في ادخال فن البناء بالسقف المستوي والآجر المحمية إلى السودان الغربي ، وقد أقام منسي موسى علاقات دبلوماسية قوية مع حكام شمال افريقيا ، وكان ينفذ إلى مملكته عدد كبير من مشاهير علماء بلاد المغرب والتجار المسلمين ، وكان منسي موسى يبحث الطلاب إلى مراكز لتلقي العلوم الإسلامية .

وقد اشتهرت مملكة مالي بالقوة والثروة الضخمة لم يكن فقط في العالم الإسلامي وإنما كذلك ذاع صيتها في أوروبا ، وقد نشرت غريادة عالمية في أوروبا سنة ٧٧٧ هـ ١٣٧٥ م وكانت تحتوى صورة ملك جالس على عرش عظيم لا يسا التاج ، كُتبت تحتها هذه الكلمات : " هذا الملك الزنوج يسمى موسى ملك الزنوج في غينيا ، وفي بلاده ذهب كثير ولقد كان أغنى وأشجع ملك في العالم على الإطلاق " (١)

وقد زار ابن بطوطة مملكة مالي في عهد منسي سليمان سنة ٧٥٣ هـ ١٣٥٢ م ووجدها دولة إسلامية كاملة ومن جملة ما أثار إعجابه وتقديره ما لاحظته من الانعاز والخضوع لتعاليم الإسلام والاحترام الكامل للنظام حتى أصبحت السرقة شيئاً لا وجود له على الإطلاق ، ثم ذكر بالرضا والارتياح ان الاولاد في مالي يضرعون اذا تركوا الصلاة ويوضعون في القيود اذا تهاونوا في حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب .

وكان من الآثار الطموسة التي نتجت عن الدعوة الإسلامية التي حمل لوائها ملوك وعلماء مملكة مالي ان انتشر الاسلام في بلاد السودان الغربي انتشاراً لا مثيل له في القرون الغابرة فقبيلة يوريا في غرب نيجيريا مثلاً لم تعرف الاسلام الا عن طريق تجار مالي المسلمين ، ولا يزالون يسمون الاسلام إلى اليوم يدن مالي . وقد غابت مملكة مالي عن مسرح التاريخ في القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي .

مملكة صنفي الإسلامية

قامت مملكة صنفي الإسلامية بناحية بلاد الداهومي وشطت فولتا العليا وشمش بلاد شمال نيجيريا . وقد استأذعت مملكة مالي ان تدرجها تحت سيادتها ردحاً من الزمن إلى ان ظهر على مسرح التاريخ بطل صنفي العظيم من علي الذي فصلها عن مملكة مالي وجعلها دولة

مستقلة ذات سيادة أساسية واقتصادية وذلك في منتصف القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ويعتبر القرن الحاشر الهجري عصرا ذهبيا للإسلام في بلاد السودان الغربي وكان ابتداء ذلك العصر الذهبي عند تسلم أسكيا محمد بن أبي بكر التوري سلطة البلاد من أسرة يديها (٥١٨) الحاكمة سنة ٩١٩ هـ ١٥١٣ م وبدأ جهاده الكبير لتوطيد دعائم الحكومة الإسلامية الرشيدة في البلاد وقد أحدث أسكيا محمد في عهده الزاهر إحياء دينيا شاملا في بلاد السودان وكان يشدد على رعاياه في التصك بـ تعاليم الإسلام في جميع شئون حياتهم .

« وقد حمل قومه على تطبيق شريعة الإسلام في حجاب المرأة ولبس النساء المباءة خارج بيوتهن » (١)

وكان يشجع تقدم التعليم الإسلامي ونشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية في أنحاء البلاد وكان العلماء يشكلون العناصر الأساسية في الإدارات الحكومية المختلفة وقد أفاضتهم قدرتهم على القراءة والكتابة وخبراتهم الواسعة في القوانين والأنظمة مركزا ممتازا في المجتمع . وقد امتدت خطوط الجهاد الكبير الذي قام به أسكيا محمد إلى جميع أقاليم غانة القديمة وبعض بلاد مالي وشمال نيجيريا . وعندما حج أسكيا محمد بيت الله الحرام سنة ٩٠٣ هـ ١٤٩٧ م أخذ معه ثلاثمائة ألف مثقال من الذهب وزع جزءا كبيرا منها صدقة في الأراضي المقدسة ، واشترى فندقا كبيرا في القاهرة وفدان أرض في المدينة المنورة لاستعمال حجاج بلاد السودان الغربي .

ولا يفوتني ان اذكر دور أسكيا داود الكبير في خدمة الإسلام ، وتشجيع العلوم الإسلامية واللغة العربية وهو بصفته عالما كان يشجع تقدم وازدهار المكتبات الإسلامية في البلاد وقد است خدم النساخ لنقل المخطوطات المهمة في العلوم الإسلامية واللغة العربية . وقد استمرت سلطة مملكة صنفي الإسلامية قائمة حتى أوائل القرن الحادي عشر الهجري (تسمينات القرن السادس عشر الميلادي) في عهد أسكيا اسحاق الثاني الذي سقطت فيه تحت هجوم

(1) E.O. Babalola, op. cit., P. 103

سلطان مراکش : مولاي أحمد المنصور الذهبي .

مملكة برنو وكانم

قامت مملكة برنو وكانم منذ القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي حول بحيرة تشاد عندما استقر فيها بعض القبائل البرابرة وسيناروا على أهلها الاصليين ، وقد عرف ملوكها الاسلام للمرة الاولى في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي ويحتبر الطك أومي أو هومي (Umme / Humé) وهو الثاني عشر من ملوكها أول من أسلم من ملوك مملكة برنو .

وكانت هذه المملكة ترتبط ارتباطا وثيقا مع مصر والمغرب وغيرهما من الدول الاسلامية وكانت مدن مملكة برنو وكانم الواقعة في شمال نيجيريا أول بقعة دخل فيها الاسلام من جملة المناطق الواسعة التي تسمى اليوم بنيجيريا .

وقد أخذ الاسلام في التوغل داخل مناطق دولة كانم منذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ، واكتسح المناطق القريبة والنائية اكتساحا كبيرا . وفي عهد الطك سليمان أصبح الاسلام دينا رسميا للدولة ، واعتمدت الحكومة التحالف الفقهي للامام مالك كأسس تنظيمية في القضاء .

وقد كانت مجموعة ميسيرة من المسلمين تتمتع بمنصب وافر من التعليم الاسلامي والثقافة الاسلامية واللغة العربية ، وقد أدى ذلك الى فكرة إنشاء الشئون الإدارية في أجهزة الدولة وتقدم المعاملات التجارية والعلاقات الدبلوماسية مع شمال افريقيا .

و قد نزع الملك السلطة من أيدي الاقطاعيين وأبعد الحكام المحليين عن مزاوله الحكم وعين القضاء ليحكموا طبق الشريعة الاسلامية (١)

وقد اشتهر استعمال لقب الخليفة (للملك) في عهد علي عاجي ٧٥٠هـ - ٧٨٧هـ هجري .
(١٣٤٩ - ١٣٨٥ م) وبلغت مملكة برنو وكانم ذروة قوتها في القرن الحادي عشر الهجري السادس عشر الميلادي .

وفي عهد الملك ادريس ألوما في ذلك القرن بوجه خاص وقد قام الملك ادريس ألوما
 ٩٧٩ هـ - ١٠١٢ هـ (١٥٧١ - ١٦٠٣ م) بجهاد اسلامي كبير في بلاد السودان وأحرز
 انتصارات باهرة ، اتسعت بسببها رقعة مملكته اتساعا كبيرا ، وكان أول ملك سوداني
 يستورد الأسلحة النارية من شمال افريقيا . وقد استقدم جيوش الأتراك إلى مملكته لتدريب
 جيوشه على استعمال تلك الأسلحة . وأنشأ أسطولا بحريا لنقل جيوشه عبر البحار والمحيطات
 وقد جند كل طاقاته لنشر الاسلام في بلاده ، وبذل في هذا السبيل كل غال ورخيص حتى
 استطاع ان يحدد قوة الاسلام في بلاد السودان الغربي
 ومن جملة ما كان يوصي به جيوشه المحافظة على الملوك في أوقاتها حتى في أخرج المواقف
 في ساحة المعركة مع الاعداء .

وقد بقيت هذه المملكة جهلا شامخا فترة من الوقت غير قصيرة ثم اخذ يصيبها الانحلال
 التدريجي حتى قامت الحركة الاصلاحية التي حمل لوائها الشيخ عثمان بن فودي حيث هاجمتها
 جيوش ابن فودي سنة ١٢٢٣ هـ ١٨٠٨ م . وفي هذا الوقت ظهر الشيخ محمد الامين الكانمسي
 على مسرح التاريخ فجأة واسترد مدن برنو المحتلة ، واستطاع ان يوقف غارات جيوش ابن فودي فترة
 من الزمن ، ثم أعاد بناء حكومته إلا أنها سقطت ثانية في عهد ولده الشيخ عمر تحت هجوم جيوش
 سليمان بن الزيربasha - حاكم بحر الغزال من قبل مصر سنة ١٣١٠ هـ ١٨٩٢ م . وقد تصدت
 فرنسا لجيوش الباشا وألحقت بها هزيمة نكراء ، هذا وقد دخلت برنو تحت حماية الانكليز سنة
 ١٣١٨ هجرية ١٩٠٠ ميلادية .

الاسلام في أفريقيا الغربية في القرنين

الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الثامن والثاسع عشر الميلاديين

كان القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى عصرا ذهبيا للاسلام فى بلاد السودان الغربى كما ذكرت سابقا ، ومنذ سقوط مملكة صنغى فى تسعينات هذا المصـــــر الذهبى انحلت سلطة الاسلام السياسية ، وضعف نفوذه القياضى وتحولت السلطة القيادية فى البلاد إلى أيدي الحكام الوثنيين والحكام المتسميين باسم الاسلام كما هو الحال فى دول بلاد هوسا فى شمال نيجيريا .

وقبل سقوط مملكة صنغى كان المسلمون يكونون طبقة المثقفين المتأربين فى المجتمع وكانت الدولة فى حاجة ماسة الى خدماتهم الجلية وخبراتهم الفائقة فى الشؤون الادارية والتجارية . ومجال الاتصالات الدبلوماسية وشئون القضاء ، وكان الاسلام يلبى الحاجة الحال دينا رسميا للدولة . وما إن سقطت مملكة صنغى حتى تغير هذا الوضع رأسا على عقب وسار الأمر إلى أيدي الحكام الوثنيين الذين كانوا منذ قرون طويلة يترقبون الفرصة للاطاحة بالحكم الاسلامى فى البلاد .

وقد قطعت ألسنة العلماء المسلمين عن الحوض فى شؤون الدولة والمجتمع وأى تدخل من جانبهم فى شؤون الدولة كان يعتبر حركة ثورية يجب قمعها ومقاومتها . وقد اتاحت المظالم السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية المتراكمة خلال القرن العاشر الهجرى السابع عشر الميلادى الظروف المناسبة والفرص المواتية لظهور حركات التجديد والاحياء الاسلامى التى قامت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين فى أماكن مختلفة من بلاد السودان الغربى . ولصبت القبائل الغلانية المسلحة أوارا هامة فى الاحياء الاسلامى الذى قام للقضاء على سلطة الوثنيين فى بلاد السودان ، وتأسيس حكومات ذات طابع دينى تحكمهم بالشريعة الاسلامية فيها .

بدأت حركة الأحياء الإسلامى الأولى فى فوجالون من المجاهدين الفولانيين عند ما قام الشيخ إبراهيم موسى بجهاده الكبير ضد أهالى الدول المجاورة الوثنيين سنة ١١٣٨ هـ ١٧٢٥ م . وكان الشيخ إبراهيم هذا من أسرة مسلمة كرست حياتها لنصرة الإسلام ونشر العلوم الإسلامية فى فوجالون ، فأنشأوا مدارس قرآنية وأسسوا جماعة للدعوة إلى الإسلام فى مناطقهم . وقد أعلن الشيخ إبراهيم الجهاد ضد الوثنيين وقاد جماعته إلى انتصارات باهرة مكنته من إقامة دولته الإسلامية فى مناطق فوجالون وامتدت هذه الحركة إلى فوتاتورو على أيدى هؤلاء القبائل الفولانية المسلحة حيث سار الشيخ سليمان بال على نهج جهاد الشيخ إبراهيم موسى وقام بجهاده الكبير لتجديد قوة الإسلام فى بلاد السودان الغربى . وقد استطاع أن يؤسس دولة إسلامية فى البلاد قبل وفاته سنة ١١٩٠ هـ ٧٧٦ م ثم تسلم زمام السلطة بعده الشيخ عبد القادر الذى سيطر على القبائل الوثنية فى مناطق مختلفة من البلاد ، وإن كانت دولته ظلت تعاني من المشاكل الداخلية حتى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى ونهاية القرن الثامن عشر الميلادى .

إن حركة الأحياء الإسلامى التى قامت فى هذه الفترة قد غيرت مجرى التاريخ المشكدر الذى ابتدأ منذ مستهل القرن السابع عشر الميلادى ، وأعادت للإسلام مجده وقوته وشعبيته هذه الحركة بالذات مقدمة لسلسلة الحركات الإصلاحية التى قامت فى القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى فى شمال نيجيريا ، ودولة سيفو وفى مملكة التكرور فى فوتاتورو وفى مملكة برنو .

كانت دويلات بلاد هوسا متفككة الأجزاء ومتنازعة متناحرة قبل جهاد الشيخ عثمان بن فودى وكان معظم أهاليها معنيين فى الكفر وكان حكامها متهاونين فى أمور الدين غير مستعدين لتطبيق التعاليم الإسلامية فى جميع شئونهم السياسية وحياتهم الاجتماعية ، وكانوا ما يزالون يحتفظون بمعتقداتهم الوثنية القديمة وعاداتهم الجاهلية ، بالية والبدع الشنيعة المنكرة وفى هذه الفترة قام جهاد ذلك المجدد الكبير فى بلاد السودان الغربى والبطل الإسلامى الشهير - الشيخ عثمان بن فودى . وقد انشقت شمس دولته الإسلامية فى سما نيجيريا

سنة ١٢٤٩ هـ ١٨٠٤ م ، ووصل ضوءها إلى جميع مناطقها الشمالية والجنوبية . بدأ الشيخ عثمان بن فودي بالوعظ والإرشاد سنة ١٢٠١ هـ ، ١٧٨٦ م والتف حوله عدد كبير من المسلمين ثم اعتدت خطوط دعوته إلى القرى المجاورة وتوافد عليه المسلمون من كل الأمصار وأصبحت قوته ونفوذه ترعب حكام البلاد وتهدد كيان الديانة الوثنية المنتشرة فيها . وبدأ الحكام من جانبهم محاولة وقف نشاط الجماعة والقضاء على هذه الحركة قبل أن يستفحل أمرها ، وقد ضيقوا على جماعة الشيخ واضطهدوهم وساموهم سوء الحذاب ، وأليم العقاب حتى اضطسمر الشيخ إلى الهجرة إلى مدينة غودو (Gudu) سنة ١٢١٩ هـ ١٨٠٤ م ، وعند ذلك أعلن الجهاد ضد كفار بلاد هوسا لنشر الاسلام وإصلاح الحالة السياسية والاجتماعية المتدهورة ، ورفع المظالم المتراكمة على كواهل الشعب .

وعند ما استقر الشيخ عثمان في منجيره استطاع أن يكون من أتباعه جيشا كبيرا وعزم على القيام بجهاد كبير اكتسح ماحول النيجر شمالا وجنوبا ثم عقد الألوية لأربعة عشر قائدا ممن قواده ويحشهم إلى مختلف مقاطعات الشمال والجنوب ، وقد أحرزوا انتصارات باهرة على أعداء الله فاندحرت قوة الباطل أمام جنود الحق وانهر أمر الله " قتل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا " (١) وقد استطاع الشيخ عثمان أن يحدد قوة الاسلام ويقوم حكومة اسلامية قوية على أنقاض دويلات بلاد هوسا المتناحرة وسلطة أويو الوثنية في بلاد يوريا .

وقد وصف الأستاذ آدم عبد الله الإلورى فتوحات ابن فودي حيث يقول : " إذا قارن القارئ بين المغازي الأولى في صدر الاسلام وبين جهاد ابن فودي والوقائع التي دارت بينهم وبين كفار غوبر وجدها مثلا يمثل ، كأننا يعيد التاريخ الاسلامي نفسه في نيجيريا : لقد بدأ ابن فودي بالوعظ والإرشاد كما بدأت الدعوة الاسلامية وعارضه كفار غوبر كما عارض النبي صلى الله عليه وسلم كفار قريش ، والجاؤه إلى الهجرة إلى أطراف الصحراء كما أجنأت قريش المسلمين الأولين إلى الهجرة للمدينة ، وجعلوا يقطعون الطريق على من يهاجر كما فعلت قريش

للمهاجرين الأولين . ثلما وأي الكفار تمكن المسلمين في مهجرهم استمدوا لاستئصالهم
كما استمدت قريش لذلك فالتقى الجيشان في أول واقعة في كاتر كما التقت الفئتان فمسي
أول غزوة في بدر فانتصر المسلمون هنا كما انتصروا هناك واستمد الكفار للانتقام في واقعة
(ثنوا) كما فعلت قريش في غزوة أحد ، وأصيب المسلمون فيها كما أصيبوا في الصدر الأول
ثم تم النصر الباهر في الغزوات التالية كما تم للأولين وفتحوا حصن (قلاو) كما فتحوا مكة
المكرمة فما أشبه السيلة بالبارحة * . (١)

لقد غير جهاد ابن فودي مجرى الأمور فمسي البلاد حيث استباح بتوفيق الله له أن
ينشر الإسلام في ربوع بلاد نيجيريا ، ويبنى دعائم حكومته على أسس إسلامية قوية . كانت
العمارة الإسلامية والثقافة الإسلامية منتشرة في جميع مدن المملكة كما انتشرت فيها المدارس
الإسلامية في جميع المملوك الإسلامية والصربية ، وقد مت للمجتمع جهابذة العلماء الذين كرسوا
حياتهم للدعوة الإسلامية ونفع الله بهم عباد ، وقد فرسوا شجرة العلم والعرفان في مختلف
مدن المملكة دانية قطوفها أصلها ثابت وفرعها في السماء توتى أكلها بأذن ربها وإن
ذكريات أيامهم المشرقة لاتزال لامعة في سطور التاريخ مدونة بمداد الذهب في سجل
المجاهدين الأبرار .

وقد تشجع بحضر المجاهدين بنجاح جهاد ابن فودي على الكفار وإقامته الدولة
الإسلامية في بلاده وساروا على نهجه القويم وأقدوا نار الحرب في مناطقهم ضد الوثنيين
ومضهم الشيخ أحمد الذي استباح بجهاده الكبير أن يؤسس حكومة إسلامية
على أنقاض دولة (ماسينا Masina) الوثنية في فوتاجالون سنة ١٢٢٥ هـ ١٨١٠ م .
وكذلك الحاج عمر بن سعيد تال الذي تأثر بجهاد ابن فودي فقاد جيوشه المظفرة إلى
نصر ميين على قبائل التكلور الوثنية في فوتاتورو ثم أقام حكومته الإسلامية سنة ١٢٧١ هـ ١٨٥٤ م

(١) من كتاب الإسلام في نيجيريا ص ١١٣ - ١١٤ تأليف الاستاذ آدم عبد الله .

(٢) لم نذكر على اسم والد الشيخ أحمد في جميع كتب التاريخ التي راجعناها .

التي استطاعت أن تقصدى لهجوم جيوش فرنسا وخيبت آمالها وأطماعها التوسعية في سبيل احتلال البلاد . وقد قبل الحاج عمر أن يتعامل مع الفرنسيين ككهار في بلاده شريطة أن يدفعوا الجزية ، وأبى أن يسمح لهم باستعمار أرض بلاده أو إنشاء الممسكرات على طول شواطئ نهر السنغال . وظل يقاوم جيوش الاحتلال الفرنسي حتى استطاعت فرنسا بمساعدة القبائل الوثنية المعاقدة على سيادة حكومة الحاج عمر الإسلامية في المنطقة أن تلحق سحق بجيوشه هزيمة نكراء وتم لها ما أرادت ، ودخلت البلاد تحت نير الاحتلال الذي لم تنقشع سحابته عن سما البلاد حتى اليوم .

هذه نبذة عن تاريخ أم السودان في عهد الممالك في تلك المصور الغابرة وذلك تاريخ ماضي الاسلام منذ مالع فجر الاسلام في غرب افريقيا حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى (أواخر القرن التاسع عشر الميلادى) .

وقد مثل الاسلام فيها قوة عظيمة ، ورفع المجاهدين المخلصون فيها راية الحق وأقاموا فيها في مختلف العصور حكومات إسلامية دستورهما القرآن والسنة المطهرة ولغتها الرسمية هي لغة القرآن . وعبر تلك القرون الطويلة كانت الحرب تدور بين الوثنية والاسلام وكان النصر دائما لحليف المسلمين ولم تدخل المسيحية حلبة الصراع إلا حين بدأت ^{الحركة} الصليبية الحديثة التي راحت تستكشف الأريق ، حول أفريقيا وآسيا حين عجزت عن التوفل من ناحية الشرق لوجود الدولة العثمانية بقوتها المرهوبة ، ووجود دولة المماليك ، فمضت تغزو العالم الاسلامى من ناحية الغرب مبتدئة بأفريقيا .

لم تكن الدولة الاستعمارية في غفلة عن نبأ تلك الممالك الاسلامية التي قاومت في غروب أفريقيا ، ولقد عرفت ما للاسلام هناك من تاريخ مجيد ووعت أخبار تلك الثروة الضخمة التي أودعها الله في هذه الأرض الخضراء ، وهاج هائجها ، وأمتلأت حقدا على الاسلام ، وطعمسا في استغلال خيرات البلاد .

وسنبين ذلك بالتفصيل في التمهيد الثانى إن شاء الله تعالى ،

التمهيد الثاني

دافع الفزوة الأوربي للعالم الإسلامي

بدأت حركة التوسع الإسلامي منذ وقت مبكر من القرن الأول الهجري وأخذ نفوذ الإسلام يمتد بذلك إلى خارج شبه الجزيرة العربية عندما قام المسلمون بفزوة المناطق الصحية بالجزيرة واستولوا على بلاد الشام ومصر، ولم يمض سبعمائة من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إلا وقد فتح المسلمون شمال أفريقيا إلى البحر المحيط غربا وهاولوا فتح مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية في أوروبا الشرقية .

وقبل انتهاء القرن الأول الهجري، وصلت جيوش الفتح الإسلامي إلى حصون مدن أوروبا الغربية وبدأ الاحتكاك بين الإسلام والمسيحية في حروب هامة الولىس تقتد من الجيوش الإسلامية فاحتلت أسبانيا سنة ٩٣ هـ ٧١١ م في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك ثم واصلت هذه الجيوش زحفها فاستولت على سردينيا ، وقد اهتز العالم الأوربي المسيحي شرقا وغربا لهذا الحادث الجليل ، فأسبانيا وسردينيا كانتا تحتلان مكانة ظاهرة في العالم الغربي ، وكان فتح المسلمين لهما واستقرارهم فيهما على حساب الشعوب المسيحية أمرا لا يمكن أن ترضى عنه الكنيسة الغربية وجميع شعوب أوروبا المسيحية بأي حال من الأحوال . وهنا نقطة البداية : بداية الحروب الطويلة على مدى التاريخ . كانت بلاد الشام ومصر مستعمرات للدولة الرومانية ففتحها المسلمون واستقروا بها وكانت بلاد شمال أفريقيا لصدة سبطاة عام ترزح تحت نير استعمار الكنيسة المسيحية الغربية ، فاستخلصها المسلمون واستقروا بها وأقاموا فيها الحضارة الإسلامية والثقافية العربية .

ولم يكن الفتح الإسلامي ليقف عند هذا الحد بل امتدت خطوطه ليهدد العالم المسيحي الغربي باحتلال أسبانيا وسردينيا ، وإقامة حكومة إسلامية بقيت فيها قرونا طويلة حتى سقطت بعد موقعة العقاب سنة ١٠٩٦ هـ ١٢١٢ م التي وقعت بين "الخلفاء" المسيحيين وبين الموحدين .

لقد ظلت القوة المسيحية في غرب أوروبا تعمل منذ وقت مبكر على استرداد كل الأجزاء المحتلة من العالم المسيحي . فمنذ ظهور المسلمين على مسرح حوض البحر المتوسط كقوة سياسية وحرية كبرى غزت العالم المسيحي وقوضت بعض أركانه كان أهالي أوروبا المسيحيون لا يألون جهدا في صد المسلمين ومحاربتهم واتخذوا في سبيل ذلك جميع الوسائل على مدى التاريخ . إن تحديد مدى الحروب الصليبية بالفترة الواقعة بين سنتي ٤٨٩ هـ - ٦٩٠ هـ (١٠٩٦ م - ١٢٩١ م) يبدو أنه مجرد تحديد زمني لا يشمل في الواقع إلا المرحلة الحاسمة النشطة في تاريخ الحروب الصليبية فبالمكاننا تتبع جذور الحركة الصليبية وروحها قبل القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي كما يمكن انقضاء أشهر ذيولها وروحها بعد نهاية القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي بكثير أيضا .

إن طبيعة الحروب الصليبية التي قام بها الحلفاء المسيحيون منذ القرن الخامس الهجري القرن الحادي عشر الميلادي والبواعث الكامنة وراءها هي وليدة الحماسة الدينية التي سادت جو العصور الوسطى كما أنها مظهر من مظاهر التوسع الاقتصادي والاستعماري الذي غيم على تلك العصور . وبعبارة أخرى كانت بواعث الحملات الصليبية متجسمة في الحقن الصليبي على الإسلام وقطع أمراء أوروبا في تأسيس إمارات لهم في الشرق وأطماع القوى الأيدالية التجارية في تحقيق مكاسبها الاقتصادية عبر الطرق البحرية والبحرية من بلاد الشرق إلى الدول الأوربية الأخرى ومحاولة أوروبا وقف هذه العملية الاحتكارية من جانب الدولة الأيدالية .

ولنستعرض جزءا من التاريخ لنلقي الأنوار الكاشفة على بعض الحقائق التي تكمن وراء الأحداث التاريخية . قامت الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٨٩ هـ ١٠٩٦ م لغزو المالم الإسلامية وإقامة مملكة صليبية في بيت المقدس وقد اتجهت هذه الحملة نحو الشرق عبر

الطريق البرى فى آسيا الصغرى وأخذت تحتل المدن الواقعة فى طريقها وتحرز انتصارات كبيرة على جيوش السلاجقة حتى انتهت إلى بيت المقدس فاحتلتها سنة ٤٩٢ هـ ١٠٩٩ م وقد ساعد جيوش الصليبيين كثيرا انحلال أحوال الدولة الفاطمية والمداء المذهبي الشديد بين الفاطميين والسلاجقة مما حال دون توحيد الصفوف وتكوين جبهة إسلامية متحدة ضد الخطر الصليبي آنذاك. وهكذا نجحت هذه الحملة واستناع الصليبيون أن يؤسسوا ثلاث إمارات صليبية فى بلاد الشام زيادة على مطكة بيت المقدس ولم يستقر أمر جيوش الصليبيين فى الأراضى المقدسة حتى قامت الجبهة الإسلامية المتحدة فى أواخر القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى فاستولت على إمارة صليبية فى الرها سنة ٥٣٩ هـ ١١٤٤ م وقد أدى ذلك إلى قيام الحملة الصليبية الثانية التى سلك رجالها الطريق البرى عبر آسيا الصغرى فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة، ولكن الفشل الذريع حالف هذه الحملة الثانية وفى هذا الوقت برزت شخصية صلاح الدين الأيوبي على مسرح التاريخ، وأخذ على عاتقه مهمة اتمام رسالة توحيد القوى الإسلامية المتشتتة ثم دخل فى حرب جديدة مع الصليبيين حتى استطاع أن ينزل بهم هزيمة نكراء فى موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ ١١٧٨ م واسترد مدينة بيت المقدس وما حولها من البلاد والموانئ الساحلية .

وقد سبب سقوط بيت المقدس فى أيدي المسلمين قيام الحملة الثالثة التى قسمت رجالها بين من يسلك الطريق البرى المشعوم عبر آسيا الصغرى ومن سلك الطريق البحرى عبر البحر المتوسط إلا أنها حيلت بينها وبين أمنيتها ورجعت إلى بلادها وهى تجرر أذيال الهزيمة كما حصل لأشياعها من قبل. ولم تزل القوى الأوربية ترسل حملة بعد أخرى منذ هزيمة الحملة الثالثة، وكانت توجه بعضها إلى الأراضى المقدسة والبحر الآخر إلى مصر التى تعتبر مركز قوة المسلمين فى ذلك الجزء من العالم إلا أن جهود هذه الحملات كلها

باءت بالفشل . وإذا كان بعض المؤرخين يذكرون أن زمن تحالف القوى الأوروبية العظمى من أجل الغرض الدينى قد انتهى بانتهاء الحملة الصليبية الثالثة بسبب الخلافات القويبة التى دبت فى صفوف دول أوروبا وحكامها وتغلب المصالح الدنيوية على الأغراض الدينية، ويمتقدون أن ذلك قد أضعف من شأن الحروب الصليبية ، فالحقيقة أن تمار الحرب ليس يمكن ليضعف بهذا ولأنك لأن الحق الصليبي متأصل فى قلوب الأوربيين وإن اختلفت اتجاهاتهم السياسية وتضاربت معتقداتهم الدينية وتحكمت فيهم المصالح الدنيوية فسرعان ما تذوب تلك الخلافات وتجتمع تلك القوى الأوروبية لتستخدم هذه المصالح الدنيوية ذاتها لمواجهة خطر قوة الإسلام . والحملات التى قامت بعد الثالثة أكبر دليل على أن تيسار الحروب الصليبية لم يمتره الفتور والوهن كما أن الحملة الرابعة التى حولت لغزو القسطنطينية وإخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية كانت فى سبيل توعية القوى المسيحية فى وجه الجبهة الإسلامية المتحدة التى أنزلت الهزيمة بالحملة الثالثة .

ولو نظرنا إلى الحملات الصليبية الثانية التى قامت فى الفترة ما بين سنتى ٤٩٠ - ٦٦٨ هـ ١٠٩٧ - ١٢٤٩ م لعلنا أن جذور العداوة كانت عميقة فى القلوب كما أن جراحها لا يمكن أن تضمد لذلك رأينا الصليبيين يستهيئون بأمر الهزيمة ويرسلون الجيوش طوا الجيوش لتتلقى هزائم أخرى أكبر وأنكر (ولن ترضى عنكم) اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ^(١) ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ^(٢) .

وعند منتصف القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى وعقب هزيمة الحملة الصليبية السابعة قامت دولة المماليك فى مصر والشام وقد استطاعت قبل نهاية ذلك القرن أن تسترد ما تبقى فى أيدي الصليبيين من بلاد المسلمين . ويعتبر استيلاؤها على مدينة عكا التى كانت آخر المعاقل الصليبية بالشام سنة ٦٩٠ هـ ١٢٩١ م نهاية الحروب الصليبية بمعناها المحدود الضيق .

(١) سورة البقرة [١٢٠]

(٢) سورة البقرة [٢١٧]

كان القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) نقطة تحول خطير فى تاريخ أوروبا . وكانت الحروب المتتالية التى منيت بها الدول الأوروبية فى الحروب الصليبية قسسا لقتنها ألوانا من الدروس فتحت أمامها آفاقا جديدة للتفكير فى اختيار نوع الأسلحة وتحدد مواقع الهجوم فى طبيعة حروبها ضد المسلمين فى المستقبل .

وقد شهد هذا القرن أيضا حوادث النزاع الشديد بين البابوية والإمبراطورية ، كما شهد عواصف المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أخذ يزداد خرابها يوما بعد يوم ، والتى كادت تجترف أوروبا إلى الهاوية . فقد عاشت أوروبا قرونا طويلة تحت سلطة الكنيسة وكل شئ فى نظر الكنيسة ساكن لا يقبل الحركة بل لا داعى إلى التفكير فى محاولة تحريكه . لأن الكتاب المقدس هو المرجع الوحيد والبابا هو الرب والمسؤول الأول . وهكذا عاشت أوروبا ^{المظلمة} فى عصورها أوكل شئ فى سكون وجمود . وأثناء الحروب الصليبية بل منذ فتح المسلمين لأسبانيا وقيام الحضارة الإسلامية فيها حصل احتكاك الأفكار : احتكاك فكرة السكون والجمود التى نشأت أجواء الدول الأوروبية بفكرة الحركة والنمو الدائم التى كانت سائدة فى العالم الإسلامى . وقد أدى ذلك كما قلت إلى أمواج من الحركة الممارة فى الدولة الأوروبية إبان القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى الذى يعتبر بداية عصر النهضة فى أوروبا كلها ، صاحبها المشاكل الحادة التى برزت فى تلك الفترة والتى كانت تتغصن كالرجل تبحث عن حلول ، ومن ناحية أخرى كانت أوروبا تربطها فى أول أمرها عند قيام الحروب الصليبية فكرة واحدة — هى فكرة الإمبراطورية العالمية والكنيسة العالمية ، ثم أصابها التفكك السياسى منذ القرون السابع الهجرى — الثالث عشر الميلادى نتيجة ظهور الطوائف القومية المتنافسة ، لأن روح التنافس الحادة التى ظهرت بين مختلف الشعوب الأوروبية وزيادة حدة الانقسام بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى قد أدت إلى تصدع عناصر الجبهة المسيحية المتحدة التى كانت تحمل ضد

المسلمين ، ولكن ذلك لم يكن ليغنى نارا الحرب كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة وإنما وزع الأعداء في بقاع الأرض ليقوم كل بدوره في محاربة الإسلام من ناحيته في تنافس حاد على استعمار البلاد الإسلامية وانتهاب خيراتها والتضخم وتكوين الامبراطوريات من هذا السبيل .

لقد أثارت الحروب الصليبية النشاط التجاري بين الشرق والغرب وقد احتكرت المدن الإيطالية تجارة الشرق زمنا غير يسير على طول البحر الأبيض المتوسط ، وبسبب عوامل الضغط الاقتصادي بدأت أطماع أوروبا تتزايد في الحصول على خيرات بلاد الشرق ، وقد أدت في نهاية الأمر إلى تنافس شديد بين الدول الأوروبية له أبعاده في مصير الأمور غير أدوار تاريخ الشعوب الأوروبية .

لقد رأينا كيف كان تطور الأوضاع في أوروبا في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي . وماذا كان يجري في العالم الإسلامي ؟ وما مدى ارتباطه بنتيجة تطور الأوضاع في أوروبا ؟

لقد ذكرت ما كان من قيام دولة المماليك في مصر والشام منذ منتصف القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي ، وكيف تصدته جيوشها لخطر الصليبيين حتى انتزعت جميع ما تبقى من مدن المسلمين المحتلة .

لقد اتسعت دائرة قوتها حتى سيطرت على المدن المطلة على الشواطئ الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط . وطريق البحر الأحمر ، الأمر الذي كان يشكل خطرا بالغا في وجه التغول الأوروبي إلى العالم الإسلامي من هذه الناحية . وقيام الدولة العثمانية في هذه الأثناء بقوتها المرهوبة وانصارتها الباهرة على الدول الأوروبية واتساع نفوذها وسيطرتها

على أعالي الفرات في آسيا الصغرى والقسطنطينية وجميع مدن الدولة البيزنطية في شرق أوروبا كل ذلك كان يشكل خطرا آخر أبلغ وأحكم في وجه التوغل الأوربي إلى المالم الإسلام من هذه الناحية أيضا . وبسبب وجود هاتين القوتين : قوة دولة المالم وقوة الدولة العثمانية في ناحية الشرق أخذت الحروب الصليبية الحديثة اتجاها آخر حيث راحت تستكشف طريقا بحريا حول أفريقيا لغزو المالم الإسلام من ناحية الغرب . وبذلك بدأت حركة الكشف الجغرافية في أوروبا مهتدة باستكشاف الطريق البحري المباشر حول أفريقيا الذي يربط أوروبا بالهند في أقصى الشرق وقد حازت البرتغال في ذلك قصب السبق .

بدأت الحروب الصليبية الحديثة التي تشتملت في حركة الكشف الجغرافية أثناء هجوم قوة العثمانيين على الدولة البيزنطية في أوروبا الشرقية وذلك عندما بدأت البرتغال في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي بمحاولة استكشاف سواحل غرب أفريقيا فمضى طريقها حول أفريقيا إلى أقصى الشرق . وقبل زوال الدولة البيزنطية بسقوط القسطنطينية الذي اهتزت له أوروبا المسيحية كلها سنة ٨٥٧ هـ ١٤٥٣ م برزت على مسرح الأحداث الشخصية ذات الشهرة الذائعة وهي الأمير هنري الحلاج (Henry The Navigator) ١٤٦٠-١٤٩٤ م ، كان هذا الأمير مؤمنا بإمكان الدوافع حول أفريقيا وإمكان الوصول إلى الشرق عبر هذا الطريق . ولم يكن الدافع الأساسي لهنري الحلاج في جهوده الاستكشافية اقتصادية بحتا كما دأب المؤرخون في تملطهم لتلك الحركة الاستكشافية وإنما ثبت أن العقد الصليبي هو أول مادفع الأوربيين إلى هذا العمل حتى يتمكنوا من تحطيم الدول الإسلامية التي سيطرت على الطرق التجارية في الشرق واستردت الأراضي المقدسة من أيدي الصليبيين .

وقد كان هنرى الملاح رئيسا لهيئة اليسوعيين ولذلك ازداد اهتمامه بكسب أراضى جديدة للمسيحية .

يقول بعض الكتاب المسيحيين عن اهتمام هنرى الملاح بالعلوم الجغرافية : " لقد أبدى الأمير هنرى الاهتمام البالغ بالعالم الخارجى إلا أن وراء هذا الاهتمام تكن التخييلات الخاطئة والرغبة الشخصية فى العلوم الجغرافية والحقد الدينى العميق . بل كان اهتمامه انعكاسا للأغراض الشخصية والحقد الصليبي "..... كان هناك أمل قوى فى إمكان تدوير

قوة الإسلام إذا استطاعت البرتغال الانضمام إلى مملكة برستارجون (Kingdom of Prester John) وهى فى أساطير أوروبا مملكة مسيحية قوية توجد فى أفريقيا . وكما أن استكشاف هذه المملكة سيؤدى إلى الحلف المسمى العالمى الذى سيهجم على شمال أفريقيا من ناحية الشمال ومن ناحية الجنوب فى آن واحد ، وبضربة واحدة من هذه القوة المسيحية المتكاملة ستتحطم قوة الإسلام فى شمال أفريقيا وتعود المناطق الإسلامية وما فيها من الموارد التجارية إلى المسيطرين المسيحيين " . (١)

وإننى لا أنكر وجود بواعث أخرى حفزت أوروبا على تلك المغامرة الخطيرة إلا أنها وجدت أثناء البحث عن الضالة المنشودة :

أثناء البحث عن الطريق البحرى الموصلى إلى الشرق لتخليص الدول الإسلامية هناك . .
فالدافع الاقتصادى له أهميته الكبرى فى ^{خلق} أجواء التنافس الشديد فى صفوف الدول الأوروبية
بيد أن ذلك لم يكن دافع أوروبا الأوحده ، وكما أن الدافع الاستعماري له أبعاده الكبيرة ففى

(١) G.T. Stride & C. Ifeka,
Peoples and Empires of West Africa, London, 1973, Pp 176 « 176

دفع عجلة المغامرة نحو الأطماع التوسعية خارج أوروبا ولكنه وجد أثاء الطريق ولم يكن مقصودا بالاضالة .

وقد كانت جهود هنرى الملاح رائد الحركة الاستكشافية تهدف إلى تقدم المسيحية ونشرها على طول طريق رحلاته . " وكان المطلوب من الهيئة التبشيرية التي صاحبتة تحويسل أهالى بلاد السودان الغربى إلى المذهب الكاثولىكى سواء بالدعوة أو بالقوة أو حتى بالاسترقاق إذا لزم الأمر^(١) ، لأنه كان يحرف أن أهالى هذه البلاد كانوا تحت سلطة الحكام المسلمين فى شمال أفريقيا أو فى حلف عسكري معهم^(٢) . وهذه حقيقة من جملة الحقائق التي حاولت أوروبا إخفاؤها حتى تضى فى حربها الصليبية دون أن يتنبه المسلمون إلى الروح الصليبية الكامنة وراءها .

لقد بدأت البرتغال رحلاتها الاستكشافية منذ سنة ٨٢٢ هـ - ١٤١٩ م وبذل الأمير هنرى الملاح جهودا كبيرة فى هذا السبيل وسار على نهجه الحكام البرتغاليون الذين جاءوا بعده حتى استطاعوا أن يستكشفوا منابع الذهب فى بلاد السودان ويقيموا مراكز تجارية على طول سواحلها فى النيجر الأطلسي ثم تقدموا نحو الجنوب واستكشفوا رأس الرجاء الصالح ثم شق الرحالة فاسكود جاما (Vasco Da Gama) طريقه إلى الهند بمساعدة الرحالة الغربى ابن ماجير . وقد وصل إليها سنة ٩٠٣ هـ - ١٤٩٨ م . ولم تكن الدول الأوروبية الأخرى لتترك البرتغال تقوم بهذه المهمة وحدها بل أخذت روح التنافس تتراهم نتيجة قيام الدعوة القومية فى أوروبا من جهة ووقوف الأوربيين على ثروات أفريقيا النضيجة وطمعهم فى

توسيع نفوذهم فيها .

(١) G. Tr. Stride & C. Ifeka, Op.cit., P.176

(٢) Ibid

أوروبا كانت تتنافس على التوسيع فى أفريقيا .

وقد كانت أوروبا تتنافس على التوسيع فى أفريقيا .

وقد كانت أوروبا تتنافس على التوسيع فى أفريقيا .

وقد كانت أوروبا تتنافس على التوسيع فى أفريقيا .

وقد كانت أوروبا تتنافس على التوسيع فى أفريقيا .

استغلال خيرات أفريقيا الخضراء لصالحهم الذاتية من جهة أخرى وبذلك أخذت أفكار أوروبا تتجه نحو استثمار الأراضي المكتشفة من سواحل غرب أفريقيا إلى أقصى الجنوب ولسي طول الشواطئ الشرقية في المحيط الهندي وهكذا انتشرت في العالم الإسلامي جيوش الاستعمار ودعاة التبشير المسيحي .

يقول الشيخ محمد الغزالي : " الاستثمار أحقاد دينية وأطماع دينية وكل إلهاب يفتل هذه السوءات فهو من جطة أصباغ ود هون يجيدها ممثلوا الروايات في أدوارهم الضاحكة أو الباكية " (١) .

لقد اتضح خلال العرض التاريخي السابق أن الاستثمار الأوربي حقا أحقاد دينية " يريدون ليحفظوا نور الله بأفواههم " فتصدوا لصحابة الإسلام والمسلمين طوال تلك القرون الكثيرة الماضية فاندحرت القوى المسيحية في الممارك الفاصلة بين الحق والباطل، وانكسرت شوكة الكفر وظهر أمر الله . ومن هنا أدرك الاستثمار أن الثمن الذي كان يدفعه في تلك الممارك باهظ جدا لا يعادل الفوائد الباقية التي حصل عليها فاضطر إلى البحث عن وسائل أخرى في مكافحة هذا الدين وطك الأمة الإسلامية ، لابد من البحث عن سبيل الحظمة ومنايع العزة في الأمة الإسلامية وعن القوة الدافعة التي أخرجت العرب من جزيوتهم الجرداء القاحلة ثم جعلتهم سادة الأمم وقادة الشعوب حتى انقادت لهم الدنيا وكونوا من شعوب العالم كتلة إسلامية قوية عجزت القوى الأوروبية العظمى عن السيطرة عليها ثم أدرك الأوروبيون أن السر الأعظم وراء هذه القوى الهائلة هو الإسلام، ولن يكون تحطيم هذه القوة إلا بهدم ذلك الإسلام بإبعاد المسلمين عنه بكل الوسائل الممكنة ونشر المسيحية في المناطق الإسلامية .

(١) كتاب الاستثمار أحقاد وأطماع للشيخ محمد الغزالي ص ٢٤ .

وعند ذلك يضحك خاير المسلمين وتتفرق كلمتهم ويعود العرب إلى ما كانوا عليه في الجاهلية
أما وقبائل ضعيفة متناحرة، وتتمكن الدول الاستعمارية من السيطرة على العالم واستغلال
خيراته ماشاء لها الهوى والطمع .

(١)
" ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا " الآية . " ولن ترضى عنسك
(٢)
اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم " الآية .

وعلى هذا الأساس الواضح نستطيع أن نفهم حركة الغزو الصليبي الحديثة في العالم
الإسلامي عامة ، وفي أفريقيا بصفة خاصة . ومن هذه النقطة نبدأ حديثنا الفصل عن
الاستعمار والتبشير في نيجيريا .

(١) سورة البقرة (١٢٠)

(٢) سورة البقرة (٢١٧)

المبحث الأول

الاستعمار في نيجيريا والرحلات التجارية والاستكشافية والاحتلال البريطاني وأثره

الفصل الأول : دخول الاستعمار والرحلات التجارية والاستكشافية .

المبحث الأول : الرحلات التجارية .

المبحث الثاني : الرحلات الاستكشافية .

دخول الاستعمار إلى نيجيريا

كانت أفريقيا بلاداً مجهولة تماماً بالنسبة للأوروبيين قبل قيام الحملات الصليبية الحديثة التي قادها البرتغاليون في رحلاتهم المشهورة حول أفريقيا عبر الطريق البحري إلى الهند في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي . فتمتد هذه الفترة ببدأ الأوروبيون يتصرفون على المدن الواقعة على شواطئ المحيط الأطلسي ويقيمون معها علاقات تجارية . ولكن الأجزاء الداخلية من أفريقيا لم يكن لديهم عنها سوى معلومات قليلة لا قيمة لها في ميزان الحقيقة والواقع .

وعندما وقف الأوروبيون على خيرات أفريقيا وثرواتها الطبيعية الضخمة اشتد اهتمامهم بأمر هذه البلاد فقصدا واستغلالها واستعمار أهاليها لمصالحهم الذاتية .

ولو أننا تتبعنا الوقائع التاريخية للبحث عن الخفايا الكامنة وراء الغزو الأوروبي لوجدنا أن العوامل التي دفعت الأوروبيين إلى ذلك الاهتمام الكبير بالعالم الخارجي والعالم الإسلامي بصفة خاصة في القرون مابين القرن التاسع عشر والثالث عشر الهجريين (القرن الخامس عشر والتاسع عشر الميلادي) هي الحقن الصليبي المتأصل وروح الاستعمار ^{وحيث} الاستغلال . وقد ألقينا بعض الأضواء على هذه الحقيقة في التمهيد الثاني بالنسبة لدوافع الغزو الأوروبي للعالم الإسلامي وهنا نحن أولاء نقرر نفس الحقيقة بالنسبة لدوافع هذا الغزو لدولة نيجيريا .

يذكر المؤرخون الأوروبيون أن محاولة إقامة خطوط تجارية بين أوروبا وبين بلاد أفريقيا كانت أكبر ما دفع أوروبا إلى التوغل داخل أفريقيا . وأن أوروبا قد نظمت سلسلة من الرحلات الاستكشافية للتعرف على مجاهل هذه البلاد عندما تعرضت أفراد بعثاتها التجارية

للمصوبات والمعقات الكاداة التى حالت بينها وبين مطامعها كما أنها قد بحث الإرساليات التبشيرية لاصلاح الحياة الروحية بنشر المسيحية بين مختلف شعوب أفريقيا ومعاونة الشركات التجارية الأوربية فى تحقيق أهدافها . ويذكر هولاء المؤرخون أيضا النزاع المنيق الذى قام بين الشركات التجارية الأوربية حول تقسيم أفريقيا حتى أبرمت الاتفاقيات واتخذت القرارات فى مؤتمر برلين حيث تقررت فكرة الاحتلال والاستعمار بصفة رسمية . وإذا كنا ذكرنا وجهة نظرهم فلمس معنى ذلك أننا نؤمن بصحتها بل نحاول هنا أن نعلن الحقائق الكامنة وراء الأحداث التاريخية . فكم من حقيقة أهملتها كتب التاريخ أو أبرزتها فى غسيير صورتها الحقيقة إلا أن هولاء الكتاب الذين يصيغون الحقائق بالأباطيل عاجزون تماما عن إخفاء نتيجة مخططاتهم عندما تظهر للناس .

وإذا كان الكثير من الباحثين يقولون إن دخول الاستعمار الأوربي إلى نيجيريا كان عن طريق سمي أوربا الطامع التجارية وحب التعريف على مجاهلها باستكشاف الطرق البرية والبحرية داخل البلاد ومحاولة القضاء على تجارة الرقيق وعلى بعض العادات السيئة التى سادت المجتمعات الأفريقية فى ذلك الزمان وتسوية الأزمات السياسية القائمة فى مختلف مناطق البلاد .

فلا بد لنا إذا أن نقف قليلا عند هذا الكلام لنعرض تاريخ العلاقات التجارية بين أوربا وبين نيجيريا والرحلات الاستكشافية التى قامت بها أوربا إلى هذه البلاد لنكشف النقاب عن البواعث الحقيقية التى كانت وراء تلك الوسائل التى تفرعت بها أوربا إلى غزو ذلك الجزء الأكبر من نيجيريا أفريقيا

البحث الاول :الرحلات التجارية الأوربية فى وادى النيجر

لقد عرف الأوربيون قبل القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى أن العرب المسلمين فى شال أفريقيا كانوا يقيمون علاقات تجارية مع الزنوج فى جنوب الصحراء وأنهم قد استكشفوا الطرق البرية عبر الصحراء من بلاد المغرب إلى أقصى بلاد السودان الغربى وأنهم كانوا يشترون الذهب من هذه البلاد ويهيمونه فى أسواق أوربا. وفى أثناء رحلات الأوربيين المشهورة حول أفريقيا اعتزموا التعرف على أسواق الذهب فى بلاد السودان الغربى وإقامة علاقات تجارية معها حتى يتمكنوا من القضاء على التجارة التى يقوم بها العرب المسلمون منذ قرون طويلة عبر الصحراء وتحويل هذه التجارة عبر الطرق البحرية إلى أوربا مباشرة .

وقد انتهى البرتغاليون من استكشاف جميع المدن المطلة على شواطئ المحيط الأطلسى فى غرب أفريقيا سنة ٨٨٥هـ - ١٤٨٠م وعقدوا مع أهلها علاقات تجارية وكانوا يشترون الذهب من مدينة المينا (El-Mina) والفلل من مدينة بينين (Benin) وقد كان تجار البرتغال أول من دخل إلى نيجيريا من الأوربيين فى محاولة إقامة علاقات تجارية معها فى القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى حيث رست أول باخرة تجارية برتغالية فى لاجوس سنة ٨٨٧هـ - ١٤٨٢م وبعد ذلك قاموا برحلة ودية لزيارة مدينة بينين سنة ٨٩٠هـ ١٤٨٥م برئاسة البحار البرتغالى افونسو دافيرو (Afonso d'Aveiro) .

وكانت تجارة البرتغاليين فى هذه البلاد حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى مقصورة على الذهب والحاج والفلل وريش الطيور والجلود فى مقابل أدوات حربية وسلاح .

وفى أوائل القرن الحاشى الهجرى ^{السادس} عشر الميلادى ظهرت النخاسة على مسرح التجارة العالمية ، وأول من بدأ هذه التجارة هم البرتغاليون وكان سبب ظهور النخاسة أن الأوربيين

أكتشفوا أميركا في أواخر القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى وقضوا على الهنود
المرسكانها الأصليين وأصبحت المستعمرات الأسبانية فى أميركا — وهى الأرض الطيبة
الخصبة — خالية من السكان ، فلما أراد الأوروبيون أن يستغلوا خيراتها قصفوا أفريقيــــــــــــــــا
لشراء العبيد أو استرقاقهم ثم نقلوهم إلى تلك المستعمرات فى أميركا ليقيموا بأعمال شاقة
فى مزارع قصب السكر وفى المناجم . وكان الأوروبيون يشترون هؤلاء العبيد بأرخص الأثمان
أو يسترقونهم بأشنع الطرق ويعاملونهم معاملة حيوانية حتى كانوا ينقشون على جباههم
أو يعلمونهم بحديدة محمالة بالنار لمنع اختلاط بعضهم ببعض .

وقد بدأ التنافس الشديد بين الدول الأوروبية على تجارة الرقيق فى شواطئ غرب
أفريقيا حيث دخل الهولنديون والفرنسيون والبريطانيون فى حلبة الصراع مع البرتغاليين
منذ القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى إلا أن البرتغال كانت تسيطر تماما على
هذه التجارة حتى نهاية ذلك القرن . وقد استطاع الهولنديون أن يتغلبوا على البرتغاليين
ويحتفظوا بسيطرتهم الكاملة على تجارة الرقيق طوال القرن الحادى عشر الهجرى السابع
عشر الميلادى .

ولم تدخل بريطانيا فى تجارة الرقيق مع بلاد السودان الغربى حتى منتصف القرن
السادس عشر الميلادى حين رست (البواخرة التجارية لها فى مدينة بينن (Benin) بقبيلة
كابيتين ونيد هام رشارد سنة ٩٦٠ هـ ١٥٥٣ م ولكن الحطة فشلت فى مهمتها . وفى سنة
٩٦٥ هـ ١٥٥٨ م قامت بعثة تجارية بريطانية أخرى استطاعت أن تعقد معاهدات تجارية
مع الملوك والزعماء على طول شواطئ المحيط الأطلسى .

وفى القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى أصبحت تجارة الرقيق مصدر التنافس
الشديد بين الدول الأوروبية وأساس الحروب الكبيرة القائمة بينها على طول المحيط الأطلسى

وكانت القوات البحرية البريطانية في معارك متواصلة مع القوى العسكرية الفرنسية من أجل
تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي . وقبل نهاية النصف الأول من هذا القرن استطاعت
بريطانيا أن تتغلب على أطماع فرنسا وتحتل مركز الزعامة على جميع الدول الأوروبية فحسب
تجارة الرقيق .

إن النشاط التجاري الأوروبي في غرب أفريقيا منذ القرن التاسع الهجري الخامس
عشر الميلادي حتى القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي كان محصورا في المناطق
المطلية على الشواطئ فقط ولم تتمكن أوروبا من التوغل داخل البلاد بسبب ما وراء ذلك من
أخطار جسيمة وأضرار بالغة حيث إن المناخ الأفريقي لا يلائم مزاج الأوروبيين الذين ألفوا
السكنى في المناطق الباردة فوقعوا ضحايا الأمراض المهلكة كما أن الحكام والوكلاء المحليين
كانوا يرون مصلحتهم في منع الأوروبيين من التوغل داخل البلاد فأقاموا حواجز وعراقيل
لمنع وصولهم إلى الأسواق داخل البلاد ، لذلك راح كثير من المساعي والجهود المهدولة
من قبل الدول الأوروبية في هذا السبيل أدراج الرياح ولم يستطيعوا الدخول إلى البلاد
إلا بعد استكشاف الأجزاء الداخلية من أفريقيا قبل نهاية النصف الأول من القرن التاسع
عشر الميلادي وهي الفترة التي تعتبر بداية المرحلة الثانية في العلاقات التجارية الأوروبية
مع غرب أفريقيا .

وقد كانت بعض مدن نيجيريا الواقعة على شاطئ المحيط الأطلسي مثل مدينة لا جوس
وبداغري وبنين أهم أسواق النخاسة في غرب أفريقيا حتى اشتهرت بساحل العبيد .
إن تجارة الرقيق التي استمرت في شواطئ غرب أفريقيا لمدة تزيد على ثلاثمائة سنة
قد أدت في النهاية بهذه البلاد إلى تأخر وانحطاط وتعاसे . ويذكر المؤرخون أن مجموع
عدد العبيد الذين نقلوا إلى المستعمرات الأسبانية في أميركا خلال تلك الفترة يقدر بنحو
أربعين مليوناً .

ويجد ربنا أن نشير هنا إلى هذه التجارة كانت موضع رضا الكنائس المسيحية كلها حيث إنهم تمنع الناس منها وإنما كانت فوق ذلك تبررها بنصوص كثيرة من العهد القديم واعتبرتها وسيلة من وسائل الدعاية المسيحية لتنصير الوثنيين في أفريقيا .

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي قامت أفكار جديدة في الأوساط الأوروبية تحضت عنها الثورة الفرنسية وحركة دعاة الإنسانية (Humanitarians) والثورة الصناعية .

وقد قطعت الثورة الصناعية في بريطانيا أشراطا بعيدة خلال هذه الفترة وأصبحت بريطانيا تتطلع إلى العالم الخارجى بحثا عن المواد الأولية مثل زيت النخيل والقطن والماج وغيرها كما كانت تبحث عن الأسواق الجديدة لببيع منتجات مصانعها الجديدة في شتى ربوع العالم . ثم قامت حركة دعاة الإنسانية تطالب الحكومة البريطانية بإلغاء تجارة الرقيق وكان وليام ولبرفرس (William Wilberforce) مثل هذه الجمعية في البرلمان البريطانى . وقد استمرت جهوده في الدفاع عن هذه القضية في البرلمان نحو عشرين سنة قبل أن تنتصر القضية بكسب أصوات الأكثرية الساحقة من أعضاء البرلمان وكان يزعم دعاة الإنسانية أنهم يهدفون إلى انقاذ أفريقيا من العبودية وإلى القضاء على بعض الممارسات السيئة مثل قتل مجموعة كبيرة من العبيد والخدم عند موت سيدهم ليرافقوه في رحلته إلى عالم الأرواح وأنهم يهدفون أيضا إلى نشر المسيحية والحضارة الغربية بين أهالى أفريقيا .

ونتيجة لهاتين الثورتين : الثورة الصناعية وثورة دعاة الإنسانية وافقت الحكومة البريطانية على إلغاء تجارة الرقيق وأصدرت قرارا بهذا الشأن سنة ١٢٢٢ هـ ١٨٠٧ م . ولقد كانت حركة إلغاء تجارة الرقيق التى قامت فى بريطانيا فى هذه الفترة مصحوبة بالرغبة الشديدة فى استغلال الثروات الطبيعية فى أفريقيا وإيجار الأسواق الجديدة داخل القارة الأفريقية لببيع منتجات المصانع البريطانية وبذلك بدأت المرحلة الثانية فى علاقة أوروبا التجارية مع الدول الأفريقية .

ومنذ أواخر القرن الثاني عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى قامت حركة محاولسة
استكشاف داخل أفريقيا كمرحلة تمهيدية للاحتلال الأوروبى الذى جاء بعد الانتها منها
مباشرة فى بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى . وقد كانت فكرة إلغساء
تجارة الرقيق من بنات أفكار سيرتوماس فوويل بوكستن (Sir Thomas Fowell
Buxton) الذى
قال فى كتابه (تجارة الرقيق الأفريقية وعلاجها) : "إن الطريق الوحيد لانقاذ أفريقيا
من سوءات تجارة الرقيق هو إظهار الثروات الطبيعية الموجودة فيها وانقاذ أرواح هؤلاء
المبيد الذين سيحررون بسبب هذه المحاولة من رقعة المبودية . * (١)
لقد اتضحت فى هذه المرحلة الأخيرة رغبة بريطانيا الكبيرة فى احتلال هذه البلاد
واستغلال خيراتها فقد أرسلت قواتها البحرية إلى غرب أفريقيا وتمركزت فى مدينسة
فريتون (Freetown) ثم أسست بعد ذلك معسكرا كبيرا لجيوشها فى مدينة فيرندويو
(FernandoPo) سنة ١٢٤٤ هـ ١٨٢٨ م وكانت هذه الجيوش ترابط فى الأماكن الاستراتيجية
على المحيط الأطلسى لمنع وصول سفن تجار الرقيق الاسبانين إلى أسواق غرب أفريقيا .
وقد فرضت بريطانيا ضغطا دبلوماسيا على الدول الأوربية لحملها على إلغساء تجارة الرقيق
وذلك لأسباب سياسية ، لأن استمرار هذه التجارة بعد ضياع المستعمرات الأمريكيسة
من يدها سيكون أميرا من الحصول على مصالح اقتصادية كبيرة كما أن ذلك أيضا
سيحول دون نجاح التجارة الشرعية التى تمتزم بريطانيا أن تقوم بها تمهيدا لاستغلال
البلاد واحتلالها .
وهكذا بدأت بريطانيا التجارة "الشرعية" فى نيجيريا . وقد كانت هذه التجارة

(١) Sir. T.F. Buxton

The African Slave Trade and Its Remedy, London, 1839Also M.Crowder, The Story of Nigeria, London, 1973, P.140

فى أول الأمر فى أيدي شركاتها الوطنية ثم بعد الانتهاء من استكشاف مصب نهر النيجر فى المحيط الأطلسمى تولت الحكومة البريطانية الإشراف على أعمال هذه الشركات. وقد قاوم الحكام ^{والوكلاء} المحليون التجار البريطانيين فترة من الزمن إلا أن هؤلاء التجار قد استطاعوا أن يتغلبوا عليهم بسبب جهود المستكشفين والمبشرين وجيوش الاحتلال البريطانية.

ومنذ سنة ١٢٦٦هـ ١٨٤٩م كانت أطماع بريطانيا التجارية متجهة إلى منطقتين فى جنوب نيجيريا : أولاً مدينة لاجوس التى تعتبر المدخل الرئيسى إلى بلاد يوروبا الغنية بالشروات الطبيعية وثانيتها موانئ دلتا التى هى مدخل التجارة إلى شرق نيجيريا. وقد أخذت الحكومة البريطانية منذ هذه الفترة ترسل مندوبينها إلى هذه البلاد لتدعيم نشاطها التجارى وتمهيد الجولتقبل نفوذها السياسى فيها حيث عينت سنة ١٢٦٦هـ ١٨٤٩م جون بيكرت (John Beecroft) أول قنصل على منطقتى بيافرا وبرايتس بينين (Biafra, Brights of Benin) وقد استطاع هذا القنصل أن يضع الحجر الأساس للسياسة التى سارت عليها بريطانيا لاحتلال البلاد ، وكان يتمتع بنفوذ سياسى كبير منذ فترة تولية القنصلية وماخذ نفوذه من مناطق دلتا النيجر على طول الشواطئ حتى مدينة لاجوس وضواحيها . وكان يرى ضرورة تدخل بريطانيا فى شئون الحكومات المحلية لتوطيد دعائم الأطماع الأوربية فى هذه البلاد .

يقول ميكيل كرودار (Micheal Crowder) : " إن الانفتاح التدريجى لأبواب

مناطق نيجيريا للعلاقات التجارية المباشرة القائمة بين المنتجين الأفارقة والوكلاء الأوربيين ونتيجة انتهاء الاحتكار التجارى الذى كان الوكلاء المحليون وتجار ليفربول يمارسونه على طول شواطئ البحر الأطلسمى كان من شأنه أن يؤدى إلى قيام ازمت سياسية فى مناطق دلتا وفى هذه الاثنى

كان تفكير أكثر مندوبي الحكومة البريطانية في شواطئ غرب أفريقيا يتجه إلى أن التجارة مع أفريقيا لو أريد لها أن تأتي بالفوائد الجليلة المنشودة فلا يمكن أبعا أن تكون السلطة العليا على هذه البلاد في أيدي الحكام المحليين بأي حال من الأحوال بل يلزم أن تكون في يد الحكومة البريطانية^(١).

وقد أدى هذا التفكير بالقنصل بيكرت (Beecroft) إلى استعمال القوة لإسقاط سلطة الملك كوسوكو في مدينة لا جوس سنة ١٢٦٨ هـ ١٨٥١ م نتيجة ظهور حاجة بريطانيا إلى تأسيس مركز تجاري في المدينة لتنظيم شئونها التجارية داخل بلاد يوريا وكذلك الضغط الشديد الذي كان يمارسه الملك على المبشرين في مدينة أبيوكوتا (Abeokuta) المجاورة. ومنذ سنة ١٢٦٧ هـ ١٨٥٠ م على وجه التحديد كانت علاقة بريطانيا التجارية قسود قطعت أشواطاً بعيدة في التقدم والازدهار كما أن ملامح رغبة بريطانيا في احتلال جنوب نيجيريا أخذت تظهر بشكل واضح جداً. فمنذ هذه الفترة أصبح عدد الشركات التجارية التي تعمل في منطقة دلتا وعلى طول شواطئ نهر النيجر يقارب المائتين، كما أن الحكومة البريطانية قد حددت دائرة أعمال القنصل بيكرت (Beecroft) في منطقتي بوني وبرايتم ^{بها} بإفرا

(Bonny, Brights of Biafra) ثم عينت بنجمن كيمبل (Benjamin Campbell) قنصلاً دائماً على مدينة لا جوس سنة ١٢٧٠ هـ ١٨٥٣ م وقد وضع هذا القنصل قوة بحرية كبيرة على مقربة من المدينة ^{كان} يزعم أنها لحماية المدينة من هجومات الأعداء. وظل الأمر هكذا حتى تم احتلال المدينة سنة ١٢٧٨ هـ ١٨٦١ م وإعلان الحماية البريطانية على المناطق الواقعة على طول شواطئ نهر النيجر سنة ١٣٠٣ هـ ١٨٨٥ م على ما سنفضله عند الحديث عن

(١) M.Crowder, op. cit., Pp 150-151

احتلال بريطانيا لدولة نيجيريا .

ولم يصل النشاط التجارى الأوروبى إلى القسم الشمال من نيجيريا إلا عندما قامت شركة النيجر الملكية التى كانت تعمل على طول شواطئ نهر النيجر بحقد معاهدات تجارية مع مختلف مدن شمال نيجيريا منذ سنة ١٣٠١ هـ - ١٨٨٣ م حتى سنة ١٣١٤ هـ - ١٨٩٦ م . وقد فتحت هذه الشركة مراكز تجارية فى تلك المدن ووضعت قوات عسكرية فيها كانت تزعم أنها لحماية مراكز الشركة والمحافظة على الأمن فى الطرق التجارية البرية والبحرية . يقول س.ج. هوجين (S.J.Hogben) : " وفى سنة ١٣٠٤ هـ - ١٨٨٦ م منحت الحكومة البريطانية مدبر شركة النيجر الملكية سيرجورج جولد (George Goldie) الإجازة التجارية للقيام بجميع الشؤون التجارية فى نيجيريا وأعطتها حق وضع رسوم جمركية واستخدام القوات البريطانية المسلحة لحمل الناس على اتباع أوامرها^(١) . ويتضح لنا بهذا أن نطاق أعمال هذه الشركة لم تقتصر على حدود النشاط التجارى الضيقة وإنما امتدت آفاق المسؤولية إلى مدى بعيد حتى أصبحت الشركة حكومة تشرف على الحكم والتنظيم فى البلاد .

وقد لخص س.ج. هوجين (S.J. Hogben) أهداف هذه الشركة فى العبارة الآتية : " إن الهدف الأول لهذه الشركة هو خلق الأجواء المناسبة تمهيدا لإقامة الحكم البريطانى فى المنطقة ثم حمايتها من أخطار الدول الأوروبية الأخرى التى تحاول السيطرة عليها . والهدف الثانى هو حماية المراكز التجارية من هجوم الطوك المحليين والمحافظة على الأمن على طول الطرق التجارية فى البلاد^(٢) . وهكذا يروجون الادعاءات الكاذبة لتبرير حملاتهم العسكرية التى شنتها لاحتلال أراضي الآخرين ظلما وعدوانا .

(1) S.J. Hogben, An Introduction to the History of the Islamic States of Northern Nigeria, London, 1967, P.148

(2) Ibid, P. 148

المبحث الثاني :الرحلات الاستكشافية إلى وادي النيجر

كان الزحف الأوروبي لاستغلال أفريقيا يسير بصورة بطيئة جدا منذ القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي حتى منتصف القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي لأن معلومات الأوروبيين عن أفريقيا كانت قليلة حتى ذلك الوقت لذلك اكتفوا بممارسة أعمالهم التجارية على طول شواطئ المحيط الأطلسي ولم يوروا أنفسهم في محاولة التوغل داخل البلاد مخافة ما يترتب على ذلك من أضرار كبيرة وأخطار بالغة.

وتمتد فترة استكشاف داخل أفريقيا التي تقدر بنحو أربعين سنة منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي حتى سنة ١٢٤٦ هـ ١٨٣٠ م الحد الفاصل بين المرحلتين الأولى والثانية في علاقة أوروبا التجارية مع نيجيريا .

كان للحركة الشديدة التي هاج هائجها لإلغاء تجارة الرقيق صدى عميق في الأوساط الأوروبية إبان منتصف القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي حيث تمخضت عنها حركة حماسية أخرى تجسم مدى النتائج الكبيرة المترتبة على معرفة جغرافية أفريقيا لتوسيع نطاق الأعمال التجارية واستغلال خيرات هذه البلاد لمصالح الدول الأوروبية . لقد اجتمعت مجموعة من دهاة بريطانيا سنة ١٢٠٣ هـ ١٧٨٨ م لتأسيس الجمعية الأفريقية لتشجيع مشروع استكشاف المجهل الموجودة داخل أفريقيا . وقد تشكل أعضاؤها من مختلف طبقات المجتمع من بينها طبقة السياسيين والملأ وقادة الثورة الصناعية ودعاة الإنسانية ، وكانت كل طبقة تريد استغلال الجمعية للوصول إلى مصلحتها . لذلك أبرزت الجمعية هدفها بذلك العنوان الهادئ " مشروع دراسة جغرافية أفريقيا " لأنهم لا تؤمن بأن نجاح أعمالها في أفريقيا يتوقف على معرفة مجهل البلاد .

وتعتبر هذه الجمعية ظاهرة من الظواهر التي تكشف النقاب عن مكان ونواحيها
أوروبا السيئة تجاه الدول الأفريقية، وهي بداية الطريق لتطبيق تلك النظرية الخاطئة
التي جعلت أفريقيا في أنظار المفكرين الأوروبيين سمكة سمينة على وشك الوقوع في شباكهم
أطاع أوروبا المتضادة.

كان اهتمام الجمعية متمركزة بالأجزاء الداخلية في أفريقيا وعلى الأخص نهر النيجر
الكبير الذي يعتبر خط الاتصال بين غرب بلاد السودان الغربي وشرقها، وإن طول
هذا النهر من منبعه من سلسلة جبال دولة غينيا الحديثة إلى مصبه في المحيط الأطلسي
عند مدينة براس (Brass) في دولة نيجيريا "يقدر بألفي وستائة ميل"^(١)
وقد بحثت الجمعية عددا كبيرا من الرحالة المغامرين في فترات متتالية لمهمة
تحدد منبع ذلك النهر الكبير ومجرىه الطويل حتى مصبه في المحيط الأطلسي .

وكان ميجور هوغتون (Major Houghton) أول من أسهم في هذه المهمة سنة ١٢٠٦ هـ
١٢٩١ م إلا أنه ضاع في ظروف غريبة في غابات البلاد الكثيفة ولم يغثر له على أثره .
ثم جاء بعده دور الجراح الاسكتلندي الشاب مانجو بارك (Mungo Park) الذي نال
بسبب رحلاته العظيمة إلى غرب أفريقيا شهرة مستفيضة ومركزا مرموقا في تاريخ الاستكشافات
الأوروبية في أفريقيا بعد البطل ليفستون (Living Stone) وقد كلفت الجمعية مانجو بارك في
رحلته الأولى بمهمة تحديد مجرى ومصب نهر النيجر وجمع المعلومات عن الخصائص
المختلفة التي تسكن شواطئ هذا النهر. وقد تعرض مانجو بارك لأنواع من المشاكل الموهيصة
والمقبات الكاداة في رحلته الأولى. ١٢١٠ هـ ١٢٩٥ م حتى وصل إلى ذلك النهر الذي صرح
عند وصوله إليه أنه نهر عظيم يضاحك شمس الصباح ويضارع نهر التيمس (River Thames)
في السعة والعمق وهو الهدف الأسمى للجمعية الأفريقية^(٢).

(1) The Niger Journal of Richard & John Lander, ed. Robin Hallett, London, 1965, P. 1

(2) Travels of Mungo Park, ed. Ronald Miller, London, 1954, P. 149

ثم قدم تقريرا عن رحلته إلى الجمعية ذكر فيه أن نهر النيجر يجري في بطن* نحو الاتجاه الشرقى . وقد قوبل هذا النجاح بتقدير كبير من قبل الجمعية حيث أعلنت عن فتح باب التجارة داخل أفريقيا لجميع الدول الصناعية .

وبعد عشر سنوات قام منجوبارك برحلته الثانية لاستكشاف منفذ ذلك النهر إلى المحيط الأطلسي وقد نودى به عبقرية فذة في عالم الاستكشافات الأوروبية ، ومنذ هذه الفترة تولت الحكومة البريطانية الانفاق على هذا المشروع فوضعت أموالا طائلة تحت تصرف الجمعية الأفريقية لتنفيذها في إنجاز هذا المشروع الكبير . ثم خرج باريك في الرحلة الثانية على رأس بعثة تضم خمسة وأربعين أوربيا . وقبل أن يلتقى مع النيجر في مدينة بامكو (Bamako) مات أكثر مرافقيه ضحية الحمى (الملاريا) ثم أخذ يتابع سيره عن طريق قصبا نازلا مــــــع الصجرى في اتجاه الشرق حتى وصل إلى جنادل بوسا حيث قتل سنة ١٢٢٠ هـ - ١٨٠٥ م . وقد تمكن خادمه الأفريقى إيساكو (Issaco) من العودة إلى الشاطئ حيث بحث بتقريبــــــ الرحلة الذي كتبه سيده إلى الحكومة البريطانية عن طريق بعض بحارى السفن التجارية البريطانية .

وهناك ثلاث حملات أخرى وجهت إلى نهر النيجر بعد رحلة باريك الثانية كان بعضها من ناحية الشمال عن طريق الصحراء الكبرى واليمض الآخر من ناحية الجنوب عبر المحيط الأطلسي ومع نهر كنغوا ومن ناحية الغرب بواسطة الطريق البرى من غينيا ، ثم مع مجرى النيجر . ولكن جميع هذه الحملات فشلت حيث إنها لم تتمكن من الوصول إلى نهر النيجر . وفى سنة ١٢٣٨ هـ - ١٨٢٢ م قامت حملة أخرى إلى نهر النيجر وكان على رأس هــــــذه

الحملة الدكتور والتر أودنى (Dr. Walter Oudney) يرافقه دكسون دنهام (Major Denham) قائد عسكري فى الجيش البريطانى ، والقائد البحرى كلاپرتون (Captain Clapperton) فى القوات البحرية البريطانية .

وقد تقدمت الحملة من مدينة طرابلس إلى اتجاه الصحراء الكبرى حتى وصل القائد — كلابرتون ودنهام — بعد موت رئيس الحملة إلى تشاد، فاستكشفوا بحيرة تشاد (Lake Chad) التي تعتبر أكبر البحيرات وأعماقها في أفريقيا. ثم تقدم كل منهما إلى ناحية الجنوب حتى وصل دنهام (Denham) إلى ملكة بونو كما وصل كلابرتون (Clapperton) إلى مدينة سوكتو (عاصمة الإمبراطورية الفولانية) إلا أن موقف بريطانيا تجاه تجارة الرقيق في تلك الفترة قد جعل سلطان بلاد النوبة ومدينه ياورى (Yauri) يمنع القائد كلابرتون (Clapperton) من التقدم نحو المجرى السفلى للنيجر بحثا عن مصبه فمضوا سنتين من عودة القائد كلابرتون (Clapperton) إلى لندن قام برحلة أخرى، وقد نزل في مدينة بداغرى (Badagry) الواقعة على شاطئ المحيط الأطلسي، ثم تقدم إلى شمال نيجيريا عبر الطريق البري في غابات بلاد يوربا الكثيفة، إلا أنه مات في مدينة سوكتو (Sokoto) سنة ١٢٤٣ هـ ١٨٢٧ م، وقد تمكن خادمة ريتشارد لندار (Richard Lander) من العودة إلى لندن بعد تكبد عدة مصاعب ومشاق، وسلم تقرير الرحلة إلى سكرتير مكتب المستعمرات .

ثم بعد ذلك جاء دور ريتشارد لندار (Richard Lander) وهو خادم القائد كلابرتون (Clapperton). وتعتبر جهود ريتشارد لندار خاتما لجهود الأوربيين في استكشاف نهر النيجر بحيث أسفرت عنها نتائج سياسية واقتصادية مهمة المدى، كانت أوربا تهتد في سبيل تحقيقها مجهودات كبيرة منذ زمن بعيد . وقد استطاع ريتشارد لندار (Richard Lander) وأخوه جون (John) أن يكملوا تحديد مجرى نهر النيجر السفلى حتى مصبه في المحيط الأطلسي بعد رحلة دامت سبعة عشر شهرا منذ سنة ١٢٤٥ هـ ١٨٢٩ م. وقبيل انتهائها من هذه المهمة الكبيرة وقعا أسيرين في أيدي بعض أهالي بلاد أيبو (Ibo)

ولكن لحسن حظهما لم يقتلا وقد تم تسليمهما إلى كابتين توماس ليك (Thomas Lake) في مدينة براس (Brass) الواقعة على منفذ نهر النيجر إلى المحيط.

وقد أثبت الأخوان لنداب (Lander Brothers) أن نهر النيجر طريق بحرى واسع يربط أقصى غرب بلاد السودان الغربى بشرقها ، كما أثبتا أيضا إمكان استخدام هذا الطريق للسفن التجارية الضخمة لنقل التجارة إلى المناطق الداخلية فى غرب أفريقيا . وهكذا انتهت مشكلة النيجر بعد أربعين سنة كانت الحكومة البريطانية قد بذلت خلالها مجهودات كبيرة وتكبذت خسائر فادحة فى الأموال والأرواح فى سبيل حل تلك المشكلة المويضة .

وتجدر الإشارة إلى أن الجمعية الأفريقية لاستكشاف القارة قد غيرت اسمها على أثر الانتها من استكشاف نهر النيجر سنة ١٢٤٧ هـ ١٨٣١ م وأصبحت تعرف منذ ^{تلك} الفترة بالجمعية الملكية للعلوم الجغرافية .

ولم تضى فترة طويلة بعد الانتها من استكشاف نهر النيجر حتى أعترفت الدول الأوروبية الصناعية بهذا الطريق البحرى الجديد داخل غرب أفريقيا وقررت استتماله فى الشؤون التجارية ، فكثر بذلك الشركات التجارية على طول شواطئ وفطت البضائع الأوروبية . جميع الأسواق على نحو ما شرحناه فى المرحلة الثانية لملاقاة بريطانيا التجارية فى نيجيريا . كانت هذه الرحلات الاستكشافية إلى أفريقيا الداخلية ذات أهمية كبرى بالنسبة لمستقبل أوروبا وأفريقيا لأن أطماع الأوربيين التوسعية والاستغلالية كانت معلقة إلى حد كبير على نجاح هذه الرحلات . وقد سبق أن قلنا أن أوروبا ظلت تمارس نشاطها التجارى على طول شواطئ المحيط الأطلسى لمدة ثلاثمائة وخمسين سنة ولم تتمكن من التوغل داخل البلاد إلا بعد نجاح هذه الحركات الاستكشافية التى تعتبر كبرى الوسائل التمهيدية لاحتلال أوروبا للبلاد . وسنبين ذلك بالتفصيل فى الفصل الثانى عن احتلال بريطانيا لدولة نيجيريا إن شاء الله تعالى .

الفصل الثانى :

احتلال بريطانيا لنيجيريا وآثار غزوها الاستعماري وولايات نظام حكمها .

المبحث الأول : احتلال بريطانيا لنيجيريا .

المبحث الثانى : آثار الغزو الأوربي .

المبحث الثالث : ويلات نظام الحكم الاستعماري في هذه البلاد .

الفصل الثانى :

المبحث الاول : احتلال بريطانيا لنيجيريا

قدمت فى الفصل السابق حديثا مستفيضا عن اطوار اتصالات الأوربيين ببلاد السودان
 الغربى حيث حددت بداية المرحلة الأولى منها بالقرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى
 وقد امتدت هذه المرحلة إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى . وقد ازدهرت العلاقات
 التجارية الأوربية فى شواطئ بلاد السودان خلال هذه الفترة التى تقدر بنحو ثلاثمائة
 وخمسين سنة كانت النخاسة هى المادة الأساسية التى قام عليها نشاط الأوربيين الكبير
 طيلة هذه الفترة الطويلة ، وكان النشاط التجارى الأوربى فى هذه المرحلة مقصورا على
 سواحل المحيط الأطلسى حيث أخذت مختلف الدول الأوربية تتقاتل فى تنافس شديد من
 أجل الحصول على أعداد هائلة من العبيد فى أسواق بلاد السودان لأن تجارة الرقيق كانت
 تعتبر عاملا أساسيا لتنمية الحياة الاقتصادية لجميع الدول الأوربية فى ذلك الزمن .
 وبحلول منتصف القرن الثامن عشر الميلادى اندلعت نيران الثورات العنيفة فى أنحاء
 أوربا وأدت لسبب أو لآخر إلى محاولة القضاء على تجارة النخاسة وقيام مشروع دراسة
 جغرافية مجاهد أفريقيا تهيدا لغزو هذه البلاد واحتلالها واستغلال خيراتها وفرض
 سيطرة الأوربيين عليها . وقد قررت سابقا أن فترة الكشف الجغرافية لمجاهل أفريقيا والتى
 تقدر بأربعين سنة تعتبر الحد الفاصل بين الطورين الأول والثانى فى علاقات الأوربيين
 مع هذه البلاد كما تعتبر إلى حد كبير فترة تهديد لها أهميتها الكبرى بالنسبة للمستقبل
 الأوربى فيها . فإن الأوربيين الذين ظلوا طيلة ثلاثمائة وخمسين سنة يكتفون بممارسة
 علاقاتهم التجارية وجميع شئونهم مع بلاد السودان الغربى على طول شواطئ المحيط الأطلسى
 غير ممكنين من التوغل داخل هذه البلاد قد استطاعوا بعد الانتهاء من استكشاف نهج
 النيجر مباشرة أن يتوغلوا داخلها وفرضوا سيطرتهم على أهلها ردا غير يسير من الزمن
 ويأتى الطور الثانى فى اتصال الأوربيين بهذه البلاد على النحو الذى شرحته سابقا
 بعد الانتهاء من عملية استكشاف نهر النيجر سنة ١٢٤٦ هـ ١٨٣٠ م وقد أبدت الدول الأوربية

اهتماما كبيرا بالشئون التجارية ونشر المسيحية ومحاولة الإطاحة بالحكومات المحلية القائمة
وبسبب طموح كل دولة من الدول الأوروبية المستعمرة في استغلال خيرات هذه البلاد
خالصة من دون بقية أخواتها قامت روح التنافس الشديد في صفوف هذه الدول/ في نهاية ^{وأدت}
الأمر إلى نزاع كبير حول تقسيم بلدان أفريقيا بينها حتى اضطروا إلى عقد مؤتمرين دوليين
كان الأول في برلين والثاني في بروكسل لمحاولة إيجاد حل قاصد لذلك النزاع الخطير.
وفي أثناء هذه المرحلة الثانية من تاريخ الأوروبيين في بلاد السودان الغربي تم احتلالهم
لجميع مناطق هذه البلاد .

ولو ألقينا نظرة خاطفة على أساليب الدول الأوروبية المستعمرة وخططها في احتلال
مختلف بلدان أفريقيا لرأينا أن بعضها لا يختلف كثيرا عن البعض الآخر لأن أساسها
قائم على ركيعة المكر والخداع والبطش ، فالحقيقة أن الاختلاف فيها كان فقط في حسن
اختيار الخطة المناسبة لكل بلد ، الكفيلة باخضاع لسلطة المحتلين المتسلطين . وقد تنتهج
إحدى الدول الاستعمارية خطأ وأساليب متنوعة في احتلال مناطق مختلفة في البلد الواحد ؛
طبقا لما تطلبه الظروف القائمة فيها كما هو الحال في احتلال برية انيلا لنيجيريا .

ومنذ بداية المرحلة الثانية النشطة في تاريخ الأوروبيين في هذه البلاد ومع انفتاح ابواب
مناطق بلاد السودان أمام أطماع أوروبا التجارية والتوسعية وحقد ها الصليبي المريب
أخذ الأوروبيون يخلقون الأجواء الملائمة في شتى المجتمعات الأفريقية ويترقبون الظروف
المناسبة التي يمكن استغلالها لاحتلال هذه البلاد .

إن تقلبات الأمور والأحوال التي ظهرت في مختلف مناطق هذه البلاد في شتى
مبادئ الحياة منذ أن وطئت أقدام الأوروبيين أرض البلاد كانت تسير وفق المصالح الأوروبية
المختلفة بحيث صارت أفريقيا في أيدي الأوروبيين كالريش في الهواء لا إرادة لها ولا حرية
ولا اختيار . إنهم هم الذين أحدثوا تجارة الرقيق في شواطئ أفريقيا ومارسوها قرونا

وأول ما وجروا على الناس الأحرار وويلات وويلات ثم عادوا ينادون بالغاء النخاسة بعد أن سبب لهم العبيد المتاعب الجسيمة والمشاكل المويضة وأخذ الانحطاط الاقتصادي يدب في عروق الدول الأوروبية إلى أن قامت الثورة الصناعية باختراع الآلات وأصبحت حاجة أوروبا إلى غلات أفريقيا وحاصلاتها أكبر من مصلحتها في شراء العبيد وبمعهم ، فظهر ما أسموه بالتجارة الشرعية الحرة، هذا بالإضافة إلى أن وجود هؤلاء العبيد في بلادهم الأصلية ومنع خروجهم منها في صورة رقيق أصبح أكثر ربحا لأولئك الأوربيين الذين احتلوا البلاد لأنهم يقومون باستغلالهم في زراعة الأرض ونقل البضائع في داخل البلاد بأرخص الأثمان ويستولون على حصيلة جهودهم فكأنهم أبقوهم ليسترقوهم في الداخل بدلا من بيعهم رقيقا في الخارج متظاهرين في الوقت ذاته بأنهم ضد النخاسة ، وأنهم ينطلقون من مشاعر إنسانية رقيقة .

إن منافسة بعض الدول الأوروبية للبعض الآخر في وضع اليد على مناطق أفريقيا استعمارا واستغلالا قد أدت إلى قيام كل دولة بفرض حمايتها على منطقة نفوذها لدفع أخطار السلوك الأخرى المنافسة لها ، إنهم هم الذين صنعوا المشاكل والأخطار ثم راحوا بعد ذلك يدعون مسئولية حماية الناس منها . ليتهم لم يصنعوها حتى لا يحوجهم صنعها إلى تحصيل المسئولية ولا اتخاذ القرارات !

كان الأوربيون يتحينون الفرص المناسبة ويتربصون الأزمات الداخلية القائمة ليجوسسوا خلال الدمار ويففلوا ما يشاؤون ويضربوا الحابل بالنابل حتى تتضخم الأزمة ويتفاقم خطرها وتضطرب وسائل الأمن والاستقرار ثم يخرجوا من مخبئهم ومكنهم ليستغلوا تلك الظروف ويكملوا ما بقى من حلقات الخطط المدبرة للحصول على مآثمهم في هذه البلاد .

وقد أخذت عملية غزو بريطانيا لدولة نيجيريا صورة تدريجية كانت مدبنة لاجوس أول بقعة

من أرض البلاد تقع تحت نير الاستعمار البريطاني ثم جاءت بعدها مناطق جنوب البلاد — شرقيةا وغربيةا — وكان آخر ما وقع في هذا الطرزق مناطق شمال البلاد الفسيحة الأرجاء . لقد تمكنت بريطانيا في مدن نيجيريا الواقعة على شواطئ المحيط مثل مدينة لا جوس وبداغري وغيرها منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وبدأت نشاطها التجاري فيها على نطاق واسع وكانت جهودها تجاه إلغاء تجارة الرقيق آخذة في الازدياد يوما بعد يوم في صورة تدخل عسكري يدعو إلى القلق والخوف فقد أنشأت المعسكرات الحربية في أماكن كثيرة على طول الشواطئ وكانت تبحث الفرق العسكرية الجواله لحمل الحكام المحليين على تنفيذ قانون منع التماسه وعقد العلاقات التجارية معها .

ثم أخذت ترسل البعثات التجارية والرساليات التبشيرية إلى هذه البلاد منذ هذا التاريخ وبدأت تجارتها ومبشروها في التوغل داخل المناطق الحطلة على نهر النيجر فكثر شركاتها التجارية والرساليات التبشيرية من جميع الفرق المسيحية حتى اضطرت كما زعمت إلى تمهين مندوب لها كسفير مفاوض لإصلاح ذات بين التجار البريطانيين والحكام المحليين حول الشؤون التجارية . وعينت جون بيكرافت (Beecroft) سنة ١٢٦٦ هـ ١٨٤٩ م كأول مندوب لها في هذه المنطقة .

وسبب أن مدينة لا جوس كانت تتمتع بأهمية كبيرة باعتبارها المنفذ الوحيد إلى داخل مناطق بلاد يوربا الغنية بالثروات الطبيعية وعدم خضوع ملكها الملك كوسوكولما مع البريطانيين وممارسته الضغط الشديد على نشاط المبشرين في هذه المنطقة فقد انتهز المندوب البريطاني فرصة وقوع النزاع داخل الأسرة المالكة ليستغلها في صالحة للإطاحة بذلك الملك . وقد دأبت بريطانيا على إخفاء الحقيقة وتزوير الأباطيل لضمان نجاح خططها المدبرة ومؤامرتها المبيتة في وسع الظلام الحالك .

إن الملك كوسوكو (King Kosoko) المناوئ لبريطانيا لم يكن يقبل الخضوع المذل لمصالح الأوربيين على حساب بلاده المستقلة وقد لاحظ خطر أعمال المبشرين في مدنية أبيوكوتا (Abeokuta) المجاورة فضغط عليهم ضغطا شديدا حتى باءت جهودهم بالفشل واضطروا إلى رفع الشكوى إلى المكتب البريطاني للشئون الخارجية فأصدر المكتب أوامره إلى المندوب البريطاني باتخاذ موقف حاسم نحو مشكلة هذا الملك .

وقد وجد المندوب البريطاني والمبشرون ما أرادوه في شخصية الملك أكيويي (Akitoye) المنازع للملك كوسوكو فوقفوا إلى جانبه فادعوا أنه محب للسلام ومعاد للاسترقاق ووضعوا القوة البحرية البريطانية في خدمته فاستطاع أن يتغلب على عدوه وأعطى عرش المدنية سنة ١٢٦٨ هـ ١٨٥١ م .

إن كل ما أرادته بريطانيا من وراء هذه العملية هو التخلص من خطر الملك كوسوكو بأي وسيلة لأنه وقف ضد مصالحها في هذه البلاد .

وماذا ياترى يكون موقف هذا الملك الجديد من الحكومة البريطانية وقد رأينا أنه لستم يتمكن من تحقيق النصر على عدوه إلا بسبب جهود القوة البحرية البريطانية ولم يتمكن ملكا على المدينة بعد المعركة إلا على يد المندوب البريطاني ؟ فهل تكون للملك الجديد إرادة مستقلة وسلطة فعالة ؟ لقد رأينا الملك يوقع على معاهدة مع بريطانيا على أثر توليه منصب الحكم تقضى بمنح بريطانيا حق إقامة علاقة تجارية مع بلاده وضمان المحافظة على مصالحها فيها وحماية المبشرين ومناصرتهم ووقف التجارة في الرقيق وقبول تعيين نائب القنصل في المدينة لضمان تنفيذ فترات المماهة ثم بعد هذا وضع القنصل البريطاني قوة بحرية في المدينة فذكر أن مهمتها حفظ الأمن ودفع أخطار الملك المغلوع . ولما تزايدت أطماع بريطانيا في خيرات هذه البلاد اقترح القنصل برند (Brand) على وزارة الخارجية البريطانية ضرورة فرض

حمايتها على المدينة "وآدعت الوزارة أنها لم تكن لتوافق على هذا الاقتراح لولا خوفهم
من خطر غزو فرنسا التي تحاول أن تسبقها إلى احتلال المدينة ^{بواسطة الوافدين} الملك دوسومو

(1) (King

Docemo)

هذا ما قالته الوزارة البريطانية ولكننا عرفنا ملامح استعداد بريطانيا لاحتلال المدينة

منذ أمد بعيد .

وقد ازداد ذلك وضوحاً عندما وصلت الفرقة العسكرية البريطانية إلى المدينة
لاجوس . فقد ذكرت أنها جاءت لتدريب أهالي منطقة أيبا (Egba) على الفنون
العسكرية الحديثة للدفاع المدني ، ولكن تحويل مهمة هذه القوة ^{العسكرية} إلى حراسة القنصل
البريطاني في لاجوس دليل على أن بريطانيا كانت تتأهب لإعلان سيطرتها على المدينة
فاعتمدت على هذه القوات لتحقيق هذا الهدف . ولم تمر فترة طويلة حتى أصدرت وزارة
الخارجية البريطانية أوامرها إلى القنصل باحتلال المدينة تحت هذه الادعاءات الكاذبة
التي تقول بأن احتلال المدينة لاجوس كان لحماية سكانها الأحرار من أخطار تجار النخاسة
والمختطفين الذين كانوا يهبطون عليهم منذ زمن بعيد ، وتنمية النشاط التجاري الذي بدأ
يزدهر في بلادهم واستخدام السلاحة على القبائل المجاورة مما سيكون ذا فائدة كبيرة
— كما يتوقع — للجنس الأفريقي في المستقبل . (2)

وفي سنة ١٢٧٨ هـ ١٨٦١ م أرغمت السلطة البريطانية الملك دوسومو (King Docemo)

على تسليم سلطة المدينة إلى القائم بأعمال القنصلية البريطانية مكوسكر (Mckoskry) مقابل راتب
تقاعدي قدره ألف وثلاثون جنيهًا يتقاضاه كل سنة .

(1) Michael Crowder, The Story of Nigeria, London, 1973, P.168

(2) Cited in Michael Crowder, op.cit., P.169

وقد أطلق على هذه المنطقة منذ هذا التاريخ مستعمرة لاجوس البريطانية وعين هنرى ستنهوب فريمن (Henry S. Freeman) حاكما على المدينة .

وبذلك بدأ عهد جديد فى تاريخ علاقة بريطانيا بهذا الجزء من سواحل المحيط الأطلسى وهكذا نرى كيف استطاعت بريطانيا أن تستغل حركة " دعاة الإنسانية " (١) التى قامت على إلغاء النخاسة وفتح أبواب التجارة " الشرعية الحرة " لتحقيق أطماعها التوسعية معتمدة على ما تتذرع به من ضرورة تقدم النشاط التجارى وتنميته فى المدينة وضمان وصوله إلى المناطق الداخلية لتحقيق وسائل الأمن والرخاء الاقتصادى فى ربوع البلاد .

أما بالنسبة لمناطق نيجيريا^{الشرقية} فقد أخذت تزدهر فيها الملاقة التجارية البريطانية حيث انتشرت فيها الشركات وكان التجار البريطانيون يتمتعون بنفوذ كبير حتى استطاعوا بفضل مساعدة التجار المحليين أن ينشئوا محاكم العدل البريطانية فى المدن الهامة فى هذه المنطقة سنة ١٢٧١ هـ ١٨٥٤ م التى كانت مهمتها النظر فى الشئون التجارية ووضع القوانين والأنظمة المتبعة فيها وحمل الناس على اتباعها .

وكان الضعف التدريجى الذى أخذ يسرى فى نفوذ الحكومة المركزية القائمة فى منطقة بونى (Bonny) الشرقية فى عهد الملك وليام بيول الخامس (King William Pepple) الذى كان وثيقا وتنصر على أيدي الإنجليز ، هو الذى شجع هؤلاء التجار البريطانيين على إنشاء مثل هذه المحاكم . وهناك دلائل كثيرة تشير إلى أن بريطانيا كانت راغبة فى استعمال القوة لدعم نشاطها التجارى وضمان تقدمه كما فعلت فى مستعمرة لاجوس بسبب ما كان يعانيه التجار البريطانيون من الضغط الشديد من جانب الملك بيول الخامس (King Pepple) الذى كان يأبى الخضوع لمطامع بريطانيا فى استغلال غيرات بلاده .

(١) أشرنا فيما سبق إلى ما تخفيه هذه الحركة من أطماع تتستر وراءها بدعوى الإنسانية .

ولما استفحل خطر هذا الملك على هؤلاء التجار البريطانيين استنجدوا بالمندوب بيقرفت (Beecroft) الذى كان يتولى رئاسة محاكم العدل البريطانية، وقد قام المندوب باستمهال القوة لنفى هذا الملك من البلاد ثم عقد مع الأمراء على عدم تدخلهم فى الشؤون التجارية اعتباراً بالأزمة التى أدت إلى سقوط ملكهم الأول . ولم تثنى فترة طويلة حتى اضطر المندوب إلى إعادة هذا الملك من منفاه ليمتولى زمام الأمر مرة أخرى وذلك بسبب اضطراب وسائل الأمن وعدم الاستقرار فى المنطقة . ومع هذا فقد ظهرت سيادة حكم محكمة العدل البريطانية وأصبحت المنطقة فى نظر بريطانيا مستعمرة منذ هذا التاريخ ولكن القائم بأعمال القنصلية البريطانية لنسلاغار (Lynslager) كان يخادع أهالى المنطقة ويقول لهم فى أثناء قيام هذه الأزمة السياسية : إن الأوربيين لا يملك أى حق مشروع فى التدخل فى شئون هذه البلاد لأنه رجل أجنبى فى هذه المنطقة . وكذلك فعلت بريطانيا عندما دمرت جيوشها مدينة كلابار القديمة (Old Calabar) سنة ١٢٧٣ هـ ١٨٥٦ م ولغقت ضدها كذبا وبهتاناً تهمة ^{الإصرار} على ارتكاب جرائم قتل الجنس البشرى لتقديم ضحايا بشرية فى المناسبات والأعياد التقليدية ولكن مبشرى الكنيسة الاسكتلندية الذين كانوا يعملون فى هذه المدينة احتجوا على هذا العمل الشنيع وقالوا إن الهدف من تدمير هذه المدينة لم يكن سوى إظهار القوة الكبيرة التى تتمتع بها القنصلية البريطانية مع أنه لا يوجد لها فيها مركز تجارى حتى ترهب المدن الأخرى التى ترغب فى إخضاعها لنفوذها التجارى . وقد صرح قائد الحملة الإنكليزية بعد تدمير مدينة أونتشا (Onitsha) بهدف حكومته من هذه العملية حيث قال : " سيكون لنجاح حملتنا فى تدمير مدينة أونتشا الأثر البالغ فى إخضاع المناطق المحيطة على شواطئ نهر النيجر فى المستقبل القريب "، وقد وفد عليها المبشرون والتجار جميعاً لتقديم شكرهم الكبير ^(١) لما حققته هذه الحملة من نجاح كبير له أبعاده الكبيرة فى المستقبل . وإذا رأينا ما كان من تدخل القنصلية البريطانية فى شئون الحكم فى مدينة لاغوس ومنطقة بونسى (Bonny) و كلابار القديمة (Calabar) وفى جميع مناطق نيجيريا على ما سنشرحه فيما بعد

(١) Cited in JC. Anene, Southern Nigeria in Transition Cambridge, 1966, P.41

ما كان يقول

فلا يخدمنا القنصل البريطاني في تحديد مناهج سياسته في البلاد بأن مهمة القنصل في هذه البلاد ^{هي أن} يتولى شئون رعاية الحكومة البريطانية في هذه البلاد من التجار والمبشرين وإقامة الحكم بينهم وتسوية ما قد يحدث من نزاع بينهم وبين شعوب البلاد التي يقطنونها والعمل على تقدم شئونهم التجارية وأعمالهم التبشيرية والمحافظة على ممتلكات التجار وليس له حق التدخل في شئون البلاد الخاصة بأي حال من الأحوال لئلا يضره رجل أجنبي في هذه المنطقة وقد كانت جهود الشركات التجارية كبيرة في مختلف مناطق جنوب نيجيريا وكان لها مركز تجاري في كل مدينة في منطقة أنهار الزيت (Oil Rivers) وكانت منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي حتى سنة ١٣٠٨ هـ ١٨٩٠ م تعقد المعاهدات مع ملوك هذه المناطق لحمايتهم من خطر الغزو الأجنبي وقد اشتهرت هذه المعاهدات عند المؤرخين بمعاهدات الحماية على الأوراق " Paper Protectorate " لعدم فاعليتها وقلة أهميتها في الأوساط المحلية . ولما طلب الملك جاجا ملك منطقة أبوبو في جنوب نيجيريا (King Jaja of Opobo) من المندوب البريطاني هيوت (Hewett) شرح كلمة الحماية التي فرضت على بلاده قال المندوب : (إن ملكة بريطانيا لم تكن راغبة إطلاقاً في احتلال بلادك ولا احتلال ما فيها من الأسواق ولكنها في نفس الوقت تكون قلقة بالأن ترى دولة أخرى تحتلها لذلك تحملت مسؤولية بسط يدها رعايتها وحمايتها على بلادك لتضمن بقائها تحت سلطتك إلى الأبد) (١) ولكن تفسير نائب القنصل جنستون (H.H. Johnson) كان صريحاً واضحاً جداً حيث قال : (إن نظام الحماية البريطانية كان مبدئياً لهدف فرنسا وألمانيا عن حلبة النزاع من أجل التوسع الإقليمي في هذه البلاد حتى تستطيع بريطانيا التوغل داخل البلاد متى ما ساحت لها الفرصة) (٢)

كانت مصالح بريطانيا التوسعية والتجارية والصليبية فوق كل الاعتبارات في تلك المعاهدات ولهذا فإن أي ملك يعمل ضد هذه المصالح أو يحول بين بريطانيا وبين نيل مطالبها سيكون

(١) J.C.Aneme, op.cit., P.33

(٢) Ibid., P. 66

(٣) Ibid., P.82

عرضة لضیاع الحكم من یده واحتلال بريطانيا لبلاده حتى ولو كان يحكم بلاده بالعدل واستتب الأمن والاستقرار فی عهده وازدهرت فيه ^{مرافق} الحیاة .

وقد كان نفی الطك جاجا ملك منطقة ابوبو والملك نانا ملك منطقة نهر بنين من بلاد هـما قائما على هذا الأساس . لهذا قال أنینی (Anene) فی كتابه " جنوب نیجیریا فی مرحلة الانتقال " : " ولذا كانت هناك حالة تدور خطیرة فی استقرار الأمن الداخلى فی كثیر من الحكومات المحلیة على طول شواطئ نیجیریا فإن القنصل البريطانى والتجار البريطانیین قد ساءوا كثیرا فی تلك الأزمة القائمة ولم یكن نفی الطك جاجا والملك نانا من بلاد هـما بسبب عدم قدرتهما على إقرار الأمن وإقامة الحكم العادل على رعاياهما فی بلاد هـما وإنما كان بسبب عدم خضوعهما لمصالح بريطانيا فی هذه البلاد ^(١) " . ویقول أحد الوكلاء البريطانیین فی رسالة تحت عنوان " سوءولیاتنا تجاه الشعوب الأفریقیة " : " وقد ظلم التجار البريطانیون هذه الشعوب ودمر القواد البريطانیون معظم بلاد هـم ولم تجد هذه الشعوب من الحكم البريطانى إلا فائدة قليلة جدا ^(٢) " .

وقد ظلت شذرن منطقة شرق نیجیریا تتقلب فی أیدی التجار البريطانیین واستفاض فیها نفوذهم السیاسى حتى اضطرت الحكومة البریطانیة إلى منحهم الإجازة الملكية لتولى شئون الحكم فیها سنة ١٣٠٤ هـ ١٨٨٦ م بعد مؤتمر برلین .

ولما تضایق أهالى البلاد من معاملات رؤساء الشركات وظلمهم للناس باستعمال المنسف لتحقيق مصالحهم الذاتية، بمث الطوك وفودا إلى مكتب المستعمرات بلندن لتقديم الاحتجاج ضد هؤلاء التجار . وقد أرسل المكتب لجنة التحقيق وكانت النتيجة اقتراح اللجنة على الحكومة تولى زمام الحكم فی هذه البلاد (تحقيقا للمعدالة ودفعاً للجور والظلم عن هذه الشعوب) ووافقت الحكومة البریطانیة على هذا الاقتراح وأنشأت حكومة منظمة فی هذه المناطق عام ١٣٠٩ هـ ١٨٩١ م وأطلقت علیها محمية أنهار الزيت البریطانیة - (British Oil Rivers Protectorate)

(١) J.C.Anene, op.cit., P.108

(٢) F.O.84/1882, Memo on the British Protectorate of the Oil Rivers 24 July, 1888, cited in J.C.Anene op.cit., P.113

وعينت رئيس تلك اللجنة ميچور كلود ماك ونالد (Major C. Macdonald) القنصل
البريدانى الأعلى على هذه المناطق . وقد صرح القنصل اثر وصوله البلاد أنه سينتـهـج
نظام الحكم غير المباشر وهو حكم الإدارة الاستعمارية على بلد ما بواسطة القوانين المحلية
الموجودة وهكذا تم احتلال بريطانيا لجنوب نيجيريا .

كان للمؤتمرين الدوليين المعقودين فى برلين وبروكسل أهمية كبيرة بالنسبة لتاريخ
احتلال الأوربيين لبلدان غرب أفريقيا فى القرن التاسع عشر الميلادى حيث جمعت
مؤتمر برلين/١٣٠٢-١٣٠٣ هـ ١٨٨٤م-١٨٨٥م بداية مرحلة الأعمال الجديدة ونقطة تحول
خطيرة فى علاقة الأوربيين مع هذه البلاد ، كما أن مؤتمر بروكسل سنة ١٣٠٧ هـ ١٣٠٨ هـ
١٨٨٩م-١٨٩٠م هو الذى اعتمد استعمال القوة العسكرية للاطاحة بجميع الحكومات
المحلية القائمة فى غرب أفريقيا .

وقد أدى التنافس الشديد بين الدول الاستعمارية حول اقتسام أفريقيا الغربية
واحتكار بعض شركات هذه الدول للتجارة المحلية على طول مناطق جنوب نيجيريا بمنع حرية
الملاحة على نهر النيجر ، إلى مضادة بعض هذه الدول للبعض الآخر . وظلت هذه المداو
تهدد الأمن الأوروبى فترة من الزمن . وإن أسباب قيام هذين المؤتمرين والظروف المحيطة
بهما ، والحقيقة الكامنة وراء هذه الأسباب وظلك الظروف ، وما أدى إليه هذان المؤتمران من
نتائج وما حققاه من أهداف ، كانت كافية لإبطال ما تدعيه الدول الأوربية من أن أعمالها
فى هذه البلاد كانت بدوافع روح الانسانية ونشر الحضارة الغربية والديانة المسيحية ورفع
المستوى الاقتصادى لمصلحة الشعوب الأفريقية .

وإن الظروف القاسية التى واجهت بريطانيا قبل مؤتمر برلين بسبب منافسة فرنسا
وألمانيا فى شواطئ غرب أفريقيا وعلى طول مناطق نهر النيجر ، هى التى أدت بتجار
بريطانيا إلى اتخاذ قرار عقد المباحثات مع الحكام المحليين لإثبات صحة دغواها فى
شرعية قيام نفوذها السياسى والتجارى فى هذه المناطق على الصعيد الدولى .

وقد إتفقت الدول الأوربية المستعمرة فى هذا المؤتمر على حرية التنقل لجميع رعاياها

داخل أفريقيا وحرية الملاحة على نهر النيجر وفتح أبواب أفريقيا لدخول " الحضارة الأوروبية " التي هي في حقيقتها الاستعمار والتبشير المسيحي الفاسد العقيدة ، وبذلك يمكن القول " على أخطار النخاسة فيها على حد زعمهم وقد تحددت قواعد الاستعمار الجديد بقرار المؤتمر الذي ينص على أن من حق أية دولة أوروبية مستقرة على شاطئ أي بلد من غرب أفريقيا أن تطالب بالأراضي الممتدة داخل ذلك البلد . وأن أي احتلال أوروبي لبلدان غرب أفريقيا لا يصير نافذاً إلا بإبلاغ الدول الأعضاء الموقعة على الاتفاقية . وبهذا توطدت نظرية منطقة النفوذ .

وتجدر الإشارة إلى أنه لا يمكن الاعتداد على كل ما ذكره الكتاب البريطانيون والبيغوات الأفرقة عن أسباب وأهداف ونتائج هذين المؤتمرين لأن رواياتهم كانت بعيدة عن الحقيقة ومخالفة لما هو واقع الأمر لأنهم كانوا يتكلمون بالسنة خاصة اصطالحوا عليها لها ممان باطنية مضرة وأخرى ظاهرة مع أن كلا المعاني الظاهرة والمضرة لا ترمز إلى الحقائق إلا من زوايا بعيدة وبواسطة تلمس القرائن وبناء النتائج على المقدمات .

ولست أرغب في مناقشة كل ما قيل عن هذين المؤتمرين . ولكن عندما نرى الكتاب يذكر أن الهدف من مؤتمر بروكسل هو تقرير واجبات الدول الأوروبية نحو الشعوب الأفريقية . فهل هم صادقون في هذا ؟ إنهم صادقون إن كان مرادهم بتلك الواجبات هو ما شهدته السنوات التي تلت هذا المؤتمر من استعمال القوة العسكرية لاحتلال جميع مناطق هذه البلاد .

ومنذ سقوط مدينة لا جوس تحت الاحتلال البريطاني حتى ثمانينات القرن التاسع عشر الميلادي لم تستطيع بريطانيا التوغل داخل بلاد يوريا - غرب نيجيريا - بسبب الحروب الأهلية القائمة منذ بداية ذلك القرن نتيجة سقوط مملكة أويو " (Oyo Empire) تحت زحف الجهاد الإسلامي الذي قام في شمال نيجيريا . وقد أدى سقوط هذه المملكة إلى تفكك عناصر القوة فيها وتنازع زعمائها وضعف سلطة الملك في حفظ الأمن والاستقرار في أنحاء المملكة .

كانت هذه الحروب عقبة كاداً في وجه أطماع بريطانيا في هذه البلاد . ولأن محاولات بريطانيا الأولية من أجل تسوية الخلافات القائمة بين زعماء بلاد يوريا قد باءت بالفشل الذريع * وقد اقتنع مندوبو بريطانيا بناء على تجاربهم وخبراتهم في السنوات ما بين سنة ١٢٦٧هـ وبين ١٢٨٢هـ بـ ١٨٥٠م / ١٨٦٥م في محاولة حل الأزمة القائمة فـسـى بلاد يوريا أن الضرورة القصوى توحى باحتلال بريطانيا لهذه البلاد من أجل فتح أبوابها للتجارة الحرة، وإن أي بديل لهذا الحل النهائي فهو خلية بالفشل * .^(١)

يقول صاحب كتاب مملكة أويو الحديثة : " إن قيام النفوذ البريطاني واتساعه فـسـى بلاد يوريا كان بسبب جهود الجمعيات التبشيرية، فهي التي ربطت عجلة ملوك بلاد يوريا بقاطرة الحكومة البريطانية الاستعمارية * .^(٢)

وقد بدأ مجموعة من المبشرين بتنظيم حركة تحت زعامة القسيس أبراهام فاشينا فوستنار (Rev. A. F. Foster) طالب الطك ألان (Alafin^{King}) ملك بلاد يوريا بالمبادرة إلى طلب مساعدة الحكومة البريطانية في مستعمرة لاجوس لإنهاء الحالة المتدهورة بسبب الحروب الأهلية القائمة في البلاد . وقد لعب هؤلاء المبشرون أدواراً هامة في تثبيت أقدام الاحتلال البريطاني في أيدي ملوك هذه البلاد .

وتجدر الإشارة إلى أن غزو القوى الأوروبية لمناطق بلاد غرب أفريقيا كان يسير سرياً على إحدى هذه الطرق الثلاثة :

الطريقة الأولى :- هي أن تستقر شركة تجارية لبعض الدول الأوروبية في مكان ما لمزاولة أعمالها التجارية ثم بعد فترة وجيزة تستغل الأوضاع والظروف القائمة لتملن سيادة حكم دولتها على تلك المنطقة .

الطريقة الثانية :- أن تنشئ إحدى الدول الأوروبية قنصلية لها في بعض المناطق الأفريقية لحقد المعاهدات مع الملوك لوقف تجارة الرقيق وإنشاء التجارة الحرة . وقد احتلت الدول

(١) M. Crowder., op. cit., P. 171-172

(٢) J. A. Atanda., The New Oyo Empire, London, 1973, P. 45

الأوربية مناطق واسعة في أفريقيا ممتدة على هذه المصاهدات التي لا أهمية لكثير منها في الحقيقة وواقع الأمر.

الثالثة :- أن تستعمل هذه الدول القوة العسكرية للإطاحة ببعض الحكومات القائمة. وقد تمكنت من إحراز انتصارات كبيرة بسبب خيراتها العسكرية الفائقة وما تملكه من الأسلحة النارية الحديثة.

ويلاحظ أن بريطانيا لم تستعمل واحدة من هذه الطرق الثلاثة المشهورة وإنما اعتمدت في سيطرتها على مناطق بلاد يوريا على تلك المصاهدات المعقودة بينها وبين ملك بلاد يوريا في السنوات ما بين ١٣٠٤هـ - سنة ١٣١١هـ (١٨٨٦م) وسنة ١٨٩٣م) لصاولة إنهاء الحروب الأهلية القائمة في أنحاء هذه البلاد ولكن الحاكم البريغاني على مستعمرة لاجوس* كان يصرح في هذه الأثناء بعدم رغبة حكومته في نزاع الحاكمية المحلي من يد الملك ألافن (King /Alafin) ملك بلاد يوريا وعدم رغبتها كذلك في اختلال أي جزء من هذه البلاد الواسعة. (١) ونورد فيما يلي أهم فقرات معاهدة سنة ١٣٠٦هـ - ١٨٨٨م

الفقرة الأولى :- أتعهد أنا الملك ألافن ملك بلاد يوريا بإعطاء الرعايا البريطانيين الحرية الكاملة في إقامة علاقات تجارية مع جميع البلاد الناطقة بلغة يوريا تشمل جميع البضائع التي يرضون في بيعها وشراؤها فيها، كما أتعهد بعدم إعطاء مثل هذه الفرصة أو منحها لغير المبال للتجار الآخرين غير البريطانيين.

الفقرة الثانية :- سأتولى حسب استطاعتي إنشاء أهواقي جديدة لتقدم النشاط التجاري كما أتعهد بتأمين جميع طرق المواصلات في ربوع المملكة حتى نهر النيجر شرقاً وشمالاً وإلى اتجاه شواطئ المحيط الأطلسي جنوباً.

الفقرة الثالثة :- وقد وافقت على عدم التخلي عن أية منطقة من بلاد يوريا أو عقد أية معاهدة مع إحدى الدول الأوربية الصناعية بعد التي تمت مع بريطانيا بدون إخطار الحاكم البريطاني على مستعمرة لاجوس بذلك وأخذ موافقته ورضاه مدة وجود الحماية البريطانية على تلك المستعمرة.

الفقرة الرابعة :- وفي حالة التزامى بكل الفقرات الواردة في هذه المعاهدة بإغلاقه فإن الحكومة البريطانية في لا جوس ستقدم لى هدية سنوية قدرها مائتا كيس من الودعة^(١) كما أنها لا تجد بدا من إلغاء هذه الهدية واسترجاع ما قد استوفيت سابقا في حالة إغلاقه بأى فقرة من الفقرات أو حسب ما يراه الحاكم مناسبا . (٢)

ولم تكن الحكومة البريطانية لتكتفى بمعاهدة سنة ١٣٠٤ هـ ١٨٨٦م الخاصة بإنهاء الحروب الأهلية ولا بمعاهدة سنة ١٣٠٦ هـ ١٨٨٨م بخصوص قبول ملوك هذه البلاد إقامة علاقات تجارية معها بل حدا بها الطمع الشديد إلى التدخل الحقيقى فى شئون الحكم وقد أخذت تتدرج فى تنفيذ مخططاتها الاحتلالية طبق دراسة عميقة الجذور حيث انتقلت من دور الوساطة بين الأطراف المتنازعة إلى فرض المعاهدة التجارية على الملوك ثم فى النهاية إلى الاحتلال والاستعمار الذى ظهر جليا فى معاهدة سنة ١٣١١ هـ ١٨٩٣م التى ننقل منها هذه الفقرات المهمة .

الفقرة الأولى :- أنا الموقع أدناه الملك ألفن ملك بلاد يوريا أتعهد بقبول سيادة حكم القانون فى هذه البلاد بين الرعايا البريطانيين وبين رعايا بلاد يوريا ، كما أتعهد بقبول رفع أى خلاف أو نزاع يقوم بيننا وبين رعايا بريطانيا إلى الحاكم البريطانى على مستمرة لا جوس الذى يكون حكمه حاسما لا يمكن معارضته بأى حال من الأحوال .

الفقرة الثانية :- ولن للرعايا البريطانيين الإذن الكامل لدخول جميع بلاد يوريا كما يكون لهم الحق فى بناء الدور وحيازة الممتلكات طبقا للقوانين المتبعة فى هذه البلاد كما ستكون لهم الحرية التامة فى الصناعة والقيام بشئونهم التجارية على الأسس التى سيقرها الحاكم البريطانى فى لا جوس .

الفقرة الثالثة :- وأتعهد بكفالة الحماية الكاملة وتقديم المساعدات والتشجيعات اللازمة لجميع الإرساليات التبشيرية فى هذه البلاد .

(١) الودعة : صدقة صفراء أو بيضاء تستخدم كعملة فى بعض بلدان أفريقيا قديما .

(2) Samuel Johnson., The History of the Yorubas, Great Britain, 1973, P.574-575

منه J.A Atanda, op.cit., P.302

الفقرة الرابعة : ... وقد وافقت على تعيين حكيم من الطرفين الموقعين على هذه المعاهدة عند حدوث أى نزاع بينهما يكون أحدهما من قبل الحاكم البريطانى على مستمرة لاجبوس والآخر من قبل الملك ألان ملك بلاد يوريا لإجراء التحقيق وإصدار الحكم المادل للفصل فى ذلك النزاع . وفى حالة اختلاف وجهة نظر الحكيم وعدم اتفاقهما على حكم، يرد الأمر إلى الحاكم البريطانى على لاجبوس وسيكون حكمه فى المسألة حاسما لا يمكن الاعتراض عليه البتة^(١) . وقد أصبحت بلاد يوريا مستعمرة بريطانية بموجب هذه المعاهدة الأخيرة لذلك عينت الحكومة البريطانية كابتين بووير (Capt. R. Bower) مندوبا ووزيرا متجولا فى هذه البلاد سنة ١٣١١ هـ ١٨٩٣ م وأنشأت معسكرا لقواتها المسلحة فى مدينة إبادان، الأمر الذى يشكل خطرا بالغاً يهدد كيان السلطة فى المملكة بأسرها .

وقد كان الملك ألان ملك بلاد يوريا يعتبر الحكام البريطانيين حتى سنة ١٣١٢ هـ ١٨٩٤ م وسطاء بين الزعماء المتنازعين، وفى الوقت نفسه مساعدين له فى إقرار الأمن فى بلاده، وكان يعتمد فى ذلك كله على تأكيداتهم له بأن حكومتهم ليست راغبة فى التدخل فى شئون البلاد الخاصة ولا هى راغبة كذلك فى التوسع الإقليمى فى بلدان غرب أفريقيا .

ولما قامت أزمة سياسية خطيرة فى مدينى أوكيهو (Okeiho) وإسمن (Iseyin) تقدم المندوب البريطانى بووير (Power) لمساعدة الملك ألان فى حل الأزمة وإعادة الأمور إلى مجاريها الطبيعية، ولكن الحقيقة أنه كان يريد أن ينتهز الفرصة لتأسيس النفوذ البريطانى فى هذه المنطقة مما أدى إلى قيام نزاع عنيف بينه وبين الملك الذى رفض الاستسلام لإرادة المندوب التى تهدف إلى تقرير سيادة حكمه وسيطرة حكومته على هذه البلاد . وقد رأى المندوب أنه لا يمكن أن يقر للحكومة البريطانية قرار فى بلاد يوريا إلا بمعد الإلحاح بحكم ذلك الملك الذى كان يتمتع بنفوذ سياسى كبير رغم ما أحدثته الحروب الأهلية

(1) Rev. S. Johnson, op.cit., P.652-654

J.A. Atanda, op.cit., P.304-305

من الوهن والضعف في سلطته الفعلية على بعض مناطق المملكة ، إذ كان قد أخذ يستعيد هذه السلطة بعد الحرب بحيث لو ترك شأنه لفترة يسيرة لاستحال على بريطانيا التغلب عليه سياسيا وعسكريا . وعندما رفض الملك أن يكون لبريطانيا حق التدخل في شئون بلاده الخاصة وامتنع عن الاستسلام للارادة البريطانية التي تقضى بتجريدته عن السلطة العليا في البلاد قرر المندوب البريطاني تدوير عاصمة المملكة . وقد أوعز بذلك إلى المبشرين القاطنين في العاصمة وحذروهم عن الخروج من مراكزهم حيث يكون لهم الأمن والأمان .

وقد تم تدوير عاصمة سنة ١٣١٣ هـ ١٨٩٥ م حيث جعلت مدافع جيوش الاحتلال البريطاني عاليها سافلها ولم تبق شيئا قائما على وجه أرض المدينة غير الأطلال التي أكلها لهيب الملقات النارية العنيفة . وقد اضطر الملك إلى الاستسلام والخضوع للسلطة البريطانية وقتله المندوب بووير (Bower) زمام أمور البلاد وأعطاه شارة الحكم ثم عين على المدينة مندوبا بريطانيا. وقد استفاد الحكم البريطاني في بلاد يوريا بعد سقوط عاصمة المملكة وباتت هذه البلاد جنات دانية القطوف لأطماع المستعمرين ومرتميا غصبا للإرساليات التبشيرية تكالبت جيوشها عليها وأحاطت بها تقاتل دونها لأنها تدافع عن حق موروث كابر عن كابر .

أما في شمال نيجيريا فقد كانت تقوم حكومة إسلامية قوية منذ فترة قيام الجهاد الاسلامي الكبير الذي قاده الشيخ عثمان بن فوديو. وقد تكونت هذه الدولة الإسلامية الفتية من عدة إمارات كان على رأسها "أمير المؤمنين" ومقره مدينة سوكونو عاصمة الدولة . وكانت تربط هذه الإمارات بعضها مع بعض روابط روحية ومصالح مشتركة بحيث تعتبر كل إمارة جزءا من الأمة الإسلامية الواحدة . ولقد كانت أبواب شمال نيجيريا مغلقة تماما أمام أطماع الأوربيين بحيث لم يستطع تجار الدول الأوروبية التوغل داخل مناطق هذه البلاد حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي عندما بدأوا محاولاتهم الأولية في عقد المعاهدات التجارية مع مختلف إمارات هذه المنطقة ، ودامت هذه الملاقة التجارية فترة يسيرة من الزمن. وكانت شركة النيجر الملكية منذ أن حصلت على الإجازة الملكية البريطانية هي التي تتولى الشؤون التجارية في هذه البلاد وأصبحت نائبة عن الحكومة البريطانية تتمتع بامتيازات كبيرة جعلتها حكومة ذات سلطة

ونفوذ في بعض مدن إمارة الجزء الجنوبي من شمال نيجيريا . ولعل عدم نجاح هــ هذه الشركة في جميع محاولاتها الأولية طيلة خمس عشرة سنة على رغم فتحها المراكز التجارية في أنحاء المناطق الجنوبية هو ما جعلها تفكر في احتلال هذه البلاد التي استحصت على أنعامها وخيبت جميع آمالها ومقاصدها الاستغلالية .

ولم تكن معسكرات القوات البريطانية على طول الطريق البحري على نهر النيجر ورافده نهر البنوي حتى المحيط الأطلسي لتشكل خطرا مباشرا على هذه الأملاك الإسلامية القائمة في شمال نيجيريا ، وذلك لكونها خارج مناطقها ، ولأن البريطانيين كانوا منذ فترة طويلة يتظاهرون للحكام والأمراء بالحب والمودة بحيث لا يتوقع أي خطر من جانبهم . ولكننا مع هذا لم نقل بمدى شعور هذه الإمارات بملاح الخطر المحدق بها وتلك الألغام المزروعة حولها ، فإن ملاح خطر الاحتلال البريطاني لهذه البلاد كانت واضحة كل الوضوح . ومن ذا الذي لا يلحس الخطر ولا يتوقع السوء في سياسة بريطانيا في إنشاء القوات العسكرية في مراكزها التجارية في المدن الهامة وتعيينها الضباط البريطانيين مندوبين لها على هذه المراكز ، ثم إنشاء كتائب عسكرية خاصة لمهمة المحافظة على حدودها ومناطق نفوذها في غرب أفريقيا ، واستعمالها القوة لإخضاع مد يتي بيـد (Bida) وإلورن (Ilorin) عندما رفضتا إقامة علاقة تجارية معها ، وهما من مدن إمارة المنطقة الجنوبية من شمال نيجيريا ؟

ومع أن شركة النيجر الملكية لم تتمكن من تحقيق مطامع بريطانيا التوسعية خلال هــ هذه الفترة فقد كان منتشرا في الأوساط الأوروبية أنها تلك السيطرة الكاملة على دولة ^{شمال} نيجيريا الإسلامية . ويدل على ذلك تعيين الحكومة البريطانية لورد لوفارد (Lord Lugard) حاكما بريطانيا أعلى على هذه المناطق سنة ١٣١٧ هـ ١٨٩٩ م بعد إعلان إلغاء الإجازة الممنوحة لتلك الشركة ونقل مسؤولية إدارة شؤون هذه المناطق إلى الحكومة البريطانية مباشرة . ومنذ هذه الفترة قررت الحكومة البريطانية استعمال القوة العسكرية لاحتلال شمال نيجيريا لأن أمير المؤمنين ومعه أمراء جميع المناطق الشطالية قد رفضوا التماسـ

محميا إلا على الأسس التي تكفل لهم سلطتهم العليا ، وتجعل بريطانيا الطرف الأدنى الذي لا يملك من الأمر شيئا سوى ما تطلبه القيادة المحلية .

لقد بدأ الحاكم لورد لوفارد (Lord Lugard) بمشروع وسائل الاتصال التلغرافية بين المدن الهامة داخل مستعمرات بريطانيا الجديدة حتى يتمكن من طلب الاستدادات العسكرية أثناء الحرب مع الإمارات الشمالية ، ثم بعد ذلك بإنشاء قوة عسكرية كبيرة للمحافظة على مناطق نفوذ بريطانيا وحدودها في غرب أفريقيا .

وبعد هذه الأعمال التمهيدية أعلن الحاكم البريطاني الأعلى سيرفردريك لوفارد (Sir Fred. Lugard) عام ١٣١٨ هـ ١٩٠٠ م فرض الحماية البريطانية على شمال نيجيريا ثم قال : " إن الحكومة البريطانية قد جعلت هذه البلاد تحت حماية شركة النيجر الملكية منذ زمن بعيد ، ولكن حرصا منها في دفع أخطار الدول الأجنبية عن هذه البلاد وخاصة دولة فرنسا ، فقد قررت بريطانيا تغيير أسلوب توكيل الشركة بهذه المهمة إلى أسلوب آخر أكثر فعالية وذلك بجعل هذه البلاد تحت حماية مكتب المستعمرات ^(١) وقد تضمن التصريح الذي أدلى به هذا الحاكم عن تغيير جهاز الحكم في البلاد نقطة مهمة تجدر الإشارة إليها وهي ما ذكر من " أن شركة النيجر الملكية قد حكمت إمارات مناطق الشمال الجنوبي وأن هذا التفسير كان بسبب

استعمال القوة والمنف ^(٢) لفرض سيطرتها على الحكومات الأفريقية .

ويرد صاحب كتاب " السلطة والدبلوماسية في شمال نيجيريا " (Power & Dipl. in Northern Nigeria) على هذا الافتراء المتعمد بقوله : " والحقيقة أن هذه الشركة لم تحكم أي جزء من أجزاء الدولة الإسلامية الواسعة في شمال البلاد حتى وقت صدور إعلان الحاكم البريطاني لوفارد حتى يمكن أن يقال إنها استعملت القوة والمنف في إخضاع ذلك الجزء ما يكون سببا في انتزاع مسؤولية الحكم من يدها وردها إلى الحكومة البريطانية التي عينت الحاكم لوفارد

(١) S.J. Hogbenop.cit.,P.66

(٢) R.A.Adeleye, Power and Diplomacy in Northern Nigeria, London, 1971, P.221

فليس لكلا الداعية والمدعى عليها أى حق ثابت في اعتبار أمير المؤمنين ولا في اعتبار جميع أمراء المناطق حتى يمكن أن يتناقل هذا الحق من إحداها إلى الأخرى^(١) وقد اتبعت حكومة لوفارد خطة الاحتلال التدريجي في غزو الدولة الإسلامية في شمال نيجيريا وكان هدفها الأكبر هو السيطرة على مدينة سوكونو مركز قوة الدولة ولكن ذلك كان يبدو شيئا مستحيلا إذا لم يتم فصل إمارات هذه الدولة بعضها عن البعض الآخر ومحاولة القضاء على كل إمارة على حدة.

ولقد بدأت جيوش الاحتلال البريطاني بإمارات الشمال الجنوبي المتاخمة لمستعمرات جنوب نيجيريا وكانت بواعث غزوها لهذه المناطق مرتكزة على بعض اتهامات طفقة ضد أمراء هذه البلاد بأنهم يستعملون الضغط الشديد على رعائهم ويقومون بالفارات على القرى المجاورة لجمع العبيد . وتجدر الإشارة إلى أن الحاكم البريطاني كان يتظاهرها بالحب وروح التعاون لأmir المؤمنين أثناء احتلاله لإمارات الشمال الجنوبي وكان يبعث إليه الرسائل يشرح فيها افتراءها وكذا ما عمله على غزو هذه المناطق من جور الحكام وظلمهم لرعاياهم ويطلب منه تعيين أمراء آخرين في هذه المدن المحتلة .

وبعد سقوط إمارات الشمال الجنوبي تحت وطأة جيوش الاحتلال البريطاني واصلت هذه الجيوش زحفها وداهمت حصون إمارات الشمال الشرقي القوية وقد استولت عليها بمساعدة معارك دامية استخدمت فيها جميع الوسائل الحربية الحديثة ، وكانت كلما سيطرت على إمارة أو مقاطعة تركت فيها فصيلة من جيوشها لمنع وصول الامدادات المتوقعة من بقية الامارات إليها ومنع محاولة انضمام جيوش المدن المحتلة إلى جيوش إمارات الأخرى التي تسقط بعد تحت سيادة الحكومة البريطانية ولم يبق أمام بريطانيا بعد هذا إلا أن تتقدم خدوات بيسسيرة نحو قلب المناطق الشمالية مدينة زاريا (Zaria) التي تعتبر موقعا استراتيجيا خطيرا ونقطة الانطلاق إلى إمارات الشمال الأقصى التي فيها العاصمة مقر القيادة الروحية والسياسية لحكومة شمال نيجيريا الإسلامية . وهكذا شنت جيوش بريطانيا هجوما مريرا على هذه الإمارة ودارت الفتنة معارك عنيفة وقد ضربت جيوش المسلمين أروع أمثلة فشلت

(١) R.A.Adeleye, op.cit., P.221

الدمود والتضحية والنضال رغم تفوق جيوش بريطانيا عليها عدة وخبرة في الفنون العسكرية الحديثة . ولكن الأسلحة النارية الحديثة التي تمتلكها جيوش بريطانيا قد جعلت موقف جيوش المسلمين في هذه الحرب كموقف من ألقى بنفسه في خطوط النار وسط المعركة وليس معه سلاح .

ثم بعد سقوط مدينة سوكونتو عاصمة دولة شمال نيجيريا الإسلامية ألقى الحاكم البريطاني كلمة في هذه المناسبة على كبار المسؤولين ووجهاء المدينة حدد فيها مسؤولية السلطان الجديد ودائرة أفعاله في المدينة ثم دعا السلطان وجميع العاطلين معه وكافة رعاياه إلى تعلم أساليب الحياة البريطانية كما أعلن أن البريطانيين سيتعلمون أساليب حياتهم وقوانينهم المحلية .

وقد أشار الحاكم لوغارد إلى زوال الدولة الإسلامية في هذه البلاد عندما قال قسبي غطابه الثاني في مدينة سوكونتو في عام ١٣٢١ هـ ١٩٠٣ م

" لقد سيطر الفلانينيون بقيادة عثمان بن فودي على هذه البلاد منذ زمن بعيد فاستولوا بذلك على زمام الأمور في حكم هذه البلاد ووضع الضرائب وتمييز الأمراء وخلع الآخرين .

وقد ضاعت هذه السلطة من أيديهم اليوم بسبب هزيمتهم النكراء أمام جيوش بريطانيا فانتقلت السلطة المحلية بذلك إلى يد الحكومة البريطانية وكل ما ذكرت أن الفلانينيين كانوا يقومون به بسبب استيلائهم على هذه البلاد قد أصبح اليوم من حق الحكومة البريطانية : (١)

وهكذا تم احتلال بريطانيا لجميع مناطق نيجيريا من شواطئ المحيط إلى المناطق الداخلية في جنوب البلاد وحتى أقصى الشمال الذي يعتبر مريض الإسلام وموطن العلماء المجاهدين الذين رفعوا راية الاسلام خفاقة في سماء البلاد ورفعوا فيها مشاعل النور لهداية الناس إلى صراط المستقيم فأبى الأوربيون الحاققون إلا أن يحاولوا إطفاء نور الله بأفواههم ومثلت لهم الخبيثة ومكروا ومكر الله فقد تكفل الله بحفظ دينه واتمام نوره ولو كره الكافرون .

(١) R.A.Adeleye, op.cit., P.289

المبحث الثاني آثار الفزو الأوربي في نيجيريا

لقد ظهرت آثار الفزو الأوربي من ناحيتين أساسيتين أولاً تتعلق بأطماع أوربا الدنيوية من حيث الاستعمار والاستغلال وثانيتهما تتعلق بأحقادها الدينية من حيث محاربة الاسلام ومحاولة محوه من الوجود أو تجريد أهله منه عن طريق نشر المسيحية المنحرفة والثقافة الغربية . فقد ظهرت آثار هذين الدافعين دافع الأطماع الدنيوية ودافع الأحقاد الدينية منذ قيام الحكم البريطاني في هذه البلاد في شتى مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والثقافية . وسنؤجل الحديث عن آثار هـذا الفزو الأجنبي من الناحية الدينية إلى المبحث الأخير بالحركات التبشيرية ونشاط المبشرين في هذه البلاد .

في ناحية الاستعمار والاستغلال

كان هؤلاء المستعمرون مقتنعين اقتناعاً بالفا بأن أسلوب حياتهم ود يائتهم أعلى وأسمى من جميع أساليب الحياة وجميع الأديان الموجودة في العالم كله لذلك رأيناهم الاستعمار منذ سقوط مدينة لا جوس تحت وطأة أقدامه سنة ١٢٧٨ هـ ١٨٦١ م لا يدعهم وسعاً في محاولة فرض أساليبهم الخاصة في السياسة والحكم والاقتصاد والحياة الاجتماعية على هذه البلاد وإحلالها محل جميع القيم والثل القائمة ونشر المسيحية المنحرفة في ربوع هذه البلاد على أنقاض الاسلام والأديان التقليدية الموجودة . وتعتبر السنوات ما بين سنة ١٣٢٤ هـ سنة ١٣٣١ هـ ١٩٠٦ م وسنة ١٩١٢ م التي سبقت فترة قيام الحاكم البريطاني لوفارد بصهر المحمية الجنوبية والمحمية الشمالية في بوتقة الوحدة الوطنية .. تعتبر فترة عصيبة في تاريخ نيجيريا حيث شهدت هذه الفترة بداية السلاة الفعلية للفرقة كما شهدت بداية محاولة محو القيم والتقاليد القائمة منذ أقدم العصور والتي لم تتعرض قبل لمبحث الفرقة المتسلطين .

لقد كان حكم الاستعمار على هذه البلاد قائما على مذهب السلطان المطلق الذي كان يتمتع في ظله مكتب المستعمرات البريطانية بالسلطة العليا في تعيين الحكام البريطانيين لتولى زمام أمور البلاد وأصبح الملوك المحليون عملاء يحكمون رعاياهم تحت رقابة السلطة البريطانية ووفق إرادتها لا يملكون من الأمر شيئا . وأننى للطير المقصوص الجناحين أن يطير؟ وهذا النوع من الحكم هو ما أسماه الحاكم البريطاني لوفارد بالحكم غير المباشر . ولا ينطبق هذه التسمية على مدلولها إلا من حيث المظاهر الخارجية والهيئة الشكلية وأما من حيث المعنى والحقيقة فهو الحكم المباشر بعينه .

ولهذا فإن ما ذكرته الحكومة البريطانية من أسباب انتهابها طريقة الحكم غير المباشر في هذه البلاد يعود إلى هذه الهيئة المعينة التي هي المظاهر الخارجية والهيئة الشكلية . وكان هدفها في ذلك تفادي حصول الصدام بين السلطة الاستعمارية وبين السلطة المحلية القائمة في تلك الفترة المبكرة من أيام حكمها في هذه البلاد .

قال المندوب البريطاني مكفرغور (Macgregor) : "وليس من المعقول أن تحمل سلطة ما محل سلطة هؤلاء الملوك ، فأى محاولة لإحداث مثل هذا التغيير الجذرى ستقلب الأمور علينا رأسا على عقب وتعمق صفو الأمن الداخلى الذى يسود البلاد وتشتت الطبقة المحلية الحاكمة مما يؤدى حتما إلى مشاكل متعددة . وإذا أردنا أن تكون لنا حكومة مستقرة في هذه البلاد فتمتد تكاليف شئونها الإدارية على الموارد المحلية فيلزمنا استخدام سلطة الملوك المحليين في الشؤون الداخلية" . (١)

إن أول خطوة اتخذتها الحكومة البريطانية نحو تطبيق سياسة الحكم غير المباشر هى تشكيل عدة مجالس محلية للملوك في المدن الرئيسية برئاسة مندوبينها وحكامها على المقاطعات . وتعتبر هذه المجالس المحلية رابطة تربط عجلة مختلف المجتمعات المحلية

(1) J.A.Atanda, The New Oyo Empire, London, 1973, P.94

مع قاطرة الحكام البريطانيين على المناطق والمقاطعات بحيث أصبحت تلك المجالس أداة طيعة تستخدمها بريطانيا في هدم السياسة المحلية وتغيير الحالة الاقتصادية والحياة الاجتماعية في البلاد .

وقد كانت سياسة الاستعمار في مبدأ الأمر مبنية على منح السلطة الفعلية تدريجياً لهذه المجالس في مجال السياسة والقضاء وغير ذلك من القضايا المهمة في شئون الحكم، ونتيجة لذلك قام النظام الاستبدادي البريطاني حيث وضعت الحكومة البريطانية أيد يدها على القضايا الكبرى وتركت المسائل الصغرى في أيدي الطوك والأمراء مع أنها لم تلتزم بالحيل على غاربه حتى في تلك المسائل الصغرى وإنما جعلت الحكم فيها تحت مراقبة نواب حاكمها الأعلى في كل مقاطعة أو مديرية . ولم يكن مجلس الطوك والأمراء ينظر إلا في الأحوال الشخصية وبعض المعاملات وخلافات البيوع والعقارات وجميع الضرائب المفروضة على الأهالي . وللحاكم البريطاني الأعلى مجلس إداري برياسته يتكون أعضاؤه من الأوربيين في أول الأمر حتى فترة قيام الحركة الوطنية التي نادى بتأسيس هيئة تشريعية وإشراك الأفارقة فيها وفي المجلس الإداري الأعلى حيث وافق الحاكم الأعلى على تعيين نسبة قليلة جداً من الأفارقة في هذا المجلس وكان هذا المجلس ينظر في سياسة الدولة والشئون القضائية والأعمال الإدارية وشئون الصحة والمواصلات والمعارف والجيش ، وليس لهذا المجلس حق النظر في الشئون التشريعية وصرف الأموال وإنما يجوز له إبداء الرأي فقط وللحاكم سلطة مطلقة لرفض رأي المجلس أو قبوله .

لقد استخدمت بريطانيا نظام تأسيس المجالس المحلية والمجلس الإداري الأعلى لتحطيم السلطة الفعلية للحكومة المحلية كما وضعت المحاكم المحلية النظامية لتحديد دائمة اختصاصات المحاكم الشرعية في شمال البلاد وتحطيم سلطة الطوك المحليين القضائية

في جنوب البلاد . وقد رأينا كيف تدرجت بريطانيا في مخططاتها حتى تم لها انستزاع السلطان من أيدي السلطات المحلية وجعله لنفسها غالبا من دون أهلها الشرعيين .

قال الحاكم البريطاني الأعلى سير لوفارد (Sir.F.Lugard) في تقريره الذي نشر سنة ١٣٣٩ هـ ١٩٢٠ م عن توحيد الإقليم الشمالي والجنوبي تحت وحدة وطنية في ظل الحكم البريطاني : " كانت طريقة الإدارة المحلية في حكومة شمال نيجيريا مبنية على سلطة الأمراء المحليين ، وإن سياسة الحكومة البريطانية في ذلك هي أن يتولى هؤلاء الأمراء زمام الحكم على رعاياهم ولكن لا على طريقة الحكام المستقلين وإنما على طريقة المملا والأجرا المعتمدين على سلطة الحكومة البريطانية (اعتماد الملوك الذي هو ك على مولاة) والحكومة البريطانية لا تجعل هؤلاء الأمراء وسطاء في نقل أوامرها إلى الشعب ولكن ستصدر هذه الأوامر مباشرة من قبل هؤلاء الأمراء وإن كانت حقيقة الأمر خلاصة ما يتلقونه من الإرشادات والتوجيهات من جانب المندوب البريطاني . "

" وبينما يكون توجيه هؤلاء الحكام المحليين في شئون السياسة والأمر الهامة عن طريق الحكومة يكون ضبط شئون الشعب بواسطة الأمراء على نهج سياسة الحكومة الاستعمارية . إن الموظفين السياسيين يعتبر إصدار الأوامر منه مباشرة إلى كل فرد من أفراد الشعب أو حتى إلى رئيس قرية أمرا غير مناسب . كما أن القائد العسكري العام الذي يشرف على فرقة من الجيش سيجد من غير الملائم أن تصدر الأوامر منه مباشرة إلى الجندي الفرد إلا عن طريق رؤساء الشعب وقواد الوحدات . "

" وتستعمل القوانين المحلية في جميع المحاكم ولكن نظام هذه المحاكم في المقوسات لا تطابق القوانين الجنائية المعروفة . ولكن مع ذلك يجب ألا تكون القوانين المحلية مضادة لأوامر الحكومة التي يجب تنفيذها حرفيا في كل مكان في هذه البلاد . كما يجب أن تكون

المحاكم تحت رقابة دقيقة من جانب حكام المقاطعات البريطانيين والقوانين والتعليمات المتبعة في تلك المحاكم ليست مبنية على أسس القوانين البريطانية ولكن مع ذلك إذا ظهرت في صياغتها عيوب ونقائص فستكون عرضة للتعديل والتنقيح وإعادة التنسيق .

" ويحبس سجناءهم في سجنهم الخاص الذي يكون تحت رقابة ضابط بريطاني وتجمع الضرائب من السكان باسم المحاكم المحلي وبواسطة وكلائه ولكنه يسلم مقداراً معيناً إلى الحكومة ويخضع حق إنفاق القسم المخصص للإدارة المحلية الذي تصرف منه رواتب الموظفين المحليين لتوجيه المندوب البريطاني والسلطة المطلقة من قبل الحكومة الاستعمارية . فإن دور المندوب البريطاني في هذا الشأن كدور المستشار اليقظ لاكدور الحاكم المتطفل ولكنه سيفار على حقوق الفلاحين ويدفع عنهم الظلم والجور". (١)

لا أريد أن أناقش كل ماورد في هذا التقرير الطويل وإنما أريد فقط أن أقيم الأدلة القاطعة على ماقررت سابقاً من أن حكم الاستعمار في هذه البلاد كان قائماً على أسس المذهب الاستبدادي الذي يمنح رجال الاستعمار سلطة مطلقة في شئون الحكم وأن مفهوم نظام الحكم غير المباشر من حيث الحقيقة والواقع لا يختلف عن الحكم المباشر وقد انفتحت أبواب الحياة الاقتصادية الجديدة على مصرعيها وأخذت المسيحية تنتشر في ربوع المناطق الجنوبية وبين القبائل الوثنية في بعض القرى النائية في شمال البلاد . كما قامت في المجتمع أساليب جديدة في نظام الحكم وشئون القضاء وأخذت الثقافة الضريبة تشق طريقها بفضل انتشار الرسائل التبشيرية في كل مكان . ولقد كان الاستعمار أيام حكمه على البلاد يخطط لإبقاء الشعوب الأفريقية تحت حكمه الاستبدادي أزماناً لا تنقطع ولا تنتهي . وأخذ يروج ادعاءات

(١) Nigeria: Report by Sir. F.D.Lugard on the Amalgamation of Northern and Southern Nigeria and Administration, 1912-1919, CMD 468, London, 1920, P.14-15

كاذبة لتبرير الوسائل التي اتخذها في هذا السبيل . لقد عمل الاستعماريون على إبقاء الشعب في منزل عن الحكم حتى عاش قرابة مائة سنة تحت سيطرتهم ذليلاً مستضعفاً مفلوماً على أمره . ولا يستطيع المستعمرون أن يفكروا الكارثة التي ورطوا شعوب أفريقيا فيها ، فإنهم قد عهدوا إلى الأبقاء على هذه الشعوب في حالة من الخلف والتهميش ولم يتركوا لهم المجال ليقرروا مصيرهم الأمل وذلك ليتمكنوا من استخدام الأيدي العاملة في هذه البلاد لمصالحهم الاستعمارية واستغلال خيرات بلادهم . وظل الأمر هكذا حتى قامت الحركات الوطنية ، وهي نتيجة تآثر شباب هذه البلاد المثقفين بمجموعة من العوامل الخارجية ففتحهم إلى تنظيم هذه الحركة لإنهاض روح الوطنية الجديدة في صفوف الشعب في سبيل القضاء على حكم الأجانب في بلادهم .

وقد كان لكل من الجمعية الوطنية للمستعمرات البريطانية في غرب أفريقيا واتحاد طلاب غرب أفريقيا بلندن وجمعية الشباب النيجيرية جهود كبيرة في مطالبة الحكومة البريطانية بمنح حق الحكم الذاتي لكل مستعمرة من المستعمرات البريطانية الأربع في غرب أفريقيا . وقد ازدادت الأمة الأفريقية وعياً وانتباهاً على أعقاب الحرب العالمية الثانية ، فاندلعت في الآفاق أصوات زعماء نيجيريا بطلب الاستقلال فتجاوت لها الأصدا من كل مكان ، فكانت مظاهرات جماهيرية ضخمة في المدن الكبرى في شتى أنحاء البلاد ، فسارع مكتب المستعمرات إلى إصدار دستور رتشارد عام ١٩٦٦ هـ ١٩٤٦ م ، ولم يكن ذلك الدستور في صالح الأمم الأفريقية وإنما روعيت فيه مصالح المستعمرون المحضة وإن كانت مخفية تحت ستار ادعاءات مضللة تتمثل في ثلاث نقاط .

١ - النهوض نحو الحكم الذاتي . . . ويهدف بهذه النقطة إلى إعاقه تحقيق الاستقلال

٢ - حماية الثقافات والتقاليد الوطنية . . . وهي خطوة استعمارية أخرى للإبقاء على

التخلف الثقافي والفكرى .

٣ - التنمية السياسية نحو الوحدة المتجانسة . . . وهي لمحاولة بذور الفرقسية

والشقاق في صفوف الشعوب الأفريقية

وتضخيم التفرقات القومية والقبلية بينهم

وقد قوبل دستور رتشارد بمعارضة شديدة من جانب الشعب وقام قومة رجل واحد لتغييره لأنه يثبت الأغلال والقيود في أيدي الشعوب وذلك لما يمكنه للحاكم البريطاني من سلطات مطلقة تمنع أي معارضة من قبل المجالس الإقليمية والمجلس المركزي في العاصمة . وقد اضطر مكتب المستعمرات إلى إجراء بعض التعديلات في هذا الدستور بحيث أصبح نظام الحكم فدرالياً وهو شبه الاستقلال بالنسبة للأقاليم حيث حددت اختصاصات المجلس التشريعي المركزي وأطلقت اختصاصات المجالس الإقليمية . وقد كان الوطنيون يعتقدون أنهم يحوزون انتصارات كبيرة في هذه المعارك ولكنهم لم يعرفوا أنهم ضحايا المؤامرات والمخططات وأنهم سافرون على الدرب الذي يريد الاستعمار أن يسيروا عليه حتى يتم سوقهم إلى السدرك الأسفل الذي أعده الاستعمار لإنزالهم فيه .

وعندما اضطر الاستعمار إلى ترك هذه البلاد بطلب الشعب الاستقلال وفك قيود الاستعباد عن أيديهم أوحى إلى المثقفين الوطنيين في ذلك الوقت فكرة تأليف الأحزاب السياسية ووضع لهم نظام الحكم الديمقراطي المؤسّر على النزعات القومية أو القبلية أو المصالح الذاتية وتتألف هذه الحكومة الديمقراطية من الوزراء الذين يختارون من النواب المنتخبين من السواد الأعظم عن طريق الأحزاب السياسية . فهل المذهب الديمقراطي الذي جعله الاستعمار بدلياً عن نظام حكمه الاستبدادي أقل منه وبالا وشبورا؟ حاشا وكلا . لقد شاهدنا النتائج

السيئة التي ترتبت على ذلك المذهب المختار عند التطبيق العملي بعد الاستقلال فقد أوقع البلاد في الهاوية وسلبها وسائل الأمن والاستقرار ويات الشعب يعيش في ظلام خالك تسود مجتمعهم القلاقل والفوضى والفتن وتراكم عليهم ركام الأزمات بشقى أشكالها وألوانها . وقد أشرقت أرض هذه البلاد بنور الاسلام قرونا طويلة وعاش الناس في ظلال عدل الاسلام آمنين مطمئنين وساد المجتمع الأمن والاستقرار إلى أن داست أقدام الاستعمار أرباب البلاد فغيروا مجرى تاريخ هذه الأمة الإسلامية فيها "إن الطوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون" (١)

لقد خرج الاستعمار من الباب وهو مطرود من رحمة الشعب ولكنه كان قد مهد لنفسه جميع الوسائل والسبل ليدخل بها ثانية من خلال السطوح والشبابيك بل حتى من مجاري الأقدار ولم يقدم الاستعمار^{على} فتح الاستقلال^{إلا} بعد الاطمئنان إلى إتمام مسرحيته على حساب الشعوب الأفريقية . لقد أصبح كل شئ في المجتمع يسير على قناة المخططات الاستعمارية . وقد وجد المستعمرون من المبشرين والمثقفين الوطنيين أبناء البلاد خير خلف لهم ففى هذه البلاد ، وإذا ما انسحبوا هم من ميدان السياسة فهناك من يخلفهم في ميدان الحكم باسم السياسة الوطنيين بل قد أوجدوا من يخلفهم في جميع الميادين وعلى الأخص فى مجال التعليم والاقتصاد والحياة الاجتماعية .

ويحسن في هذا المقام أن نلخص وسائل الاستعمار في إبقاء الشعوب الأفريقية تحت سيطرته حتى بعد نيل الاستقلال المزيف ونستطيع أن نجمل هذه الوسائل في ثلاث نقاط :

١- إضعاف الشعب : وقد اتخذ الاستعمار وسائل عديدة في إضعاف الشعوب المستعمرة حيث عمد إلى افتعال الفوارق المصطنعة بين الشعب الواحد بتقسيم البلاد إلى مناطق وأقاليم بناء على التفرقات القومية والقبلية وزرع بذور الشقاق والخلاف فيما بينهم بنفخ روح تأليف الأحزاب السياسية في مصاف المثقفين وإبقاء بعض الشعب على الجهل والتخلف الثقافي والفكري ليكون عالة على غيره غطاء كغطاء السيل وذلك لضمان وجود الصراع

الداخلي المستمر الذي يعوق الرقي والتقدم .

٢- إن اذابة شخصية الشعب وطمس معالمه ومحو حضارته وعقائده الموروثة وبالتالي يتم جذبه الى اعتناق الحضارة الغربية عن طريق الانبهار بآثارها الواقعية في المجتمع الذي صنمته أيدي الاستعمار ليكون نموذجاً حياً يبرهن على رقي حضارته وعلو ثقافته . وقد يقوم الاستعمار بالدعوة إلى احياء بعض الحضارات المحلية البائدة إذا أحس بأنبعاث الروح الدينية فسي صوف الشعب وسيلهم إلى العودة إلى الحضارة الاسلامية وهو الأمر الذي يجري عليه الويل والشور ويهدم بنيانه من أساسه .

ولست دعوة الاستعمار إلى احياء تلك الحضارات على أساس استبداد تلك الحضارات بحضارته وإنما لمجرد احياء ذكراها ليشغل بها أفكار المثقفين ويوحى إليهم من بعيد أن حضارة الاسلام اجنبية عن بلادهم فالعودة إليها عودة إلى الاستعمار الذي يحاولون فك أغلاله من أعناقهم وأيديهم وأرجلهم .

ويعلم الاستعمارون أن الرجوع إلى اعتناق مثل هذه الحضارات المحلية البالية في عصر العلم والثقافة بيد وبطبيعة الحال أمر لا يقبله العقل السليم الذي شهد آثار الحضارة الأوروبية الجديثة وأكثر من ذلك أن الأفريقي المتحضر إذا تأمل في الثقافة الأفريقية في عصورها المظلمة التي يحاول الاستعمار احيائها والتفنى بأجادها فقد ينتهي به الأمر إلى لمس الفارق الكبير والبون الشاسع بين الحضارتين من حيث الرقي وما يعود على الجنس البشري منهما من آثار ومنافع جمّة ، وقد يزيد اهتدائه إلى مثل هذا الفارق انبهاراً بالحضارة الأوروبية وإصراراً على التعلق بها ، وبذلك يصبح إحياء هذه الحضارات البالية في صالح الاستعمار من هذه الجهة .

٣- ربط الشعوب المستعمرة بعجلة الاستعمار المستغلة المستبعدة .

لقد حاول الاستعمار أن يجعل هذه البلاد قطعة من أرض بريطانيا بتغيير معالمها
وانشاء مجتمعاتها على نحو آخر يسير على نمط الحياة الأوروبية حتى لا يوجد شيء فسي
ذلك المجتمع إلا وعليه الطابع الأوروبي .

وقد فرضوا نظمهم ومبادئهم على هذه البلاد ونشروا فيها ثقافتهم وعاداتهم وإن كل
هذا إلا لربط هذه البلاد بعجلة الاستعمار حتى يتمكن من استغلال وامتناع خيراتها
كالبقرة الحلوب.

المبحث الثالث:

ويلات نظام الحكم الاستعماري في البلاد

١ - تقرير نظام الحكم الديمقراطي القائم على نظام الانتخابات الحرة عن طريق الأحزاب السياسية .

عندما آذن الاستعمار على الرحيل عن البلاد، وفي فترة انبعاث الوعي في صفوف الطبقة المثقفة نفخ الاستعمار روح الوطنية والقومية في أذنة هؤلاء المثقفين وأفكارهم وهو يعلم ما تحمله هذه الفكرة من أخطار ولكنها أهون عليه من قيام النزعة الدينية بينهم وخاصة الوعي الاسلامي الذي يعتبره معولا هداما لكل ما بناه طيلة أيام حكمه على هذه البلاد . يقول الاستعمار إن الضرورة القصوى تقتضي بتقسيم هذه البلاد الفسيحة الأرجاء إلى أقاليم متعددة ويقوم أساس هذا التقسيم على دعائم القومية القائمة على فكرة رابطة الأرض والصالح المشتركة كما تقضى بتأليف الأحزاب السياسية على أسس النزعات القومية والنزعات الإقليمية والقبلية لتدخل غمار حرب الانتخابات الحرة التي يخرج منها الحزب الفائز ليتولى زمام الحكم في الحكومة المركزية . ويعتمد الاستعمار في هذا كله على أن دولة نيجيريا تضم عددا كبيرا من الشعوب والقبائل المختلفة اللغات والمتباينة العادات والتقاليد والأديان ولا يمكن تحقيق الوحدة المتجانسة بين هذه الشعوب والقبائل المتعددة لتتمكن من إقامة الحكم الديمقراطي الذي هو حكم الشعب بالشعب إلا بإذابتها في أصولها الثلاثة : هوسا ، يوروبا ، إيبو ثم ينشأ تقسيم حدود جغرافية الأقاليم على هذا الأساس وقيام الأحزاب السياسية على هذه النزعات العشوائية والقبلية ووضع نظام الانتخابات على نفس هذه النزعة الإقليمية .

إنني أعتبر هذا النظام أكبر لغم من مجموعة الألفام التي زرعا الاستعمار لهدم بنيان وحدة هذا الشعب لأن الاستعماريين هم الذين أوجدوا هذه الضرورة وأقاموا حولها الأسباب والمبررات ثم راحوا بعد ذلك يبحثون لها عن الحلول . ولما دخل الاستعمار إلى هذه البلاد وجدها مقسمة إلى ثلاثة أقسام فهناك الدولة الاسلامية القوية في شمال البلاد وقد

وقد قطعت أشواطاً بعيدة في الزحف على المناطق الجنوبية ^{وهناك} أويو الوثنية في غرب البلاد ومجموعة القبائل المتناثرة التي تدعى بالأديان التقليدية في شرقي البلاد. وقد يبدو أن الاستعمار كان يميل إلى تقرير هذا التقسيم عندما قسم البلاد إلى ثلاثة أقاليم، ولكن الذي فات الاستعمار هو أن هذا التقسيم الطبيعي الموجود في ذلك الوقت لم يكن مبنياً على أساس القومية والقبلية وإنما كان نتيجة اختلاف الأديان والمعتقدات. ولا اعتقد أن الاستعمار لم يعرف هذه الحقيقة بل كان يريد إحلال القومية والقبلية محل الأديان.

وعلى رغم كل ما كان يتعلق به الاستعمار من الأدعيات وما كان يتمسك به من الأسباب ليجبر به ضرورة توحيد هذه الشعوب والقبائل المختلفة تحت راية حكومة مركزية ديمقراطية فقد ثبت بالتجربة أن الطريقة التي قررها الاستعمار لتحقيق ما يدعيه كانت أقرب إلى التفريق والهدم منها إلى التوحيد والبناء. لقد قضى الاستعمار على سلطة الملوك والأمراء وأبعدهم عن ميدان الحكم ووضعه في أيدي أبناء المثقفين الذين وضعوا لبيان الغرب وتكدرت أفكارهم واختارهم ليكونوا خير خلف له وليسيروا على الطريقة التي ^{كان} يروسمها لهم لا يحيدون عنها قيد شبر ثم أغراهم بكلمة "الوحدة" وهي هدف نبيل ولكنها كلمة حق يراود بها الباطل والتضليل. فهل تقوم الوحدة على أساس الصراع الداخلي المستمر - صراع بين القوميات والقبليات والاقليميات وصراع أصحاب المصالح الذاتية المختلفة - وصراع الأحزاب السياسية المتناحرة وصراع الطبقات المتباينة في المجتمع التي أحدثتها التفاضل بين مختلف القبائل في مجال الثقافة الغربية، هل يمكن تحقيق الوحدة وهذا الصراع قائم في المجتمع؟ وما يكون حال المجتمع إذا كان الناس فيه متصارعين متقاتلين؟

فهل يمكن أن يرضى أحد المتقاتلين عن الآخر أو يفرح أحد المتنافسين بتفوق منافسه عليه ولا أكون مبالغا إذا قلت إن الاستعمار لم يضع هذا النظام إلا للهدم والتعطيل.

وضمن استمرارية الصراع العنيف ابتداءً من داخل الأسرة الواحدة إلى مختلف أحياء المدينة الواحدة ووضواحيها ثم إلى مختلف المدن والقرى والمناطق والمقاطعات في الإقليم الواحد ثم يمتد ذلك الصراع إلى القبائل والقوميات والأقاليم المختلفة ثم ينتهي الصراع ليشكل حكومة مركزية بين هؤلاء القوميين المتنازعين المتناحرين .

لقد مزق الاستعمار وحدة الشعب وفرق كلمته وخلق أجواء المنازعات والمشاكل والفساد في صفوفه ، ومحا النزعات الدينية من قلوبهم وأقام سلم الحكم على أساس القومية فأضعف بذلك قوى الشعب وجعله فريسة القلاقل والأزمات الداخلية المتعاقبة التي لا يزال دغانها مخيماً على سما البلاد حتى اليوم .

٢- جعل اللغة الإنكليزية لغة رسمية للدولة ولغة مشتركة بين مختلف الشعوب والقبائل في البلاد .

هذه خطوة أخرى لإنابة شخصية الشعب ومحو تراثه الحضاري والعلمي ومقاومة تقاليد عتيقه وعقائده . لقد جعل الاستعمار اللغة الإنكليزية أساس كل شئ في المجتمع فأصبحت لغة الحكم والحكومة ولغة الساسة والمثقفين وعامة الناس ومقياس التفاضل بين أفراد الشعب ففسد المجتمع ووسيلة المعيشة الرفيع حتى صار كل فرد من أفراد المجتمع يطلق عليها الاموال وينوط بها الأمنيات في مستقبل حياته الزاهر . لقد قضى الاستعمار على اللغة العربية التي كانت لغة رسمية للحكومة الاسلامية التي قامت في شمال البلاد منذ قرون طويلة ، ووقف تيارها الجارف الذي أخذ يشق طريقه إلى جنوب البلاد وأبعدها عن ميدان الحكم والحياة الاجتماعية ومجال التعليم كما أبعده الشريعة الاسلامية عن هذه الميادين . ولم يضع الاستعمار هذا المخطط إلا لربط الشعوب الأفريقية بعجلته المستغلة حتى تظل هذه البلاد كالبقرة الحلوب يستغل خيراتها ويمتص دماءها ويبقى الشعب أبداً كالحاظة التي تجرها القاطرة فيجرى وراءها صغير الاستعمار لا حول له ولا قوة ولا اختيار .

٣- تقرير مبدأ حرية العبادة

دخل الاسلام إلى شمال البلاد منذ قرون طويلة ويكاد يرجع امتداد تاريخ ظمور الاسلام فيه إلى أصل تاريخ الجنس الشمالي نفسه .

ولم يكن الاسلام في شمال البلاد محدودا في أسوار المساجد ولا مقصورا على الشعائر التعبدية بل كان قوة وسلطة ودولة قائمة على دعائم قوية فهو لشئون الدين والدولة معاً . وقد عرفت بلاد يوربا الاسلام منذ عهد ملكة مالى الاسلامية ثم أخذ ينتشر في أرجاء هذه البلاد مع اتساع رقعة دولة ابن فودي الاسلامية إلى ناحية الجنوب . وقد وجدت الوثنية والأديان التقليدية بين مختلف القبائل البدائية في بلاد يوربا وبلاد إيبو في الجنوب منذ زمن بعيد . ولما المسيحية التي يدّين بها الاستعماريون أو يتعلقون بها لنيل أطعامهم الدنيوية فلم يعرفها سكان هذه البلاد إلا بعد دخول الأوربيين إلى بلادهم فالمسيحية دين جديد في أمر الحاجة إلى التحريف والدعم والتشجيع ولا بد أن تلقى مقاومة عنيفة من قبل الأديان التي سبقتها وخاصة من جانب الاسلام لأنها دخلت لتشن عليه حرباً كانت امتدادا للحروب الصليبية الأولى إلا أن حربها في هذه المرة لم تكن عندية ولكنها مخفية تحت مبدأ حرية الدين . فالاستعمار^{هو} الذي أطلق الحنان للمبشرين ليبارسوا أعمال الاقتتار في تنصير أهالي البلاد وعقد المهادنة مع الطوك والزعماء بحماية المبشرين وتمكينهم من مزاوله أعمالهم التبشيرية في طول البلاد وعرضها ثم ألقى أعباء التعليم العام على أكتاف المبشرين ففتحو المدارس التبشيرية وتوغل المبشرون داخل القرى والأرياف وانتشرت المراكز التبشيرية في جميع أنحاء البلاد ثم بعد ذلك قرر الاستعمار حرية الدين^{وكان} يدعى أنه لم يلجأ إلى هذا إلا ليقضى على تمصبات أهل الأديان المختلفة ليتمكن كل إنسان أن يعبد ما يشاء في حرية تامة ولا تكبر عليه من أهل الأديان المخالفة لدينه وبذلك يعيش الناس متسامحين

لا يحقد أحد هم على الآخرين . وقد رأب الاستعمار على إخفاء الحقائق وراء الكلام الممسول ليضل به عقول الناس . فقد علمنا أن المسيحية دخلت هذه البلاد لترحف على الأديان التي سبقتها ولا بد أن تقع ضحية المقاومة العنيفة فاحتضنها الاستعمار فقرر مبدأ حريصة التدبير ليثبت به قدم هذا الدين الجديد على أرض البلاد ويقتل به نار الخيرة الدينية من قلوب أهل الأديان الأخرى ويلغى به الجهاد الاسلامي الذي يقوم به المسلمون لادخال الكفار في الاسلام . فحرية التدبير تمنع إمام المسلمين من تنفيذ حكم الله فيمن يرتد عن دينه وتتصرا ودخل في الوثنية .

وعندما يرى الأب المسلم أبناء الذين تتلمذوا على المبشرين يتصرفون فلا يملك من الأمر شيئا لأن الحكومة قد تكفلت لكل فرد من أفراد المجتمع بحرية تامة في الدين .

٤- نشر التعليم الغربي والثقافة الغربية

هذه زاوية أخرى كمن فيها الاستثمار لتسفيد الطرق الكفيلة لتوجيه الشعب نحو الاتجاهات المنحرفة وخلق الأجواء الملائمة لتقبل النظم والمبادئ والأفكار الهدامة مثل القومية والعلمانية والرأسمالية والاحاد والإباحية . وإن لهذا المخطط من الأخطار الجسام والآثار البالغية ما لا يقدر قدره . ولا أريد هنا أن أناقش كل ما وضعه الاستثمار من معاول الهدم والتعطيل وإنما أريد أن أقدم الأدلة على أن الاستثمار لم يخلف في هذه البلاد إلا ألفاما مزروعة هنا وهناك ثم ترك مهمة تفجيرها في أيدي أبناء المثقفين الوطنيين فكانوا خير خلف وأخلص عمل . ولو أخذنا نقدة واحدة من معاول الهدم التي وضعها الاستثمار لتعطيل وحدة الشعب النيجيري لنرى مدى أبحادها في الإفساد والهدم والتعطيل ثم نترك الحكم لواقع البلاد والأوضاع الراهنة فيها ، فإن الأحزاب السياسية والحدود الجغرافية حواجز مصطنعة وفوارق موضوعة للحيلولة دون وحدة الشعب وليس وراء هذا التقسيم القائم على أسس القومية

من هدف سوى تفكيك أجزاء هذه البلاد وتضخيم النمرة القومية وإضعاف قوة الشعب ليكونوا
أما وقبائل متفرقين متناحرين لا تجمعهم كلمة حق ولا تضمهم راية دين .

ولنما تربطهم الحمية الجاهلية - القومية والوطنية . وإن دور الأحزاب السياسية
أمكن في الإفساد من التقسيم الجغرافي وذلك لما ينتج عنها من التناقص الشديد على
مقاييد الحكم وما تثيره الممارك الانتخابية من التخصب والحقد والحسد والخداع وشبهه
الضائر والأصوات وقطع الأرحام وارتكاب جرائم القتل والاختطاف ولا تزال البلاد تعاني
الويل والثبور من آثار هذه الألفام المزروعة على رغم ما تدعيه الحكومة المحلية من جهود
مجهودات كبيرة في سبيل محوها في المجتمع .

لقد هان على الاستعمار أن يخرج من هذه البلاد راغم الأنف وينجح الاستقلال المؤبد
لأهلها بعد الامتحان إلى وضع هذه المتفجرات وإيجاد العملاء والجواسيس من أبناء
هذا الشعب الذين طبعهم بطابعه الغربي بتكدير أفكارهم وتحريف اتجاهاتهم وإفساد
أساليب حياتهم فكانوا له غير خدم في تفجير تلك الألفام وإثارة الفتن والقلق نتيجة
سريان سموم المبادئ والأفكار الغربية في أدمغتهم . وتنفيذهم لخطط الاستعمار بحرفيتها
وتقد يسهم للحجارة الغربية . . وإذا كان الاستعمار لم يترك وراءه إلا هذه المأساة
فلماذا كان يروج من قبل ادعاءات مغرية بأساليب براقعة خلابة ؟ فقد كان يدعى رفع مستوى
البلاد الاقتصادى فيها هو/اليوم قد استغل خيرات البلاد حتى أوقعها في حالة تخلف
وتأخر وانحطاط . وكان يدعى تحمل أعباء تدريب وتهيئة الطبقة المثقفة لتسيير موكب
الحكم في البلاد . فقد أبعدهم عنه زماناً طويلاً بنظام حكمه الاستبدادى . كان يدعى
حماية البلاد من أخطار القوى الخارجية الطاغية فقد ساء بها هو نفسه سوء العذاب والسم
المعاقب . وكان يدعى أنه يسعى وراء تحقيق الوحدة بين مختلف الشعوب والقبائل بوضع

نظام الحكم الديمقراطي ونظام الانتخابات وتقسيم الأقاليم لمتوصل به إلى إقامة حكومة مركزية ،
 فقد تبين بعد الاستقلال أن هذه الأنظمة الموضوعة لا تحقق الوحدة المنشودة لهذه
 الأمة فقد تفرقت كلمة الشعب وتمزق شطه وقامت في البلاد عدة أزمات سياسية نتيجة الحركات
 القومية والإقليمية المتصارعة وعدم صلاحية الأنظمة الوضعية لتحقيق العدالة والأمن
 والاستقرار . وما تلك الأزمات إلا غرور وخداع ومكر فالاستعمار ثملب رواغ .

والأمر يكون لما أرادوا سوق العالم وراءهم استخدموا وسائل متعددة سواء أكانت هذه
 الوسائل سلمية أو حربية ، إنسانية أو وحشية . فالغاية عندهم تحرر كل ما يستخدم من
 الوسائل ، ولم تعلم البشرية أناسا أعطوا المكر والخداع والكيد مثل ما أعطى رجال الاستعمار
 فإنهم يبطشون بالأثم ويتوددون إليهم . إنهم يقتلونهم ثم يكون عليهم ، ويقدمون تعازيهم
 إلى أسر ضحايا مؤامراتهم ومكائدهم .

لقد اعتمد الاستعمار على الإنجيل والمدافع ومهدأ " فرق تسد " حتى استطاع أن يهدم
 ويصمى في الأرض فسادا ويصندا يدي الشعب بأغلال الاستعباد وقيود الاستعمار زمنا طويلا .

الباب الثاني

التبشير المسيحي في مختلف مناطق نيجيريا ووسائل دعايته المختلفة وظهور
الحركة القومية في الكنيسة المسيحية .
الفصل الاول : حركة الغزو الصليبي في مختلف مناطق نيجيريا .

المبحث الأول : التبشير في جنوب نيجيريا .

المبحث الثاني : معركة الصليب مع الهلال في المناطق الشمالية المسلمة .

• الفصل الاول : حركة الغزو الصليبي في مختلف مناطق نيجيريا •

المبحث الاول : حركة الغزو الصليبي في نيجيريا الجنوبية

إن تاريخ التبشير المسيحي يرجع إلى صدر النصرانية وابتداء تأسيسها، وإن الصراع القائم بين المسيحية وبين الإسلام قد امتدت جذوره إلى فترة انبثاق فجر الإسلام على العالم. ثم جاءت بعد ذلك الحروب الصليبية لتوسع فجوة العداوة بين القوتين المتصارهين ولم تكسب الهزيمة النكراء التي منيت بها جيوش الصليبيين لتخد نار الحقد والضغينة الكامنة في أعينهم وقلوبهم • ولقد انسحبوا من الحروب الصليبية في الجبهة الشرقية ليكرّوا على العالم الإسلامي عن طريق الجبهة الغربية • ولقد عرف الصليبيون أن قوة الإسلام جبل أشم وليس في ميعورهم أن يبارزوه في ميدان القتال فلجأوا إلى حرب المروغة والمكر بحركة الدوران حول أفريقيا لتطويق العالم الإسلامي للقضاء على الإسلام وأهله •

ولما دخل الأوربيون إلى بلاد السودان الغربي منذ القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي وقد علموا بدور الإسلام التاريخي فيها وما شيدته تلك الأمة الأفريقية من الأمجاد في مضمار الحياة تحت لواء الإسلام في عهود الممالك الإسلامية الزاهرة غاظهم كثيرا أن يلتقوا بالإسلام في هذه البلاد • ولم يكن ديننا متمكنا في نفوس أتباعه فحسب وإنما وجدوه سلطنة حاكمة ودولة قوية بسطت نفوذها على مناطق شاسعة من هذه البلاد الفسيحة الأرجاء •

وقد تركز الأوربيون في المناطق الساحلية الوثنية في غرب أفريقيا منذ فترة دخولهم ونشروا فيها المسيحية والحضارة الغربية وأقاموا حازما منيما في وجه الزحف الإسلامي المتدفق إليها من المناطق الإسلامية ثم أخذوا يتوغلون ببطء في داخل البلاد بحجة التعرف على مجاهل البلاد تارة أو حجة التجارة ونشر الحضارة الغربية تارة أخرى، ولكن الحقيقة أنهم كانوا يريدون أن يكشفوا عن نقاط الضعف التي يمكن عن طريقها الوصول إلى تحقيق الأهداف الصليبية •

إن تجارب الأوربيين مع المسلمين منذ الأحقاب التاريخية البعيدة قد علمتهم أن الإسلام هو العقبة الكدأة الوحيدة في وجه أطماعهم السياسية والتجارية وأحقادهم الدينية وأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقر لهم قرار في أي بقعة كان الإسلام فيها قائما على قدم وساق • وأنه لا بد من القضاء على هذا الإسلام ومحوه من الوجود وإلا كان مآل أطماعهم فشلا ذريعا وطعنة أحقادهم خمرًا • قال المستربلس : " إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في

طريق تقدم التبشير بالنصرانية في أفريقية والمسلم فقط هو المد والدود لنا لأن انتشار الأنجيل لا يجد معارضا لا من جهل السكان ولا من وثنيهم ولا من مناضلة الأمم المسيحية وغير المسيحية^(١) وقال لورنس براون : لقد كنا نخوف بشعب مختلفة ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف . لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودي والخطر الأصفر (باليابان وتزعجها طين الصين) والخطر البلشفي إلا أن هذا التخوف كله لم نجد له واقعا كما تخيلناه . إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد . ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا . أما الشعوب الصفراء فإن هناك دولا ديمقراطية كبيرة تتكفل بمقاومتها ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع والأخضاع وفي حيويته . إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي . (٢)

ليس من هدفنا في هذه الرسالة أن نسرده التاريخ العام لحركة التبشير المسيحي في العالم قديمها وحديثها كما أن التاريخ التفصيلي لهذه الحركة في كافة أنحاء مناطق نيجيريا خارج عن نطاق بحثنا . ولكن الذي يهمنا أكثر هو موجة الغزو الصليبي في المناطق الإسلامية من نيجيريا ولا أعرج على المناطق الجنوبية الوثنية إلا بقدر ما لتلك الحركة فيها من ارتباط بمحاولة السيطرة على الإسلام والوقوف في وجه زحفه المتدفق عليها من المناطق الإسلامية وما لها من علاقة بتمهيد الطريق أمام الأوربيين لتحقيق أطماعهم الاستعمارية وأهدافهم الصليبية . ولقد مرت حركة الغزو الصليبي في نيجيريا بمرحلتين هامتين من تاريخها ، ابتدأت المرحلة الأولى منذ القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي وذلك أثناء اكتشافات البرتغاليين الجغرافية واستمرت قرابة أربعة قرون حتى أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي . وتحدد المرحلة الثانية بقيام حركة التبشير الحديثة عندما قررت الحكومة البريطانية إرسال البعثات والإرساليات التبشيرية المنظمة إلى نيجيريا لنشر المسيحية والحضارة الغربية فيها ابتداء من تاريخ البعثة التبشيرية البريطانية الأولى سنة ١٢٥٧ هـ ١٨٤١ م . وقد امتدت هذه المرحلة قرابة قرن ونصف قرن حتى الآن .

(١) الفارة على العالم الإسلامي تأليف ١٠ ل شاتليه لخصها ونقلها إلى العربية مساعد الياباني صاحب الدين الخطيب من ٣٥ - ٣٦

(٢) كتاب التبشير والاستعمار في البلاد العربية تأليف الدكتور مصطفى خالدي ود . غير فروخ ص

١٨٤ نقلا عن كتاب

لقد قامت حركة التبشير القديمة فى المناطق الساحلية من غرب أفريقيا — وكانت وثنية بصفة عامة على أيدى البرتغاليين المغامرين فى مرحلة الاتصال الأول التى سبق أن تحدثت عنها فى الفصول السابقة عند الكلام عن علاقات أوربا التجارية مع بلاد السودان الغربى إلا أن الكلام هناك كان مقصورا على جانب نشاطهم التجارى فى تلك الأثناء ، وذلك جانب هام من جوانب أطماعهم الدنيوية فى استعمار شعوب أفريقيا . ولكننى فى هذا الفصل أحاول دراسة جانب نشاطهم التبشيرى وهو الجانب الصليبي من الاستعمار ، ويجب أن أؤكد أن ذلك ليس محاولة لفصل أحدهما عن الآخر لأن ذلك غير ممكن بأى حال من الأحوال وإنما هى مجرد محاولة للترتيب والتنسيق . وقد قال صاحب كتاب " المسيحية فى غرب أفريقيا : " إن الهدف الأسى وراء جهود البرتغاليين فيما وراء البحار هو نشر المسيحية وجانب ذلك أبدوا اهتماما بالغا بالتجارة من أجل الدعم المادى الذى يأتى من ورائها لتقدم الأعمال التبشيرية " (١) كانت منطقتا وارى وبنين (Warri & Benin) من الإقليم الشرقى من نيجيريا أول بقعة دخلتها المسيحية من بين جميع مناطق نيجيريا . وكان جميع سكان هاتين المنطقتين وثنيين إلا أن جميع محاولات البرتغاليين والأسبانيين من بعدهم فى سبيل نشر المسيحية فيها قد باءت بالفشل ، وقد أدى هذا الفشل لفترة طويلة إلى جعل الاتصال الأوروبى بهذه المناطق محصورا فى التعامل التجارى .

وإذا كان نشاط الدعاية التبشيرية طوال أربعة قرون مقصورا على المناطق الساحلية الوثنية من غرب أفريقيا ، وكانت محاولات المبشرين فى نيجيريا محصورة فى حدود منطقتى بنين و وارى (Warri & Benin) المطلتين على شواطئ المحيط الأطلسى ، حتى مع ذلك الفشل الذريع فى نشر المسيحية بين أهالى هذه المناطق فلا يعنى ذلك أن مهمتهم كانت مقصورة على تنصير الوثنيين وأنهم لا يريدون التبشير فى المناطق الإسلامية بل الحقيقة أنهم تجافوا عن المناطق الإسلامية داخل البلاد لقيام موانع وحواجز حالت بينهم وبين الوصول إليها للتبشير فيها . وقد رأينا كيف اندفعوا نحو غايتهم بحماسة وتناثروا فى أنحاء البلاد كالجراء المنتشر عندما استطاعوا أن يزيلوا العقبات القائمة فى وجه توغلهم بعد أن أقاموا

(١) E.O. Babalola, Christianity in West Africa, Ibadan, 1976, P.6

جميع الوسائل الممكنة لهم من التفلفل للعمل داخل البلاد . وتجدر الإشارة إلى أن البرتغال كانت أول دولة أوروبية ^{مسيحية} ابتدأت بفكرة إرسال المبشرين إلى مناطق غرب أفريقيا منذ تلك العصور الغابرة . وكان مبشروها ينشرون المبادئ الكاثوليكية التي كانوا يدنون بها . وكان الهدف من وراء جهودهم هو تحويل المجتمعات الأفريقية إلى مجتمعات مسيحية . نسخة كربونية للمجتمعات البرتغالية المسيحية ، والاستعانة بها للانقضاء على العالم الإسلامي والقضاء على السلام والمسلمين . ولا تهمنا تلك الجهود المتواصلة التي قام بها المبشرون البرتغاليون والاسبانيون والإرساليات الكثيرة التي وردت هذه المناطق في تلك الفترة فإن ذلك مجرد تاريخ علم خارج عن نطاق هذا البحث كما أسلفنا . إن طريقة التبشير في تلك الفترة لا تعد وبناء المدارس وإقامة الكنائس ونشر التعاليم المسيحية بين الأهالي وزيارات دورية لبعض القرى والأرياف المجاورة وإرسال المبشرين للقيام بهذه المهمة . وقد كان المبشرون يعتقدون أن التأثير على الحكام المحليين دينيا وسياسيا واقتصاديا هو الوسيلة الوحيدة لإدخال رعاياهم تحت حظيرة المسيحية ، ومن أجل ذلك رأوا ضرورة تنصير الحكام لكسب موافقتهم ومناصرتهم ، إلا أن التجارب قد أثبتت أن اعتقادهم هذا كان أمرا مبالغيا فيه إلى حد كبير ، لأن أكثر الحكام الذين اعتنقوا المسيحية أو تظاهروا بها كانوا يسمون إلى تحقيق مصالح مادية سياسية واقتصادية . لقد دأب الحكام المحليون على الترحيب بالمبشرين للعمل في بلادهم والتظاهر بالمسيحية لدفع أخطار التهديدات الخارجية عن بلادهم والتغلب على الأزمات الداخلية وتحقيق التوسعات الإقليمية في المناطق المجاورة لهم بدون أن يكونوا على بينة من أمر المسيحية أو يفهموا شيئا من تعاليمها ومبادئها .^(١) وهذا يدل على أن فتح الحكام المحليين مصاريع أبواب بلادهم لدخول المبشرين لم يكن عن إيمان بالديانة المسيحية وإنما كان طمعا في المصالح المادية التي تأتي من ورائهم وإذا ما أحجموا عن تقديم تلك المصالح فلا أهلا بأعمالهم ولا سهلا .

ولقد فشل المبشرون البرتغاليون في جميع محاولاتهم لنشر المسيحية في هذه البلاد

(١) E.O. Babalola, op.cit., P.13-14

فى تلك الفترة واستثناء بعض المستوطنات البرتغالية فى غرب أفريقيا لم تستقر المسيحية فى أى مدينة من المدن التى ظل المبشرون يركزون فيها بالمسيحية قرابة أربعة قرون ، وحتى فى القصور الملكية وفى مصاف الأمراء والنزلاء فإن الأمر كان كما قال قميس مدينة ساوتوم (Sao Tome) سنة ١٠٣٠ هـ - ١٦٢٠ م " إن الملك والأمراء هم الذين اعتنقوا المسيحية حقيقة وأما حاشيتهم فإنهم كانوا يتظاهرون بالمسيحية إرضاءً للملوك فقط " . (١)

إن هناك بعض المشاكل قد أسهمت فى فشل أعمال المبشرين فى هذه الفترة . وإن الأوربيين الذين ألفوا المكى فى أجواء أوربا الباردة لم يكونوا لينسجموا مع المناخ الأفريقى لارتفاع درجة الحرارة فى المناطق الاستوائية . لذلك وقع كثير منهم ضحايا الأمراض المهلكة . وقد أدت هذه الظروف القاسية المحيطة بأعمال التبشير فى هذه الفترة إلى قلة عدد المبشرين بحيث تبقى أحيانا مناصب القساوسة والأساقفة شاغرة مدة طويلة ولا يجزأ أحد من المبشرين أن يتقدم لملا الفراغ . ولقد وافتنا كتب التاريخ باحصائيات تدل على ضخامة عدد ضحايا الأمراض الفتاك من المغامرين للأوربيين . وقد أجدت مشكلة اللغة عوائق طافية فى سبيل المبشرين عند محاولتهم لعرض المسيحية وتقديمها للشعوب الأفريقية وخاصة عندما أرادوا ترجمة الكتب الدينية إلى اللغات المحلية المختلفة وتعريف الناس بالمبادئ والتعاليم المسيحية . ولذلك أبدوا اهتماما كبيرا منذ تلك الفترة بتعليم اللغات المحلية . قال أحد المبشرين " يجب أن نبدأ أعمالنا باستخدام اللغات المحلية فى دعوة الناس إلى المسيحية وطينا أن نستمر على ذلك لكى يفهم المستمعون وأتباع المسيح ما يلقيه المبشرون من التعاليم الدينية فهما صحيحا " . (٢) ويذكر المؤرخون أن قلة عدد المبشرين فى ميدان العمل التبشيرية فى مناطق غرب أفريقيا فى هذه الفترة كانت نتيجة المشاكل المتعددة التى يواجهها المبشرون من ناحية اللغة ومن الناحية الصحية بالنسبة للأوربيين لعدم ملائمة المناخ الأفريقى مزاجهم بالإضافة إلى مشكلة المواصلات حيث مُنع الأوربيون من التوغل داخل البلاد لمزاولة أعمالهم التبشيرية والتجارية وقد اجبروا كل ذلك سببا مباشرا لفشل أعمالهم ووجه حاجتهم الماسة إلى

(١) J.F.A. Ajayi, Christian Missions in Nigeria, London, 1973 P.3

(٢) E.O. Babalola, op.cit., P.20

استخدام الأفريقيين • وقد عرف الأوروبيون منذ هذه الفترة أن لا أمل لهم فى نجاح أعمالهم وجهودهم إلا باستخدام الأفارقة • ولم تكن هذه الفكرة مقصورة على أعمال التبشير بل إن التجار الأوروبيين ورجال الاستثمار من بعدهم قد أدركوا ذلك أيضا فاستخدموا الطاقة البشرية الأفريقية كما استغلوا موارد أفريقيا الطبيعية لتحقيق أهدافهم وغاياتهم المختلفة •

وقد قررت البرتغال مشروع إعداد رجال الدين من الأفريقيين ليتولوا مناصب القساوسة والأساقفة والمبشرين وتدرب جماعة كهنوتية من صفوف النما* الأفريقيات ليتولين مناصب المبشرات وذلك لتخفيف أعباء المسؤولية عن عواتق المبشرين الأجانب الذين أوهنت قواهم حتى العاريا، ولاعتقادهم أن الإنسان الأفريقى الذى نشأ على مناخ أفريقيا وكان بين أهله وذويه ويعرف لغة قومه وطداتهم وتقاليدهم يكون بطبيعة الحال أقدر على العمل فى هذا المجتمع من أولئك المبشرين الأجانب • ومنذ القرن العاشر الهجرى - السادس عشر الميلادى كان البرتغاليون يتمتعون الشبان الأفارقة الممتازين لتلقى التعاليم المسيحية فى البرتغال وامتعت أن سارت جميع الدول الأوروبية الأخرى - هولندا والدانمرك وأسبانيا وهريطانيا وفرنسا - على درب البرتغال عندما بدأت نشاطها التجارى والتبشيرى فى غرب أفريقيا فى القرن العاشر الهجرى - السادس عشر الميلادى ، فابتعثت إليها المبشرين ثم ضمت بإعداد الشبان الأفارقة لمهمة التبشير وللإشراف على المدارس التبشيرية التى أقامها المبشرون فى مراكزهم فى المدن الساحلية لتعليم الأطفال فى المراحل الأولية التعليمية • * ولقد اعترفت الحكومة البرتغالية والحكومة البريطانية وواقتهما . فى ذلك مبشرو هاتين الدولتين العاملين فى مراكزها فى غرب أفريقيا بأهمية مشروع إعداد مجموعة من الأفارقة الصابئين لمهمة الدعاية التبشيرية على أن يكون اختيارهم من بين أسر الحكام والملوك * (١) وعلى تلك المجموعة عقلت كلتا الدولتين آمالها الكبيرة فى تحقيق أهدافها فى هذه المنطقة • وإذا كان بعض هؤلاء الشبان المنحليين الذين ابتعثوا فى تلك الفترة إلى أوربا للتعليم قد انحرفوا عن جادة الطريق ، والبعض الآخر الذين أكملوا تعليمهم فيها وقلدوا مناصب الأساقفة والمبشرين قد امتنعوا عن العودة إلى أفريقيا ، فإن النجاح المحدود الذى تم تحقيقه فى حقل التبشير المسيحى خارج مستوطنات الأوروبيين فى

(١) E.O. Babalola, op.cit., P.16

مناطق غرب أفريقيا خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين - السابع عشر والثامن عشر الميلاديين كان على أيدى العدد القليل من هؤلاء الذين رجعوا بعد تخرجهم للعمل فى بلادهم، كما كان كذلك على أيدى النواة الأولى للمعاهد التبشيرية التى أسست فى المدن الساحلية الهامة فى هذه البلاد . وكان من بين هؤلاء المبشرين الأفريقيين الأوائل الذين كانوا أحجار الزاوية فى ميدان التبشير فى غرب أفريقيا :

يعقوب اليساجون كابتان (Jacob Elisa John Capitein)

توماس تيمبسون (Thomas Thompson)

فيلبس فواكو (Phillip Quaque)

القديس بيتار كلافا (St. Peter Claver)

سفنور جوزيف (Signor Joseph)

لقد كانت الهيئات التبشيرية فى هذه الفترة تعاني الشىء الكثير من المشاكل المالية لأن الأموال المخصصة لها كانت فى أكر الأوقات تقل عن احتياجاتها لتغطية وتنفيذ برامجها ومشاريعها . " وقد حدا هذا الأمر بالمبشرين إلى التورط فى تجارة الرقيق وأخبارها وسيلة لتمويل النشاط التبشيري وتدعيم مواردها المالية المحدودة " كما قال صاحب كتاب المسيحية فى غرب أفريقيا (١) ولو اخترنا مدى نجاح أعمال التبشير فى المرحلة الأولى لم نجد سوى محاولات يائسة وجهودات بذلت لتذهب أدراج الرياح ، وليس ذلك مجرد روى للكلام على عواهنه ولكنه حقيقة شهد بها الشاهدون من الغربيين والمستفيدين بالمسيحيين الأفارقة . قال صاحب كتاب آثار المبشرين على دولة نيجيريا الحديثة : " وقد أثبتت التقارير أنه فى خلال المرحلة الأولى من اتصال الأوروبيين بمناطق غرب أفريقيا والتى دامت أربعة قرون متوالية لم يكن للحضارة الأوروبية أى تأثير على شئون حياة المجتمعات الأفريقية سوى الرطانة الإنكليزية التى كانت تستخدم فى الأغراض التجارية فى موانئ هذه البلاد . " (٢)

(١) E.O. Babalola, op. cit., Pp 17-18

(٢) E.A. Ayandele, Missionary Impacts on Modern Nigeria, London 1971, P.3

وقال الأستاذ أجايي : " لم تنتهج حكومات المناطق الساحلية التي وصل إليها الأوروبيون منذ أمد بعيد طريقة زبائنهم ومعلميهم الأوروبيين في الديانة وفي أسلوب الحكم وفي نظام الضرائب وشئون القضاء . ولقد كان قادة الحركة التبشيرية الحديثة في القرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشر الميلادي قلقين جدا لفشل التجارة الأوروبية والديانة المسيحية في إحداث تأثير حضارى ملموس في شئون حياة شعوب المناطق الساحلية في نيجيريا . وقد رأوا بطبيعة الحال أن ذلك لم يكن حالة استثنائية وإنما كان جزءا من فشلهم العام في القارة الأفريقية " (١) وقال أيضا " ومع بداية القرن التاسع عشر للميلاد لم يبق من أثر جهود المبشرين المبذولة في مرحلة حركة التبشير القديمة إلا شيء قليل جدا " (٢)

كانت هناك حوادث هامة سبقت قيام الحركة التبشيرية الحديثة في نيجيريا وكان لها ارتباط وثيق بهذه الحركة من حيث النجاح والفشل، ولا يتم الحديث عنها إلا بذكر شيء منها . إن الحركة الدينية الإصلاحية التي قامت في أوروبا إبان منتصف القرن الثامن عشر الميلادي هي التي أدخلت على الجماعات المسيحية في أوروبا تنظيمات جديدة في شئون التبشير وجاءت بفكرة تكوين الجمعيات التبشيرية المنظمة للعمل في أوروبا والعالم الخارجى وزودت الجماعات المسيحية بروح الحاسة الصليبية الدافعة للعمل التبشيري . وكذلك كانت حركة تهجير الأفارقة المحررين من أوروبا إلى أفريقيا منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي والحركة الثانية لتهجير الأفارقة من سيراليون إلى بلاد يوريا في نيجيريا حادثا ذا أهمية كبيرة باعباره أهم الوسائل التمهيدية التي أقامها قادة حركة التبشير الحديثة لنشر المسيحية في غرب أفريقيا . ومع انقراض المصور المظلمة في تاريخ أوروبا حدث تغير خطير في تفكير الناس وأصبح للجمال قيمة ممتبرة وصار للعقل تأثير كبير على كل شيء في شئون الحياة، وقامت على أثر ذلك الثورة الصناعية ثم تلتها حركة دعة الإنسانية ولم يكن الانقلاب الصناعى ليقف عند حدوده الذاتية بل تخطاها إلى الناحية الدينية فقامت حركة الميثودية في منتصف القرن الثامن (٣)

(١) J.F.A. Ajayi, op.cit., P.7

(٢) Ibid P.4

(٣) الميثودية أي المنهجية وهي الحركة الدينية الإصلاحية التي قادها في اكسفورد عام ١٧٢٩م تشارلز وجون ويزلى محاولين فيها إحياء كريمة انكلترا .

عشر الميلادى بقيادة جون ويزلى (John Wesley) حيث انفصل عن كنيسة إنكلترا وتبعه جمع
غير من الفسقة البروتستانتية وأقاموا كنيسة منهجية جديدة وأسسوا جمعية كبيرة للمسيحيين
المنهجين داخل الكنائس الإنكليزية المعتمدة لدى الحكومة البريطانية . ولم يكن أثر هذه
الحركة الإصلاحية مقصورا على هؤلاء الذين تبنا أفكار الميثودية من البروتستانتين في أوروبا
وفى أمريكا الشمالية بل امتدت أبعادها إلى الشرق المسيحية طمة فقام عدد كبير من المؤسسات
التبشيرية منذ العقد الأخير من القرن الثامن عشر الميلادى في أوروبا .
وما عمت أن تأسست جمعيات على شاكلتها فى اسكتلندة وأمريكا وألمانيا والدانمرك وهولندة
والسويد والعروج وسويسرا وغيرها . وقد تعذر على الافرنسيين أن يقوموا بشئ من هذا القبيل
لانشغالهم بالثورة التى آلت الى الانقلاب المشهور .

إن الممدانى الإنكليزى وليام كارى (William Carey) هو الذى فاق أسلافه
فى مهمة التبشير فدرس لغة اللاتين واليونان والفرنسيه والهولنديين والمبرانيين كما تعلم
كثيرا من العلوم وقد قولت كتبه فى التحريض على التبشير بالاستحسان . وهو أول من قام بتأسيس
الجمعية الممدانية للتبشير سنة ١٢٠٧ هـ - ١٧٩٢ م ثم تأسست بعد ذلك جمعية لنسدن
التبشيرية سنة ١٢١٠ هـ - ١٧٩٥ م وهى التى تقوم بتشجيع مبشرى الكنيسة الإنكليزية والميثوديين
والمشيخيين الاسكتلنديين وتشرف على شئون اجتماعهم إلى الخارج لمهمة التبشير . ثم قام
مبشرو الكنيسة الإنكليزية فى أوروبا سنة ١٢١٤ هـ - ١٧٩٩ م فأنشأوا جمعية الإرساليات
التبشيرية فى أفريقيا والشرق وقد عرفت فيما بعد باسم جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية .
وتعتبر جمعية الإنجيل لبريطانيا والعالم الخارجى التى تأسست سنة ١٢١٩ هـ - ١٨٠٤ م
عونا كبيرا بالنسبة للهيئات والجمعيات الأخرى حيث إنها كانت تقوم بتمويل مشروع ترجمة الكتاب
المقدس إلى اللغات المختلفة وتشرف على طبعة ونشر كمية كبيرة منه فى شتى أنحاء العالم . ولقد
كان الدكتور كوك (Dr. Cook) أحد قادة الحركة الإصلاحية أول من وضع الخطط لتأسيس
الهيئات التبشيرية للعمل فى العالم الوثنى ولكن الكنيسة المنهجية لم تنفذ تلك الخطط بصفة
رسمية حتى سنة ١٢٢٨ هـ - ١٨١٣ م عندما أسسوا الجمعية المنهجية والويزلية للتبشير . وقصد
(١) الممدانية : هى إحدى الكنائس البروتستانتية وهى تذهب إلى أن الممودية يجب أن لاتتم
إلا بعد أن يبلغ المرء منا تمكنه من فهم معناها .

جاءت بعد ذلك جمعية الإرساليات الأفريقية وجمعية الآباء البيض من الإرساليات الكاثوليكية الفرنسية لنفس المهمة . وكان قادة الحركة الإصلاحية في أوربا قد اعتبروا القارة الأفريقية جزءاً من العالم الغربي الذي عاش قروناً طويلة تحت المظالم السياسية والاجتماعية المتراكمة وطفیان الكنيسة ورجال الدين ، فوجهوا اهتمامهم البالغ إلى محاولة نشر المسيحية والحضارة الغربية في أفريقيا . وقد استفل قادة الحركة الإنسانية محاولة بريطانيا للقضاء على تجارة الرقيق واقترحوا تهجير الأرقاء المعتقين إلى أفريقيا وبناء مدينة خاصة لهم في سيراليون . ولم تفض فترة طويلة حتى انتشرت في مناطق غرب أفريقيا فروع الهيئات التبشيرية التي قامت في أوربا بعد الحركة الإصلاحية . كانت حركة تهجير المبيد المحررين من أوربا وأميركا إلى مدينة فريتون Free town في سيراليون التي بدأت منذ سنة ١٢٠٧ هـ - ١٧٩٢ م حلقة مهمة من سلسلة الخطط المركزة التي وضعها قادة الحركة التبشيرية الحديثة لتوطيد قوائم المسيحية في غرب أفريقيا في هذه المرة . لقد قام المبشرون بنشر المسيحية وتعليم اللغة الإنكليزية بين السبيد كما دسروهم على علم الحراثة والصناعة اليدوية والتجارة أثناء وجودهم تحت أغلال المبودية في المزارع والمناجم في أوربا وأميركا، وكان هؤلاء الأفارقة ينتمون إلى قبائل متعددة في غرب أفريقيا . وقد أثبت فيهم الحسبة الدينية وروح الحنين إلى الوطن، ووضعت برامج خاصة لجمع كل من يرغب في التمسك التبشيري منهم سواء من المبشرين والمدرسين والفلاحين وعمال المصانع والحرفيين . وحث قادة حركة التبشير الحديثة الكنائس في أوربا وأميركا على تعيينهم مبشرين .^(١) وإرسالهم لمهمة التبشير في مناطق غرب أفريقيا وخاصة في سيراليون وليبيريا . وهكذا أخذ يزداد عدد المهاجرين على مر الأيام حتى شكلوا الأغلبية الساحقة من بين سكان مستعمرة سيراليون وبدأوا يلعبون أدواراً هامة في شئون الزراعة والصناعة والتجارة وفي حقل التعليم الغربي ومجال التبشير . وقد وضعت الحكومة البريطانية إدارة شئون هذه المستعمرة في يد شركة سيراليون البريطانية للتجارة ثم نقلت السلطة بعد استقرار الأمر إلى يد الهيئة الاستعمارية البريطانية سنة ١٢٢٣ هـ ١٨٠٨ م . وقد اتخذت الهيئات التبشيرية العليا في أوربا مستعمرة سيراليون مركزاً لأعمالها في غرب أفريقيا فنظمت سلسلة من البعثات للعمل فيها منذ سنة ١٢١٠ هـ - ١٧٩٥ م . وقد ذكرت كتب التاريخ تفاصيل جهود إرساليات جميع الفرق المسيحية التي عملت في هذه المنطقة .

وقد كان شيئا طبيعيا جدا أن تنجح أعمال التبشير في هذه الفترة لأن الظروف القاسية المحيطة بهؤلاء العبيد منذ فترة وقوعهم تحت أغلال العبودية حتى وقت تحريرهم كانت من جملة الأسباب والوسائل التي تمهد الطريق لنجاح أعمال التبشير في هذه الفترة . وأول مدرسة أسسها المبشرون لمهمة إعداد رجال الدين والمبشرين والمدربين من الأفارقة المحررين كانت سنة ١٢٥٨ هـ - ١٨٤١ م . وقد عرفت تلك المدرسة فيما بعد باسم كلية فورابي Fourabai College وقد ظلت هذه الكلية المؤسسة الوحيدة للتعليم الجامعي في غرب أفريقيا حتى أربعينيات القرن العشرين الميلادي . ولم تمض فترة طويلة بعد تأسيس كلية فورابي حتى أصبحت مستعمرة سيراليون مركزا هاما للتعليم الغربي وقاعدة الانطلاق لأعمال التبشير، وكان يقصد ها رجال الدين المسيحيون والعلمانيون الأفارقة الأوائل لتلقى تعليمهم العالي فيها . ومنها انطلق الفوج الأول من المهاجرين المثقفين إلى شتى أنحاء مناطق غرب أفريقيا ، وكان من بينهم المبشرون والأساتذة والمحامون والقضاة والموظفون . ويظهر أن هذا هو السبب الذي من أجله أطلق على مستعمرة سيراليون أنها أم غرب أفريقيا .

ولو اخترنا كل ما ذكرناه حول حركة تهجير الأفارقة المحررين واستيطانهم في سيراليون وقيام المبشرين والمدربين الأوربيين بنشر المسيحية والثقافة الغربية بينهم وانتشار أوكار مراكز الإرساليات ومدارسها في مستعمرة سيراليون لعلمنا أن هذه المستعمرة لم تكن مقصودة لحشد ذاتها ولكنها قصدت لأجل أن تكون قاعدة الانطلاق إلى بقية أنحاء مناطق غرب أفريقيا ، وخاصة إذا عرفنا أن هؤلاء الأفارقة المحررين كانوا ينتمون إلى جنسيات مختلفة وقبائل متعددة ويتكلمون لغات مختلفة ، وقد جمعهم الأوربيون في منطقة بعيدة عن بلادهم الأصلية ، ولا بد أن يأتي يوم تنبث في أعناق القرى روح الحنين إلى العودة إلى بلادهم الأصلية سواء أكان ذلك الحنين طبيعيا أو حصل بفعل المؤثرات الخارجية في أرض الغربة . . . فهكذا قامت الحركة الثانية لتهجير الأفارقة المحررين ولكنها لم تكن من أوربا في هذه المرة وإنما كانت من سيراليون إلى بلاد يوربا في المناطق الجنوبية في نيجيريا . ويظهر أن حركة التهجير الثانية كانت أساسا - كما كانت الحركة الأولى - حلقة من أفاعيل أيدي قادة حركة التبشير الحديثة ورجال الاستعمار أو كان دورهم فيها على الأقل دور المشجع والمستغل وقد عرفوا يخلق الأجواء

والظروف المسهدة لوقوع الحوادث والوقائع ثم استغلال تلك الحوادث والتعلق بأذيال تلك الوقائع لنيل مآرهم الشخصية ومصالحهم الذاتية .

يقول بركستون (Buxton) فى مناقشته لجهود الحكومة البريطانية للقضاء على تجارة الرقيق عن طريق العلاقات الدبلوماسية فى أوربا وعن طريق قواتها البحرية الجواله على طول شواطئ المحيط الأطلسى بأن هذه الجهود لم تكن لتقلل من عدد العبيد الذين ينقلون إلى أوربا من أفريقيا ولكن محاربة تجارة الرقيق من الناحية الاقتصادية هو العلاج الناجح : " يجب أن نربى عقول شعوب أفريقيا ونعمل على إخراج محصولات أراضيها . . . ابعدوا المبشرين والمدرسين والمحراث والمسحاة جميعا إلى أفريقيا وستزدهر فيها الشئون الزراعية وتفتح الطرق لدخول التجارة المشروعة ويسود الأمن جميع المجتمعات حيث تتقدم الحضارة الأوربية بطبيعة الحال وتنتشر المسيحية كنتيجة مباشرة لهذا الانقلاب السريع " (١)

وقد ذهب بركستون بعيدا فى تفكيره واقترح استعمال الوكلاء الأفارقة وسيلة لإحداث هذا الانقلاب السريع . وقد ذكر الأستاذ أجايى خلاصة لكلامه فى هذا الصدد : جاء فيها : إن مثل هؤلاء الوكلاء الذين سيحظون بحماية الحكومة البريطانية وتوجيه وإرشاد المبشرين ويمملون برؤوس أموال التجار الأوربيين — لا يمكن أن يوصد الباب دون وجوههم كما كان يحصل للأوربيين حيث كانوا يمنعون من التوغل داخل بلدان أفريقيا . . . وسيجتمع هؤلاء الوكلاء فى مستعمرة صغيرة ليعيشوا فى وحدات حضارية حيث ينطلق النور إلى المناطق المجاورة وسيقوم المبشرون والمدرسون بنشر المسيحية فيهم وتعليمهم العلوم الحديثة . . . إلى أن قال : ويقومون بتحطيم المجتمع القديم بكل الوسائل الممكنة ويحطون محله مجتمعا مسيحيا جديدا .^{*} وأثناء الفترة التى قدم بركستون اقتراحاته إلى الحكومة البريطانية وكانت الحكومة تمقد الجلسات حول دراسة إمكان إخراجها إلى حيز الوجود قامت حركة تهجير الأفارقة من سيراليون إلى بلاد يوربا فى نيجيريا . ويظهر أن تاريخ هذه الحركة يرجع إلى ما قبل هذه الفترة بسنوات

(١) T.F. Buxton, The African Slave Trade and Its Remedy, London, 1839, P.282, 511

(٢) J.F.A. Ajayi, op.cit., P.11

إلا أنها لم تتميز كظاهرة اجتماعية تسترعى الاهتمام والانتباه إلا في هذه الفترة. وقد وصل مجموعة كبيرة من المهاجرين إلى مدينتي بداغري (Badagry) وأبيوكوتا (Abeokuta) في المناطق الجنوبية في نيجيريا من سيراليون والبرازيل وكوبا (CUBA) واستمرت موجة الهجرة حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشر الميلادي . ولكن الحكومة البريطانية والهيئات التبشيرية في بادئ الأمر لم تبد اهتمامها بهذه الهجرة لكونها هجرة العموم ولأنها تخالف ما اقترحه بكستون من هجرة منظمة ومحنة كبيرة مكونة من ذوى الكفاءات المختلفة من المبشرين والمدرسين والخبراء والسياسيين والعسكريين والمهندسين وغيرهم . ويقول الأستاذ أجايي " وهناك فرق كبير بين هجرة هؤلاء العموم وبين الحركة المنظمة للمبشرين المثقفين التي اقترحها بكستون. (١) وهما كانت الروح الدافعة لهذه الهجرة وكيفا كانت طبيعتها فقد استغلتها الهيئات التبشيرية في سيراليون وأرسلت المبشرين وراء هؤلاء المهاجرين في مدينة بداغري ومدينة أبيوكوتا بمسح حملة نهر النيجر المشهورة التي قادها بكستون سنة ١٢٥٧ هـ - ١٨٤١ م والتي كان المؤرخون يعتبرونها بداية الفترة التمهيدية لحركة التبشير الحديثة ، وكانت ذات أهمية كبيرة في تاريخ التبشير في هذه البلاد ، وذلك بالنسبة للانتشار الكبير الذي جاء بعدها في أيام الحكم البريطاني فيها . وتظهر أهميته الهجرتين الأولى والثانية وخاصة بعد أن فشلت حملة نهر النيجر في مهمتها من أن الأوربيين قد استطاعوا أن يجعلوا مستعمرة سيراليون مركزا هامًا للتعليم الغربي والثقافة الغربية كما استطاعوا أن يتخذوها قاعدة الانطلاق لرسول التبشير إلى كافة أنحاء غرب أفريقيا على النحو الذي فصلناه سابقا . ولم يختلف شأن الهجرة الثانية كثيرا عما قررناه في الأولى ، فقد كان لهؤلاء المهاجرين أهمية كبيرة لا تتناسب مع عدد هم وما هبّاهم متناثرين في أماكن كثيرة في المناطق الجنوبية " لقد جمعت الحركة التبشيرية هؤلاء المهاجرين في مراكز/وأفسحت أمامهم مجالات العمل وشجعتهم على العمل من أجل نشر المسيحية والثقافة الغربية فخدم المهاجرون السيراليونيون في الشؤون التجارية وشغلوا مناصب المبشرين والمعلمين الدينيين والمدرسين ، بينما خدم المهاجرون البرازيليون في تعمير المباني الحديثة وتعبيد الطرق وغيرها . وبالجملة فإن هؤلاء المهاجرين هم الذين أدخلوا

المبشرين إلى هذه البلاد . ومن أجل ذلك يعتبرون عنصرا أساسيا في الحركة التبشيرية الستى زحفت على البلاد .^(١) ولكى نعرف مدى أهمية تلك الهجرة ودور المهاجرين فى حركة التبشير الحديثة يجب أن نتبع طبيعة هذه الحركة وطريقة توغلها وانتشارها ونتائجها الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية فى مناطق مختلفة من هذه البلاد ، وكذلك العوامل المحلية التى مكنتها من تحقيق أهدافها الصليبية وأطاعها الاستعمارية .

لقد دخلت الهيئات التبشيرية ومن ورائها رجال الاستعمار إلى نيجيريا بحجج أو هى من خيوط المنكوت منذ سنة ١٢٥٨ هـ - ١٨٤٢ م وكانت البلاد فى تلك الفترة عبارة عن قسمين: نيجيريا الجنوبية ونيجيريا الشمالية وقد كانت فى المناطق الشمالية ممالك إسلامية ذات تاريخ إسلامى مجيد فصب بذلك على الأوربيين أن يجدوا منفذا إلى النيل منها ولم يستطيعوا أن يدخلوها لبسط نفوذهم فيها إلا فى أوائل هذا القرن عندما زحفوا عليها تحت ظلال الأسلحة النارية الحديثة على ما سنبينه فى الفصل التالى إن شاء الله تعالى .

وأما نيجيريا الجنوبية التى كانت مناطق وثنية فقد وصل إليها الجهاد الإسلامى المتدفق من المناطق الشمالية الإسلامية منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجرى - التاسع عشر الميلادى . ثم قام كل ما ذكرت سابقا من أمر الهجرة ودور المهاجرين فى بلاد يوريا فاقتفى المبشرون آثار المهاجرين إليها وتمركزت الهيئات التبشيرية فيها منذ تلك الفترة، ويمتبر قيام حركة التبشير الحديثة فى المدن الساحلية من المناطق الجنوبية الوثنية فى هذه البلاد منذ هذه الفترة بداية نقطة تحول هام فى مجرى الأحداث الدينية والسياسية والاجتماعية فيها . وقد قلت مرارا وتكرارا أن جهود المبشرين فى سبيل نشر المسيحية هى التى مكنت الأوربيين من إقامة سلطة سياسية وإحداث تأثير جذرى فى شئون الحياة الدينية والاجتماعية فى شتى أنحاء هذه البلاد .

ولقد حظيت جهودهم الأولية بالدم والتأييد من قبل مكتب شئون المستعمرات البريطانية والهيئات التبشيرية العليا فى أوربا . وقد انتشرت الجمعيات التبشيرية فى بلاد يوريا وكانت لجمعية يوريا التبشيرية التابعة لهيئة إرساليات الكيسة الإنكليزية ، وجمعية المبشرين الميثوديين الويزليين ، وجمعية الإرسالية المعمدانية جهود كبيرة فى هذه المنطقة حيث جندت كل طاقتها ،

وعلت بموازنة المبشرين الأفارقة ومجموعة الصابئين من المهاجرين كما استخدمت كل الوسائل الممكنة لتحويل مجتمعات بلاد يوريا إلى المسيحية . وقد كان المبشرون في أمس الحاجة إلى حماية الحكومة البريطانية في بادئ الأمر ، ولذلك قال المبشر صمويل كراوذر (S.Crowther) " يجب أن تتبع بريطانيا المبشرين والمتقنين الأفارقة بعين رعايتها وكفالتها حيثما كانوا في حلهم وترحالهم " (١)

" وقد أصدرت الحكومة البريطانية أوامرها إلى قواتها البحرية الجواله على طول شواطئ المحيط الأطلسي بمنح المبشرين كل الرتبة المطلوبة والحماية اللازمة " (٢) وكذلك عندما هددت جيوش دولة داهومي بشن هجوم عسكري كاسح على منطقة أيبيا Egbaland في بلاد يوريا والتي تركز فيها المبشرون منذ أول دخولهم إلى هذه البلاد وازدهرت فيها أعمالهم التبشيرية وشئونهم التجارية ورفع المبشرون الاحتجاج إلى الحكومة البريطانية " أرسلت الحكومة قرارات إنذار صرحت فيها بأن أي هداء من جانب سلطة دولة داهومي على هذه المنطقة يعتبر هداء مباشرا على الحكومة البريطانية وإعلانا لقيام حالة حرب بين الطرفين البريطاني والداهومي " (٣) ولقد اتجهت جمعية النيجر التبشيرية التابعة لهيئة إرساليات الكنيسة الإنكليزية صوب المناطق المطلة على ضفاف نهر النيجر ، وكذلك استقرت جمعية الكنيسة المشيخية الاسكتلندية في المدن الواقعة على شواطئ المحيط في الأقليم الشرقي من هذه البلاد ، وقد استطاعت بعد سنوات قليلة أن تحقق بعض أهدافها في ميدان التبشير وحقل التعليم والشئون الاجتماعية . ولقد حاول المبشرون تهجير مجموعة من المبيد المحررين إلى بعض المدن الساحلية في المناطق الشرقية كما فعلوا في بلاد يوريا ولكنهم فشلوا في ذلك حيث لم يكن من المبيد المهجرين إليها من ينتسب إلى قبائل الإيو الأصلية إلا نفر يسير جدا بخلاف الأمر في الهجرة إلى بلاد يوريا، فإنها عودت إلى البلاد الأصلية واجتماع بالأسر والأقارب بعد طول الفراق والغياب الطويل في متاهات الضياع والهلاك . وقد كانت هناك بعض عادات جاهلية سادت مجتمعات المناطق الشرقية في تلك

(١) من مذكرة تقارير الجمعية المشيخية عام ١٨٤٣ م وردت في كتاب : E.A. Ayandele op.cit., P.8

(٢) من مذكرات المبشر هوب واديل Hope Wadell ص ١٨

(٣) E.A. Ayandele, op.cit., P.12

الفترة مثل قتل الأيتام والتوائم وتقديم الجنس البشرى أضحية في بعض المناسبات وتكليف الحالف بشرب السم ودفن المبيد أحياء عند موت سيدهم وغير ذلك . وهذه مشكلة اجتماعية تتمارض مسع أبسط قواعد الإنسانية وساعدت الجمعيات التبشيرية في القضاء عليها . وقد يكون ذلك عمن دافع روح إنسانية أو يكون وراءه مطامع أخرى دنيوية .

ولقد وقف المبشرون في بداية الأمر موقفا حياديا من شئون السياسة المحلية في المناطق الجنوبية وأبدوا احتراما بالسلطة الحكام المحليين طمعا في تحويلهم إلى المسيحية ليقودوا رعاياهم وراءهم إلى احناق المسيحية . ولكن رغم فشلهم في ذلك فقد حققوا بعض التقدم واستطاعوا أن يحصلوا على مساندة الملوك وأن يستغلوا نفوذهم لحماية مصالحهم والدفاع عن قضايا المهاجرين والصلبيين ودفع عجلة نشاطهم التبشيري إلى الأمام حتى انتشرت مراكزهم في المدن والقرى الكثيرة . وعندما أحس المبشرون بمنزلتهم المرموقة عند الحكام المحليين بسبب الأوار الهامسة التي كانوا يلعبونها في كثير من شئون الحياة في المجتمع حاولوا التأثير على مجارى السياسة الخارجية وهذلو في سبيل ذلك كل غال ورخيص ، حيث بدأوا يقاومون الحركات التي تنبه الشعب إلى أخطارهم وتحاول أن تجعل له سبيلا إلى الحياة المستقلة . ولكنهم فشلوا في ذلك فشلا ذريعا . وقد أدى ذلك إلى إجلاء المبشرين الأوربيين من مدينة أبيوكوتا فأووا إلى مستعمرة لاجوس البريطانية . وكان السلطة المحلية قطعت أغصان الشجرة وأبقت جذعها من غير أن تقلصه فلما أتى عليه المطر أورق فمادت الشجرة كما كانت .

إن احتلال مدينة لاجوس وخيانة المبشرين الأوربيين بتدخلهم السياسى في شئون الحكومات المحلية قد أدى بالحكام المحليين إلى تغيير موقفهم تجاه المثقفين الأفارقة . لقد نظروا للحكام إلى كونهم أبناء جلدتهم الذين تستبعد منهم الخيانة لبلادهم فوثقوا فيهم واعتدوا على مشاوراتهم وإرشاداتهم ولكنهم أخطأوا في اعتقادهم أن أخطار الأوربيين الاستعمارية في هذه البلاد قد قضى عليها بسبب إجلائهم لمبشرهم منها . ولو أن السلطات المحلية عرفت أن المبشرين الأفارقة والمجموعة المسيحية من المهاجرين والصائبين علاء الامبريالية لقضوا عليهم منذ تلك الفترة لينذهب خطرهم دون ما رجعة ولا عودة . ولكنهم لم يشعروا بذلك إلا بعد فوات الأوان . ويجب أن نؤكد هنا أنه لو لم تكن هناك مساندة فعالة وجهود كبيرة من قبل المبشرين المحليين أمثال

صمويل كراوندار Samuel Crowther وجى • س تايلور J.C.Taylor

وغيرهما. ولم تكن هناك أيضا موافقة ومناصرة من جانب بعض الملوك المحيطين المستغفلين ولم يخلق المبشرون في المجتمع قضية المهاجرين التي استغفلت لمصالحهم الذاتية حيث وجدت أعاليهم تجاوبا كبيرا في صفوف المهاجرين فكثرت منهم عناصر أساسية لإحداث الثورة الدينية والاجتماعية في هذه المنطقة. ولم يكن هناك شيء من هذا كله لضاعت أعالي المبشرين الأوربيين بين الغابات الوعرة وسفوح الجبال ولذهبت الرياح بمطامعهم حيث لا يشتهون. قال الملك بيول ملك منطقة بوني في الإقليم الشرقي وكان يحذر المبشر تشامبينيس Champness من اتخاذ موقف شديد ضد بعض الأديان التقليدية فيها : " ليس هناك أحد في منطقة بوني يوافقك على هدم معابد الآلهة التقليدية وإذا أخبرني بذلك أحد فسأعتبر ذلك منه خداعا وكذبا، ولكن هؤلاء الناشئين الذين يردون مد رستك لتلقى التعليم الغربي سيتبعون طريقك، واستطاع أن تأمرهم بكل ما تريد كما عليهم أن يمثلوا أوامرنا إذا اقتنعوا بما تدعوهم إليه " (١) إنني لا أريد هنا أن أسرد الوقائع التاريخية المجردة في شأن الهيئات التبشيرية المتعددة التي دخلت غمار الغزو الصليبي في المناطق الجنوبية منذ قيام حركة التبشير الحديثة فيها كما لا أريد أن استطرد في ذكر تفاصيل الجهود المبذولة والوسائل المستخدمة للتبشير في الأفراد والأسر والمجتمعات المختلفة فيها وأخبار البعثات والمراكز والكائسروالمدارس التبشيرية التي أقيمت في مختلف المدن والقرى لأن مجال ذلك كله كتب التاريخ . ولكنني سأتناول دراسة وسائل المبشرين العامة بشيء من التفصيل في فصل خاص إن شاء الله تعالى .

والذي يجب أن نوضحه هنا هو أن تمرکز أعمال التبشير في المناطق الجنوبية الوثنية وخاصة بلاد يوريا قد أسفر عن نتائج ملووسة في نواح كثيرة سياسية ودينية واجتماعية واقتصادية . فقد استطاع الغزو الصليبي أن يوقف الزحف الإسلامي المتدفق من المناطق الشمالية على المناطق الجنوبية وسهّدت الحركة التبشيرية الطريق أمام القوى الاستعمارية لتحقيق أطامعها الاستعمارية وسيطرتها الاقتصادية عن طريق إحداث ثورة عفيفة في تلك النواحي المختلفة على أيدي الوكلاء المحليين من التجار ومجموعة المهاجرين الصابئين وطبقة المثقفين الأفارقة والمبشرين . قال مير جونستون Sir H.H. Johnston " إن الطريقة السهلة التي تم بها تثبيت أقدام الأوربيين في

(١) J.F.A. Ajayi, op.cit., P.94

أفريقيا بوصفهم الحكام والمستكشفين والمدرسين ، يرجع الفضل فيها إلى جهود المبشرين —
والهيئات التبشيرية أكثر من استخدام الأسلحة النارية ، ولكن لو ترك الأمر بعد ذلك في أيدي
الهيئات التبشيرية لما تمكنت من إقامة المحميات والمستعمرات الحديثة إلا قليلا، ولم يكن فـسـى
استطلاعها أن تقوم بأعمال مسؤولياتها على الوجه المطلوب^(١).

ويقول الأستاذ أينديلي Ayandele : " وعلينا أن نتساءل كيف تم احتلال بريطانيا لبلاد
يوربا في جو آمن وبأسلوب تدريجى مركز على خلاف ما كان عليه الأمر في بقية مناطق هذه البلاد ،
والجواب الصريح لهذا التساؤل هو أن الدعاية التبشيرية قد مهدت الطريق لدخول الحكام
والمستكشفين والمدرسين، وتلك حالة وظروف مواتية لم يتسن مثلها في بقية مناطق هذه البلاد^(٢).
وبذلك خرجت هذه المنطقة عما كان معروفًا في طبيعة الفزرو الأوربي في أفريقيا كما جاء في كتاب
آثار المبشرين في نيجيريا الحديثة : " أن الحرب دائما هي الوسيلة لفتح الباب لدخول
التبشير إلى بلد ما ، وأن سيف الحديد يتقدم على سيف الروح^(٣) .

إن السياسات المحلية المعقدة في بلاد يوربا وسلسلة الحروب الأهلية التي قامت
فيها في فترات متعاقبة خلال القرن التاسع عشر الميلادي تقع خارج نطاق هذا البحث ، ولكننا
نقول بإيجاز إن منطقة ايبا Egbaland قبل فترة توغل المبشرين فيها بسنوات قليلة كانت
تقود حروبا مريعة مع جاراتها تستهدف استئصال شأفتها ومحوها من الوجود، وأخذت تقلب وجهها
ذات اليمين وذات الشمال عليها تجد قوة خارجية تسعفها وإذا بالمبشرين البيض على عتبات
بابها فطمعت في الأسلحة الأوربية وفتح حاكم مدينة أبيوكوتا أبواب بلاده لأطباع المبشرين
وأكرم وفادتهم وجعل بلاده في أيديهم ووضح رعاياه تحت خدمتهم ورطيتهم، ولم يكن يدري لأي
شيء جاء أولئك المبشرون بل أوى إلى ركنهم لتحقيق مصالح بلاده السياسية والعسكرية.

لقد كان انتصار جيوش الفولانيين المسلمين على مدينة الورن وإقامة دولة إسلامية فيها
في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي نقطة تحول خطير في مجرى الأحداث السياسية والدينية
في المناطق الجنوبية من نيجيريا ، وقد أدت كنتيجة طبيعية إلى تدمير مملكة أويو القديمة

(١) H.H. Johnston, Are our Foreign Missions a Success? cited by
E.A.Ayandele, op.cit., P.28

(٢) Ibid P.29

(٣) Ibid, P.67

وماتلا ذلك من الحروب الأهلية التي قامت بين مختلف الإمارات نتيجة ضعف مركز القيادة فيها . إن جيوش الفولانيين المرابطين في قواعد مدينة إلوزن الحربية قد دمرت مدنا كثيرة في شمال بلاد يوربا في السنوات ما بين سنة ١٢٤١ هـ - ١٨٢٥ م وسنة ١٢٥٦ هـ - ١٨٤٠ م التي هزموا فيها معركة أو شموه ، وقد فرّ جمع غفير من اللاجئين إلى اتجاه أدنى الجنوب وازداد بذلك سكان منطقة الجنوب الأدنى في مملكة أويو القديمة . وقد تحالف هؤلاء المهزومون مع أهالي إيفي Ife وإيجيو Ijebu فدمروا مدن قبائل Egbaland واستولوا على أراضيهم ثم طردوهم إلى أدنى الجنوب .

ومباراة أخرى لقد كان رد فعل شعوب بلاد يوربا لهجوم جيوش الفولانيين المسلمين على مملكة أويو القديمة هو الانسحاب إلى ناحية أدنى الجنوب نتيجة الهزيمة النكراء التي ألحقها بهم جيوش المسلمين ، وقد قام نزاع كبير بين مناطق هذه المملكة بسبب ضعف مركز القيادة فيها وتفكك أجزائها وتنازع دويلاتها فاندلعت نار الحروب الأهلية بينها في فترة متعاقبة واضطربت وسائل الأمن والاستقرار في أنحاء المنطقة كلها ولم تقو جيوش الفولانيين المسلمين على سحق هذه الدويلات والقضاء عليها ، وفي هذه الأثناء قامت حركة التهجير إلى بلاد يوربا وقامت معها حركة التبشير الحديثة وطمت تلك الدويلات في الحصول على الأسلحة الأوروبية للتغلب على المشاكل السياسية القائمة ولكن لم يكن الهدف إعادة بناء مملكة أويو المتصدعة لتعود إليها قوتها القيادية وإنما كانت كل دويلة تسعى نحو تحقيق استقلال ذاتي لنفسها، فقامت نتيجة ذلك سلسلة الحروب الأهلية وكانت قوات الدويلات المتحاربة متكافئة فاستمرت حالة التوتر فترة طويلة، ولم تكن هناك قوة خارجية ذات اهبار وتقدير لدى الجبهات المتنازعة تستطيع أن تؤثر فيها لوقف إطلاق النار ومن هنا برز دور المبشرين الأفارقة والتجار المحيطين الذين استفلتهم الدولة الاستعمارية وشكلت منهم الطبقة الوسطى في المجتمع، فشغلوا دور الوسطاء بين رجال الاستعمار والتبشير وبين الحكومات المحلية فربطوا عجلة تلك الحكومات بقاطرة الاستعمار والتبشير فلا الأزمات سبوا ولا المشاكل حلوا ، قال الأستاذ أجايي : " إن الأسلحة النارية التي زودت بها الدول الاستعمارية حكومات هذه البلاد من الناحية الجنوبية عن طريق شواطئ البحر المحيط لم تكن لتحل المشاكل السياسية القائمة آنذاك في بلاد يوربا ."^(١)

وقال صاحب كتاب آثار أعمال المبشرين في نيجيريا الحديثة . " كانت الأوضاع السياسية في بلاد يوريا طمة في فترة دخول الفوج الأول من المبشرين إليها في حالة اضطراب تماما حيث إن الحكام المحليين في المناطق الداخلية كانوا في حالة انقسام وتفكك وضعف وتناهر. وقد أخذ كل حاكم يعمل لتشجيع أعمال المبشرين في بلاده لأجل المصالح السياسية والعسكرية التي تأتي من ورائهم . . . ولم يكونوا ليرجعوا بالمبشرين ويستقبلوهم بكل تلك الخضوعة والتكريم وجملوهم في مقدمة مستشاريهم الخاصين ويقللوا لهم الحرية التامة لو لم يكونوا يرجون من وراء المبشرين مصالح عسكرية وسياسية تمكنهم من التغلب على بعض المشاكل والأزمات القائمة في بلادهم في تلك الفترة . (١)

وقد ذهب بعض الكتاب إلى تحليل الأسباب والموامل التي مكنت الدول الاستعمارية من التوغل لبسط نفوذها السياسي وأعمالها التبشيرية في المناطق الجنوبية في تلك الفترة بما أدى إليه الزحف الإسلامي عليها من حالات التوتر والأزمات السياسية . قال الأستاذ أجايب : " إن التقدم الذي أحرزه الإسلام في الفترة الأخيرة في غرب نيجيريا هو الذي مهد الطريق لتوغل نفوذ دول أوروبا المسيحية داخل هذه البلاد بطريق غير مباشر . (٢) وكأنه يحاول أن يقول إنه لو لم يتقدم الإسلام نحو المناطق الجنوبية ليدمر مملكة أويو القديمة لما قامت الأزمة السياسية المضطربة في البلاد ولما قامت سلسلة الحروب الأهلية ولما كانت لأهالي منطقة أييسا (Egbaland) وجميع المناطق الجنوبية بعد ذلك - حاجة إطلاقا إلى الحصول على الأسلحة الأوربية ، وإذا لم يكن هناك شيء من هذا كله فلم يكن الأوروبيون يستطيعون التوغل داخل هذه البلاد . " إننا فالموامل المباشرة لذلك هي سلسلة الحوادث التي ذكرت آنفا بينما يكون الزحف الإسلامي على هذه المناطق ظلما أساسيا غير مباشر . ويظهر أن هذا الرجل يجهل التاريخ أو يتجاهله أو أنه فقط يردد ما كان يقوله الغربيون لتبرير أعمالهم بانتحال أسباب معينة لقيامهم باستعمار شعوب أفريقيا في تلك الأحقاب التاريخية . ولست أنكر وجود عوامل محلية ساعدت إلى حد ما في تثبيت أقدام الاستعمار ونفوذ الأوروبيين في هذه البلاد ، وكان الأوروبيون

(١) E.A. Ayandele, op.cit., P.5-6

(٢) J.F.Ade.Ajayi. op,cit.,P.23

يستغلون هذه العوامل ويتعلقون بأذيال حالات التوتر لنيل مآربهم الاستعمارية والتبشيرية ومصالحهم الاقتصادية . ومع ذلك فلا يمكن أن نضرب صفحا عن العوامل الأساسية التي أقامت بها الدول الأوروبية نفسها تمهيدا لطريق التوغل إلى القارة الأفريقية . إن كل ما ذكرت سابقا من تنظيم الهيئات التبشيرية الحديثة في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي في أوروبا وأمريكا عـمـل من العوامل التمهيدية للتوغل داخل أفريقيا . وإن حركة الكشف الجغرافي للمناطق الداخلية في أفريقيا التي قامت منذ تلك الفترة حتى سنة ١٢٤٦ هـ - ١٨٣٠ م عمل آخر من تلك العوامل . وحركة تهجير الأفارقة المحررين إلى سيراليون وما جرى فيها من الحلات التبشيرية لتحويل هؤلاء الأفارقة إلى المسيحية وما تلاها من حركة التهجير الثانية إلى بلاد يوروبا في نيجيريا وإرسال المبشرين وراءهم كانت من جملة العوامل التمهيدية الأساسية . والذي يجب أن نؤكد هو أن الأوروبيين الذين دفعتهم الأطماع الاستعمارية والأحقاد الصليبية والرغبة في السيطرة الاقتصادية إلى استعمار بلدان أفريقيا قد أعدوا للأمر كل ما استطاعوا من قوة ووضعوا له الخطط المحكمة واتخذوا حيال الأمر كل الاحتياطات اللازمة . وقد خرجوا وراء أهدافهم منذ أمد بعيد ، وكانت قافلتهم تجد في السير عبر الطرق الممهدة لها وإن لم تقم هناك ظروف معينة تتعلق بأذيالها ولم توجد عوامل محلية تستغل في هذا السبيل ، فالطريق مهـد أمام القافلة وفي مقدورها أن تصل إلى مناها ولو بعد اجتياز سلسلة عقبات وركوب أهداب المخاطر والمزالق .

قال الأستاذ أجايي بعد سرد تلك العوامل المحلية : " وكل هذا قد جعل مدينة بداغري (Badagry) مدخلا للأوروبيين الذين ظالما كانوا يرغبون في التوغل داخل هذه البلاد^(١) .

وقد كشف المبشر هند رار النقاب عن وجه حقيقة من حقائق التاريخ تدل على أن دافع الحقـد الصليبي هو الذي كان وراء تعزيز بريطانيا لقوة الحكومات المحلية في المناطق الجنوبية لشـلا

تنكسر شوكتها أمام جيوش الفولانيين المسلمين فيقضى على المسيحية والهيئات التبشيرية فيها .

قال المبشر المحمداني هند رار (Hinderer) في رسالة بعث بها إلى هنري فـنـنـين

(Henry Venn) سكرتير هيئة الإرساليات التبشيرية العليا بلندن سنة ١٢٧٧ هـ - ١٨٦٠ م :

(١) J.F.A.Ajayi, op.cit., P.23

” طالما بقيت مدينة إلورن قوة محدية في هذه البلاد فيجب أن نعلم أن ذلك سيضعف من قوة مدينة إبادان الحربية في جميع الأحوال أو أن المسلمين سيمحقون كافة بلاد يوريا. وسيكون ذلك نهاية أعمال الهيئات التبشيرية فيها. * (١)

البحث الثاني :

معركة الصليب مع الهلال في المناطق الشمالية المسلمة

تعتبر بلاد شمال نيجيريا جزءا هاما من الأراضي الواسعة المظلة على الصحراء الكبرى تقع بين خط عرض ٩ وخط ١٢ شمال خط الاستواء ، وتقدر مساحتها بثلاثمائة ألف ميل مربع وهو ثلث مساحة بلاد الهند .

لقد سبق الاسلام المسيحية إلى نيجيريا بقرن كثيرة وانتشر منذ فترة دخوله إليها انتشارا سلبيا كبيرا ، ثم قام في بداية القرن التاسع عشر الميلادي الجهاد الاسلاني الذي قاده العالم الشيخ عثمان بن فوديو في السنوات ما بين سنة ١٢١٩ هـ / ١٨٠٤ م وسنة ١٢٤٢ هـ / ١٨٣١ م ، واستطاع أن يقيم إمبراطورية إسلامية بسطت سلطانها على المناطق المعروفة اليوم بشمال نيجيريا^(١) . ثم امتدت خطوط هذا الجهاد إلى جنوب نيجيريا حيث ضم المجاهدون المسلمون المنطقة الشمالية لبلاد يوربا إلى هذه الإمبراطورية الإسلامية ، وكذلك انتشر الإسلام في معظم المدن الكبرى في بلاد يوربا مثل مدينة أوشوبو Oshogbo وإيوو Iwo وإيسين Iseyin وكيكو Ketu ومداغري Badagry ولاغوس Lagos وغيرها .

يقول المندوب البريطاني سير تشارلز وليام أوري (Sir Charles William Orr) :

" لقد تحولت كافة إمارات بلاد هوسا " بسبب جهاد الشيخ عثمان بن فوديو " إلى السى حكومات إسلامية وخضعت المناطق الوثنية في أدنى الشمال لسلطة الحكام المسلمين والجليلة لقد صار للإسلام قوة دافعة هائلة وانتشرت تماثيله في ربوع المناطق المعروفة اليوم بالمحبيسة الشمالية^(٢) . إن القوة الوحيدة التي كانت الهيئات التبشيرية تخافها وتبغضها في نيجيريا عندما قامت حركة الفزوا الصليبي الحديثة في نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر

(١) وقد فصلنا الكلام في تاريخ الإسلام في شمال نيجيريا في معرض حديثنا عن المالكة الإسلامية في بلاد السودان الغربي في التمهيد الأول .

(٢) Sir Charles William Orr, The Making of Northern Nigeria London, 1965, P.258

الميلادى هى الإسلام . فهو العقبة الكأداء التى وقت فى طريق توفل المبشرين إلى الإسمارات الإسلامية فى شمال نيجيريا ، والتى وقت فى وجه تقدم أعمال التبشير فى المناطق الجنوبية الوثنية . قال المبشر القسيس توفل (Bishop Tugwell) : " تشير الدلائل المؤشقة بها إلى أن التقدم الملموس الذى أحرزه الإسلام فى بلادها كان موضع قلق كبير للمبشرين بين الفينة والفينة * .

وهناك حقيقة يجب أن نوضحها فى هذا الصدد هى أن الأوربيين المبشرين منهم والمستكشفين والتجار والمستعمرين * لم يتمكن أحد منهم من دخول المناطق الشمالية خلال الفترة الأولى من اتصال الأوربيين بهذه البلاد والتى دامت أربعة قرون متتالية . وعندما أعدت الهيئات التبشيرية الكرة فى حركة غزوها الصليب الحديثة تمركزت فى المناطق الجنوبية الوثنية فترة طويلة من الزمن لا تقل عن ستين سنة ، وحاولت بريطانيا خلال تلك المدة السيطرة على كافة المناطق الواقعة على شواطئ المحيط الأطلسى والمناطق المطلقة على طول ضفاف نهر النيجر ورافده نهر البينوى حيث يمكن وصول المعدات العسكرية إلى قواتها ، ثم أعدت كسل ما استطاعت من قوة لدخول معارك ضارية مع الحكومة الإسلامية القائمة فى شمال نيجيريا . وقد كانت المناطق الشمالية ذات أهمية كبيرة باعتبارها جزءا هاما من الأماكن الأساسية التى كانت محور السياسة المالية الكافئة وراء الزحف الاستعمارى ، وكذلك باعتبارها المنطقة الوحيدة المتبقية للتقسيم بين القوى الاستعمارية خلال تسعينيات القرن التاسع عشر الميلادى . وأوسع المناطق التى لم يدخل إليها التبشير فى العالم فى تلك الفترة . وقد وردت فى تقارير كثير من المستكشفين وخاصة بارث (Barth) * أن شعوب هذه البلاد كانت ذات حضارة رفيعة وخبرة كبيرة فى الصناعة وأنها كانت تعيش حياة مليئة بالسعادة والهناء وأنها شعوب مثقفة فافت فى جميع التواحي شعوب المناطق الساحلية . وقال الأستاذ أينديلى Ayandele

" لقد أصبحت المناطق الشمالية من نيجيريا موضع اهتمام الهيئات التبشيرية بصورة خاصة منذ

(1) CMS G3/A2/014 Tugwell to Baylis , 21 Feb., 1910, cited by E.A. Ayandele, op.cit., P.117

(2) E.A. Ayandele. op.cit., P.120

قيام ثورة المهدي في السودان الشرقي واغتيال البشير جنرال غوردون General Gordon في الخرطوم . وقد قامت روح حماسية معادية للإسلام في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية عندما بدأت جيوش المهدي وخليفته من بعده تحوز انتصارات باهرة متتالية وكذلك اعتقال خليفة المهدي للقساوسة الكاثوليك الفرنسيين وتقهر الأمين باشا أمام قواته المظفرة ثم انسحاب الخليفة من أراضي الأمين باشا . وإذا كان احتلال بريطانيا لأفندا بعد سنة ١٣٠٨ هـ ١٨٩٠ م دليلا على عدم استطاعة الخليفة توسيع حدود دولته الإسلامية إلى ناحية الجنوب فقد كان هناك قلق شديد لتوقع زحف حركة المهدي إلى اتجاه الغرب لتطويق المناطق المعروفة بالسودان الأوسط وهي ما عرف اليوم بمناطق شمال نيجيريا تقريبا . وقد كانت الهيئات التبشيرية تترقب وتتنبأ بتلف شديد يوما يقوم فيه المسيحيون البريطانيون بأخذ الثأر عن قتلة البشير غوردون وتدمير الحكومة الإسلامية في السودان الشرقي^(١) . وقد سبق أن فصلنا الكلام عن دوافع الفزرو الصليبي للعالم الاسلامي عامة في التمهد الثاني من هذه الرسالة وبيننا أن جميع محاولات الأوربيين في أفريقيا ابتداء من حركة الكشوف الجغرافية التي قادتها البرتغال في العصور الفاهرة ثم الحركة الحديثة لاستكشاف أفريقية الداخلية وما تلاها من الحملات التبشيرية وما أعقبها من الزحف الاستعماري كانت كلها امتدادا للحروب الصليبية بلاشك . ولم يكن قيام ثورة المهدي في السودان الشرقي ولا اغتيال البشير جنرال غوردون في الخرطوم ولا كل ما ذكر من شأن خليفة المهدي هو أصل عداوة الأوربيين للمسلمين ومخضهم للإسلام في السودان الشرقي أو في شمال نيجيريا . وإنما جذور العداوة والحقد كانت أعمق من ذلك بكثير كما سبق أن أشرنا إليه .

لقد خاف الأوربيون في الحقيقة من قوة حركة المهدي وعرفوا أنها تشكل خطرا كبيرا من شأنه أن يمرق الزحف الاستعماري في أفريقيا . فأسرعوا إلى تطويقها لمنع امتداد سلطانها لاكتساح الحكومات الإسلامية المجاورة ثم هجموا عليها فحطموها . * ونفذ وقت ميمبر سنة ١٣٠٤ هـ ١٨٨٦ م شكلت لجنة في مدينة منشستر Manchester لتمويل أي حركة لمحاولة التوغل

(1) E.A. Ayandele, op.cit., P.118

داخل بلاد شمال نيجيريا * (١) .

وقد قام المبشر غراهام ويلموت بروك Graham Wilmot Brooke بمغامرات كبيرة في البحث عن الطريق الذي يوصل الى شمال نيجيريا للتبشير فيه ، وقد دامت محاولاته اثـر مـن خمس سنوات .

وعندما اهتدى في النهاية الى ان الطريق البحرى عبر مصب نهر النيجر فى المحيط هــو الطريق الوحيد لدخول المناطق الشمالية خرج سنة ١٣٠٧ هـ ١٨٨٩ م على راس بعثة تبشيرية كبيرة تكونت من اثني عشر مبشرا كانوا خريجي جامعة كيمبرج وجامعة اكسفورد ، وقد اطلق على هؤلاء المبشرين اسم جماعة السودان التبشيرية . ولم يسبق ان بحث عدد كبير من المبشرين كهذا الى بلد واحد وفى وقت واحد كما حصل لجماعة السودان التبشيرية . ولكن رغم ذلك فقد فشلت البعثة فى مهمتها ولم تستطع الجماعة ان تحول شخصا واحدا من اهل الى الشمال الى المسيحية . وقد شعرت الجماعة بلامع الفشل عند وصولها الى اول مدينة من المناطق الشمالية المسلمة وعرفت ان المهمة شاقة وعويصة وانها لم تمتلك تلك القوة السحرية التى تستطيع ان تحول بها المسلمين الى المسيحية . وقد اعتقدت الجماعة انها تستطيع ان تؤثر فى قلوب المسلمين بالمقارنات الخارجية فارتدى المبشرون زي المسلمين ولبسوا العمامة والنعال . قالت جريدة السودان " ولما رأى المسلم العادى المبشرين بهذا المظهر اعتبر ذلك خطوة اولية منهم نحو اعتناق الاسلام " (٢) .

وعندما بحثت جمعية الرسائل المعمدانية الاميركية المبشر ديفيد هندرار David Hinderer الى نيجيريا لمهمة دراسة لغة هوسا ومحاولة دخول المناطق الشمالية لاستئناف اعمال التبشير فيها رأى خطورة التقدم الى الشمال مباشرة واقترح ضرورة اقامة سلسلة مراكز تبشيرية فى مختلف المدن الكبرى وعواصم الحكومات المحلية فى كافة انحاء المناطق الجنوبية بحيث لا يبعد بعضها عن بعض ، وذلك فى سبيل تمهيد الطريق لدخول المناطق الشمالية . قال

(1) C.M.S G3/A3/05 L.K. Shaw to C.M.S 5 Dec., 1892

(2) Sudan Leaflet No 9

المبشر هندرار " لقد استطعنا أن نقيم مركزين تبشيريين في مدينتي بدافري وأبيوكوتا وأنا
وائق جدا أن الإله الرب سيستجيب لدعائنا ويمطينا مدينة إبادن ، وإن النقطة الثالثة هي
مدينة إلورن وستوصلنا الزاوية الخامسة إلى دولة تشاد حيث نستطيع بمدها أن نصافح
إخواننا المسيحيين في شرق أفريقيا (أي بلاد الحبشة المسيحية) وقد صرح المبشر بسون
Bowen أن عملية تنظيم سلسلة المراكز التبشيرية في المدن الرئيسية في هذه البلاد حتى
تمتد إلى مناطق نهر النيجر ومنها إلى مناطق بحيرة تشاد ثم إلى الحبشة ليست مهمة سهلة
هينة . " إنها ليست عمل يوم واحد بل ليست عمل جيل واحد ،

ولكن مع ذلك سيقوم جيلنا المعاصر بتمهيد الطريق حتى تتمكن الأجيال القادمة أن تحقق
في سنة واحدة ما حققناه نحن في فترة عمرنا كلها . ولقد وددت أن أقطع أشواطاً بعيدة في
سبيل نشر المسيحية في هذه البلاد ولكن لا سبيل إلى ذلك في الوقت الحاضر ولذا أرى وجوب
إقامة أساس قوي لهذا العمل .^(١) وقد عارض المبشر هنري تونسنند Henry Townsend

الحماسة الدينية التي دفعت الهيئات التبشيرية إلى محاولة توسيع رقعة أعمالها إلى بلاد هوسا
الشمالية لشن هجمات صليبية على الإمارات الإسلامية فيها ، في حين كانت هذه الهيئات
التبشيرية في حاجة ماسة إلى توحيد جهودها وحشد جميع طاقاتها من أجل تحقيق أهدافها
المشتركة في جنوب نيجيريا . وما أكثر ما بذله أولئك الأوروبيين من الجهود الكبيرة وما وضموه
من المخططات لإدخال المسيحية إلى الإمارات الإسلامية في شمال نيجيريا ، سواء ما كان ممن
أفراد المبشرين المخاضين والمستكشفين ، وما كان من الهيئات التبشيرية العليا التي كانت ترسل
البعثات وتمول الجماعات . ولكنها جهود ومخططات بذلت لتذهب أدراج الرياح ، لأن هؤلاء
المبشرين لم يستطيعوا أن يدخلوها إلا في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي . ثم إنهم لم
يستطيعوا أن يدخلوها إلا وعلى رؤوسهم المخافير حيث احتلوا بجيوش الاحتلال البريطاني
وتسللوا إليها تحت ظلال السيوف ودوى المدافع والحيارات النارية .

وقد بحث الحاكم لورد لوفارد مجموعة من المبشرين إلى مدينة كانو قبل قيام الاحتلال

(1) CMS CA2/049

(2) Bowen to Taylor 7 Sept., 1851, Bower's Letters

البريطاني على المناطق الشمالية ، ولما دخلوا المدينة وضعوا تحت مراقبة شديدة وعندما أدخلوا على أمير المدينة ضمنى المشر تفويل Bishop Tugwell بحماسة شديدة ليكرز بالمسيحية أرغم على القمود بشدة ، وأخبروا المبشرين أنهم ليسوا فى حاجة إلى المسيحية وأن كل ما يرفهون فيه فى شئون هذه الحياة كان موجودا فى القرآن الذى بين أيديهم . وهكذا فشلت البعثة ورد المبشرون على أعقابهم خائبين .

وقد وجدت فى تقارير جمعية إرساليات الكنيسة الانكليزية أنها لم تكن تتوقع أن يتفلسب الصليب على الهلال فى شمال نيجيريا بمجرد مجهودات المبشرين فى أعمال التبشير . ومنذ وقت مبكر فى سنة ١٢٩٩ هـ ١٨٨١ م حذر القسيس هنرى جونسون Henry Johnson تحذيرا شديدا فى التقرير الذى كتبه من حتمية فشل التبشير بين المسلمين .

قال القسيس هنرى " لم يكن فى العالم شعوب متعصبة ومقلدة تقليدا أعلى مثل ما فى هذه البلاد . وإن حكام هذه البلاد لا يعرفون ذلك التسامح الدينى الذى يسمى حرية الدين . وقد تحجرت عقولهم بسبب تمسكهم الشديد بالمعتقدات والتعليمات التى قررها القرآن بحيث لا يمكن أن تتجح معهم أى محاولة لتصويرهم " (١) .

وقد كان أمرا طبيعيا أن تؤدي حادثة مدينة كانو إلى قطع العلاقات القائمة بين الحاكم لفاراد وبين أمير المدينة . وكما حصل فى منطقة إجييو فى جنوب نيجيريا عندما منعت دخول المبشرين إليها أن أرسل الحاكم البريطانى على مستعمرة لاجوس حملة عسكرية كبيرة لإخضاع أهالى تلك المنطقة وفتح أبواب مدن المنطقة لدخول الهيئات التبشيرية فكذلك كان الحال بالنسبة للمناطق الشمالية . وإذا كان المبشرون وهم طلائع جيوش الاحتلال البريطانى قد ردوا على أعقابهم خائبين " فلابد من العودة مرة أخرى بالأسلحة النارية لدخول المنطقة عنوة " (٢) .

(1) CMS G3/A3/01 Report on the Upper Niger Mission, 1881, by Henry Johnson

(2) E.A. Ayandele, op.cit., P.135

إن المشاكل السياسية والاجتماعية التي قامت في جنوب نيجيريا منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي وتعلق بها المبشرون ليبرهنوا على حاجة شعوب هذه البلاد إلى المسيحية والحضارة الأوربية ، والتي برروا بها ضرورة قيام أعمال التبشير فيها . . . إن هذه المشاكل السياسية والاجتماعية لم توجد في شمال نيجيريا على الإطلاق . وإن حالة الأمن والاستقرار التي سادت أرجاء هذه البلاد رغم مساحتها الواسعة ، وآثار الإسلام في توحيد شعوبها وقبائلها ، والمستوى الرفيع من التعليم الذي كان يتمتع به معظم أهالي هذه البلاد ، وانعدام العادات الجاهلية في المجتمع مثل قتل التوائم واستخدام وسائل العنف ضد التحقيق مع المتهمين وهدم محاكماتهم ، وقتل النفس ، كل ذلك قد جعل الحكومة الاستعمارية لاتجد ما تتذرع به لتستجيب لمطامع الهيئات التبشيرية كما هو الظاهر في الحملات العسكرية التي نظمت لإخضاع حكومات المناطق الجنوبية الوثنية .

وقد أبدى المبشرون عداءً سافراً للقبائل الفولانية التي قادت حركة الجهاد الإسلامي التي شملت ربوع المناطق الشمالية وقالوا : " إن هذه القبائل كانت أعداء بريطانيا الألداء . . . وهم قوم نهابون متسلطون جبابرة أقاموا بجهادهم حكومة جائرة تافهة وقرروا على شعوب هذه البلاد حكماً فاسداً بغيضاً . ولا يمكن أن ينتصر الصليب على الهلال في هذه البلاد إلا إذا انتزعت الحكومة البريطانية سلطة الحكم من أيدي الأمراء الفولانيين واستبدلت قبائل هوسا المملوكة على أمرها بالقبائل الفولانية التي فرضت سلطانها على شعوب الشمال بالقوة . " وقد كان المبشرون يعتقدون أنهم متى ما استطاعوا أن يفعلوا ذلك يكونون قد استطاعوا أن يمحوا الإسلام من الوجود في هذه البلاد ، وأن قبائل هوسا ستدخل في المسيحية زرافات ووحدانا . وقد رأينا كيف بدأ المبشرون منذ أيام الاحتلال باثارة الثمرات القبلية بسين شعوب الشمال . لقد أرادوا تحلیم قوة ونفوذ القبائل الفولانية ظانين أنهم بذلك يقدرّون أن يقضوا على الإسلام . وقد فاتهم أن الجهاد الذي قادتته تلك القبائل لم يكن عن دافع روح القبلية ولا القومية وإنما كان لنشر الإسلام وإعلاء كلمة الحق ، وأنه لا يمكن أن يقهر الإسلام

بمجرد القضاء على سلطة الحكام النضولانيين • قال المبشر هاليجي J.T.F Halligey

رئيس جمعية إرساليات الكنيسة المنهجية في بلاد يوروبا "إن إحلال حكومة أورمية متحضرة محل الحكومات الإسلامية والسلطات الوثنية الاستبدادية البغيضة القائمة في هذه البلاد أمر إلهي وتدخل شرعي كريم من جانبنا •"

وقال مؤلف كتاب آثار التهشير في نيجيريا الحديثة نقلا عن المبشر تفويل (Tugwell) "إن الحكم البريطاني هو الحل الوحيد للمشاكل السياسية والاجتماعية التي سادت بلاد نيجيريا • وإن مسؤولية حل تلك المشاكل تقع على عاتق كل من المبشرين والحكـام المستعمرين •" ثم قال "إن هذه فكرته عن المملكة المثالية التي كان يدعو إلى إقامتها في هذه البلاد (٢) وقد رأينا كيف كانت جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية تتوق توقا شديدا منذ سنة ١٣١٢ م إلى قيام معارك ضارية لإخضاع عتاد السلطة الحاكمة في شمال نيجيريا وفتح أبواب هذه البلاد لدخول التهشير كما هو الحال بالنسبة لجنوب نيجيريا • وكانت تحرض الحكومة على احتمال كل ما تملك من قوة لكسر شوكة الإسلام ومحو آثاره من هذه المناطق - وكما سبق أن قررنا أن سيف الحديد وسيف الروح كانا دائما يسيران جنبا إلى جنب بحيث يسهم أحدهما الطريق للآخر • وأن المبشرين والمستعمرين كانوا دائما يتكلمون لإحباط محـاولات ومقاومات أي شعب يرفع رأسه لمنع السيطرة الأجنبية على بلاده، وفي كل منطقة منع دخول المبشرين إليها أرسلت الحكومة الاستعمارية جيوشها الجوراء لفتح المنطقة عوة وفرض سيادة حكمها عليها وإطلاق العنان للمبشرين للعمل فيها على رغم أنف الكارهين والمعارضين • وحيثما أرادت الحكومة الاستعمارية أن تبسط نفوذها السياسي أرسلت مبشرين لميهدوا لها الطريق • ويكونوا لها الأنصار • ويخلقوا لها الأجواء والظروف المناسبة لتتعلق بأهدابها لنيل مآربها السياسية والاقتصادية فيها • إن المستعمرين والمبشرين أناس من ضرب واحد ولهم الطيور على أشكالها تقع • وإن اختلفت أهدافهم في الظاهر وتباينت وسائلهم في تحقيقها • ولكن الغاية التي يسمون إليها واحدة وهي السيطرة السياسية والاقتصادية والدينية •" وقد جمع سسير

(1) E.A Ayandele, op. cit., P.2

(2) Ibid., P.126

جورج غولدى Sir George Goldie أكبر من مائة عهد تم إنقاذهم بعد حرب بلاد
نموية سنة ١٩١٥ م ١٨٩٧ م ونى لهم مدينة فى منطقة منحت إياها شركة النيجر التجارية^(١)
سميت بفتوريا ثم سمح للمبشرين بالقيام بتحويلهم إلى المسيحية^(٢) وقد انتهز المبشرون الفرصة
المواتية لمعالجة الحكومة الاستعمارية باستعمال القوة للقضاء على الملال من أجل الصليب^(٣).

وقد سبق أن قررنا عند حديثنا عن احتلال بريطانيا لنيجيريا أن الأوربيين لم يستطيعوا
أن ينفذوا فى المناطق الشمالية رغم المجهودات والخطط والوسائل التى اتخذت فى هذا
السبيل . ولم تكن لتفهم المآهات التجارية ولا العلاقات الدبلوماسية ولا محاولات
المبشرين وقد شرع المستعمرون السيوف فى وجه المسلمين فأثخنوا فيهم القتال ودمروا سلطانهم
وبلادهم ولم يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة . ولم تكن فى شمال نيجيريا مدينة ولا قرية إلا دخلتها
جيوش بريطانيا مدججة بالأسلحة والمعدات الحربية الحديثة وفتحتها بالقوة وطردت منها
حكامها وفرضت سيادتها وسيادة حكمها عليها " إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا
أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون " .

وجب أن نتدبر سياسة الحكام البريطانيين تجاه أعمال التبشير فى شمال نيجيريا لنهتسين
موقفهم فى الناحية الدينية . حقا أنه ورد فى تصريحات الحاكم لورد لوفارد Lord Lugard
والحكام البريطانيين الذين جاءوا من بعده أن الحكومة الاستعمارية قد تعهدت بعدم التدخل
فى شئون المسلمين الدينية ولكن ذلك لا يعنى منع قيام أعمال التبشير فى هذه البلاد وقد صرح
الحاكم لوفارد نفسه أخيرا أنه لم يسبق أن وعدت السلطان والأمراء المسلمين بعدم السماح
للإرساليات التبشيرية بدخول البلاد الإسلامية إطلاقا^(٤) .

(١) فى نير بلاد النوبة الموجودة فى جنوب مصر .

(2) CMS G3/A3/07 The Hausa Association Occasional Paper NOx111 1998

(3) E.A.Ayandele op.cit., P.139

(4) CMS G3/09/03 Memo of interview with Lord Lugard July 1912

ورغم اعتقاد الحاكم لفارد بأن المسيحية هي أقوم وسيلة — في نظره — لرفع مستوى الأفارقة في شتى المجالات إلا أنه حرصا على مصالح حكومته العسكرية والسياسية والاقتصادية حاول ألا يثير غضب ونفخ الحكام المسلمين على الأوربيين بفرض المسيحية عليهم بالقوة . وقد كان بين حين وآخر يحسب حسابا للشعور الإسلامي ولا يود أن يجرحه بأعمال التبشير العلنية . وقد كان يؤكد مرارا وتكرارا أنه مهما تكن عيوب الحكومة الإسلامية في الشمال فإن لها مظاهر متنازة جدا جعلتها جديرة بتقدير أي حاكم . وأن كن ما يلزم عمله هو محاولة تحديد سلطة الحكام الغولانيين المسلمين تدريجيا . وقد رأى أن من الحكمة أن يكون واقفيا في مهمته لا مثاليا مثل المبشرين .

وعلى هذا كان رأيه أنه لا ينبغي أن تسند الحكومة الاستعمارية مصلحة المبشرين في جميع الأحوال بل لابد من مراعاة مصالح الحكومة واعتبار الأحوال والظروف وحيثما يمكن أن يحدث المبشرون المشاكل للحكومة يجب أن تحد ^{فيه} نشاطهم أو تفرض الحظر على أعمالهم إن لزم الأمر . وقد ظهر من خلال هذه الدراسة أنه لم يكن هناك أحد من الحكام البريطانيين على المناطق الشمالية أكبر من الحاكم لفارد مراعاة لمصالح المبشرين . ولا أقدر منه على تحمل بعض التصرفات الطائفة التي كانت تصدر من بعضهم ولم يكن يؤنب مباشرة لخطأ ارتكبه أو على جريمة سياسية أو اجتماعية تورط فيها . وقد ظل طوال أيام حكمه على هذه البلاد يناصر الهيئات التبشيرية ويدافع عنها بكل ما أعطى من قوة . وقد ذكر البشير تانويل (Bishop Tugwell) أنه قد اجتمع مع الحاكم لفارد في لندن سنة ١٣١٢ هـ ١٨٩٩ م وأخبره عن حصول جمعيته على موافقة مدير شركة النيجر التجارية وتشجيعه لها لبدء أعمال التبشير في المحية الشمالية ، وأنه عرض عليه طلب الجمعية الموافقة التامة من حكومته لأعمال التبشير ، وأنه أكد له عدم رغبة الجمعية في أحداث مشكلات سياسية في هذه البلاد . وذكر أن الحاكم لفارد قد اعترف بالارساليات التبشيرية وأعطاهم الإذن التام لبدء أعمالها ، ثم حذر المبشرين من التطفل داخل المناطق التي لا يكون في استطاعة الحكومة أن تتكفل لهم الحماية التامة فيها . وكان الحاكم لفارد يربط بذلك أن يسير الاحتلال العسكري وأعمال التبشير جنبا إلى جنب ، وألا يتورط المبشرون في محاولة

(١)

دخول المناطق التي لم يتم فتحها. " لما وراء ذلك من أخطار جسيمة على حياتهم . وقد صرح لوفارد أن الدعاية التبشيرية كانت ذات أهمية كبيرة للحكومة الاستعمارية^(٢) وقال " إن المسيحيين أكثر ولا " وطلاعة للحكومة البريطانية من المسلمين ، لأن المسلمين لا يمكن أبدا أن يقلموا من قلوبهم جذور بغضهم للكفار وحنقهم عليهم لذلك كانت هذه الحكومة تنظر دوما إلى انتشار الإسلام بعين البغض والكراهية^(٣) . وتعتبره خطرا كبيرا على استقرار حكمها وتحقيق مصالحها السياسية والاقتصادية والدينية في هذه البلاد . وعندما أراد لوفارد تحديد نشاط التبشير في المناطق التي سادها الإسلام وطرح قيام المؤسسات والمراكز التبشيرية فيها إذا لم يكن هناك دعوة خاصة من حكام تلك المناطق لطلب دخول المبشرين ، عارض المبشرون هذه السياسة بحنف وأدى الأمر إلى تباعد وجهات النظر بين الحكومة وبين الهيئات التبشيرية ، ونتج عن ذلك إعادة النظر في علاقة الحكومة مع الهيئات . وعلينا أن نؤكد هنا أن أي شحور مضاد لأعمال التبشير يوجد في تقارير الحاكم لوفارد الرسمية منذ سنة ١٣١٨ هـ ١٩٠٠ م وكذلك أي محاولة صدرت منه لتحديد نشاط المبشرين كان سببه يرجع إلى حماسة المبشرين الطائشة التي فاقت كل تصور . وعلى أية حال " فان الحاكم لوفارد قد وقع في حيرة شديدة من أمر التبشير في هذه البلاد ، وأخذ يتساءل مرة : " لماذا أراد المبشرون أن يحولوا هؤلاء الناس الذين لا يقبلون التحويل ؟ لمساذا لا يركزون جهودهم على المجموعة الوثنية في هذه المنطقة؟^(٤) وقد لاحظ المشر ملر Miller

فشل أي محاولة لتحويل المسلمين . وقد زعم " أن سبب ذلك ضيق عقولهم في التفكير ثم وجه اهتمامه الكبير إلى تثقيف وتحضير القبائل الوثنية المتأخرة لإحداث ثورة عارمة " في مجرى الأحداث السياسية والاجتماعية والدينية " في مستعمرة نيجيريا^(٥) وقد ظهرت صعوبة الأمر لا فسى تحويل المسلمين في المناطق الشمالية المسلمة فقط وإنما ظهرت كذلك في بلاد يوربا من المناطق

(1) E.A. Ayandele, op.clt., P.129

(2) CMS G3/A9/10 Miller to Baylis April 1901

(3) Native Archives Kaduna 1270/1906 Lugard to Bailey 15 June 1906

(4) CMS G3/A9/10 Memo of interview with Lugard 23 July 1906

(5) Walter Miller, An Autobiography, P.24

الجنوبية وفي محافظة زاريا التي اعتبرها المبشرون أهم قاعدة لأعمال التبشير في شمال نيجيريا كان نجاح أعمال التبشير محدودا جدا. " وقد أثبتت التقارير أنه رغم كل مجهودات جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية في تنصير المسلمين التي استمرت خمس عشرة سنة لم يبلغ عدد الصابئين العشرين * (١) وقد عارض المندوب البريطاني بوردون Resident منذ البداية سياسة لوفارد تجاه المبشرين ونسب عوامل النفور القائمة بين الحكومة وبين الأمراء المسلمين إلى شعورهم وانطباعاتهم نحو تدخلها في الشؤون الدينية وتوقع قيامها بتحويل المسلمين إلى المسيحية * وقد ذهب المندوب إلى أبعد من هذا حيث طلب من لوفارد الاعتراف بأن المسيحيين وخضوعهم لسلطة الإسلام كما قرره القرآن * وأن يعلن إنعان الحكومة كذلك في شؤون الدين لسلطة أمير المؤمنين وسلطان سوكوتو عاصمة حكومة شمال نيجيريا الإسلامية . وقال بوردون : إذا استطاع لوفارد أن يفعل هذا ستم معالجة الأمور في شمال نيجيريا في حالة سلمية حيث يقوم السلطان باستعمال نفوذ قيادته الروحية لطلب جميع الأمراء الآخرين بقبول سيطرة بريطانيا. " (٢) وقد كتب سكرتير اللجنة العليا لجمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية ف بيليس Baylis إلى الحاكم لوفارد عند استقالته من منصب الحاكم الأعلى على المحمية الشمالية سنة ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م رسالة جاء فيها : " لقد علمت اللجنة عندما وصل إليها نبأ استقالتك أنها قد فقدت صديقا حبيبا في هذا الميدان كانت اللجنة تعتمد دائما على عنايته الكبيرة واهتمامه البالغ ومعاملاته الطيبة * وقد طلب مني أعضاء اللجنة أن أعرب لسماعتك عسى تقديرهم الكبير لما مددته من يد المون والمساعدة إلى هذه الجمعية وجميع مشريها عند ميسر حاجتهم إليها وفي أوقاتها المناسبة. " (٣)

وقد تغيرت سياسة الحكومة الاستعمارية تجاه أعمال التبشير في هذه البلاد منذ تولى سير بيرسي غروارد (Sir Percy Gimsard) منصب الحاكم الأعلى على المحمية الشمالية سنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٢ م حيث أصدر أمره بوقف جميع نشاط التبشير في بلاد المسلمين وفي

(1) E.A.Ayandele op.cit., P.133

(2) N.A. Ibadan, C.SO 1/27 vol.2 Burdon to Lugard, April 1902

(3) L.P. Baylis to Lugard, 11, October 1906

وفي المناطق الوثنية متى ما أمكن ذلك . وإذا كان الحاكم لفارد لم يعتبر بما كان يجرى في البلدان الإسلامية الأخرى التي وقعت تحت الحكم البريطاني فإن الحاكم بيرسي غروارد (Sir Percy Girouard) قد عرف أن لورد كرومر (Lord Cromer) قد امتنع من السماح للإرساليات التبشيرية بالعمل في الخرطوم بعد تدمير بريطانيا لجيوش المهدي سنة ١٣١٣ هـ ١٨٩٨ م كما أن الشركة التجارية البريطانية التي احتلت الهند الشرقية في القرن الثامن عشر الميلادي قد منعت قيام أعمال التبشير فيها وكل ذلك حرصا على مصالح الحكومة الاستعمارية في هذه البلاد . ولئلا يظن الحكام المسلمون أن المبشرين بمبعوثون سياسيون متكبرون بقبحات القسم والأساقفة وأنهم طلائع الحكم المسيحي الذي أرادت بريطانيا أن تفرضه عليهم بالقوة .

وقد قال الحاكم سير غروارد (Sir Girouard) " لقد وجدت أن أرى الإرساليات التبشيرية تنسحب كلها عن المناطق الشمالية لأن أحسن مشرفي الوقت الحاضر هو المندوب البريطاني صاحب المشاعر النبيلة الذي يحيا حياة طاهرة شريفة ، ومع شديد الأسف أرى أن الهيئات التبشيرية لا تقدم أي خدمة ولو قليلة في شئون حكم هذه البلاد ، ومع ذلك فقد كانت مصدرا أساسيا لحدوث القلاقل والمشاكل . وقد قال المبشرون أنفسهم أنه لا علاقة بسين ديانتهم وبين الفطرة السليمة ^(١) . وقال المندوب البريطاني سي . ل . تيمبل (C.L Temple) " إن وكلاء الحضارة الأوروبية من المثقفين الأفارقة والتجار والمبشرين والمندوب نفسه كانوا يشكلون خطرا كبيرا على شئون الحياة في المجتمعات المحلية ولكن الخطر الأكبر هو البشر ويجب ألا يترك له مجال للعمل في هذه البلاد ^(٢) .

وقد صرح سكرتير الشؤون الخارجية البريطانية لورد سالزبري Lord Salisbury في حديثه الخدير الذي ألقاه في قاعة اكستار (Exeter Hall) سنة ١٣١٨ هـ ١٩٠٠ م ، وكشف فيه النقاب عن وجه الحقيقة بقوله : " إن الهيئات التبشيرية هي المسؤولة بطريق مباشر عن كثير من الممارك الضارة التي وقعت في أماكن كثيرة في أفريقيا " ثم أولى موضوع محاولة تحويل المسلمين إلى المسيحية عايته الخاصة ، قال سالزبري : " لا تستطيعون أن تحولوهم

(١) Girouard to Lugard, 25 January, 1908

(٢) C.L. Temple, Native Races and their Rulers, Cape Town 1918 cited by Ayandele op.cit., P.149

(أى المسلمين) إننى لم أقل بأنكم لن تستطيعوا أن تفعلوا ذلك — علم الله أننا لا نخاف ذلك — ولكن نظرا إلى ما توصلنا إليه فى الوقت الحاضر وحسبما دلت عليه خبرتنا وتجاربنا نؤمن أن الفرص المتاحة أمامكم لتحويلهم كانت قليلة جدا ويجب ألا تنسوا أنكم فى الأخطار التى تكمن وراء خلق المشاكل الكبيرة وإحداث القلاقل الشديدة التى قد تكون دمية • وعليكم أن تعلموا أن تلك الأخطار ستكون عقبة كبيرة فى وجه تقدم المسيحية التى تهدف فرغ في نشرها أكثر من نشر أى شيء آخر فى هذه البلاد^(١).

قال الأستاذ أيندلى: إن السبب الوحيد الذى تعلق به الحكام البريطانيون لتبرير سياستهم المضادة للمبشرين هو خوفهم الشديد من قيام جماهير المسلمين بثورة عييفة ضد أعمال التبشير • ودلت التقارير على أن الحكومة الاستعمارية منذ سنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م لم تعد تريد بل قد تأسفت وفدمت على تحويل أى مسلم إلى المسيحية وكذلك فى تحويل الوثنيين • ولم تعد المسألة مسألة العهد المزعوم (ما تصهت به الحكومة من عدم التدخل فى شئون المسلمين الدينية) ولا وسيلة لتدبير المكيدة والحيلة ولا وسيلة لاقترار الأمن فى البلاد ولكنها سياسة مضادة للمبشرين ومعادية للمسيحية نفسها^(٢) • لم يستطع هذا الكاتب المسيحي أن يتخلص من العصبية الدينية العمياء بأعباء سياسة الحكام البريطانيين المسيحيين فى منع قيام أعمال التبشير فى المناطق الشمالية المسلمة خطة معادية للمسيحية نفسها • والفريب من أمر هذا الرجل أنه قد أورد أدلة كثيرة على الأخطار الكامنة وراء أعمال المبشرين فى هذه البلاد بسبب تطرفهم وحماسهم الدينية المفرطة وما أثاروه من المشاكل وما أحدثوه من القلاقل فى شتى المجتمعات الأفريقية الإسلامية منها والوثنية • وهو نفسه قد نقل كلام سكرتير الشؤون الخارجية البريطانية لورد سالisbury (Lord Salisbury) الذى حمل المبشرين مسؤولية أحداث المشاكل التى أدت الحكومة البريطانية إلى إرسال الحملات العسكرية إلى أماكن كثيرة فى أفريقيا. وكذلك نقل كلام الحاكم بيرسى غروارد (Percy Girouard) وكلام المندوب البريطانى

(1) The Times Weekly Edition, 22 June, 1900

(2) E.A. Ayandele op. cit., P. 151

تبول Resident Temple اللذين سبقت الإشارة إليهما قبل قليل . إن الخطة السياسية التي وضعها المبشرون أيام حكم الحاكم لوفارد والتي استتبعت من مجموعة الرسائل المتبادلة بين ذلك الحاكم وبين المبشر والتارملار (Bishop Walter Miller) سنة ١٢٢١ هـ ١٩٠٣ م إنها من حيث الحقيقة أفكار غير قابلة للتنفيذ على الإطلاق . فإن المبشر ملارك كان رجلاً مثالياً وشاباً صغيراً لم يكن لديه خبرة كبيرة في السياسة وإنما كان فقط مؤيداً متطرفاً لفكرته النهادفة إلى إقامة حكومة مسيحية في شمال نيجيريا على أنقاض الإمارات الإسلامية القائمة فيه . وقد أكدت تلك الخطة ضرورة تولى المسؤولين البريطانيين إدارة شؤون حكم هذه البلاد بطريق مباشر . وكذلك أبدت اهتماماً كبيراً بقبائل هوسا واعتبرت العناصر الأساسية ذات الأصالة الصديقة من بين شعوب هذه البلاد ، وادعت أن هذه القبائل كانت على أتم الاستعداد للاستسلام الكامل والإذعان التام لسلطة الحكومة البريطانية ثم أكدت الخطة ضرورة استعمال القوة لتدبير سلطة الحكام الغولانيين الروحية والسياسية لأن هذه القبائل — على حد زعم المبشرين — قد فاقت جميع الشعوب الأخرى في أعمال العنف والظلم والخيانة وعدم الاعتراف بحقوق الإنسان . ولذا يجب عمل كل ما يلزم للقضاء على حكم الغولانيين المسلمين القائم ، وذلك من أجل مصلحة بريطانيا نفسها ولأن هؤلاء الحكام لم يحملوا ولا هم للحكومة ولا يمكن أن يحملوا ذلك أبداً^(١) .

وقد وردت في خطة المبشرين السياسية أن جميع التعليم الإسلامي الذي كان منتشرًا في شمال نيجيريا كان عديم الفائدة بل هو تعليم فاسد ولذلك يجب تزويد الشعب الشمالي بالتعليم العقلاني أو التربية الروحية (Liberal Education) التي كانت الجمعيات التبشيرية تقوم بنشرها فسي أفريقيا . ويجب كذلك عمل كل ما يلزم لرفع وإزالة كراهية الشعب الشمالي للتعليم الغربي بإغناء كل من أدخل أولاده في المدارس من دفع الضرائب . ولا يمكن إزالة الجهل المفرط الذي كان سبباً لغدر هذا الشعب وخيانتهم للحكومة البريطانية إلا عن طريق عاملين أساسيين هما المسيحية والتعليم الغربي .^(٢) وقد ورد في رسالة المبشر ملار (Bishop Walter Miller) إلى الحاكم

(١) CMS G3/A9/01 Miller to Lugard 29 July 1903

(٢) CMS G3/A9/01 Miller to Lugard 29 July 1903

لوفارد (Lugard) ما يلي : " يسرنى أن أؤكد لسعادتك أن المستقبل الزاهر في هذه البلاد يعتمد على نشر المسيحية فيها ولكن ليست المسيحية المصحفة الزائفة التي صيغها الأوروبيون بصيغة عصرية ولكن المسيحية المقصودة هي التي تكون تغييرا حقيقيا للقلوب ويتمتع تفسيرا حقيقيا في أسلوب الحياة ومنهج التفكير^(١) " .

وقد كان المبشرون يريدون انقلابا مسيحيا كاملا . كانوا يريدون تغييرا كليا في شئون الحكم وفي شئون القضاء وفي شئون المهادة وفي سلوك الأفراد والمجتمعات . وكل ذلك من أجل محو الأديان وتغيير شئون الحكم والشئون الاجتماعية القائمة في هذه البلاد قبل دخولهم وخاصة في المجتمعات الإسلامية . وقد أولت الخطة التعليمية التي وضعتها جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية سنة ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م اهتماما بالغا بلغة هوسا بأخبارها اللغة المشتركة في المناطق الشمالية وإن لم تكن لغة مكتوبة بحروف خاصة . وقد أكدت الخطة أهمية بذل الجهود لكتابتها بالحروف اللاتينية بدل الحروف العربية التي كانت تكتب بها منذ زمن بعيد . وقال المبشرون إن ذلك سيجعل هذه اللغة معروفة لدى الدول المتحضرة الراقية لا محصورة في حدود العالم الإسلامي فقط . ولقد نوه الحاكم لوفارد الذي اعتمد هذه الخطة بأهمية التعليم التربوي في الخطة التعليمية الصحيحة وقرر وجوب تدريسه وتمحيته بالتحاليم المسيحية . وقد ذكرت جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية أن هذه الخطة ستكون وسيلة للتبشير في بلاد المسلمين بينما تقوم في نفس الوقت بتزويد أبناء المسلمين بالثقافة الغربية التي يريد لها الحاكم لوفارد^(٢) .

وهذا كل ما كان المبشرون يريدون أن يقوموا به في مثل المناطق الشمالية التي كان الإسلام فيها قوة هائلة بسط سلطانها الروحي والسياسي والاجتماعي والثقافي على ربوعها منذ زمن بعيد . إن سياسة الحكام البريطانيين بمنح قيام التبشير في هذه البلاد لم تكن معادية للمسيحية نفسها كما ذكر ذلك الكاتب المسيحي وإنما كانت في المقام الأول من أجل تهدئة حماسة المبشرين الجياشة المفرطة ، والحد من تطرفهم الشديد . ثم إنها كانت بعد ذلك مكيدة مدبرة وحيلة محاكاة لإخراج التبشير المسيحي في مظهر آخر خلاب ، وذلك نتيجة خوف رجال الاستعمار

(1) CMS G3/A9/01 Miller to Lugard 27 July, 1903

(2) E.A. Ayandele op.cit., P.140

من قيام ثورة غيفة من جانب جماهير المسلمين ضد أعمال التهشير والمطامع الاستعمارية يمكن أن تحدث من جراء أعمال التهشير العلنية . ولذلك قال الحاكم بيرسى غروارد (Percy Girouard) الذي كان أول حاكم يقرر سياسة مضادة لمصالح البشيرين في شمال نيجيريا : " لقد وددت أن أرى الهيئات التهشيرية تنسحب كلياً عن المناطق الشمالية لأن أحسن مهتر في الوقت الحاضر هو المندوب البريطاني صاحب المشاعر الثبيلة الذي يحيا حياة ظاهرة شريفة " (١)

وقد استحسن الحاكم البريطاني بيرسى غروارد سياسة الحكومة البريطانية الاستعمارية مع الهيئات التهشيرية في مصر والخلة التعليمية التي وضعها لورد كرومر (Lord Cromer) سنة ١٣٢٢ هـ ١٩٠٤ م . وقد حاول أن يقنع جميع المندوبين العاملين تحت حكومته بضرورة تقرير مثل هذه السياسة مع شعب شمال نيجيريا . وقد كانت مصر وبلدان شمال أفريقيا تعتبر أنموذجاً حياً سارت على منواله الحكومة الاستعمارية في شمال نيجيريا في الشؤون الاقتصادية وفي شؤون التعليم وفي شؤون الحكم (٢) .

ومنذ بداية فترة حكم الحاكم بيرسى غروارد على شمال نيجيريا سنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م بدأت الحكومة الاستعمارية تتعامل مع الإسلام كحليف لا كعدو لدود ، وتظاهروا للمسلمين بالحسب وتتودد إليهم كأصدقاء حميمين وكذلك أخذ المندوبون البريطانيون يحاولون الاقتراب من المسلمين لإزالة عوامل النفور القائمة بين المسلمين وبين الأوروبيين بصفة عامة . وقد كان المندوب البريطاني بوردون (Resident Burdon) يشهد الصلاة مع المسلمين في أيام الجمعة بصفة مستمرة . وكذلك المندوب تيمبل (Resident Temple) الذي كان متضلعا بلغة هوسا واللغة العربية . وبعض المسؤولين الآخرين في الحكومة كانوا يفضلون أن يقضوا إجازاتهم في طرابلس والمغرب والقاهرة (٣) . وقد أولى الحاكم بيرسى غروارد (Percy Girouard) موضوع التعليم كل اهتمامه . وقد عين هانس فيشر (Hanns Fisher) أول وزير للتعليم سنة ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م وطلب منه إعداد مخطط للتعليم العام يكون وفق الطريقة التي اختارها

(١) L.P Girourd to Lugard 25th Jan. 1908

(٢) E.A Ayandele op.cit., P 147

(٣) L.P. Girouard to Lugard 28 Apr. 1909, CMS G3/09/03
Alvarez to Manley 1912 G3/A9/02 Miller to Baylis
5 Feb., 1908

لورد كرومر للمصريين ، ومن أجل دراسة الأساليب المتبعة في الأقطار الأخرى قام ذلك الوزير بزيارة عدة مدارس في مستعمرة لاجوس وفي ساحل الذهب وفي مصر بالإضافة إلى زيارته السابقة لكلية غوردون في الخرطوم .^(١) وقد عرف الحاكم البريطاني أن العلم والدين في وجهة نظر المسلمين يكادان يكونان شيئاً واحداً حيث يخدم أحدهما الآخر . ومن أجل ذلك كان بعيداً جداً أن لا تثير شئون التعليم التي كانت الجمعيات التبشيرية تحاول أن تقوم بها في هذه المنطقة أيام حكم لوفارد شبهة الامتزاج بالبول الدينية المسيحية ولذلك ألقى هذا الحكم خطة المبشرين التعليمية وعهد إلى وزير التعليم بوضع خطة جديدة تقوم فسي الظاهر على أساس احترام التعليم الديني القائم في البلاد والاعتراف بالمؤهلات العلمية التي تمنحها المدارس الإسلامية . وقد اشترط الوزير على كل من يرغب في الالتحاق بالمدارس الحكومية إتمام التعليم الابتدائي في المدارس المحلية لتعليم القرآن الكريم . وقد كان يسمح للطلاب المسلمين الذين كانوا يتلقون التعليم في المدارس الحكومية بحضور المدارس الإسلامية للاستماع إلى الدروس التي كان بعض العلماء الكبار يلقونها على طلابهم .

» وقد تقرر إعطاء إجازة لا تقل عن شهر واحد في كل سنة لطلاب هذه المدارس وقد رأى الوزير أن الوقت المناسب لمثل هذه الإجازة هو شهر رمضان وكان مدتها تنتهي بحمد عيد الفطر^(٢) .

ولقد قام هانس فيشر (Hanns Fisher) بوضع مخطط عام في القواعد المبسطة لتبسيط لغة هوسا بمساعدة بعض الشبان الذين كانوا يتعلمون على المبشرين والذين كانوا يشتغلون عند بعض المسؤولين البريطانيين . ثم وضع مجموعة من الكتب المدرسية والمطالعات بلغة هوسا . وبعد ذلك وضع مناهج تعليمية دقيقة لجميع المراحل التعليمية . وقررت استكمالها في جميع المدارس الموجودة في المنطقة . وقد أنشأ هذا الوزير أول مدرسة حكومية في مدينة كانو سنة ١٣٢٢ هـ ١٩٠٩ م وكانت المدرسة تضم ثلاثة أقسام . وكان القسم الأول خاص بتعليم أبناء الملوك والأمراء ، والقسم الثاني يقوم بإعداد المدرسين والمحليين ، والقسم الثالث يقسم بتعليم الصنعة واللغات المحلية .

(١) Sir Charles W. Orr, The Making of Northern Nigeria, London 1965, P. 267

(٢) Ibid., P. 273

وقد كان التعليم في جميع المراحل والأقسام يحظى بلغة هوسا وكأنت تكتب بالحروف اللاتينية . وكان القسم الخاص بأبناء الملوك والأمراء يقوم باعطاء طلابه التعليم العام على مستوى جيد ليؤهلهم لتولى مناصب أساسية في شئون الحكومة المحلية . وقد فضل الوزير أن تكون تربيتهم وتشقتهم في المدارس الداخلية ولكنه كان يحذر دائما من تأثير التعليم الغربي على مظاهرهم الخارجية فلا ينبغي أن يُشجعوا على تقليد الأوربيين في اللباس وفي كل عمل لا يتناسب مع مجتمعاتهم أو يخالف تعاليم دينهم مخالفة صريحة . وكان القسم الثاني يقوم بإعداد المدرسين المحليين للعمل في المدارس التي ستشأ في هذه المنطقة وإعداد الكتاب والوكلاء التجاريين والموظفين للعمل في الدوائر الحكومية المختلفة . وكان القسم الثالث يقدم التعليم الابتدائي للأطفال على أساس علماني صرف بالإضافة إلى العلوم الصناعية .

ولم يكن من الخطة أن تقوم مدرسة كانتو المركزية بأقسامها الثلاثة مقام المدارس الإقليمية ، ولكن كان المقرر أن تكون لكل إقليم من الأقاليم المتعددة في هذه المنطقة مدرسة مركزية في العاصمة وعدد من المدارس لتعليم اللغات المحلية في مختلف المدن والمقاطعات الهامة . ولكن كان يجب مع ذلك أن يظل تعليم أبناء الملوك والأمراء في مدرسة كانتو المركزية وأن تقوم دار المعلمين فيها بتزويد المدارس الإقليمية بالمدرسين .

وهذه الخطة من شأنها أن تضمن وحدة تعليمية لجميع مدارس المنطقة كما تجعل جميع هذه المدارس خاضعة لنفوذ وزير التعليم والأساتذة الأوربيين . هذا وسيأتي بحث مستفيض عن التعليم الغربي والثقافة الغربية عند الحديث عن وسائل المبشرين لنشر المسيحية في هذه البلاد .

الفصل الثاني : وسائل المبشرين في نشر الدعاية التبشيرية .

المبحث الأول : التعلم الغربي ميدان فسيح للتبشير ونشر العلمانية اللادينية .

المبحث الثاني : ميدان التطبيق .

المبحث الثالث : دور وسائل الإعلام في نشر الدعاية التبشيرية .

المبحث الرابع : وسائل أخرى ذات أهمية في الدعاية التبشيرية .

((الفصل الثامن))

وسائل المبشرين في نشر الدعاة التبشيرية

إن طرق التبشير بالسيحية تختلف من جيل إلى جيل ومن قطر إلى قطر وحتى بين الجماعات التبشيرية المختلفة وإن كانت هناك قاعدة أساسية متعارف عليها بينها جميعا ، وإن سبب اختلاف وسائل التبشير وتفضيل وسيلة على أخرى لا يعود إلى اختلاف الهدف وإنما يعود إلى الأوضاع القائمة في أى بلد يدخله التبشير سياسية كانت أو اجتماعية أو دينية ، وحالة الأفراد والمجتمعات فيه ، قدما وتأخرا ، وقوة وضعف ، وحبا للسيحية وإقبالا عليها أو بغضا لها ونفورا منها ، وإن أمثال هذه الظروف التى تحيط بأعمال التبشير في أى قطر من أقطار العالم هى التى تملى على رجال التبشير الأساليب المتبعة والتنوع فيها والظهور بأقنمة مختلفة ووجوه متباينة ، فقد ظهروا في المرة الأولى على شواطئ المحيط الأطلسي في صورة التجار ، ثم تدرجوا إلى داخل القارة الأفريقية ونكروا في صورة المستكشفين ، ثم بعد ذلك جاءوا في صورة المبشرين مرتدين مسح المباداة ثم دخلوا بعد ذلك من وراء ستر مختلفة ، فهم المدرسون والأطباء والجنود والحكام المستعمرون والعملاء الأفارقة ، بل ظهروا في الآونة الأخيرة حتى في صورة المدرسين الرياضيين في الملاعب وأقنية المدارس !

وتتبع الإرساليات التبشيرية البروتستانتية والكاثوليكية طريقتين في التبشير :

الطريقة المباشرة والطريقة غير المباشرة . أما الطريقة المباشرة فهى التى تقوم على دعوة غير النصارى إلى المسيحية بشرح أمور العقيدة المسيحية والمبادئ والتعاليم المسيحية ، وقد ظهر للمبشرين أنفسهم أن هذه الطريقة قليلة الجدوى لا تفضى شيئا . وهب ذلك أن ما يحوزة المبشرين من العقيدة المسيحية ومبادئها وعماليها مجموعة أضاليل وقرهات لا تصمد في ميدان الجدل أمام الحق . وهذا الذى جعلهم في السنين الأخيرة يتركون هذه الطريقة المباشرة في نشر آرائهم إلى طريقة

أخرى أكثر التواء وخفاء .

أما الطريقة غير المباشرة فهي التي تتمثل في الأعمال الخيرية والإحسان المادي وما أشبه ذلك . ولقد استخدم المبشرون جميع الطرق والوسائل في سبيل نشر المسيحية واستغلوا جميع المناسبات والظروف في ميدان التبشير . فجال الأطباء وشئون التعليم ودور النشر والنشاط الاجتماعي والمؤسسات الزراعية ، وإعداد رجال الدين المحليين ، واستغلال مركز النساء والشبان في المجتمع ، ونقل الكتب من لغة إلى لغة أخرى ، والأعمال الخيرية والإحسان ،

كل هذه طرق ووسائل وجهها المبشرون توجيهها يجعلها تخدم التبشير في المقام الأول قبل أي شيء آخر .

ولقد أراد المبشرون أن يكون للأعمال الخيرية والعلاقات ذات الصلة الإنسانية مقام كبير في خططهم الموضوعة لأعمال التبشير ، ولكن على أساس أن تكون وسائل فقط لا غاية في نفسها || وقد كان المبشرون والمبشرات يتقدمون إلى من يريدون تنصيرهم بأنواع كثيرة من الأعمال ذات المظهر الخلاب . فيتظاهرون بالمحبة والمطف والسهر على تخفيف آلام المرضى وساعدة المساكين والمحتاجين وإغاثة المنكر بين وما أشبه ذلك من الأعمال الإنسانية . وقد يقال إن هذه أخلاق نبيلة وصفات حميدة في ذاتها . نعم إنها قد تكون كذلك في الظاهر ، ولكن تشابه ظواهر الأشياء لا يدل على تماثل القيمة والجوهر . إن ما يقوم به المبشرون من الأعمال الخيرة وما يتحلون به من الأخلاق القائمة إنما هي أعمال نفعية وأخلاق مادية فهي ذات قيم شكلية تستهدف غاية معينة ، ولا تسعى أعمال خير وإن اتخذت الفضيلة مظهرها لها مادامت تهذل في سبيل تحقيق أهواء ذاتية ، ومطالب نفعية وإلا فماذا نقول ياترى في حق الصياد الذي يضع طعماً دسماً في شبكته ليضرب بها الأسماك الجائعة ؟ فهل ذلك منه كرم خلقه ، أم حيلة للوقيمة بفريسته ؟ إن الذي يريد المبشرون هو أن ينفذوا من خلال هذه الوسائل إلى طرق جديدة للتبشير .

حتى زيارة المسجونين والمعتقلين والمرضى قد اتخذها المبشرون وسيلة للتبشير ، وقد كان نادرا جدا أن يستعمل المبشرون الطريقة المباشرة في التبشير بين المسلمين . يقول السير ريدر بولارد ' Sir Reader Bullard ' إن المسلمين كثيرا ما يقدرّون أعمال الجمعيات التبشيرية في التعليم والتطبيب ولكنهم يسمون آذانهم عن دعوتها الدينية " (١) . مرة " رفع طلاب المدارس التبشيرية في بلاد إيبو في الإقليم الشرقي من نيجيريا احتجاجا إلى جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية فحواه أنهم قد تلقوا الحد الكافي من التعاليم المسيحية في الكنيسة ومدارس أيام الأحد ولا يريدون هذا النوع من التعليم في المدارس على الإطلاق " (٢)

وفي منطقة بوني Bonny الوثنية صرح الحكام المحليون الذين كانوا يؤمنون بالمدارس التي أقامها المبشرون في هذه المنطقة بأنهم لا يريدون من المبشرين أن يعلموا أبناءهم التعاليم الدينية لأنهم قد تعلموا ذلك في بيوتهم وأن مسولية هذا التعليم واقعة على عاتق آباء هؤلاء الأولاد . وإنما الشيء الذي يريدونه من المبشرين هو أن يعلموهم كل ما يتعلق بالتجارة في أقرب وقت ممكن " (٣) .

قد ظهر أن وسائل المبشرين الظاهرة والخفية لم تجد نفعا كبيرا ولم تحقق من أهدافهم الأساسية إلا يسيرا . وقد حثّر هذا الأمر كثيرا من المسؤولين المعنيين بأمر التبشير والهيئات التبشيرية المحلية التي تمول الجمعيات وترسل البعثات إلى أفريقيا فقد أصدرت لجنة مكونة من المبشرين كتابا عام ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٢ م باسم " التفكير الجديد في أمر الإرساليات " (٤) قرروا فيه ضرورة استمرار أعمال التبشير في العالم ، ثم اقترحوا وجوب تنويع وتلوين وسائل التبشير لأن العالم دائما يتبدل ، فتتحول فيه الأحوال وتتغير فيه الظروف والمناسبات ، ولهذا يجب أن تتبدل خطط التبشير دوما حتى تسير تقبلات الأزمان وتغيرات الأحوال

(1) Sir R. Bullard, Britain and Middle East, New York, 1951, P63

(2) CMS G3/A3/011, J. Brandreth, Memo on Education Committee.

(3) L.J. Lewis, Society, Schools and Progress in Nigeria, Oxford, 1975, P.32

(4) The Committee of Appraisal, (Ernest Hocking Chairman) Re-thinking Missions, New York, London, 1932

وتجارى الظروف والمناسبات المستجدة . وليس فى استطاعتنا أن نستوعب جميع وسائل المبشرين فى شتى أشكالها وأنواعها ، لأن المبشرين أنفسهم لم يحددوها فى نطاق معين وإنما كانوا يستحدثون الوسائل ويتنحون فيها وينتقلون من وسيلة إلى أخرى كلما استجد بهم الأمر أو عندما تثبت التجارب فشل وسيلة معينة أو بسبب قيسام ظروف معينة ووجود أحوال خاصة . وقد تختلف وسائل المبشرين فى التبشير بسين أفراد المجتمع الواحد وكذلك بين جيل وآخر وبين قطر وقطر آخر ، فكل ما يـسـرـاه المبشر صالحا لأن يحقق له غايته فهو وسيلة إلى تلك الغاية بصرف النظر عن كونها شريفة أم غير شريفة ، فالغاية عندهم هى التى تقرر الوسائل وتبررها . وإن من بين وسائل المبشرين الهامة لنشر المسيحية فى هذه البلاد التعليم الغربى عامة والتطبيب ودور النشر والنشاط الاجتماعى وإقامة مؤسسات زراعية وإقامة قسوى مسيحية فى طريق تكتيل الجماعات المسيحية للاقتراف على المجتمعات الإسلامية وإعداد رجال الدين المحليين ، وقصر أعمال التبشير على أسر معينة لتقوم هى بدورها فى تنصير المدينة برمتها ، والأعمال الخيرية والإحسان وتشجيع الزواج بالأجنبيات المسيحيات واستغلال مركز الشبان والنساء فى المجتمع ، وما إلى ذلك مما سنتولى تفصيله فى هذا الفصل .

((البحث الأول))

التعليم الغربي ميدان فسيح للتبشير ونشر العلمانية اللادينية

لقد خبا نور العلم في العالم الغربي في العصور الوسطى التي اشتهست بالمعصور المظلمة بسبب انتشار الجهل وتراكم الظالم السياسية والاجتماعية وقياسا حالة التخلف والانحطاط . ثم بدأت غياهب تلك الظلمات تنجاب عن العالم الغربي شيئا فشيئا عندما طلع عليه العلم بنوره من ناحية الشرق . ولم تثن فترة طويلة حتى ازدهرت فيه المدنية وامتت الحضارة . ولقد كانت الروح الدينية المنحرفة على أشدها في أوروبا في العصور الوسطى ولم تكن فيها حضارة ذات قيمة، ولكن لما تزودت بقوة العلم قامت بحماسة شديدة تقضت على طغيان الكنيسة المسيحية وأصبحت بعد ذلك قبلة الحضارة في العصور الحديثة . فالحضارة الأوروبية لم تكن وليدة الدين المسيحي وإنما كانت وليدة العلم وحده .

ولقد أدرك المبشرون أن الموجه الحقيقي لكل فرد إنما هو البيئة الأولى التي احتضنته صغيرا ورفوا أهمية هذه البيئة التي يجب أن تستغل في سبيل جلاء شخصية الفرد وبناء شخصية المجمع ومن أجل تحقيق السعادة والرفاهية للمجتمع، ولكنهم مع ذلك لم يقيموا أي وزن لهذه الأهداف النبيلة . بل استخدموا العلم والتعليم لإفساد النبل الإنساني ، حيث جعلوا العلم وسيلة إلى استعباد الأفراد والأمم ثم سوقهم بعد ذلك بسيف الاستعمار إلى الخضوع المذل والاستكانة أمام سلطان السياسة المادية . ولقد سخر المبشرون الديانة المسيحية في سبيل ترويج بضائع أمهم ونشر الفساد الاجتماعي في هذا العالم . وبما أن التبشير الملني لم يحقق من الأهداف التبشيرية إلا يسيرا ، فقد رأى المبشرون ضرورة اتخاذ طرق غير مباشرة للتبشير ، وانتقت آراؤهم على أن التعليم هو أفضل هذه الطرق ، وذلك لما له من أثر في نشر المسيحية بين الناشئين . ولقد دلت التجارب على أن تعليم الأولاد الصغار هو أقوى وسيلة تأتي بأحسن الثمار في الدعاية التبشيرية .

ولذلك استغل المبشرون العلم للتوصل إلى غايات لم تكن مقصودة في حد ذاتها وإنما هي كذلك وسيلة إلى غايات أخرى . فإنهم في الحقيقة يريدون أن يصلوا عن طريق هذا النشاط البريء في ظاهره إلى استعباد شعوب هذه البلاد واستغلالها سياسيا واقتصاديا . قال المبشر جيب : " إن المدارس شرط أساسي لنجاح التبشير وهي بعد هذا واسطة لا غاية في نفسها ، ولقد كانت المدارس تسمى بالإضائية إلى التبشير " دق الاسفين " وكانت في الحقيقة كذلك في ادخال الإنجيل إلى مناطق كثيرة لم يكن بالإمكان أن يصل إليها الإنجيل أو المبشرون عن طريق آخر " (١) وقال ملغان : " إن المدارس قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي أكثر من كل قوة أخرى ، ثم إن هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوما ما قادة في أوطانهم " (٢) وقال المبشر جون موط : " يجب أن نؤكد في جميع ميادين التبشير جانب العمل بين الصغار ، وبينما يبدو مثل هذا العمل وكأنه غيرية ترانا مقتنعين لأسباب كثيرة بأن نجعله عمدة عملنا في البلاد الإسلامية . إن الأثر المفسد في الإسلام يبدأ باكرا جدا ، — من أجل ذلك يجب أن يحمل الأطفال الصغار إلى المسيح قبل بلوغهم سن الرشد قبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الإسلامية " (٣) .

ولقد كانت أكبر وسيلة استخدمها المبشرون في إحداث تغيير جذري في المجتمعات الأفريقية هي محاولتهم نهر الثقافة الغربية فيها . وإن المصالح الاقتصادية التي تأتي وراء الثقافة الغربية والمنافع الاجتماعية المتعددة التي ينالها الأفراد الذين يتلقون هذه الثقافة في البلاد التي دخلها الاستعمار هي التي جعلت هذا النوع من الحضارة عنوان التفاضل ومقياس الترقية إلى المنازل المالية

(١) من كتاب التبشير والاستعمار في الدول العربية ، تاليف د . مصطفى خالدي ود . عمر غرنج ص ٦٧ نقلا عن كتاب جيب

فى هذه البلاد • ولقد كانت الدول الاستعمارية التى تمول الهيئات التبشيرية
تعتقد أن اللغة هى التى توجه الثقافة ولذلك رأيناها تنفق بسخاء على جميع
المدارس التى تعلم اللغة الإنكليزية واللغة الفرنسية •

وكما سبق أن قلنا إن المبشرين عندما وصلوا إلى البلدان الأفريقية دفعتمهم
روح الحماسة الدينية الشديدة بالإضافة إلى مطالبهم السياسية والاقتصادية إلى اعتبار
مهمة تحويل الناس إلى المسيحية أمراً دينياً سهلاً فتصدوا لتنصير الكبار والصغار •
وأخذوا يركزون بالمسيحية بين العامة والخاصة وفى الجامعات والمخاض على عتبات الهيوت
وفى المدن والقرى بين المسلمين والوثنيين • ولكنهم رغم رغبتهم الشديدة فى تحويل
الكبار وجهوداتهم الكبيرة الم بذولة فى هذا السبيل — لم يلبثوا أن أيقنوا بفشل
أعمالهم فى صفوف الكبار • وعند ذلك وجهوا اهتمامهم البالغ إلى اجتذاب الأولاد
الصغار عن طريق المدارس • وقد اعترف بذلك كثير من المبشرين • وأكدوا أهمية
المدارس فى التأثير على عقول التلاميذ الصغار النضة • وإن فراغ عقول الأطفال يجعلهم
يتقبلون كل ما يقدم لهم من غير تمحيص • وقد جاء فى تقرير الجمعية المعمدانية
الأمريكية ما يلى : " إن الوسيلة الوحيدة التى بقيت لنا أن نستخدمها فى محاولة
تنصير الكبار هى الاستعانة بقوة الروح القدس فى دعوتهم إلى المسيحية • ويجب
أن نؤكد للرجال والنساء بأن الإنجيل قديم ولكن لا ينبغى أن يقال ذلك للأطفال
أبداً لأن الآله الرب يستطيع أن يحول قلوب الآباء كما يفعل بالأبناء • • • ولكن
التعليم المدرسى هو الوسيلة الناجحة بالنسبة للأطفال • ولكن يجب على الزملاء
أن يعرفوا أن عمل المبشر داخل أوروبا لا يوازى عمل زميله فى ميدان التبشير فى خارج
أوروبا • وقد كان أكثر المبشرين يأتون إلى أفريقيا وهم يعتقدون أن العمل فى أفريقيا
مثله فى أوروبا ولكن سرعان ما اقتنعوا بصحوة الأمر فى تنصير الكبار ولذلك توجهوا

نحو تنصير الأطفال * قال المبشر هردين (M.J.Harden)

(1) Cf. 'Official ' Baptist View at Home in America,
cited in J.F.A.Ajayi, op.cit., P.134 (from footnote)

" إخواني أؤكد لكم أيضا أنني قد عشت من نجاح محاولة تنصير الآباء ، ولكن أملك كبير جدا في إمكان تنصير الأولاد " (١) . قال المبرش ستون R.H.Ston " لقد قاربت حد الإقناع أن تأسيس المدارس للأجيال القادمة هو أساس أعمال المبرشين في المجتمعات الوثنية في أفريقيا . وجب علينا أن ندعو إلى المسيحية باستمرار ونحسن على استعداد تام وإيمان راسخ ودعاء كبير وسيتولى هؤلاء الأطفال مهمة قلع جذور الوثنية وتنصير جماهير هذا الشعب في المستقبل " (٢) . وإذا كان الكبار متمسكين بما وجدوا عليه آباءهم من ديانة وعقيدة وحضارة وكانت قلوبهم قاسية لا تنفذ فيها مواعظ المبرشين ولا تؤثر فيهم جميع خطبهم ووسائلهم ، فإن الأطفال المنار بقلوبهم النضة الرطبة التي لم تتحصن بعد بمقومات دينية وحضارية سيقومون بتمهيد جميع الطرق والوسائل لتمكين هذا الدين الجديد ونشره في هذه البلاد . وقد أدرك المبرشون بعد تجربة طويلة وخبرة كبيرة في ميدان التبشير أن محاولة تحويل الكبار إلى المسيحية كانت بمثابة بذر الحبوب في جانب الطريق أو نثرها فوق الأحجار الصماء .

وقد جاء في تقرير الجمعية المعمدانية الأمريكية ما يلي : " دعوا الأطفال يأتوا إلى المدارس لأي غرض كان فسيكون المبرشون مسؤولين عن فعلهم إذا لم ينتهزوا هذه الفرصة السانحة لتنصير هؤلاء الأطفال " (٣) . ولكن المشكلة هي كيف نستطيع أن نحجب التعليم الغربي إلى هؤلاء الأطفال حتى يأتي عدد كبير منهم إلى المدارس؟ كيف يمكن أن نجعل حاجة الناس للمعلم الغربي لا تقتصر على المدن الساحلية فحسب بل يجب أن تكون حاجة عامة تشمل جميع أنحاء البلاد ؟ وكيف نستطيع أن نخلق الأجواء لتقبل التعليم الغربي في المناطق الداخلية حيث لا يقدر غير تعلم صناعة البنادق والرشاشات؟ (٤)

(1) M.J.Harden 4.May 1858, to Poindexter The Commission July 1858

(2) R.H.Stone to Culpepper 9, July 1858

(3) Cf.Official Baptist View at Home in America, cited in J.F.A.Ajayi op.cit., P.134

(4) Cf.George Meakin, European Catechist at Oyo, 1858-59
CMS Ca21069

والتحاييل عندما أيقنوا بفشل التبشير العلني حيث كان المظهر الديني المصان من المبشرين يمرقل أعمال التبشير وينفر الناس من حولهم وخاصة الكبار . ولم تكن المقاومة من جانب المسلمين فقط ، وإن كانت من جانبهم أشد ، وأعنف منه فسي غيرهم ولكن كانت هناك مقاومة من جانب الوثنيين من أجل الحفاظ على معتقداتهم الجاهلية وتقاليدهم البالية والحدادات الشنيعة المنتشرة هنا وهناك .

وعندما عى المبشرون تماما من تحقيق أى نجاح ملموس فى صفوف هؤلاء الكبار اكتفوا بعمل كل ما يستطيعون لكسب موافقتهم وساندتهم لأعمال التبشير أو على الأقل ألا يتخذوا موقفا عدائيا ضد مصالح المبشرين ، ولكن ذلك أيضا لم يجدهم شيئا فصرعان ما انكشفت نواياهم وتبينت للناس تلك الخبايا والأغراض الكامنة وراء أعمالهم .

ولقد عرف المبشرون أهمية تربية الناشئين وتعليمهم فى المجتمع والدور الهام الذى سيلعبه الجيل الناشئ فى مستقبل ذلك المجتمع ومن أجل ذلك وجهوا اهتمامهم البالغ إلى تعليم الأطفال فأقاموا مدارس كثيرة فى المدن والقرى وبنوا إلى جانب كل مدرسة كنيسة وقول المبشرون مهمة التدريس فيها . وقد كانت تلك المدارس تجبر جميع طلائعها على دخول كنيسة المدرسة مرة كل يوم ولا يزال هذا العمل جاريا فى مدارس الإرساليات إلى يومنا هذا . وكذلك كانت تجبرهم على حضور مادة الديانة المسيحية حيث يقوم المدرس بتدريس " العهد الجديد " للأطفال قراءة وتفسيراً وحفظاً . وكذلك كانت تلزم الطلاب بحضور قداس الوجد يوم الأحد . كما أن هناك بعض اجتماعات دينية يفرض حضورها على بعض الطلاب المتقدمين . ولكن جهودهم فى حقل التعليم لم تكن لوجه العلم ولم يقصد من وراءها تحقيق مصلحة أو غاية يمسود نفهمها على شعب هذه البلاد كما سنبين فيما بعد وإنما كانت جهودهم فى مسد ان التعليم من أجل استغلال العلم لأهدافهم التبشيرية ليس إلا . لقد أراد المبشرون أن ينفذوا إلى نفوس الأطفال الصغار من أهون الطرق لاجتذابهم إلى الديانة المسيحية أو على الأقل لتوجيههم مسيحيا . ومعروف أن التعليم قوة توجيهية عظيمة ذات آثار بالغة فى تقدم أى مجتمع أو تأخره ، وأن مستقبل أى شعب يعتمد أساسا

على نوع التعليم الذى يقدم لناشئيه وهو هذا التعليم وقدرته على أداء واجباته فى رفع مستوى ذلك الشعب وإصلاح أسلوب حياته الدينية والاجتماعية والسياسية وتحسين شئون حياته الاقتصادية مما يحقق له السعادة والرفاهية والأمن والاستقرار . ولهذا كله لا يجوز أبدا أن تكون شئون التعليم فى أيد أجنبية حتى لا تلعب بها ، ولا تستغلها لمآربها وأغراضها المختلفة . وأى شعب جعل شئون بلاده التعليمية فى أيدي قوة خارجية لا تربط بينه وبينها رابطة العقيدة ولا المصلحة المشتركة فقد أضع مستقبله من جميع الجوانب ، وجعل بلاده فريسة لأطماع الطامعين وهدفا لمطامع المستغلين ، ولا بد أن تتمثر البلاد التى كان هذا شأنها فى حياتها الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية .

” ومنذ قيام علاقات البرتغال التجارية خارج الدول الأوروبية فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى كان البرتغاليون يعتبرون التعليم وسيلة ذات أهمية كبيرة فى نشر المسيحية * (١) . وفى سنة ١٧٩١ هـ / ١٥٧١ م أسس المبشرون فى جزيرة ساوتم (Sao Tome) الواقعة خارج شواطئ نيجيريا على المحيط الأطلسى معبدا لاهوتيا لإعداد الشبان الأفارقة لمهمة الكهنوت . وكما سبق أن قلنا أكثر من مرة أن جهود البرتغاليين والأسبانيين من بعدهم فى ميدان التبشير ونشر الحضارة الأوروبية فى المدن الساحلية والتى دامت قرابة أربعة قرون متتالية لم تترك أى تأثير يذكر على شئون هذه البلاد الدينية والاجتماعية . ويجب أن نؤكد هنا أن التعليم الغربى الذى غزا به المبشرون هذه البلاد منذ قيام حركة التبشير الحديثة فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى قد ظلت جميع شئونه فى أيدي الجمعيات التبشيرية لمدة لا تقل عن نصف قرن قبل أن تتمكن بريطانيا من احتلال جميع أجزاء هذه البلاد وفرض سيطرتها السياسية عليها . وإن المجهودات الكبيرة التى بذلتها هذه الجمعيات فى تلك الفترة كانت تعتمد اعتمادا كلياً على

(1) L.J. Lewis, op.cit., P.23

دعم الكنائس الأم في أوروبا والهيئات التبشيرية العليا فيها والتبرعات التي كانت تأتيهم من قبل الأصدقاء والمعارف وبعض الناس الذين كان لهم رغبة خاصة في نشر المسيحية في أفريقيا .

قالت الجريدة الأفريقية التي صدرت في شهر ابريل عام ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨ م :
 " إن مستقبل أفريقيا يعتمد اعتمادا كلياً على جهود الهيئات التبشيرية ولم يكن نسي استطاعة عمليات بريطانيا العسكرية وشؤونها التجارية أن تحقق في حد ذاتها الشيء الكثير ولا يمكن أن تحقق بمفردها شيئاً كبيراً وخاصة في مجال إصلاح التربية الأخلاقية والتقدم الاجتماعي " (١) . وقد أثبتت التقارير أن الهيئات التبشيرية كانت ترغب في أن تجعل نيجيريا دولة مسيحية حقيقية . وقد عرفت تلك الهيئات أن سبيلها إلى تحقيق ذلك محفوظ بالمخاطر فلجأت عن سابق عمد وتصميم إلى إحداث ثورة اجتماعية وانهمكت روى مسيحي عن طريق الكنائس والمدارس . وفي مستعمرة لاجوس حيث ازدهر التعليم الغربي منذ قيام الحكم البريطاني فيها في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي كان المثقفون الأفارقة ينظرون إلى الثقافة الغربية على أنها الوسيلة الوحيدة لإحداث الثورة الاجتماعية التي يقومون قيامها في نيجيريا عندما ينتشر التعليم الغربي ويكثر المؤلفون والفنيون والأطباء والمحامون ورجال الدين والتجار والمثقفون " (٢) .

ولقد كانت المصالح الاقتصادية والاجتماعية التي كانت الحضارة الأوروبية تقدمها إلى الأمم المتخلفة ذات تأثير عميق جداً في نظر تلك الأمم وإن هذه المنافع المادية البحتة هي التي كانت تستفز مجامع عقول هذه الأمم إلى التملق بأذيال الثقافة الغربية والجري وراء الأوروبيين لاشئين وقد كانت تلك المصالح المادية ذات إغراءات كبيرة أكثر من مجرد التعاليم المسيحية التي كان المبشرون يحاولون أن يستخدموا الثقافة الغربية وسيلة لنشرها ، ولذلك رأينا هذه الأمم المتخلفة عندما وقفت على المصالح المادية

(1) cited in E.A. Ayandele, op.cit., P.282

(2) Ibid. P.284

التي تأتي وراء الثقافة الغربية لم تعد ترغب في تقبل برامج المشررين الدينية والأخلاقية إلا بقدر ما يمكنها من الحصول على الثقافة الغربية .

إن الهدف الأساسي من جميع أنواع التعليم ومراحله المختلفة بالنسبة لكافة الجماعات التبشيرية التي كانت تنفق أموالا باهظة على مدارسها هو نشر التعاليم المسيحية في هذه البلاد ولم تكن جميع هذه الجماعات تنظر إلى التعليم إلا من خلال وجهة نظر تبشيرية بحتة . إن المؤسسات العلمية التي أقامتها هذه الجماعات لم تستهدف غاية غير إعداد المدرسين الوطنيين الذين يتدرجون من مهنة التدريس إلى معلمين دينيين ثم إلى شماس ثم إلى قس وأساقفة ، وإعداد البنات ليكن زوجات للصائين . وقد كانت فكرة جميع الجماعات التبشيرية هي أن تستخدم كافة الوسائل الممكنة لتخلق في الصائين قوة جياشة تجعلهم ينهضون إلى خدمة المسيحية ويحيون حياة رجال الدين القداس حياة التقشف والزهد ، لا يقيمون أى وزن لحطام الدنيا وزخارفها . وإلى هذه الغاية تهدف الجماعات في تربية الأطفال الصغار على التعاليم الدينية والمبادئ الأخلاقية المسيحية ، وإليها أيضا توجه أنظار الصائين لحملهم على بذل النفس والنفس في سبيل نشر المسيحية بين أهاليهم ومواطنيهم .

وحين تمكن المبشرون من دخول هذه البلاد وجدوا ظاهرة الأمية تعم كافة أرجاء المناطق الجنوبية ، ووجدوا تخلفا علميا في المناطق الشمالية رغم وجود عدد كبير من المدارس الإسلامية . فقاموا عن سابق عمد وتصميم لإبقاء الجهل سائدا لأنه مادام أهالي هذه البلاد جهلاء غسطلون ضغفا مستضعفين ويبقى المبشرون والمستحرون هم العلماء والأقوياء والمنحكيين . ولكنهم اضطروا لخدمة مصالحهم الاستعمارية وتحقيق أهدافهم التبشيرية أن يفتحوا مجالا واحدا للتعليم وهو التعليم النظري الكتابي ، وذلك لتخريج قس وأساقفة يقومون بدعوة الناس إلى المسيحية ، وكذلك لإعداد موظفين في خدمة الحكومة الاستعمارية لتسيير شئون الإدارات المحلية . ولقد كانت مناهج التعليم ومجالاته محدودة وهاجزة عن الوفاء باحتياجات المجتمع وتطور الحياة الزراعية والصناعية في هذه البلاد . وكانت هذه المناهج ذات شقين

أساسيين ، فأغلبها يتجه نحو تحويل الناس إلى المسيحية وإعداد رجال الدين المحليين ، والشق الآخر يتجه نحو الأمور النظرية والمكتبية لتخريج الموظفين .

ولقد أبدت الإرساليات التبشيرية اهتماما كبيرا بتأسيس المدارس الابتدائية لتعليم الأطفال الصغار القراءة والكتابة والحساب وكانت تركز كثيرا على تعليمهم الإنجيل والمبادئ والمعتقدات والتعاليم المسيحية وجعلت التعليم في هذه المرحلة باللغات المحلية ، ولم تحتصر هذه الجمعيات من مسؤولياتها توفير التعليم الثانوى لأن ذلك خارج عن حدود أعمالها التبشيرية ، لأنها كانت تريد فقط أن تعلم المسيحية ، وهذه غاية يمكن تحقيقها عن طريق المدارس الابتدائية من غير ما حاجة إلى التعليم الثانوى . كما يمكن ذلك أيضا باستخدام اللغات المحلية دون ما حاجة إلى التعمق في اللغة الإنكليزية والعلوم الغربية . وقد اعتبرت الجمعيات التبشيرية التعليم الثانوى من مسؤولية الحكومة الاستعمارية التى كانت تدعم التعليم النظرى الكتابى من أجل الحصول على الموظفين لتسيير الإدارات المحلية . وسنبين بعد قليل الأسباب التى أدت بتلك الجمعيات إلى هذه الفكرة في تقسيم التعليم والاكتفاء بتوفير التعليم الابتدائى " ولكن التعصب الدينى الذى أظهرته الجمعيات التبشيرية فى مدارسها ومؤسساتها العلمية منذ بداية الأمر هو الذى سبب قلة إسهامها فى شئون التعليم العام ، وقد ظهر أثر ذلك فى مجال التعليم الثانوى حيث كانت تحجم عن توفيره . وإن هذا العمل لما يؤكد لنا وجهة نظر هذه الجمعيات فى الشعب النيجيرى الحقيقى الذى كانت تريد أن تكونه - أى المسيحى - كما يبين لنا الهدف من وراء أعمالها فى تحويل الوثنيين إلى المسيحية بالقوة ، والقضاء على الإسلام ومحوه من الوجود " . (١)

قال هنرى جيب : " إن التعليم فى مدارس الإرساليات التبشيرية إنما هو واسطة إلى غاية فقط . هذه الغاية هى قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادا

(1) E.A.Ayandele, op.cit., P.286

مسيحيين وشعوباً مسيحية • ولكن حينما يدخلوا التعليم وراء هذه الحدود ليصبح غاية في نفسه وليخرج لنا خيرة علماء الفلك وطبقات الأرض وطلما الثبات وخير الجراحين والأطباء في سبيل الزعمو العلمى ، فإننا لا نتردد حينئذ في أن نقول إن رسالة مثل هذه قد خرجت عن المدى التبشيري المسيحى إلى مدى علمانى محض ، وإلى مدى علمى دنيوى ، ومثل هذا العمل يمكن أن تقوم به جامعات هايدنبرج وكمبرج واكسفورد لا المدارس التبشيرية التى تسعى إلى أهداف روحية فحسب (١)

وقد كان كثير من المبشرين يشكون في نجاح المؤسسات العلمية إن لم تحدد غايتها في نطاق خدمة الأهداف التبشيرية • وعندما أقامت جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية مؤسسة مهنية في مدينة لاجوس ، وكانت هذه المؤسسة تقوم بإعطاء دراسة متوسطة لمدة ثلاث سنوات لإعداد المدرسين الذين سيتولون مناصب القسوس في المستقبل قال المبشر هنرى تاونسند (Townsend) رئيس جمعية يوربا التبشيرية : " لست أثق كثيراً في نجاح المؤسسات المهنية في هذه المرحلة التى كنا فيها نجاهد في إنجاح أعمال التبشير وتقدمها في هذه البلاد • وإن الذى أريده فقط هو إعداد مجموعة من الرجال عن طريق التعليم الابتدائى حتى يتمكنوا من قراءة الكتب الدينية المسيحية باللغات المحلية ليقوموا بذلك بدعوة إخوانهم الوثنيين إلى اعتناق المسيحية • ولست أريد هؤلاء الشبان الذين يركزون على تعلم اللغة الإنكليزية وينكبون على الثقافة الغربية حتى يصبحوا أفراداً من الطبقة الممتازة المتحضرة والذين تحالفهم السمادة حيثما حلوا ويتباهون بمنزلتهم الثقافية العالية في المجتمع المتخلف " (٢) ، وقد سأل المبشر تاونسند (Townsend) مؤتمراً إقليم ساحل الذهب عما إذا كان من الحكمة تثقيف ذلك العدد الكبير من الأطفال الصغار كما تفعل الإرساليات التبشيرية في الوقت الحاضر مع أنها تعلم علم اليقين أن أكبر عدد من هؤلاء الأولاد لا يكونون أفراداً مهتمين في المجتمع فحسب بل سيكونون كذلك مؤذنين وضارين لرفاهية المجتمع وسعادته

Henry Jessup, op.cit., P.592,597

(١)

وقد ورد هذا الكلام في كتاب التبشير والاستعمار في البلاد العربية ٣/ص ٦٦

خالدى وعمر غرغ ص ٦٦ - ٦٧ •

(2) CMS CA2/085 Townsend to Wright 20 Dec. 1875

وذلك على حساب مصالحهم الذاتية بنشر الكسل والخمول والتطرف* (١) ولقد بذلت الجمعيات التبشيرية جهودا كبيرة في إعداد المبشرين والنخبات المثقفة من أبناء هذه البلاد ، وجعلت الكهنوت الوسيلة الوحيدة لرفع مستوى الفرد التعليمي من المرحلة الابتدائية إلى المرحلة العالية وكانت تبحث بعض المدرسين والمبشرين إلى كلية غورابي في سيراليون أو جامعات بريطانيا لإتمام دراساتهم العالية هناك ففى اللاهوت وفى العلوم والآداب . وفى السنوات ما بين سنة ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨ م وبين سنة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م بحثت كنيسة لاجوس وجمعية إرساليات الكنيسة الانكليزية عشرين مبشرا من قبائل يوريا إلى كلية غورابي لإتمام دراساتهم العالية فى اللاهوت والعلوم الغربية* (٢) وقد ظلت شئون التعليم فى أيدي الجمعيات التبشيرية لمدة طويلة من الزمن وحتى فى الوقت الحاضر فإن مجموعة كبيرة من الشخصيات البارزة فى هذه البلاد فى شئون السياسة والطب ومهنة المحاماة وفى الخدمات الشعبية وفى شئون التعليم نفسها تنتمى إلى المدارس التبشيرية فى تكوينهم التعليمى من المراحل الابتدائية إلى المراحل العالية حتى احتلوا مراكز هامة فى هذا المجتمع . ولذلك قال المؤلف البريطانى لويس (L.J. Lewis) "ومن المدارس التبشيرية جاء هؤلاء المثقفون الأفارقة الذين كان لهم ارتباط وثيق بالعالم الغربى ، وكانت حاجة هذه البلاد ماسة إلى وجودهم فى تلك الفترة . وهؤلاء الناس هم الموظفون والمدرسون والوكلاء التجاريون والمبشرون الذين بذلوا تلك المجهودات الكبيرة فى تنمية موارد البلاد الاقتصادية ولولا وجودهم وما قاموا به فى توفير الرخاء الاقتصادى لما تمكن المستعمرون والتجار الأوروبيون من تحقيق أهدافهم فى هذه البلاد* (٣)

(1) Minutes of the 1848 District Meeting Cape Coast, Methodist cited in J.F.Ajayi op.cit., P.143

(2) E.A.Ayandele op.cit., P.295

(3) L.J. Lewis op.cit., P.33

وتعتبر التنمية الاقتصادية التي كانت تسير ببطء منذ دخول الحضارة الأوروبية إلى هذه البلاد قيام الحكم الاستعماري فيها ، وإنشاء المحاكم المحلية وتشكيل مجالس الحكومات المحلية ، وبناء شبكة البريد والبرق ودخول الدراجات العادية وسيارات النقل والحربات وتعبيد طرق المواصلات من الوسائل الجديدة الهامة للحصول على المكاسب والثروات الضخمة ، وقد فتحت مجالات عديدة للعمل وأوجدت آمالا كبيرة في مستقبل الأفراد والجماعات ، كما أحدثت مزايا جديدة في المجتمع . الأمر الذي مكن التعليم الغربي من هذا الرواج العظيم وذلك الانتشار الكبير . فإن التعليم للغربي في نظر جماهير شعب هذه البلاد هو مفتاح السعادة ووسيلة التقدم في هذا المجتمع الجديد الذي بدأ يتجه إلى الحضارة الأوروبية . ولقد كانوا من قبل يحجمون بأبنائهم عن التعليم الغربي بسبب الأضرار البالغة التي تأتي وراءه وخاصة من الناحية الدينية . ولكن لما ظهرت أهمية هذا التعليم في تقدم المجتمع ورفاهيته لم يجدوا مناصا من إقحام أولادهم في تلك المدارس لينالوا نصيبهم من الحضارة الغربية من أجل تلك المصالح المادية . وعندما وصلت الإرسالية الكاثوليكية إلى بلاد إيبيرو في الإقليم الشرقي من هذه البلاد اشترت مجموعة من العبيد وأقامت لهم قرية مسيحية وعينت فيهم المبشرين والقسس وجعلت تلك القرية منفصلة تماما عن سائر المدن والقرى المجاورة . ولكن الأب شنهان (Father Shanahan) قد لاحظ منذ البداية أن هذه الطريقة لا يمكن أن تنجح في هذه البلاد وإن كانت قد نجحت نجاحا كبيرا في باراغواي (Paraguay) وفي بعض الأماكن في العالم . وطوال العشرين سنة التي قضتها هذه الجمعية في العمل الجاد المتواصل لم تستطع أن تحقق من أهدافها إلا شيئا يسيرا جدا وسبب هذا الإخفاق هو أن الأحرار قد اعتبروا الديانة المسيحية دين العبيد ، ومن أجل ذلك ترفعوا عن اعتناقها .

ولكن عندما ظهرت أهمية التعليم الغربي في المجتمع وهرعت هذه الجمعية إلى تأسيس المدارس التبشيرية في هذه الناحية لم يجد أهالي بلاد إيويوُّدا من تقديم أولادهم إلى المبشرين ليعلموهم العلم الغربية والتعاليم المسيحية . وهكذا استطاعت هذه الجمعية

أن تنشر المسيحية في هذه البلاد بواسطة مدارسها^(١) . وكذلك الحال في المناطق الداخلية في بلاد يوروبا حيث اشتدت روح الكراهية من جانب بعض الحكام المحليين لأهل الكتاب ، وكانوا لا يرضون أبدا بتسليم أولادهم^{إلى} المبشرين حتى لا يفسدوهم وإنما كانوا يقدّمون عبيد لهم إلى المبشرين ليتعلموا ما ينشره هؤلاء المبشرين من الملامم المختلفة . ولكن عندما ظهرت نتائج التعليم الغربي قد نبغ هؤلاء المبيد في الملامم الغربية وأصبحوا بفضل ما نالوا من العلم يحتلون منازل عالية في شئون المجتمع وبين بعضهم أعضاء في المجالس المحلية ، وأصبح البعض الآخر رجال الدين في الكنائس والمدارس والموظفين في الحكومة الاستعمارية أو الشركات التجارية ومؤسسي الأحزاب السياسية الذين قاموا بنضال كبير في سبيل استقلال البلاد . عندئذ أحس هؤلاء الحكام بالأسف والندم على عدم تعليم أبنائهم هم على أيدي المبشرين وبدأوا يرسلون أبنائهم إلى المدارس التبشيرية فاستطاع المبشرون بهذه الطريقة أن ينفذوا إلى أبناء المسلمين فيصرونهم .

وقد لخص الدكتور توماس جيس جونز (Dr. Thomas Jesse Jones) سنة

١٣٤١ هـ / ١٩٢٢ م الانتقاد الموجه ضد أعمال المبشرين في ميدان التعليم في تقرير لجنة فيليبس وستوكي (The Report of the Phillips-Stoke Commissions) حول التعليم في أفريقيا . قال توماس: " يرجع الفضل في تسهيل التعليم الغربي في أفريقيا إلى جهود الجمعيات التبشيرية ، وقد قدمت هذه الجمعيات خدمات كبيرة إلى شعوب هذه القارة وقد عرفت أكثر الجمعيات أهمية التعليم الكبيرة في تطوير الشعوب الأفريقية . ولكن السبب القائمة في الخطط التعليمية كما هي موجودة الآن يرجع أساسها إلى تصورات المبشرين للتعليم . ويمتقد البعض أن التعليم مجرد نقل المعارف أو على الأكثر هو مجرد قوة لإصلاح وتربية العقول بدون أي علاقة بناحية التربية الروحية والأخلاقية

(1) P.J.Jodan, Bishop Shamahan of Southern Nigeria, Dublin 1949. Pp. 91-94

وفى نظر هذه المجموعة من الناس لا يوجد للتعليم معنى روحى على الإطلاق • وفى من
الهمز الآخر بأهمية التعليم فى المقام الأول من أجل تمكين الأهالى من قراءة الإنجيل
ونهم الديانة المسيحية • وقد أيدت هذه المجموعة اهتماما كبيرا بالتعليم النظرى
الكتابى • وقام هؤلاء الذين تبنا هذه الفكرة الأخيرة بتزويد جماهير الشعب بالتعليم
المادى فى القراءة والكتابة والحساب • وأما بالنسبة للمعلمين الدينيين والطلاب
المتقدمين فى التعليم فقد زودوهم بالدراسات الأدبية مع إعطائها المعانى الدينية
بطبيعة الحال • وقد كان المبشرون يسيرون على نهج الخطط القائمة فى أوروبا بتحديد هم
التعليم فى الكتب وفى الفصول الدراسية •

ولم تعلم الإرساليات أن نجاح أعمالها إنما هو بقدر ما تحقق تلك الأعمال من
الخير والسعادة لشعب هذه البلاد • وقد كانت لاتبالى بالقيمة الاقتصادية التى
توجد فى الزراعة كما أنها لاتهتم كثيرا بناحية الصحة والتربية الأخلاقية لأهالى هذه
البلاد^(١) ولكن الذى يظهر لى أن عيوب التربية الشربية أكثر ما ذكره هذا
الكاتب البريطانى • ويرجع أساسها إلى تصور المبشرين والمستعمرين كليهما للتعليم
لا إلى تصور المبشرين فقط •

وتتمثل عيوب التربية الشربية فى أربع نقاط :

الأولى : أن هذه التربية مادية بحتة • فالإنسان فى نظرها مجرد آلة • وفى نظر
الشربين يجب أن توجه التربية ووسائلها المختلفة ووسائلها التعليمية بحيث تزيد فى
قدرة الفرد على الإنتاج المادى فقط • وذلك على حساب كل القيم العقلية والروحية •
وإن المثل الأعلى للتربية الشربية الرأسمالية هو كم راتبك فى الشهر ؟ وكم رصيدك فى
البنك ؟ وأما كم فعلت من خير مع الناس فليس لذلك وزن تربوى عندهم بل هو
مضيق للجهود وتبذير للأموال •

(١) L. J. Lewis (ed) Phelps-Stokes Report on Education in Africa.
(edited and abridged, Oxford University Press, London, 1962)
p. 9 Cited in L. J. Lewis, op. cit., pp. 30-31.

والنقطة الثانية : أن التربية الغربية علمانية تهمل الجانب الروحي . وقد لجأ الغرب إلى فكرة العلمانية في التربية بسبب طغيان الكنيسة المسيحية في الماضي ومحاربتها للحلم والتعليم ونشر الكتب والمدارس ، وتوطدت العلمانية بعد حروب طائفية دامت عشرات السنين تقلص بسببها سلطان الكنيسة في الدول الغربية .

والنقطة الثالثة : أن هذه التربية غير أخلاقية ، وتلك نتيجة حتمية لماديتها البهتة وخلوها من العنصر الروحي . وإذا كان هناك صدق وأمانة ووفاء فإنها أخلاق مادية ولغرض مادي وهو الربح المتزايد وإنها لاتنسى أخلاقاً نبيلة لأن تشابه ظواهر الأشياء لا يدل على تماثل القيمة والجوهر .

والنقطة الرابعة : هي أن هذه التربية عندما تستخدم لتقرير الجانب الروحي تكون ناقصة ومحدودة في نطاق ضيق . فإن غاية التعليم عند المبشرين إنما هو تمكين الناس من قراءة الإنجيل وفهم الديانة المسيحية . وأكبر وظيفة يتطلع إليها الصابئون في المجتمع هي أن يصبحوا قسا وأساتذة ، ولا قيمة مطلقاً لأي منفعة تأتي وراء التعليم خارج نطاق حقل التبشير . بل إن مثل هذه المنافع كانت محرمة على المسيحيين الحقيقيين ولذلك يجب في نظرهم أن يظل التعليم وسيلة لنشر المسيحية بحسب . وهذا سبب اكتفاء المبشرين بالتعليم الابتدائي والتركيز على استعمال اللغات المحلية في التعليم لأن هذا القدر يكفي لقراءة الإنجيل وفهم المسيحية .

قد كان التعليم في هذه البلاد يسير جنباً إلى جنب مع التبشير المسيحي قال **فكتور موراى** (Victor Murray) في كتابه " مدرسة الدغل " * The School in the Bush : كانت المدرسة بمثابة الكنيسة في المقاصد

وحتى الأغراض . وإن الاثنتين شئ واحد سواء وجدت في الأدغال أو في الغابات . وإن المدرس في مدرسة القرية هو نفسه المبشر في تلك القرية . ويأدنى التأمل في شئون التعليم الغربي في أفريقيا سندرك هذه الحقيقة بكل وضوح (١) وأذلك " عندما

(1) A.V.Murray, The School in the Bush, London, 1929, cited in L.J. Lewis, op.cit., Pp.29-30

استقلت نيجيريا سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م كان أكثر من سبعين في المائة % ٧٠ من مجموع المدارس الموجودة في الإقليمين الغربي والشرقي ومنطقة لاجوس تحت إدارات شئون التعليم للهيئات التبشيرية (١) ، وكما سبق أن أشرنا قبل قليل فإن جميع الجهود المبذولة في ميدان التعليم كانت موجهة في الغالب نحو تحويل الناس إلى المسيحية ليصبحوا مسيحيين . وإذا تحقق هذا الهدف الهام بقيت أمام المدارس مهمة إعدادهم علميا وروحيا ليصبحوا مدرسين في المدارس وقسا وبشريين في الكنائس والمراكز التبشيرية وموظفين في الشركات التجارية والدوائر الحكومية .

ولقد أراد المبشرون في بادئ الأمر أن يزغفوا الناس في التعليم فجعلوا التعليم في مدارسهم مجانا وكانوا يقدمون لطلابهم الكتب المدرسية والزياب والألواح الصغيرة للكتابة وأقلام الرصاص وأشياء أخرى دون مقابل . وقد كانت المدارس توزع الجوائز على الطلاب الناجحين في الحفل الذي يقام لمناسبة انتهاء العام الدراسي بعد الاختبار النهائي ، كما أنها كانت تحتفل بعيد الميلاد وتخرج طلابها في استعراضات منظمة في بعض المناسبات لترغيب الأطفال الذين لا يشهدون المدارس في التعليم ولتظهر لهم أن ما يضيعونه من الفرص كان ثمينا جدا لا يمكن أن يحوضوا إلا بالانضمام إلى حظيرة المدارس ليندقوا لذة الحياة الجديدة ويتألقوا السعادة والهناء ، وقد كان بعض أولياء أمور الأطفال يطالبون الجمعيات التبشيرية بدفع مبلغ معين مقابل الخدمة التي كان أولادهم يقومون بها في المزارع مساعدة لهم إذا أرادت هذه الجمعيات أن يأتي هؤلاء الأولاد إلى مدارسها " وقد طلب المشرمان (Mann) الذي كان يشرف على المركز التبشيري الذي أقامته جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية في مدينة إجابي (Ijaye) طلب من جمعته إعانة مالية تنفق في هذا الغرض على أساس أن زميله المشر الممدانسي المناس له في هذه المدينة كان يدفع مبلنا معين لطلابيه (٢) .

(1) L.J. Lewis, op.cit., P.28

(2) Mann Journal entries for 21 April 1856, 14 Aug. 1959,

CMS CA2/056 A.D. Phillips to Taylor 25 Jan., 1859

قد تناولنا الحديث عن أهمية التعليم الغربي عموماً في نشر الدعاية التبشيرية في هذه البلاد وثبتت أقدام المستعمرين لينشروا فيها الثقافة الغربية والحضارة الأوروبية وليفرضوا سيطرتهم السياسية والاقتصادية على شعوبها ردحاً غير يسير من الزمن . ولمسأمة نزل المبشرون إلى هذه البلاد وبدأوا أعمالهم التبشيرية فيها ، أقاموا كنائسهم ومراكزهم التبشيرية في مختلف المدن والقرى ، وما لبثوا أن شرعوا في دعوة الناس إلى المسيحية وقد تصدوا لجماهير هذا الشعب دون تفرق بين الكبير والصغير والمسلم والوثني والرجال والنساء . ولقد طمحووا في بادئ الأمر في الملوك والرعاة وأعيان الناس ثم اتبعهم لواء استطاعوا أن يحولهم إلى المسيحية فستنصق رعاياهم وراءهم إلى اعتناق هذا الدين زرافات ووحداً . ولكن سرعان ما تبين لهم أنهم على خطأ كبير . ثم لما اهتموا إلى تأسيس المدارس وكثروا على الأطفال الصغار كما سبق أن أشرنا قبل قليل . ولكن الذي نريد أن نقرره هنا هو أن جهود الجمعيات التبشيرية في ميدان التعليم في الفترة الأولى قبل قيام الحكم الاستعماري في هذه البلاد كانت محدودة جداً ، كما أن التعليم الذي كانت هذه الجمعيات تنشره حتى بعد قيام الحكم الاستعماري كان محدوداً أيضاً من حيث الهدف والنهاية ، ونوع ذلك التعليم وطريقة الأداء ، وقدرته على تلبية احتياجات البلاد المختلفة في شتى ميادين الحياة . وقد قصر المبشرون التعليم في بادئ الأمر على الكتاب المقدس ولا يعتمد على أي حال من الأحوال . كما جعلوا غاية التعليم الحقيقية هي فقط تحويل الناس إلى المسيحية وإعداد الشبان للتعليم في مدارسهم أو للعمل في الكنائس . وفي المراكز التبشيرية توسعوا بحركة التبشير في هذه البلاد . ثم عندما سحقت جيوش الاحتلال البريطاني هذه البلاد ودمرت سلطة الحكومات المحلية وطبعا بعد تمكن المبشرين في بعض الأماكن الهامة في هذه البلاد ، فتحت الحكومة الاستعمارية أمام الشعب آفاقاً جديدة بادرخال الثقافة الغربية وخلقت فيها اجتماعية جديدة وأدواها جديدة وقررت منهج حياة جديد وجعلت التعليم الغربي أكبر نعمة يحصل عليها الإنسان في هذا المجتمع . وكانت تنظر إلى التعليم من خلال وجهته

نظير مادية وتبشيرية على السواء • وكانت دائما تنكر على الجمعيات قصر التعليم على الأهداف التبشيرية فحسب • لأن الحكومة كانت لها مصالح مادية تسعى إلى تحقيقها بالإضافة إلى الغايات التي تصبو إليها أعمال المبشرين •

وبعد هذا التمهيد يجب أن نلقى نظرة خاطفة على المدارس الأجنبية في جميع مراحلها وعلى اختلاف أنواعها كما يجب أن نسلط الأنوار على مناهج التعليم فيها سواء ما كان منها في المدارس التبشيرية أو الحكومية أو حتى تلك التي أسستها السلطات المحلية حتى نستطيع أن نبرهن على كل ما قررناه فيما يتعلق بأهمية هذا التعليم بالنسبة لأعمال المبشرين ونجاحها وتقدمها • وكذلك بالنسبة لمصالح المستعمرين ولنستطيع أيضا أن نبرهن على ما أثبتناه من الأهداف والغايات الكامنة وراء هذا التعليم بالنسبة لرسالة التبشير وجيوش الاستعمار •

وأخيرا وهو الجانب الأهم لنستطيع أن نضع أيدينا على تلك الآثار العميقة التي كانت لتلك الخطط التعليمية في شئون حياة شعب هذه البلاد •

وسنبدأ برياض الأطفال والمدارس الابتدائية الخارجية منها والداخلية • ومنها سنخرج على مدارس أيام الأحد للكبار والمدارس المسائية ثم بعدها سننتقل إلى المدارس الثانوية بأنواعها الثلاثة الثانوية العامة • والمهنية • والصناعية • ثم بعد ذلك نذكر ما يتعلق بمدارس البنات والتعليم المالي في أوروبا • وقد اتفق جميع مبشري الإرساليات التبشيرية على أنه يجب أن تكون هناك مدارس حتى يستطيعوا أن يتصلوا بالناس ويدعوهم إلى مذاهبهم الدينية المختلفة • ولذلك قال بعض المسيحيين إن المبشر الأول هو المدرسة • إن أول شيء قام به المبشرون في ميدان التعليم في هذه البلاد هو إنشاء رياض الأطفال والمدارس الابتدائية • لأنهم عرفوا من قبل ومن بعد أن التعليم الديني في هذه المدارس سيجعلها بابا مفتوحا للتبشير وللتأثير على عقول هؤلاء الأطفال الغضة كما سيتمكنهم من أن يثبتوا أقدامهم في القرى والأرياف تحت ستار نشر

التعليم ، الذى كانت حاجة هذه البلاد ماسة إليه فى تلك الفترة ، ولأنهم عرّفوا أن للتعليم الابتدائى أثرا كبيرا فى مستقبل الطلاب التعليمى . وإذا تمكن المبشرون من أن يثّث أفكاره الدينية فى عقولهم نستبقى آثار ذلك ترائعهم طول حياتهم ، لأن المعلم فى الصغر كالنقش على الحجر . والمدارس الابتدائية ورياض الأطفال كلاهما تمكّن المبشرين من الاتصال المباشر بأولياء أمور الطلاب . وقد ينفذون من خلال ذلك الاتصال إلى التبشير فيهم أو على الأقل إلى جلب محبتهم لهم ومساندتهم لأعمالهم . عندئذ يتظاهر لهم المبشرون بالمعطف والحنان على أولادهم والسهر على مصالحهم .

كان التعليم فى رياض الأطفال والمدارس الابتدائية باللغة المحلية وقد طبع الإنجيل وكتاب الصلوات وكتاب التراتيل والكتب المدرسية باللغات المحلية الهامة . وقد كانت جهودهم كبيرة جدا فى عملية وضع حروف الهجاء لهذه اللغات وترجمة الكتب الدينية إليها . وقد نبغ كثير من المبشرين فى بعض هذه اللغات لدرجة أنهم ألفوا الكتب فى مفرداتها وقواعدها على ما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

قالت المبشرة أنا هيندرار (Anna Hinderer) فى وصف منهاج التعليم فى رياض الأطفال والمدارس الابتدائية : " كانت الكنيسة فى بداية الأمر هى مركز التعليم . وقد خصصنا جناحا خاصا للطلاب المبتدئين الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة وكنا نبدأ معهم بإعطائهم قصة قصيرة سهلة من الإنجيل ثم نطلب منهم رواية هذه القصة بعد الاستماع إلى المدرس . لتأكد من أن طلابنا قد فهموها . ثم بعد ذلك يقوم المدرس بتدريس فكرة قصيرة من الكتاب المقرر أو مقطعا صغيرا من كتاب التراتيل . وكنا نقضى بقية الوقت فى مطالبة تلاميذنا بترديد كتاب " خلاصة العقيدة المسيحية " وهو مؤلف على طريقة الأسئلة والأجوبة .

وأحيانا يجمع المدرس جميع طلاب المدرسة لمراجعة العقيدة المسيحية والصلوة الربانية " أبانا الذى فى السموات . . . الخ " والوصايا العشر ليتأكد من أن الطلاب

لم ينسوها • وإن هذا المنهاج هو الذى يستعمل فى جميع المدارس التبشيرية مع اختلاف بسيط فى طريقة الأداء • ويستعمل فى المرحلة الابتدائية الكتاب الأول لتعليم مبادئ القراءة وأجزاء مختلفة من الكتاب المقدس مثل وصية القديس لوقا • وهنـ المزامير وكتاب الأمثال وسفر التكوين •

وقد كانت كل هذه من بين الكتب الهامة التى يقرؤها الطلاب • وقد تمت ترجمة كتاب المسهد الجديد وطبع فى مجلد واحد وسيسر ذلك طلابنا كثيرا * (١)

وتشتمل مناهج الدراسة فى هذه المدارس على أربع مواد أساسية هى الديانة المسيحية والقراءة والكتابة والحساب ويزاد للبنات تعليم الخياطة •

وعندما كان بعض الأولاد يهربون من المدارس وينضمون أيا ما كثيرة أو ينقطعون كلية إلى العمل فى المزارع • رأى المبشرون أن العلاج الناجع لحمل هؤلاء الطلاب على المواظبة والانتظام فى الدراسة هو إنشاء المدارس الداخلية • وقد طلبوا من أولياء أمور الأطفال السماح لأولادهم بالإقامة عندهم ليتلقوا التعليم والتربية فى بيوتهم • وليكونوا تحت مراقبتهم واهتمامهم • وذلك أصبحت المراكز التبشيرية التى يقيم فيها المبشرون مدارس داخلية • * وقد كان للمبشرين أمل كبير جدا فى هؤلاء الطلاب الداخليين الذين ترعرعوا تحت كفالتهم وكانوا على اتصال وثيق بهم • ومن بينهم سيخرج الطلاب المتقدمون رؤساء الطلبة والمدرسون كما سيخرج منهم رجال الدين قادة المستقبل ورؤساء الكنائس * (٢) وقد فتحت جمعية الدعوة إلى الإيمان بالمسيح صندوقا خاصا لتمكين مبشرى الإرساليات الكاثوليكى من تحرير المبيد وفك الرهائن وإقامة مدارس داخلية لهم فى مراكزها لتعليمهم وتربيتهم على الحياة المسيحية • قال الأب بروغيرو (Father Broghero) * لقد أتقنا هؤلاء المبيد والرهائن من ظلمة الوثنية وأدخلناهم تحت رعاية وكفالة الإرساليات ليعيشوا حياة آمنة مطمئنة كما يحيا الناس فى البلاد المسيحية ، من أجل أن يقوموا بخدمة الكنيسة ويقدموا العمون اللازم فى أعمال التبشير ويرتلوا الأناشيد

(1) Anna Hinderer, Seventeen Years in the Yorubaland,

Memoirs of A. Hinderer compiled by her friends,
London, 1872 , P.296

(2) J.F.Ade.Ajayi, op,cit., P.136

الدينية وبمساعدة ونا في دعوة الأطفال إلى المسيحية وكذلك في عملية الترجمة ونقل الكتب الدينية إلى اللغات المحلية (١) .

ولقد كان الآباء لا يرضون بتسليم أولادهم ليتربوا تحت كفالة المبشرين في المدارس الداخلية إلا في حالات خاصة وظروف معينة ، مثل ما إذا دهمت الحروب حصون بلادهم أو نزلت بهم الكوارث والنكبات . وإذا كان الإنعسان في حاجة شديدة إلى بعض الأموال ذهب إلى المراكز التبشيرية ليستدين من المبشرين ثم سلم ولده إليهم كرهن لضمان استرجاع الدين ، ولرغبته في تسليم ولده وتثقيفه . وفي مدينة إجايبى Ija ye مثلاً فشلت جميع خطط المبشرين لترغيب عدد كبير من الأطفال في دخول المدارس طوال ثمان سنوات متتالية . ولكننا رأينا عندما وقعت الحرب الأهلية بين هذه المدينة وبين مدينة إبادان سنة ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م كيف غشيت المراكز التبشيرية مجموعة كبيرة من الأطفال . ولم تكن هناك ظروف دفعت آبائهم إلى ذلك سوى طلب الأكل والأمان لهؤلاء الأولاد . ولقد أرسلت الحكومة البريطانية التي تحكم مستعمرة لاغوس قوة عسكرية صغيرة إلى هذه المدينة عندما اشتد أوار الحرب لحماية المبشرين وطلابهم ونقلهم جميعاً إلى مدينة أبيوكوتا (Abeokuta) المجاورة حتى لا تتعرض لهم الجيوش المتحاربة . ولقد كان نجاح المبشرين في تنزيم وتقديم المدارس الداخلية يعتمد أساساً على مقدار ثمنهم الشخصية في جمع التبرعات المالية إذ لم تخصص الإرساليات التبشيرية الملياً صندوقاً خاصاً لهذا الغرض . ولكن التبرعات كانت تأتي المبشرين من الأقارب والأصدقاء ومن أعضاء كنائسهم الأم في أوروبا . ومن بعض أنصار حركة دعاة الإنسانية والإصلاح الاجتماعى ومن جمعيات مدارس أيام الأحد ومن هيئات القسس والأساقفة في مختلف الكنائس في أوروبا وفي أقصى كندا وفي القدس . إن هؤلاء هم الذين دعموا جهود المبشرين بأموالهم حتى ازدهرت المدارس الداخلية وتقدمت في هذه البلاد (٢)

(1) Broghero to Planque 21 Dec., 1863 in Annals, 1865

P.81-82 cited in J.F.A Ajayi op.cit., P.137

(2) J.F.A, Ajayi, op.cit., P.137

ولما بدأت الدفقات الأولى تخرج من المدارس الابتدائية صارت لهم قيمة اجتماعية كبيرة بسبب معرفتهم الكتابة والقراءة وطم الحساب في مجتمع سادته الأمية والجهل، ولأول مرة في تاريخ المناطق الجنوبية من هذه البلاد انفتح أمام الشعب مجال الأعمال الوظيفية حيث بدأت الجمعيات التبشيرية توظف حاملي الشهادات الابتدائية في مدارسها ومراكزها التبشيرية كما تعيينهم مساعدين للقسس والأساقفة الأوروبيين في الكنائس. وقد رتب لهم مكافآت شهرية ضئيلة وكانت تعطى جوائز تشجيعية بين حين وآخر لكل من يقف نفسه في خدمة الكنيسة كما تقوم بترقيتهم من منصب المدرسين العاديين في مدارسها إلى منصب معلمين دينيين ثم إلى شماسة ثم إلى قسس وأساقفة في الكنائس. وكافيت رواتبهم تزداد تبعاً لارتفاع المناصب. ولكن منصب القسس هو آخر درجة يصل إليها المدرس الوطني. كما أن دائرة عمله لا تتجاوز حدود أعمال التبشير في المدارس والمراكز والكنائس.

وقد كان لكل هذا أثر كبير في نفوس أهالي هذه البلاد فاندفعت الآلاف من الأطفال إلى مدارس الإرساليات التي جعلت موافقة أولياء أمور الأولاد على تعلمهم المبادئ والمعتقدات المسيحية شرطاً أساسياً لقبولهم فيها. ولكن يجب أن نتساءل عن مسبق نجاح المدارس الابتدائية في الأهداف التي كانت الجمعيات التبشيرية تسعى إلى تحقيقها، وهل يكفي التعليم الابتدائي لتحويل هؤلاء الأطفال إلى المسيحية قلباً وقالها؟ وهل زود هذا التعليم هؤلاء الطلاب بالمطلوبات الضرورية التي ينبغي أن يعلمها أي معتنق لدين جديد عن ذلك الدين حتى يتجلى له النور وتفتح مداركه فيندفع بحماسة ليعمل من إيمانه وهو على بصيرة من أمره؟

لقد أخضعت المدارس الابتدائية في تحقيق الأهداف الروحية والأخلاقية التي أسست من أجلها. ولكن المسؤول عن ذلك الإخفاقي هو الجمعيات التبشيرية التي أرادت تسعى بآداب الأمر أن تقتصر على التعليم الابتدائي واستعمال اللغات المحلية كما كانت تريد أيضاً أن يكون هذا التعليم مقصوراً على درس الكتاب المقدس قراءة وكتابة وتفسيراً وحفظاً.

وكل ذلك من أجل توسيع رقعة حركة التبشير في هذه البلاد . ولقد قال المبشر
 هنرى تاونسند Henry Townsend * إن الذى أريده فقط هو إعداد
 مجموعة من الطلاب عن طريق التعليم الابتدائى حتى يتمكنوا من قراءة الكتب الدينية
 المسيحية باللغات المحلية ليقوموا بعد ذلك بدعوة إخوانهم الوثنيين إلى اعتناق
 المسيحية. (١) .

قال الأستاذ أنيدىلى : " لقد خيبت المدارس الابتدائية آمال الجمعيات
 التبشيرية حيث إنها لم تستطع أن تحقق الأهداف الروحية والأخلاقية التى تصبو إليها
 وكان سبب ذلك أن تعاليم المسيحية التى تدرسها هذه المدارس لا يمكن أن ترسخ
 فى أذهان الطلاب بسبب فقدان النمو الفكرى الذى ينبغى أن يهتق رسخ عقيدة
 جديدة فى العقول . ولذلك لا يمكن أن يؤمن هؤلاء الأولاد بالإنجيل إيماناً كاملاً
 بهذه الطريقة السهلة التى كانت الجمعيات تريد أن تتم بها العملية. " (٢)

ولما أدركت الجمعيات التبشيرية أن التعليم الابتدائى وحده على النحو
 الذى تقدم شرحه لا يكفى لجعل الطلاب مسيحيين حقيقيين متعلمين فى العلوم المسيحية
 اعتمدت تأسيس المدارس الثانوية وقررت فيها عدداً من العلوم المختلفة التى يحتاج إليها
 الطلاب المتقدمون . ولكنها كانت تدرسها من ناحية صلتها بالكتاب المقدس ومن
 أجل خدمة ذلك الكتاب . ولقد بدأت الجمعيات التبشيرية الخمس التى دخلت
 غمار الحرب العقديّة فى هذه البلاد بإنشاء المدارس الثانوية منذ وقت مبكر من بدايّة
 النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى . وقد حازت جمعية إرساليات الكنيسة
 الإنكليزية قصب السبق فى هذا المضمار حيث قامت بدعم وتشجيع المثقفين الأفارقة
 بتأسيس مدرسة ثانوية فى مدينة لاجوس سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨٥٩ م . ثم سارت الجمعية
 المشيخية على منوالها فأُسست مدرستها الثانوية فى مدينة لاجوس سنة ١٢٩٤ هـ /
 ١٨٧٢ م . وكانت المدرستان تقومان بإعداد الموظفين . وكان من بين المواد التى

(1) CMS CA2/085 Townsend to Wright 20 Dec., 1875

(2) E.A.Ayandele , op.cit., P.291

تدرسها المدرسة المشيخية مادة علم معك الدفاتر والهندسة ومادة الاختزال وحسب
المحاسبة وفن الخط • وسنبين منهاج الدراسة الثانوية في هذه المدارس بعد قليل •

وقد أسست جمعية الإرساليات الأنثوية كلية القديس غريغوري (St. Gregory's College) وكذلك أنشأت الجمعية المعمدانية الأمريكية وجمعية الإرساليات الكاثوليكية
مدارس ثانوية على غرار ما أسسته أخواتها •

ولكن هناك حقيقة يجب ألا تخيب عن أذهاننا في هذا الصدد وهي أن المبشرين
لم يقدموا على توفير التعليم الثانوي عن رغبة واختيار وإنما فعلوا ذلك بعد فشلهم في
محاولة اقتصار التعليم على المستوى الابتدائي • وهذا أمر ظاهر جدا في تاريخ قيام
التعليم الثانوي في مدينة لا جوس وتطوره • وقد قام هذا التعليم رغم أنف المبشرين
ويرجع سبب ذلك إلى ضغط متزايد من قبل التجار الأوروبيين لحمل المبشرين على
تلبية متطلبات الشؤون التجارية • وكذلك رغبة المهاجرين السيراليونيين الشديدة في
التعليم النظري الكتابي والحاحهم الكبير على المبشرين^(١) • وعلى هذين العنصرين
- التجار والمهاجرين - يعتمد المبشرون كثيرا من الناحية الاقتصادية ومن حيث
الحماية والمساعدة والقوة العاملة التي كانت تستخدمها في توسيع حركة التبشير في هذه
البلاد • ولكن الجمعيات ظلت رغم ذلك تؤكد بين حين وآخر أن مسؤولية توفير التعليم
الثانوي لا تقع على عاتقها وإنما هي من مسؤوليات الحكومة الاستعمارية التي كانت تسمى
إلى تحقيق مصالح اقتصادية وسياسية واجتماعية في هذه البلاد • ولكن على الرغم من هذا
فقد ظل التعليم الابتدائي والثانوي في أيدي الجمعيات التبشيرية حتى نهاية القرن
التاسع عشر الميلادي • ولم تستطع الحكومة الاستعمارية أن تؤسس مدرسة ثانوية إلا في
سنة ١٣١٢ هـ / ١٨٩٩ م التي أسست فيها كلية الملك في مدينة لا جوس •

(1) J.F.A. Ajayi, The Development of Secondary Education in Nigeria, Journal of Historical Society of Nigeria, Vol iii No1 Dec., 1963

قد أبدى المبشرون عناية خاصة فى وضع منهاج الدراسة للمدارس الثانوية من أجل إعداد الطلاب للحياة التجارية والحصول على الثقافة الغربية الحديثة . وكانت هذه المدارس تدرس المواد التالية : * اللغة الإنكليزية - قواعدها والقراءة والكتابة وعلم الاملاء ضبط التهجى والحساب والجبر والتاريخ : الملمانى والدينى . والجغرافيا والأدب . وهذا كله فى منهاج الدراس العام . وهناك مواد إضافية يجب على كل طالب أن يختار من بينها مادة إضافية . وتنقسم هذه المواد إلى قسمين :

— القسم الأول : اللغة اللاتينية واللغة الإغريقية واللغة الفرنسية وغيرها من اللغات الحية . وعلم الهندسة وعلم المثلثات ومادة معك الدفاتر والرسم وعلوم البلاغة والمنطق والفلسفة الأخلاقية والاقتصاد السياسى .

— والقسم الثانى : التاريخ الرومانى والإغريقى والقصص والأساطير وعلم آثار العصور القديمة والفلسفة الطبيعية بجميع أشكالها وفروعها وعلم الفلك والميدلة وعلوم الطب وعلم طبقات الأرض وعلم النبات (١) .

ومع مرور الأيام والتعليم الثانوى آخذ فى الانتشار انبهر الطلاب بالثقافة الغربية وأخذوا يستخفون بتعلم اللغات المحلية التى ركزت المدارس التبشيرية على تعليمها من أجل نشر المسيحية . وقد كان الطلاب يكتفون بأنفسهم بأداء الشعائر التعبدية الالزامية التى تقام فى كنيسة المدرسة إرضاء للمبشرين . ولكنهم كانوا يريدون التعليم الإنكليزى والثقافة الغربية . وحتى فى خارج المدرسة لم يكونوا يريدون أن يقرأوا الكتب المترجمة إلى اللغات المحلية . ولقد اتضح للمبشرين بعد فترة يسيرة أن الطلاب الأذكياء المتقدمين لم يكونوا يولون المواد الدينية أدنى اهتمام وإنما وجهوا اهتمامهم الكبير نحو المواد غير الدينية على أمل الحصول على وظيفة ممتازة فى الدوائر الحكومية أو عند الشركات

(1) Printed Prospectus 1878, Methodist. cited in J.F. Ajayi
Christian Missions in Nigeria, London, 1975, P.154

التجارية تكون أفضل بكثير مما يحصلون عليه في الكنيسة والمدارس التبشيرية لو أنهم نبضوا في المواد الدينية .

ولم يكن التعليم الحالي في نظر الهيئات التبشيرية يساعد على نشر المسيحية في هذه البلاد وذلك لأن كثيرا من العاملين في المؤسسات التبشيرية في الكنائس كانوا يتهربون من العمل فيها ليقولوا مناصب أخرى أفضل مع رواتب مغرية في الدوائر الحكومية أو في الشركات التجارية . وكذلك الحال بالنسبة لخريجي المدارس الثانوية . فلا يمكن أبدا أن يرضى أحدهم لسبب أو لآخر أن يحمل تحت الهيئات التبشيرية . وقد ذكر المبشر النيجيري صمويل كراؤدار^(١) أن أكثر وكلاء التبشير الحاصلين على الشهادة الثانوية كانوا يتهربون من العمل تحت الهيئات التبشيرية ثم يهربون إلى العمل عند شركة النيجر الملكية أو يقومون بتأسيس شركة تجارية لحسابهم الخاص^(١) . ومنذ ثمانينات القرن التاسع عشر الميلادي لم تعد للمبشرين رغبة في توفير التعليم الثانوي في مدينة لاجوس وفي سائر المدن الداخلية وكانوا يحتجون دائما بأن المدارس الثانوية لم تقدم أي مساعدة في تحقيق أهدافهم التبشيرية لأن الطلاب قد أصبحوا مسيحيين بما تعلموه من المدارس الابتدائية قبل دخولهم المدارس الثانوية . ويذكر أن دار المعلمين التي أسستها جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية في مدينة أسابا Asaba سنة ١٣١٢ هـ / ١٨٩٥ قد أغلقت سنة ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م عندما بدأ طلائها يتركون المدرسة طمعا في الحصول على المصالح المادية عند الحكومة والشركات . وإن هذا الموقف الذي اتخذته المبشرون حيال التعليم العالي في تلك الفترة لا يعنى أنهم لا يعرفون أهميته في تكوين الطبقات المثقفة وفي تمكينهم من الاتصال الدائم بهم ليؤثروا في أفكارهم واتجاهاتهم المختلفة وكذلك في تمكينهم من توجيه قادة الرأي في البلاد إلى ما فيه منفعة التبشير من انتشار المسيحية في هذه البلاد . ولقد عرف المبشرون أن ذلك التأثير في هذه الطبقات

(1) E.A.Ayandele, op.cit., P.288

المثقة لا يمكن أن يتحقق إذا لم يكن ثمة تعليم عال • ولكن المبشرين في تلك الفترة كانوا قد وضعوا نصب أعينهم غاية واحدة اعتقدوا أنها هي المناسبة لوضع البلاد القائم وطبيعة توسيع حركة التبشير فيها • وهذه الغاية هي تحويل الناس إلى المسيحية وإعدادهم علميا عن طريق التعليم الابتدائي للعمل في مراكزهم وكنائسهم وللتعليم في مدارسهم من أجل نشر المسيحية في كافة أنحاء البلاد •

إنهم كانوا يريدون بذلك الربح العاجل ، يريدون أن يروا الأجيال الصاعدة وهي تأخذ طريقها إلى الدخول في المسيحية أتواجا وتخرط في الحياة الدينية المسيحية حتى تتم عملية التحويل والتحول في فترة قصيرة • وصريح العبارة إن المبشرين لم يكونوا يريدون نشر العلم والثقافة ، وإنما كانوا يريدون نشر المسيحية • ثم إنهم كانوا يخافون كثيرا من انتشار الحضارة الغربية لئلا ينتشر معها الإلحاد الذي أدى إلى إنكار الأديان السماوية أو الاستخفاف بأمرها منذ نهاية المصور الوسطى في أوروبا • ولذلك رأينا الجمعيات التبشيرية منذ بداية القرن العشرين على وجه التحديد تركز تركيزا كبيرا على التعليم الابتدائي واستعمال اللغات المحلية • وقد اعتبرت ذلك أنجح الوسائل التي تستخدمها لتحقيق غايتها • وقد ظهر لي من خلال هذه الدراسة أن المبشرين وإن لم يفصحوا عن نواياهم أرادوا إبقاء شعب هذه البلاد على الجهل ليظل في تخلفه العلمي والحضاري •

ومن خلال ظلمات هذا الجهل والتخلف يتمكن المبشرون من التحكم في مستقبل هذه البلاد ويستطيعون أن يهدموا العقائد والقيم والمثل العليا ويقوضوا أركانها لينسوا على أنقاضها عقيدة أخرى قيما وأفكارا جديدة •

ولقد لاحظنا أن الجمعيات التبشيرية الخمس الموجودة في هذه البلاد لم تؤسس مدارس لتخريج المبشرين حتى تسعينات القرن التاسع عشر الميلادي رغم ما كان يدب فيه المبشرون من الرغبة الشديدة في تكوين عدد كبير من المدرسين والمعلمين الدينيين (Catechists) رجال الدين المحليين • وذلك باستثناء جمعية إرساليات الكنيسة

الإنكليزية التي أسست المدرسة الوحيدة لإعداد المبشرين الموجودة في تلك الفترة في مدينة أبيوكوتا سنة ١٢٦٧ هـ / ١٨٥٠ م.

” ولم يكن ذلك بسبب عدم توفر الإمكانات المالية ولكن لأن هذه المدرسة الوحيدة نفسها كانت تقدم التعليم النظري الكتابي وذلك خطر جدا على الطلاب (١).“

ولكن المبشر الألماني بولار G.F. Buhler الذي كان يشرف على تلك المدرسة قد وصف منهاج الدراسة فيها سنة ١٢٧٨ هـ / ١٨٦١ م بقوله : * لقد كنت أركز تركيزا كبيرا على مادة تاريخ الكتاب المقدس لإعطاء طلابي فكرة عامة ومعلومات حقيقية عن الكتاب . وفي التاريخ العام يدرس الطلاب تاريخ الروم إلى سقوط القسطنطينية وفي الجغرافية الطبيعية كانوا يدرسون جغرافية أوروبا . وفي جغرافية الكتاب المقدس كنت أدرس لهم الرحلات التبشيرية لبولس الرسول . وأما في القراءة فقد أعددت لهم ترجمة آيات من الكتاب المقدس وأجزاء من الفصول المختلفة من الكتب الإنكليزية إلى لغة يوربا أو غيرها من اللغات المحلية (٢) .

ولكن من وجهة نظر المبشرين كانت النتائج غير المرضية التي كانت تأتي دائما من وراء المدارس الثانوية في مدينة لاجوس هي التي جعلت الجمعيات التبشيرية تلجأ إلى إنشاء المدارس الخاصة لإعداد المبشرين رجال الدين الذين سيقومون بخدمات كبيرة

في سبيل نشر المسيحية في شتى مجالات التبشير الواسعة .
وقد أسست الجمعية المشيخية مدرسة لإعداد المبشرين في مدينة أسابا سنة ١٣١٣ / ١٨٩٥ م وذلك لتخريج المبشرين المحليين الذين

يكرزون بالمسيحية باللغات المحلية . وكان يشرف على تلك المدرسة المبشر المشيخي المعروف هوب واديل Hope Wadell وكما سبق أن أشرنا قبل قليل فقد انضمت

الجمعية إلى إغلاق المدرسة على أساس أن طلابها كانوا يتخذون المدرسة وسيلة لنيل أهداف تخالف الهدف الأساسي الذي أنشئت من أجله .

(1) J.F.Ade Ajayi, op.cit., P.147

(2) Rev. Gottlies Fredrick Buhlers Annual Report July 1861
CMS CA2/024

١٢١٩ هـ

وفي سنة ١٩٠١ / ١٢١٩ هـ أسست الجمعية مدرسة أخرى لهذا الغرض في مدينة إبادان
وهذه المدرسة هي التي صارت كلية الجمعية المشيخية فيما بعد . وقد قامت جمعية
إرساليات الكنيسة الإنكليزية سنة ١٣١٤ هـ / ١٨٩٦ م بإنشاء مدرسة لتخريج المبشرين
في مدينة أوڤو Oyo وكانت الجمعية تأخذ تعهدا على كل من يريد الالتحاق بهذه
المدرسة قبل قبوله بالمواثقة على خدمتها في أعمال التبشير بعد تخرجه لمدة لا تقل
عن خمس سنوات . وقد كانت هذه المدرسة ذات أهمية كبيرة في تلك الفترة لأنها كانت
تقوم بتدريب المبشرين على الدعاية التبشيرية باللغات المحلية أكثر مما تقوم بإعداد المدرسين
المحترفين .

وقد ظلت كذلك حتى سنة ١٣١٨ / ١٩٠٠ م عندما أسست الجمعية مدرسة
أخرى في مدينة أوشوبو Oshogbo تختص بإعداد المبشرين المحليين وكذلك كلية
القديس أندرو St. Andrews College التي كانت تخرج سنويا مجموعة كبيرة
من المبشرين الذين نذروا أنفسهم لأعمال التبشير وكانوا يتطلعون إلى بلوغ درجة القس
والأساقفة بتشوق وثوق شديد . ويرون ذلك أرقى درجة وأفضل منصب ينالونه
في هذه الحياة .

هذا ولم تقم جمعية إرساليات الكنيسة الكاثوليكية والجمعية المعمدانية بإنشاء
مدارس من هذا القبيل لإعداد المبشرين إلا بعد نهاية القرن التاسع عشر الميلادي .

وأما جمعية الإرساليات الأفريقية فلم تتمكن من إقامة مدرسة خاصة لتخريج

المبشرين حتى سنة ١٣٤١ هـ / ١٩٢٢ م عندما أسست كلية في مدينة إبادان Ibadan

لهذا الغرض . ولقد نجحت كلية أووماشو المعمدانية التي أسستها الجمعية

المعمدانية الأميركية في مدينة أووماشو Ogbomosho سنة ١٣٥٣ هـ /

١٩٣٤ م لتخريج المبشرين نجاحا كبيرا في مهنتها . ولا تزال حتى اليوم تخرج مجموعة

كبيرة من المبشرين يقومون بالجهد الأكبر في نشر مبادئ المذهب المسحدي بين

أهالى هذه البلاد وخاصة في المناطق الجنوبية .

ولقد لعبت مدارس تخرج المبشرين عامة أدواراً هامة في ميدان التبشير حيث قامت منذ المقد الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي بتزويد الكنائس المحلية بمجموعة كبيرة من رجال الدين والمبشرين المحليين . كما كانت تقدم المعلمين الدينيين للمدارس الابتدائية والثانوية . وقد كان هؤلاء المبشرون رجال الدين المحليون والمعلمون الدينيون في مقدمة تلك الفئات الوطنية المثقفة ثقافة غربية التي قامت بالثورة الاجتماعية التي أدت إلى تغيير الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في هذه البلاد والتي تم على أيديها تغيير شئون هذه البلاد الدينية . ولا تزال تعمل من أجل إحلال المسيحية محل الأديان الوثنية التي سبقتها إلى المناطق الجنوبية بقرون طويلة وكذلك وقف زحف الاسلام وامتداده ومحاولة إضعاف قوته وإبعاده عن شئون الحكم والسياسة والهيمنة على شئون المجتمع حتى في المناطق الشمالية الإسلامية .

قد نهت فكرة إقامة مدارس تخرج المبشرين عن أصل خطة المبشرين في تحويل المجتمعات الأفريقية إلى مجتمعات مسيحية بإقامة قرى مسيحية وإقامة أحياء مسيحية داخل المدن الكبرى وتنظيم جماعات مسيحية . ومن هنا رأى المبشرون ضرورة إقامة كنائس محلية لهذه المجموعات الجديدة وإعداد عدد كبير منهم في مدارس خاصة ليقتولوا مسؤولية إدارة شئون هذه الكنائس ويقومون بالدعاية التبشيرية بين أبناء وطنهم . وقد أكد المبشر مشردى برسيلاك Magr de Bressilac مؤسس جماعة لإرساليات الأفريقية الحاجة الماسة إلى إنشاء صندوق الدخل الوطني لتنمية الكنائس المحلية وكذلك أكد ضرورة إعداد الأفارقة لمهمة التبشير لأنه باستطاعتهم أن يؤثروا في أبناء وطنهم أكثر بكثير مما يؤثر فيهم المبشرون الأجانب .

وقال ذلك المبشر : " لا يمكن أن تستقر جميع الأهداف التي حققناها في ميدان التبشير في هذه البلاد . وكذلك لا يمكن أن تقوم ثمرة مسيحية جديدة في المستقبل إذا لم نقوم بإعداد الأفارقة لمهمة التبشير ووظيفة الكهنوت . وإنني مؤمن بهكذا الأمر إيماناً لا يشوبه أدنى شك ومن الواجب علينا أن نترك كثيراً من الأعمال التي نقوم بها

فى الوقت الحاضر من أجل أن تنفرغ لهذا العمل الكبير وتركز عليه • فهو الذى يضمن لنا السمادة ولأعمالنا التقدم والنجاح فى الأيام القادمة» (١) وذلك العمل هو إعداد الأفريقيين لمهمة التبشير •

قال هنرى فين Henry Venn سكرتير اللجنة العليا لجمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية : " ينبغى أن تقوم الكنائس المحلية على أساس مؤسسات وطنية وإذا ما أخذت هذه الكنائس طابعا وطنيا فإن ذلك سيؤدي فى النهاية إلى محو كل السفوارق الطائفية التى قد أحدثتها الإرساليات التبشيرية فى صفوف المواطنين • وينبغى كذلك أن تكون لكل كنيسة وطنية حرية تامة فى تبشير مراسيمها الدينية وتكييف جميع شؤونها بالأوضاع والمطالب الوطنية» (٢) • ولكن لا معنى ذلك أن المبشرين الأوروبيين سيخلدون إلى الراحة ويقعدون عن العمل تاركين كل المسؤولية على عواتق المبشرين المحليين • ولذلك قال القسيس صمويل أيدجرلى جن Rev. S. Edgerley Jun " إن الوكلاء المحليين يحسنون التقليد والمحاسبة ولكنهم كما هو واضح الآن لا يقدرون على شئ آخر غير التقليد ومحاسبة أساتذتهم الأوروبيين • ولذلك لا ينبغى لنا أن نغفل عن العمل اعتمادا على أن هؤلاء الوكلاء المحليين سيقومون بدورنا فى تحمل أعباء الاستكشافات الجديدة فى حق التبشير فى هذه البلاد» (٣) •

لم يكن للتعليم الصناعى أهمية كبيرة فى برامج المبشرين التعليمية مثل ما كان للتعليم النظرى الكتابى • ولذلك ينتقد على المبشرين والحكام المستعمرين دائما بأن خططهم التعليمية لم تأخذ بعين الاعتبار متطلبات المجتمع من حيث شؤون الاقتصاد

(1) S.M.A. 100 Years of Missionary Achievements, P.11

J.M. Todd., African Mission; A Historical Study of the African Missions, London, 1961, Chapter 11, cited also in J.F.Ade Ajayi op.cit., P.177

(2) William Knight, Memoirs of Henry Venn, (London) 1880, P.285-286 June 1868

(3) S.H. Adgerley in United Presbyterian Missionary Record, 1880, P.35-36
cited in J.F.A. Ajayi, op.cit., P.179-180

والشئون الاجتماعية وعلى وجه التحديد في شئون الزراعة وتطوير الصناعات المحلية . وقد كان ينبغي على المدارس في القرى والأرياف أن تقوم بجانب أعمالها التعليمية بتطوير شئون الزراعة والصناعات المحلية ، وأن تركز على ذلك أكثر مما تركز على التعليم النظري الكتابي . ولكن الذي لاحظناه هو عكس ذلك تماما . فقد كانت تلك المدارس تخرج سنويا مجموعة كبيرة من الطلاب الذين لا يحبون الأعمال الزراعية ، بل ينظرون إلى عمل الزراعة والفلاحة نظرة ازدراء واحتقار وكانوا يكرهونها كراهة شديدة ويحبون أن يخرجوا من القرى فرارا من الحياة الريفية إلى الحياة المتحضرة في المدن الكبرى التي استقر فيها الحكم البريطاني وازدهرت فيها الحياة حيث يجدون العمل في الدوائر الحكومية وفي المصانع والمعامل والمراكز التجارية المنتشرة فيها .

ولقد قام المبشرون بتوفير التعليم الصناعي في بلاد يوربا ولكن كان ذلك بشكـل محدود جدا . وقد أقامت جمعية الإرساليات الأفريقية مؤسسة زراعية في مدينة توپو Topo لزراعة جوز الهند وكذلك أقام المبشرون Ricketts مؤسسة أخرى في مدينة أبووا Agbowa لزراعة جوز الهند والبن اللبيري إلا أن هذا المشروع قد توقف نهائيا في خلال ست سنوات من قيامه لأسباب مادية .

وقد قام أحد المثقفين الأنارقة ر . ب . بلير R.B.Blaize بإنشاء مؤسسة صناعية سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م في مدينة أبيوكوتا . وكانت المؤسسة تقدم التعليم الابتدائي في علم مسج الأراضي وفي إنشاء السكك الحديدية وفي الأشغال العامة وفي شئون صناعة السفن وإصلاحها .

وكانت الحكومة الاستعمارية تقدم مساعدة مالية قدرها خمسمائة جنيه سنويا إلى مؤسسة هوسن الخيرية لتعليم الصناعة Hussey Charity Institution حيث يدرّب الأولاد على أعمال النجارة والحدادة ولكن أعمال النجارة والحدادة والبناء والصناعات اليدوية لم تكن تمجّب كثيرا من الناس . وإنما الذي كان يروقهم أكثر هو زراعة الحبوب المصدرة إلى الخارج مثل الكاكاو والقطن والمطاط وغير ذلك .

كما هو الحال في بلاد يوريا كذلك كان في الإقليم الشرقى من نيجيريا • فإن المشرىين لم يولوا التعليم الصناعى في هذه البلاد اهتماما كبيرا • وقد فتحت جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية مؤسسة صناعية في مدينة براس Brass سنة ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م وكذلك أسست أخرى في مدينة أونتشا Onitsha سنة ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م • وقد أنشأت قبل ذلك الجمعية المشيخية مؤسسة هوب واديل العلمية في مدينة أسابا Asaba سنة ١٣١٣هـ / ١٨٩٥م • وكانت المؤسسة تضم ثلاثة أقسام : الأول لتعليم الصناعة والثانى لإعداد المدرسين والثالث للتعليم الثانوى • وكان قسم تعليم الصناعة يقوم بتدريس نفس المواد التى تدرسها المؤسسات الصناعية الأخرى • وكانت تعطى الهبات معلومات عن تدبير المنزل وتعلمهن فن الحياكة • لكن حينما كان المشرون يقومون بجهودهم الأولية المحدودة في مجال التعليم الصناعى لم يكن لديهم أى رغبة في تقدم الصناعات المحلية وازدهارها لدرجة تجعلها تنافس المنتجات المستوردة من الخارج من حيث جودة التصميم والقوة والمظهر الخلاب مما يحقق لها سرعة الرواج والانتشار • وما ذلك إلا من أجل الحفاظ على السيطرة الاقتصادية في شئون التجارة والصناعة •

وقد كان الناس بطبيعة الحال يفضلون البضائع المستوردة على المنتجات المحلية لجودة الأولى وقولتها وقلة ثمنها • وحتى في مدينة لاجوس حيث كان الناس يشتركون لأن يحقق التعليم الصناعى تقدما ملموسا فقد دلت التقارير على أن أصحاب الحرفة اليدوية كانوا يجدون مشقة كبيرة قبل الحصول على الحد الكافى من المعاش • ويرجع السبب في ذلك إلى قلة حاجة المجتمع إلى منتجات هذه الفئة من الناس بسبب انتشار البضائع الأوربية المستوردة التى كانت أرخص بكثير من تلك المنتجات المحلية التقليدية • وكما هو الحال في كل دولة نامية اليوم فإن احترام الناس لعمال المصانع أقل بكثير من احترامهم للموظفين والمحامين والأطباء ورجال الدين • وقد ظل أمر التعليم الصناعى نفسى هذه البلاد خارج نطاق البرامج التعليمية التى حازت اهتمام المشرىين الكبير • والتوكانت الحكومة الاستعمارية تنفق عليها بسخاء طيلة أيام الحكم الاستعمارى البريطانى على هذه

البلاد • وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى تأخر وانحطاط ملموهين في مجال الصناعة . ولم تستطع الحكومة المحلية التي خلفت الحكم الاستعماري رغم مكانة تميزه في هذا المجال من المحاولات منذ فترة استقلال البلاد — وإن كانت هي الأخرى لم تقدم على الأمر بمنهج جديدة — لم تستطع أن تحقق في مجال الصناعة شيئاً يسيراً رغم توفر المواد الأولية ووجود الأيدي العاملة • ولكنها بدأت في الصناعات الأخيرة تقطع أشواطاً بعيدة إلى الأمام في التقدم الصناعي فانتشرت المدارس الصناعية والصانع والمعامل في مختلف المدن والقرى • وكما كان للمدارس الابتدائية والثانوية ومدارس تخريج المبشرين أهمية كبيرة في تمكين المبشرين من تحقيق أهدافهم التبشيرية في صفوف الناشئين الصغار كذلك كان الأمر بالنسبة لمدارس أيام الأحد والمدارس المسائية التي أقامها المبشرون في مراكزهم التبشيرية لتعليم الكبار فإنها مكنتهم من التأثير في عقول الكبار وأفكارهم • ومنروف أن أي تأثير في الرجل الكبير يجعل النفوذ إلى أعضاء أسرته في غاية من اليسر والسهولة ولذلك حاول المبشرون في بادئ الأمر تنصير الكبار لينخرط معهم جميع أعضاء أسرهم في حضرة المسيحية • وإذا فشلوا في عملية التحويل فإنهم يَفْتَنُونَ بالتودد إليهم والعمل على كسب موافقتهم ومساندتهم لأعمالهم أو على الأقل محاولة تجنب كل ما من شأنه أن يشير حفيظتهم ضد مصالح التبشير في شتى المجالات •

يقول مؤلف كتاب " الإرساليات التبشيرية في نيجيريا " عن مدارس أيام الأحد والمدارس المسائية القائمة في المراكز التبشيرية حيث يتلقى الكبار التعاليم المسيحية، " وقد كان المبشرون يدرسون لهم إنجيل القديس مرقس St. Mark وتاريخ حياة المسيح وكتاب العقيدة المسيحية مع التركيز على شرح أصول المعتقدات المسيحية وهدايتها (١) والتراتيل الدينية الهامة • وقد كان تعليم الكبار محدوداً جداً من حيث الهدف والإجازات

(1) J.F.Ade Ajayi., op.cit., P.132-133

ولقد اهتم المبشرون بمدارس أيام الأحد لتعليم الصابئين الكبار والمتنصرين الجدد الذين لا تمكنهم ظروف أعمالهم من حضور المدارس اليومية • وكان الهدف من وراء تعليمهم هو تمكينهم من قراءة الإنجيل باللغات المحلية وقراءة الصلوات والترانيل والأناشيد الدينية بها، وكذلك تمكينهم من القيام بصهايا التبشير بين إخوانهم الأفريقيين • ومن أجل مصلحة هؤلاء الصابئين الكبار بوجه خاص وجه المبشرون ذلك الاهتمام الكبير نحو ترجمة الكتاب المقدس ومجموعة كبيرة من الكتب الدينية إلى مختلف اللغات المحلية ولمصلحتهم أيضا عنى المبشرون بتسهيل قواعد التهجى وطريقة أدائه عند وضع الحروف اللاتينية للكتابة والقراءة باللغات المحلية •

وهناك فارق أساسى بين مدارس الصغار وبين مدارس الكبار • وذلك الفارق هو أن خطة المبشرين التعليمية بالنسبة للأطفال كانت تهدف إلى تغيير جذرى وتحويـل كلى بحيث لا تبقى شيئا ولا تذر جانبا • وقد وضعوا برامجهم لتحقيق فى المقام الأول هدفهم الأكبر الذى هو تحويل أولئك الناشئين إلى المسيحية ثم بعد ذلك لتقوم بتكييف شئون حياتهم الخاصة والعامة حسب الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الجديدة التى كانوا يحاولون أن يفرضوها على أهالى هذه البلاد • ولقد كان المبشرون ينظرون إلى الأطفال الصغار على أنهم هم الوارثون الشرعيون لمهام أمور بلادهم فى المستقبل القريب فهم قادة الغد ورواد المستقبل • ومن هنا عرف المبشرون أن أى خطة لتغيير المجتمع ككل يجب أن تضع الناشئين الصغار فى مقدمة برامجها • وأن على تلك الخطة أن تقوم بتغيير حياة أولئك الناشئين تغييرا تاما وصحهم بصحة جديدة ليتمكنوا من استغلالهم فى تفجير الثورة الاجتماعية التى كانوا يخططون لها منذ دخولهم أرض هذه البلاد • وأما ما يتعلق بتعليم الكبار فقد كان المبشرون ينظرون إليه من جهة مبنية وكانوا يعتقدون أهميته لتعريف هؤلاء الكبار بالتماليم المسيحية وتفهيمهم المعتقدات والمبادئ المسيحية •

ولقد عرفوا أن الكبار اشد مراسا في إباء التنفير الجذرى في شئون الحياة الخاصة والمامة لوجود بقايا القيم والمقائد والثل التي كانوا يمتلقون بها ، ويتمصون لها ويدافعون عنها بكل ما أعطوا من قوة . ولذلك اكتفى المبشرون في شأنهم بذلك الحد الأدنى فكثروا بهم سواد المسيحية . وقد عرف المبشرون من قبل ومن بعد أن هؤلاء الكبار كانوا على وشك الانقراض وهذا ما يذهبون ستكون الفرصة سانحة أمام المبشرين ويصفو لهم الجو ليحلوا ما يشاءون بالأجيال المتعاقبة ويتحكموا في مستقبلهم طبق ما وضعوه من خطط منذ أمد بعيد . لقد كان لتعليم البنات أهمية خاصة في تكوين الأفراد ونساء المجتمع . وإن البنات باعتبارهن زوجات في ذلك المجتمع فإنهن يشاركن أزواجهن في شئون حياتهم داخل البيت وخارجه . واعتبارهن أمهات الأولاد في الهيوت فهن يربين الأجيال ويكون الشخصيات ، وأثرهن في التربية يفوق كل أثر قد يكون للرجل في هذا الشأن . ولذلك شاع في ألسنة الناس قولهم بأن المرأة هي المدرسة الأولى للأطفال (الأم مدرسة إذا أعدتها ، أعددت شعبا طيب الأعراق) (حافظ إبراهيم) .

ولم تنف هذه الحقائق عن أن هناك المبشرين فقد أولوا تعليم البنات عناية عظيمة لأنهم عرفوا أن مستقبل هذه البلاد وروسخ قدم المسيحية فيها إنما يكون بتعليم بناتها ونسائها لتأتي الأجيال القادمة مسيحية بالولادة لا بالتحويل ، ولتبدأ تربية أولئك الناشئين على الحياة المسيحية من المنزل قبل دخولهم المدارس . فإن الحياة البيتية المسيحية التي يعيش فيها الأطفال الصغار ثم دخولهم المدارس المسيحية بعد ذلك كل ذلك يمكنهم من أن يعيشوا حياة مسيحية واقعية حيث يستطيعون أن يطبقوا كل ما تعلموه في المدارس من المبادئ والتعاليم المسيحية .

ولقد أراد المبشرون أن يبعدوا البنات عن نفوذ الحياة البيتية غير المسيحية فأقاموا لهن مدارس داخلية ومن المعروف أن المدارس الداخلية تفضل المدارس الخارجية لأنها تمكن المبشرين والمبشرات من الاتصال الوثيق بالطالبات لوتحببوا إليهن ويتعرفوا على أحوالهن ويقفوا على مشاكلهن . ومن خلال هذا الجو الودي والاتصال الدائم

يستطيعون أن يؤثروا في عقولهم وأفكارهم • وقد دلت التجارب على أن التبشير
في مثل هذه الظروف المواتية والفرص الصالحة يكون أتم حثا وأكثر إحكاما • وقد
قال المبشرة ملغان Anna Milligan : " ليس ثمة طريق إلى حصن الاسلام أقصر ^(١)

مسلك من مدارس البنات " (٢) • وقال الكاتب البريطاني ل. ج. ليويس L.J. Lewis
" إن الهدف الأول من إنشاء مدارس خاصة لتعليم البنات هو إعدادهن ليكن زوجات
صالحات للصابئين ومن أجل أن يشاركن أزواجهن في شئون قيادة شعب هذه البلاد
في المستقبل " (٣) • ولذلك كان المبشرون في بادئ الأمر لا يقبلون في مدارس البنات
إلا من كانت مخطوبة أو زوجة للمدرسين ورجال الدين أو طلاب المدارس ، والسبب في
ذلك أن الصابئين كانوا قلة في تلك الفترة ولم يجدوا من يزوجهم • ثم عندما كثر عدد
المتنصرين اشترط المبشرون أن تكون الداللة مسيحية أو قابلة لاعتناق المسيحية أو على
الأقل أن يوافق ولي أمرها على تعليمها المعتقدات والمبادئ المسيحية • وإن لم تعلن
دخولها في المسيحية ولكنها في هذه الحالة يجب عليها أن تغير اسمها إذا كان
من الأسماء الإسلامية ، وعليها أن تختار لنفسها اسما مسيحيا ، إلا إذا كان لها اسم
آخر أو لقب من الأسماء والألقاب المحلية التي لا ترمز إلى الإسلام من قريب ولا من بعيد ،
فإنه لا مانع عندهم من استعمال ذلك الاسم إذا فضله الطالبة على الأسماء المسيحية • ولكن
أي إنسان يتنصر يصبح حتما عليه أن يغير اسمه عند المعمودية إلى اسم مسيحي ولا تكبر
عليه أن يستعمل إلى جانب ذلك الألقاب المحلية •

إن المدارس التي أقامها الأوروبيون في هذه البلاد لم تسع إلى استغلال النشاط
القوي في تعليم أبناء هذه البلاد كما أنها لم تسع إلى إبراز الخصائص الوطنية وتقدير
القيم الروحية الأصيلة حين فتحت أبوابها على مصاريحها ولكنها قد جهدت في أن تجعل
من أبناء هذه البلاد أشباها لأبناء بريطانيا نفسها في المظهر واللغة وأسلوب التفكير
وفي السلوك والتعلق ببريطانيا المستعمرة والخضوع لأطماعها •

(١) والأديان الأخرى من باب أولى •

(2) Anna Milligan, op.cit., P.121

(3) L.J. Lewis., op.cit., P.71

مصنوع

إن لهذه المدارس منهاجا خاصا موحدا تسير عليه • ولكن هذا المنهاج / ففى
غير البلاد التى أقيمت فيها تلك المدارس • وكما هو واضح فى ثنايا هذا الفصل
إن هذا المنهاج استعماري الطبع والمظهر والهدف وصليى الغاية • ومن المعروف
أن طلاب هذه المدارس يعرفون جغرافية أوروبا وتاريخها بتفصيل أوفى من التفصيل
الذى يعرفون به بلادهم • إنهم يعرفون عن حضبات أوروبا وروايد أنهارها كما يعرفون
مفردات الصادرات والواردات إليها معرفة دقيقة • وكذلك يعرفون عن الكتاب المقدس
وتاريخ حياة المسيح وعن المبادئ والمعتقدات والتعاليم المسيحية مالا يعرفه الطالب
المسلم الذى يحضر هذه المدارس عن إسلامه ومالا يعرفه الوثنى عن وثنيته •

ثم إنهم يقرأون من تاريخ بريطانيا مالا يقرأون مثله من تاريخ بلادهم • ولكن
رغم ذلك كله كان الجمعيات التبشيرية تتبع سياسة ابتعاث جموعة من طلاب مدارسها
إلى أوروبا وأمريكا لإتمام دراستهم المالية هناك • إن ذهاب الطلاب الأفريقيين إلى أوروبا
 وأمريكا يكسبهم شيئا كثيرا من أساليب الحياة الغربية ومن الاتجاه الغربى فى التفكير
والعلم والسلوك وما إلى ذلك • وإن لذلك بلا شك منافع بالنسبة لتلك الجموعة
نفسها وللمجتمع الذى يرجعون إليه للعمل فيه بعد اكتمال دراستهم فى الخارج • ولـ
سماته كذلك فإنهم يكتسبون علما وخبرة ولكنهم يقدون شخصياتهم ويذوبون فى تيار
الغرب ذواتا كاملا • ولكن المبشرين كانوا يريدون أن يفيدوا من دراسة الطلاب الأفريقيين
فى الخارج أمرا آخر أهم • إنهم يريدون أن يجعلوا من هؤلاء الطلاب مسيحيين بالفعل
أو عملاء مائلين عاملين على تقدم المسيحية ونشرها فى بلادهم سواء أشعروا بذلك أم لم
يشعروا به • ويجب بعد هذا أن نلقى نظرة فاحصة على سياسة الحكومة الاستعمارية
فى مجال التعليم فى هذه البلاد • وكما أشرنا فيما سبق فإن التعليم الغربى قد ظل
فى أيدي الجمعيات التبشيرية مدة لا تقل عن نصف قرن قبل قيام الحكم البريطانى فى هذه
البلاد • وحين قام الحكم الاستعماري على مدينة لاجوس والمناطق الجنوبية لم تقم
الحكومة الاستعمارية بتوفير التعليم الغربى لشعب هذه البلاد فى يادى الأمر وإنما

تبنت سياسة تقديم الإعانات المالية إلى الجمعيات التبشيرية التي كانت تقوم بأعمال نشر التعليم في مختلف المدن والقرى وذلك لتتمكن من القيام بمهمتها في هذا المجال خير قيام^(١) ويذكرون أن ذلك كان بسبب انشغال الحكومة بحملة شاقة في توطيد دعائم حكمها في تلك الفترة . وقد كانت أول مدرسة حكومية تقام في هذه البلاد هي تلك المدرسة الابتدائية التي أسستها الحكومة سنة ١٣١٩ هـ / ١٩٠١ م في مدينة لاجوس لأبناء المسلمين عندما رأت أن المسلمين كانوا ينتمون من ادخال أبنائهم في المدارس التبشيرية فرارا بدنيهم وقيديتهم . وقد انتهجت الحكومة الاستعمارية سياسة جديدة منذ سنة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨١ م في تقديم الإعانات المالية إلى الجمعيات التبشيرية تشجيعا لها على بذل مزيد من الجهود في مجال التعليم . وكانت تعبيرا عن هذه السياسة بهيئة تقديم الإعانات المالية على قدر نتائج الأعمال " Payment by Results " . وقد أدى ذلك بالجمعيات إلى زيادة جهودها وتنظيم نشاطها في هذا الميدان وإصلاح طريقتها في التدريس وزيادة المواد المقررة على الطلاب طمعا في الحصول على إعانات مالية ضخمة من الحكومة .

ولقد حصل تغير ملموس في حقل التعليم منذ سنة ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٢ م عندما أصدرت الحكومة الاستعمارية قرارها الأول في شئون هذه البلاد التعليمية .

وقد كان لما تضمنه هذا القرار أثر بعيد جدا بالنسبة لنشاط الجمعيات التبشيرية ومستقبل تقدم التعليم الغربي وظهوره في هذه البلاد . " ولقد سددت الحكومة

الاستعمارية ضربة قاضية إلى ما اتخذته البشرون أساسا قويا للتعليم " منذ قيام^(٢) وحق فترة صدور هذا القرار وذلك بإعلانها سياسة حيادية في شئون الربيع التعليمي حركة التبشير في هذه البلاد / إن الفقرة المتعلقة بالدين من هذا القرار كانت تعتبر نقطة أساسية في اختلاف وجهتنا للنظر بين الحكومة الاستعمارية وبين الإرساليات التبشيرية في مضمون التعليم والهدف من ورائه . ولا تزال هذه المشكلة قائمة في هذه

(1) cf. Reports on CMS Grammar School and Girls' School in CMS G3/A2/012 and G3/A2/013

See also L.J. Lewis op. cit., P.27-28

(2) E.A Ayandele, op.cit., P.299

البلاد حتى اليوم . ولقد كانت نقطة النزاع بين الحكومة وبين الإرساليات التبشيرية
 وخاصة جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية ترجع إلى الموقف الذي اتخذته كل منهما
 تجاه الآخر . وكذلك كانت نتيجة تعارض الأهداف والمصالح . فهالنبية للإرساليات
 التبشيرية كان الهدف الأساسي الذي أنشئت المدارس من أجله هو نشر الديانة
 المسيحية وتعليم الأطفال بالمبادئ والمعتقدات المسيحية . وكان التركيز الكبير
 في منهاج الدراسة على تعليم اللغات المحلية من أجل استخدامها في تفهيم الناس التعاليم
 الدينية المسيحية . وكان حق الانتقال من فصل إلى آخر مبنيا على أساس نجاح
 الطالب في المواد الدينية المسيحية لا على أساس حصوله على مقدرة علمية فائقة ففى
 المواد غير الدينية . وهناك قرار في مدارس جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية
 في بلاد إيموني الإقليم الشرقى من نيجيريا ينص على فصل أى طالب يعتمد
 الخراب عن المواد الدينية ومادة اللغات المحلية . وقد كانت المواد الدينية
 تغطى أكثر من نصف المنهاج الدراسى للمدارس التبشيرية . وهنتطرح أن نقول
 إن المواد المتبقية من المنهاج مثل القراءة والكتابة والإملاء والمحفوظات وغيرها
 كانت هى الأخرى موضوعة لتخدم تلك المواد الدينية . وكان المبشرون يعتقدون أنهم
 لو تركوا المجال للطلاب للتعلم بالتعليم العلمانى اللادينى والاهتمام بشأنه فإن
 ذلك سيؤدى إلى الاستخفاف بالتعليم الدينى وذلك تكون المدارس قد فشلت فى
 أداء رسالتها فضلا وربما . وقد كان الناس بطبيعة الحال يفضلون التعليم العلمانى
 اللادينى على التعليم الدينى الذى كان المبشرون يحملون جادين من أجله لنشر
 المسيحية وتخرير القس والأساقفة الذين سيشفرون على صلوات القداس وجميع الطقوس
 الدينية فى الكنائس . وكذلك تخرج المبشرين الذين سيجوبون الأقطار وتنقلون بين
 مختلف المدن والقرى ليكرزوا بالدعاية المسيحية بين الأنام .

وأما بالنسبة للحكومة الاستعمارية . فكانت تركز على تعليم اللغة الإنكليزية
 والثقافة الغربية والمعلم الأخرى غير الدينية . وكانت تؤكد دائما أهمية هذه العلوم

فى رفع المستوى الاجتماعى لكل فرد من أفراد المجتمع • وكانت تقدم ألوانا كثيرة من المفريات فى هذا السبيل من أجل إقصاء اللغات المحلية من ميدان التعليم بالكلية ، أو اعتبارها مادة واحدة من جملة المواد المقررة فى المرحلة الابتدائية وهدم استخدامها لتدريس المواد الأخرى الباقية •

ولقد اعتبرت الحكومة مادة دراسة الديانة المسيحية اختيارية لا إلزامية • وكانت تقدم الإعانات المالية إلى المدارس على أساس دعم نشاط الإرساليات التبشيرية فى حقول التعليم ولكنها جعلت حق الانتقال من فصل إلى آخر على أساس نجاح الطالب فى المواد غير الدينية •

ولقد كانت وجهات النظر المتعارضة بين الحكومة وبين الإرساليات حول وضع المدرسين الروم وحالتهم الاقتصادية نقطة أخرى ذات أهمية كبيرة فى النزاع القائم بينهما فى تلك الفترة • فهما النسبة للإرساليات التبشيرية لم يكن المدرسون ليحترفوا مهنة التدريس وإنما ينبغى أن يعتبروا أنفسهم مسؤولين دينيين وضعوا نصب أعينهم منصب الكهنوت كأسى غاية يجب عليهم أن يهيموا إلى بلوغها فى خدمة التبشير •

وقد نظمت الإرساليات رواتب موظفيها على الدرجات • وكان مدرسو الأطفال فى مدارس الإرساليات هم الذين يأخذون أدنى الرواتب ، فى حين كان القساوسة فى الدرجة الممتازة • ولا يترقى مدرسو الأطفال فى مدارس الإرساليات إلى درجة المعلم الدينى إلا بعد ست سنوات من الخبرة والعمل الشاق • ولقد كانت الإرساليات تدرب عمالها وموظفيها فى الكنائس وفى المدارس وفى حقول الدعاية التبشيرية على أخذ الرواتب القليلة بصفقتهم مسؤولين دينيين وخدام الكلمة ليدخلوا لأنفسهم أجرا كبيرا فى الآخرة •

وأما بالنسبة للحكومة فقد شجعت على احتراف مهنة التدريس بقرارها السنوى أصدرته فى شئون التعليم سنة ١٣٠٩ هـ / ١٨٩١ م برفع أجور المدرسين وإعطائهم الطلاب المتقدمين شهادات تشجيعية ذات قيمة معتبرة فى قطاع التعليم • وقد كانت الحكومة تختبر مستويات المدرسين العلمية وقد رتبهم على العمل • وقد وضعت شهادات علمية ذات ثلاث درجات تمنحها للمدرس بحسب الدرجات التى يحصل عليها فى الاختبار

المعقود لهذا الشأن . وذلك استطاعت الحكومة أن تجعل وضع المدرسين الاقتصادي في مستوى أحسن بكثير مما كانت عليه الحال عند الإرساليات التبشيرية . ولقد كان المبشرون يتهمون الحكومة دائما بالاتجاه نحو العلمانية اللادينية في شئون الدولة بوجه عام وفي شئون التعليم بوجه خاص .

وهذه النقطة الأساسية . التي كان يدور حولها النزاع القائم بين الحكومة وبين الإرساليات في شئون التعليم . وإذا كانت الحكومة البريطانية تدعو إلى العلمانية في بريطانيا للقضاء على طغيان الكنيسة رجال الدين المتزمتين الذين وقفوا حجرة عثرة في طريق التقدم العلمي والحضاري فلم يكن من صالحها أن تتجه اتجاه علمانية في مستعمراتها . ولو أن الإرساليات لزمت حدود الاعتدال والحياسة في جهودها نحو نشر المسيحية لما اعترضت الحكومة عليها بشيء لأن ذلك هدف مشترك يتكفل كلا الجانبين في السعي وراء تحقيقه وإن كان نصيب كل منهما في ذلك يتفاوت بالنسبة للآخر .

ولكن الإرساليات التبشيرية قد جعلت التعليم محدود الهدف والغاية وحرمت كل ما وراء ذلك الهدف وتلك الغاية من مقاصد وأغراض دينية . فقد كان التعليم كله في نظر المبشرين مقصورا على تعريف الناس بالمسيحية وتفهمهم التعاليم والمعتقدات المسيحية وغاية ذلك كله محدودة في نطاق العمل في الكنائس وفي مدارس الإرساليات وفي حقل التبشير . ولذلك رأينا المبشرين عندما لاحظوا أن أكثر الصابئين كانوا يقبلون على التعليم الغربي من أجل تحسين حالتهم المادية ورفع مستواهم الاجتماعي رأيناهم يمارضون ذلك معارضة شديدة حتى إن بعضهم لم يقف عند الحد المعقول وإنما تخطوه إلى معارضة فكرة إقامة المدارس نفسها . وكان على رأس هؤلاء الفئة الأب زابا (Father Zappa) رئيس جمعية الإرساليات الأفريقية . وقد قالوا " إن الهدف الأساسي من وراء التعليم في وجهة نظر المسيحيين هو أن تقوم المدارس بإصلاح روحى وتهدئ سبب

أخلاقى فى أولئك الصابئين الذين كانوا يردونها صباح مساء • وإن الإرساليات سترتكب جريمة كبيرة إذا لم توجه مدارسها نحو هذا الاتجاه • وكذلك المثقفون الأفريقيون الذين يستغلون علومهم ومعارفهم من أجل الحصول على المصالح المادية فى الخدمات الاجتماعية التى لا تمت إلى أعمال التبشير بأى صلة* (١).

أما الحكومة فلم يكن اتجاهها علمانيا صرفا فى سياستها التعليمية كما اتهمتها الإرساليات التبشيرية وإنما كانت تحاول أن تحدد وتهدى من حماسة المبشرين المفرطة ولم يكن للحكومة أن تعمل ضد مصالح المبشرين لأنها عرفت ما لهم عليها من فضل فى تثبيت نفوذها السياسى والاقتصادى فى مختلف المناطق فى هذه البلاد • ولكنها كانت تحاول أن تلجأ إلى نزع الاعتدال السياسى فى جميع شئونها فى المستعمرات تجنباً لاستشارة بغض الجماهير • وخوفاً من قيام رد فعل عنيف قد يهدى إلى حدوث قلاقل ومشاكل لا تحمد عقباه • ولو أن الإرساليات التبشيرية استجابت لطلبات الحكومة منذ البداية وراعت مصالحها السياسية والاقتصادية بجانب الأهداف التبشيرية التى أنشئت المدارس من أجلها لما وقع نزاع كبير كهذا بين الجانبين • ولكن رغم هذا كله لم تستطع الحكومة أن تضع بفردا خطة تعليمية فى تلك الفترة دون أن يكون للمبشرين دور بارز فى وضعها • وسبب ذلك أن شئون التعليم كانت فى أيدي الإرساليات • وقد قامت الحكومة نتيجة ضغط شديد من قبل الإرساليات بمراجعة قرار عام ١٢٩٩ هـ / ١٨٨١ م • فأصدرت قراراً آخر سنة ١٣١٦ هـ / ١٨٩٨ م يقضى بتقديم إعانات مالية كبيرة إلى مدارس الإرساليات على حسب نسبة مواظبة طلابها على التعليم بصفة عامة • وقد طلبت الحكومة مرة تقسيم شئون التعليم بينها وبين الإرساليات بحيث تتحمل الأولى مسؤولية الإشراف على المدارس الثانوية والقيام بتنظيم شئونها وتحمل جميع نفقاتها وتقوم الثانية بإدارة شئون المدارس الابتدائية وتمويلها • ولكن الإرساليات رفضت هذا الطلب خوفاً من أن تتخذ

(1) E.A.Ayandele, op.cit., P.288

see also J.M. Todd, op. cit., P.122

الحكومة هذه المدارس وسيلة لنشر أهدافها الدينية وتوجيه الطلاب توجيهها علمانيا لا دينيا . وقد أذنت حكومة جنوب نيجيريا الاستعمارية لرغبة الإرساليات بذلك استطاع الطرفان أن يتوصلا إلى اتفاقية في شئون التعليم سنة ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٢ م . وقد قررت الحكومة أن تكون للتعليم الديني المسيحي مكانة بارزة في منهاج الدراسة وأن تقوم الإرساليات بتزويدها بالموظفين ، وأن تفتح أبواب مدارسها لقبول الطلاب من كافة أنحاء المنطقة وأن تخفف من شروط القبول لثلاث تنفر أصحاب الأديان الأخرى " المتعصبين " وخاصة المسلمين . إن النظم العديدة التي وضعت في هذه البلاد في عهد الاستعمار البريطاني إنما كانت وضعت لتنفيذ سياسة مرسومة بوضوح وإتقان .

ونستطيع أن نقول إن غاية هذه السياسة كانت ظهور الديانة المسيحية على الأديان كلها وتأمين سيطرة الثقافة الغربية والنظم الأوروبية على النظم والحضارة القائمة في البلاد سيطرة مطلقة من غير التفات إلى ما تتطلبه أصول التربية السليمة والعلم الصحيح ، فقد كانت تعطى للغة الإنكليزية وللشهادات الإنكليزية امتيازات هامة في ذلك المجتمع الجديد الذي صنعه أيدي المستعمرين ورسل التبشيرية . ويجب أن نؤكد هنا أن الحكام البريطانيين لم يبدوا اهتماما كبيرا بشئون التعليم حتى العقد الثاني من القرن العشرين ، أي فترة حكم الحاكم لوغارد الثانية على هذه البلاد . ولم تبدأ الحكومة الاستعمارية بتأسيس المدارس في المدن والقرى إلا بمبدأ سنة ١٣١٨ / ١٩٠٠ م . وكان أول مدرسة ثانوية أسستها الحكومة هي كلية الملك التي تأسست في مدينة لاجوس سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م . وحتى سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ كانت نفقة الحكومة على شئون التعليم بالإضافة إلى إعاناتها المالية لمدارس الإرساليات تقدر بنسبة تزيد قليلا عن واحد في المائة من مجموع ميزانية الدولة (١) . وقد كانت سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م بداية الفترة التي تم فيها الاتفاق بين حكومة الحاكم

(1) E.A.Ayandele, op. cit., P.298

لوفارد الاستعمارية وبين الإرساليات التبشيرية حيث استطاعت الحكومة أن تحصل على موافقة الإرساليات على تحويل مدارسها من مدارس تبشيرية إلى مدارس مسيحية تقوم بتعليم الديانة المسيحية اللاطينية في المناطق الخنية واتباع طريقة إنشاء مدارس حكومية في المناطق الإسلامية التي لا يستطيع المبشرون أن يجاهروا فيها بأعمال التبشير . وقد هدت الحكومة على أثر هذا الاتفاق بزيادة إعاناتها المالية للمدارس ومن أجل ذلك شكلت لجنة خاصة للمراقبة والتفتيش . وهذه اللجنة هي التي تقرّر مقدار الإعانة المالية التي تعطى لكل مدرسة بعد الاتفاق على سير الأعمال فيها والوقوف على احتياجاتها . ويجب أن نفرق بين المدارس التبشيرية والمدارس المسيحية والمدارس الحكومية لتكون على بينة من أمر هذه المدارس الثلاث . ولقد سبقت المدارس التبشيرية أختيها تاريخيا ، وكان قيامها منذ بداية حركة التبشير الحديثة في هذه البلاد سنة ١٢٥٧ هـ / ١٨٤١ م عندما قامت مختلف الإرساليات التبشيرية بتأسيس المدارس للناشئين الصغار . وكانت غاية كل جمعية تبشيرية تقرير مذهبها الخاص ونشر مبادئها ومعتقداتها بين طلاب مدارسها ، ومحاولة نقل الطلاب الذين كانوا يأتون إليها من المدارس الأخرى لإكمال دراستهم من مذاهب مختلفة إلى مذهبها هي . وأما المدارس المسيحية فقد جاءت لظروف خاصة كانت تخلق قادة حركة التبشير وتشكل عقيدة كبيرة في وجه تقدم أعمال التبشير في تلك الفترة التي قامت فيها المدارس المسيحية ، وهذه الظروف هي ما كان بين الإرساليات التبشيرية من التنافس الشديد والتمصبات المذهبية والمشاكل الطائفية التي لم تكن مقصورة على المدارس التبشيرية فحسب وإنما كانت كذلك في الكنائس والمراكز التبشيرية .

وقد كانت المدارس التبشيرية المسيحية تحاول أن تهين لطلابها - بصرف النظر عن مذهبهم - جوا مسيحيا وتحملهم على ممارسة المبادئ المسيحية والسلوك المسيحي وذلك يبين لنا أن لكلا المدرستين التبشيرية والمسيحية رسالة خاصة كانت كل واحدة منهما تسعى جاهدة إلى تحقيقها . ولكن الشاية القصوى من الرسالتين هي

جعل شعوب البلدان المستعمرة كلها تابعة للكنيسة وخاضعة لنفوذ الاستعمار . من أجل ذلك كله كانت الإرساليات ترفض رفضا باتا أن تتقيد بالخطة التعليمية التي وضعتها الحكومة لأنها عرفت أن تقيد مدارسها بالمناهج الحكومية يقدها صنعها التبشيرية المسيحية ، ويجعلها في عداد المدارس الحكومية الوطنية . وذلك لئلا تطل النافذة الكبرى من وجودها . وأما المدارس الحكومية التي تقام في البلاد التي تنشر فيها المدارس التبشيرية والمدارس المسيحية فإنها لا تشدد في تعليم الدين بل قد تتظاهر بالتساهل فيه حتى لا تنفر أحدا من المواطنين . وحتى لا يحمل بعضهم كرها لبعض ، ولم تكن هناك أي مصلحة تعود على الحكومة في التحزب الديني الذي كان ظاهرا في المدارس التبشيرية المسيحية . لأن ذلك من شأنه أن ينفر مجموعة كبيرة من الشعب من الإقبال على التعليم وفي ذلك ضرر كبير للحكومة التي كانت تسعى جاهدة لإخضاع الشعب كله لنفوذها الاستعماري وفيه ضرر أيضا بالنسبة لتقدم أعمال التبشير بين المسلمين المتعصبين كما يسمون المسلمون الواعين اليقظين .

ولكن رغم كل ما ذكرناه من أمر المدارس الحكومية فقد رأى المبشرون فيهم — شجرة أخرى يستطيعون أن ينفذوا من خلالها إلى غرس العقيد المسيحية في قلوب طلابها . ومن المعروف أن التعليم الغربي نفسه قوة تبشيرية كبيرة حتى وإن لم يستخدم هذا التعليم في الظاهر لأغراض تبشيرية ، وذلك لارتباطه الوثيق بالديانة المسيحية ولما يحمله في طياته من أفكار مسيحية . وقد رأينا كيف مكنت المدارس الحكومية المبشرين — بتأثيرها بممارسة التحزب الديني — من الوصول إلى أولئك الأطفال الذين امتنع آباؤهم من ادخالهم في المدارس التبشيرية المسيحية فرارا بدنيهم وعقيدتهم . وقد استطاع المبشرون في هذه الناحية أن ينصروا بعض هؤلاء الأطفال وأن يبيدوا البعض الآخر عن دينهم حتى وإن لم يدخلوهم في المسيحية وكلا الأمرين من جملة ما تهدف إليه أعمال التبشير . وهكذا فتحت مدارس الحكومة أمام المبشرين آفاقا جديدة لم ينتبه لها الناس في أول الأمر ، وتلك هي نتائج كثير من الخطط الموضوعة في شؤون التعليم .

وفي سنة ١٣٣١ هـ / ١٩١٢ م كانت المدارس الابتدائية الموجودة في جنوب
نيجييريا ومستعمرة لاجوس تنقسم إلى ثلاثة أقسام . القسم الأول هو المدارس الستة
أسستها الحكومة الاستعمارية والإدارات المحلية . وكان عددها خمسا وخمسين مدرسة
وتضم نحو ثلاثة آلاف وتسعمائة وأربعة وثمانين طالبا وطالبة وهو عشر مجموع عدد
الطلاب الذين كانوا يتلقون التعليم في المدارس التبشيرية .

والقسم الثاني هو المدارس التبشيرية التي كانت تتلقى إعانات مالية من الحكومة
الاستعمارية وكان عددها إحدى وتسعين مدرسة / ^{وكانت} تضم نحو أحد عشر ألفا وسبعمائة
واثنين وثلاثين طالبا وطالبة (١١٧٣٢) . والإضافة إلى ذلك يوجد عشرون
ألف طالب وطالبة في المدارس التبشيرية التي ^{لم تكن} تتلقى إعانات مالية من الحكومة . وأما
بالنسبة للمدارس الثانوية فلم تكن للحكومة سوى مدرسة ثانوية واحدة بينما كانت هناك
أربع مدارس تبشيرية ثانوية كانت تتلقى مساعدات مالية من الحكومة وخمس مدارس ثانوية
أخرى كانت على نفقة الإرساليات التبشيرية ^{لم تكن} تتلقى أي إعانة مالية من جانب الحكومة .
وبينما لم تؤسس الحكومة مدرسة واحدة لإعداد المدرسين والموظفين فقد كانت للإرساليات
التبشيرية ثلاث مدارس مهنية كانت واحدة منها فقط هي التي تتلقى مساعدة مالية
من الحكومة . وفي السنوات ما بين سنة ١٣٣١ هـ / ١٩١٢ م سنة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦ م
ارتفع عدد المدارس التبشيرية التي لم تكن تتلقى إعانات مالية من الحكومة إلى ثلاث آلاف وخمسمائة
وثمان وسبعين مدرسة وكانت تضم نحو مائة ومثا وأربعين ألفا وسبعمائة طالب
وطالبة (١٤٦٧٠٠) .

وقد ذكر أن الخطط التعليمية التي وضعها الحاكم لوغارد سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م كان
من شأنها أن توجه إلى تحويل ملموس في شؤون الاقتصاد في المدن الكبرى
وإلى تطوير شؤون الحياة في القرى والأرياف حتى ترتفع إلى مستوى الحياة الريفية
في أمورها . وقد أكدت الخطة ضرورة إقامة المدارس في جميع القرى في شتى أنحاء البلاد
لتعليم أبناء الفلاحين القراءة والكتابة والحساب وذلك ليتمكنوا من فهم قانون الدولة

والمسائل القضائية التى ستقضى فيها المحاكم المحلية . ويجب على هذه المدارس أن تعطى طلابها معلومات أولية فى شئون الزراعة ليحرفوا كيفية المناوبة بين المحاصيل فى الحقل الواحد مع بقاء خصوبة الأرض كما هى ، وليحرفوا كذلك طريقة تسميد الأرض وزراعة المحاصيل التى لها رواج اقتصادى . وقد أكدت خطة الحاكم لوغارو التعليمية وجوب بقاء المدن مراكز هامة للتعليم النظرى الكتابى لإعداد الموظفين والمدرسين الذين كانت البلاد فى صميم الحاجة إليهم فى تلك الفترة . وقد ذكروا أن سبب عدم قيام الحكومة الاستعمارية بتنفيذ خططها الموضوعة لتوسيع نشاطها التعليمى فى هذه البلاد كان يرجع إلى نشوب الحرب العالمية الأولى التى أدت إلى قيام أزمات اقتصادية وسياسية فى شتى أنحاء العالم . وفى بعض مدن هذه البلاد كانت الحكومات المحلية تشارك الإرساليات التبشيرية فى جهودها فى ميدان التعليم ، وفى بعض المناطق كانت الإرساليات هى التى تحملت كافة الأعباء وفرت للناس وسائل التعليم . ولم يكن نصيب الحكومة الاستعمارية والإدارات المحلية فى حقل التعليم يعد شيئاً فى جانب ما يميز إلى الإرساليات من الأعمال والمجهودات فى هذا المضمار . وفى سنة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م شكلت إدارة شئون المستعمرات البريطانية لجنة استشارية لوضع مذكرة فى شئون التعليم فى بلدان المناطق الاستوائية التابعة للحكومة البريطانية وقد قررت هذه اللجنة أن يكون حق توجيه السياسة التعليمية والإشراف على كافة المؤسسات التعليمية فى يد الحكومة الاستعمارية . وكذلك قررت أن تقوم الحكومة بدعم وتشجيع الجهود الشخصية التى تعاهم فى تقديم نشاط التعليم . ثم أوصت بضرورة تشكيل لجنة استشارية خاصة لشئون التعليم فى كل مستعمرة من المستعمرات البريطانية فى غرب أفريقيا . وهى ضوء هذه المذكرة وضعت إدارة شئون المستعمرات البريطانية سياستها الجديدة فى شئون التعليم فى المستعمرات . وقد كانت هذه السياسة الجديدة مبنية على أساس توجيه التعليم للتنمية الاجتماعية والاقتصادية طبق ما يحقق للحكومة الاستعمارية مصالحها السياسية وطمعها الاقتصادية . وقد كانت الحكومة

الفدرالية والحكومات الإقليمية التي خلفت الحكومة الاستعمارية تصير على خطى السياسة المرسومة لها منذ عهد الحكم الاستعماري ، وقد اتخذت القرارات والتوصيات الواردة في مذكرة تلك اللجنة نبراسا تستنير به في وضع خططها التعليمية منذ استقلال البلاد . وقد كانت الحكومة الاستعمارية منذ سنة ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م حتى سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م التي حصلت فيها البلاد على الاستقلال ، تعمل في تطوير شؤون التعليم على أساس جعل المدرسة مؤسسة اجتماعية تخدم في تنمية الحالة السياسية والاقتصادية ويكون لها أثرها الكبير في تغيير شؤون الحياة في هذه البلاد . وأما بالنسبة لتقديم التعليم الغربي في المناطق الإسلامية في شمال البلاد فقد استمر عداء جماهير المسلمين لهذا النوع من التعليم ، ولم يكن ذلك بسبب خوفهم من آثار التعليم الغربي في إفساد عقيدتهم الدينية فحسب ، وإنما كانت هناك كراهية عامة متأصلة لكل شئ له طابع غربي وذلك لأن الدول الغربية كانت ذات اتجاهين قد بيد وأن متناقضين في ظاهرها ، ولكنهما على أي حال معاديين للإسلام .

فهذه الدول تتظاهر بالمسيحية وتحمل على نشرها وإظهارها على الأديان كلها وفي مقدمتها الإسلام . وفي الوقت نفسه هي لادينية في اتجاهاتها وكلا الأمرين خاطر كبير يهدد كيان الإسلام ويترص بالمسلمين الدوائر . ونشأ هذا التناقض الظاهري أن أوروبا لا ترى بأسا في أن تكون علمانية (أي لادينية) في شؤون الحياة العملية ، ولا ترى هذا متناقضا للدين في مفهومه الكنسي ، وهو أنه علاقة خاصة بين المهد والرب ، محلها القلب ولاصلة لها بواقع الحياة ؛ أما من وجهة النظر الإسلامية فإن الدين ينبئ أن يحكم شؤون الحياة كلها ، وليس عقيدة منفصلة عن الحياة العملية . إن وجود مجموعة كبيرة من المدارس الإسلامية في المناطق الإسلامية في شمال هذه البلاد وارتباط جماهير المسلمين الوثيق بها قد أدى إلى فشل محاولات الحكومة الاستعمارية لنشر التعليم الغربي في هذه البلاد في تلك الفترة . وقد كان للغة العربية والتعليم الإسلامي أهمية كبيرة وكان بارز في منهاج الدراسة بالإضافة إلى ما يحيط بالأجواء المدرسية من المظاهر

الإسلامية السائدة في المجتمع في شتى مراتب الحياة • وقد كانت تلك المدارس الإسلامية تقدم لطلابها المعلم الإسلامي والعربية • وكانوا يقومون بحفظ القرآن الكريم ودراسة علم التفسير والحديث والفقه والتوحيد واللغة العربية وعلوم المنطق وما إلى ذلك • وتتراوح مدة التعليم بين ثمانى سنوات واثنى عشرة سنة أو أكثر لمن يريد أن يتخصص لمنصب القضاء والتدريس • قال ل • ج • لويس L.J. Lewis : * لقد دلت إحدى الإحصائيات على أن عدد المدارس الإسلامية الموجودة في شمال نيجيريا سنة ١٣٣٢ هـ / ١٩١٣ م • يقدر بتسع عشرة ألفا وثلاث وسبعين مدرسة (١٩٠٢٣) وكانت تضم نحو (١٤٣ ٣١٢) مائة وثلاثة وأربعين ألفا وثلاثمائة واثنى عشر طالبا وطالبة * (١) • ولقد عقد مؤتمر في مدينة كانشينا Katsina سنة ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م تحت رعاية الحكومة الاستعمارية أبدى فيه المؤتمر اهتماما بالغا بموضوع تدريب القضاة المحليين على الأسس القضائية الجديدة بواسطة استخدام اللغات المحلية وكذلك محاولة تكيف التعليم عامة حسب الظروف الاجتماعية القائمة في البلاد • وقال الحاكم المسكرى البريطاني في مقالته الافتتاحية التي قرأها على المؤتمر : * لقد كان لجهودنا الكبيرة في ميدان التعليم أثر قليل جدا في الوقت الحاضر في شئون حياة الشعب الشمالى الذى يقدر عدده باثنى عشر مليون نسمة • وقد كان من مهمة هذا التعليم أن يشكل شعب هذه البلاد في قالب جديد بحيث تتحول شئون حياته إلى أسلوب آخر أكثر مرونة وحيوية • وإننا واثقون بأن هذا التشكيل والتحويل سيتم يوما من الأيام • وقد يكون ذلك في المستقبل القريب • وتقدر نسبة المسلمين من هذا الشعب بسبعة وستين في المائة • وهما كان أبناء المسلمين الذين يأتون إلى مدارسنا صفارا فإن قلوبهم قد تشكلت مبكرا بالنفوذ الإسلامى الذى سيراقتهم طول حياتهم * (٢) • وما أن القضاة هم المسؤولون المحليون الذين يرجع الناس إليهم في معرفة الشريعة الإسلامية وأحكام المسائل والمعاملات التى تستجد عليهم • فإن لهؤلاء القضاة

(1) L.J. Lewis op. cit., P.29

(2) J.D..Clarke, Omu: An African Experiment in Education, London, 1937, P.7

أوالعلماء على الأصح دورا كبيرا سيعملونه في حل المشكلة التي تواجه التعليم الغربي في الشمال لأنهم هم الذين يستطيعون أن يقرروا ما إذا كان هذا التعليم الجديد صالحا أو غير صالح ، دينيا أو غير ديني ، مفيدا أو غير مفيد . * وإذا كان لدى هؤلاء القضاة روح التسامح وكانوا من النوع الذي تفتح أذهانه لتقبل الأفكار والآراء الجديدة فلا نجد صعوبة كبيرة في تحقيق التقدم في عملية تشكيل الناشئين الصفار في قوالب جديدة وتحويل أفكارهم واتجاهاتهم لأنهم سينظرون إلى أولئك العلماء وإلى آرائهم . . . إلى أن قال * يجب علينا أن نبدا أعمالنا ببذل أقصى جهودنا في تعليم طبقة العلماء وثقيفهم أو على الأقل محاولة التأثير في بعضهم قبل أن نقدم على محاولة إدراج المدارس الإسلامية في برامجنا التعليمية (١) . وقد ظل عداء الأمراء المسلمين للتعليم الغربي والثقافة الغربية يقف حائلا دون تقدمه وانتشاره في شمال نيجيريا . وعلى سبيل المقارنة كانت في شمال نيجيريا سنة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٧ م ثلاث مدارس ثانوية فقط ، وما يزيد قليلا على ألف ومائة مدرسة ابتدائية . بينما توجد في المناطق الجنوبية ثلاث وأربعون مدرسة ثانوية وما يقارب خمسة آلاف مدرسة ابتدائية . وكان أثر ذلك أن الوظائف الهامة في المناطق الشمالية في الخدمات الشعبية والشركات التجارية كان يشغلها خريجو المدارس التبشيرية من أبناء المناطق الجنوبية ، بينما كانت المناصب العليا في الدوائر الحكومية في أيدي الخبراء الأوروبيين والسيراليونيين والهنود الغربيين . وقد ذكر أن تسعين في المائة من الموظفين الأفريقيين الذين كانوا يشتغلون في مختلف الإدارات المحلية في شمال نيجيريا سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م وما بعدها كانوا من المثقفين الجنوبيين من رعايا الدول الأفريقية المجاورة . وأما بالنسبة للتعليم العالي فلم تكن لدى الإرساليات التبشيرية رغبة في توفير التعليم العالي لشعب هذه البلاد وقد كانوا يقولون دائما إن التعليم العالي يجعل الصايق يتجه

(1) Nigeria Northern Provinces, Education Conference, March 1928 (Govt. Press, Kaduna, 1928) Pp.16-18

بقوله رحمه الله تعالى: "نحو الاتجاه العلماني اللاديني وفي ذلك ضرر كبير على أعمال التبشير".
وحتى سنة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م التي تأسست فيها كلية يابا للتعليم العالي (YABA HIGHER COLLEGE) في مدينة لاجوس لم تقم الحكومة الاستعمارية نفسها بتوفير
التعليم العالي لأهالي هذه البلاد. وقد كانت تلك الكلية تقدم التعليم العالي
لطلابها في الطب وهلم الزراعة وفي الهندسة، وكذلك كانت تقوم بإعداد المدرسين
على مستوى عال لم يتوفر مثله في أي مكان آخر في جميع أنحاء البلاد.

وقد شكلت الحكومة الاستعمارية لجنة سنة ١٣٦٣ هـ / ١٩٤٣ م لدراسة إمكان
إنشاء الجامعات ووضع قرارات وتوصيات حول توفير التعليم العالي فيما يتعلق بمناهج
الدراسة في الكليات والدراسات العليا. وكذلك دراسة إمكان وضع هذه الجامعات
الجديدة تحت إشراف إحدى الجامعات الراقية أو المؤسسات العلمية الأخرى في
المملكة المتحدة، لتعمل مع هذه الجامعات في سبل تنفيذ تلك القرارات والتوصيات،
وفي سنة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٨ م نقلت كلية يابا للتعليم العالي إلى مدينة إبادان لتكون
النواة الأولى للجامعة الجديدة. وبعد فترة قصيرة من الزمن أصبحت هذه الكلية
جامعة كبيرة ذات فروع كثيرة في أنحاء البلاد، وضمت مسؤولية تنظيم شؤونها
الإدارية والتعليمية تحت إشراف جامعة لندن. ولقد كانت تلك الجامعة الجديدة
في أيامها الأولى تسعى جاهدة للحصول على اعتراف دولي لتدخل في عداد الجامعات
الراقية في العالم، شأنها في ذلك شأن الجامعات الباقية التي قامت في هذه البلاد
بعد تأسيس الأولى، ثم إن هذه الجامعات كانت تريد أن تجعل طلابها أشباهها
للبريطانيين في العلم والثقافة وفي أسلوب التفكير وفي الاتجاه والسلوك. ولذلك بذلت
أقصى المجهودات في رفع مستوى هذه الجامعات إلى مستوى الجامعات البريطانية
لئلا يفضل خريجو الجامعات البريطانية من أبناء أفريقيا على أقرانهم الذين
تلقوا تعليمهم العالي في جامعات البلاد في شيء اللهم إلا في كون الأولين قطعوا
الغيتاني إلى عالم ما وراء البحار. ولقد كانت جامعات البلاد تضم أقساما مختلفة : قسم

الآداب والعلم وقسم التاريخ والهندسة والجغرافيا والعلم التطبيقية والطب
وعلم الاجتماع والحقوق والقانون والتربية . وما إلى ذلك ، ومناهج الدراسة في هذه
الآتسام هي نفس المناهج المقررة في الجامعات البريطانية من دون ما زيادة ولا نقصان .
ولئن كانت هذه الجامعات الجديدة قد نبتت على أرض هذه البلاد وظللتها سماؤها
وكانت نفقاتها تستخلص من خيرات هذه البلاد الوفيرة ومن خلاصة عرق جبين أبنائها
الكادحين فإنها لم تكن جامعات نيجيرية في واقع الأمر وإنما كانت جامعات بريطانية
وأفريقية من حيث الاتجاه ومحتويات التعليم . ويستطيع النيجيريون أن يحصلوا على
درجات علمية ذات قيمة عالمية دون أن يعرفوا عن شؤون بلادهم ما يعرفونه عن أوروبا . ومن
المعروف أن الجامعات الأمريكية والبريطانية كان لها طابعها الخاص وتنظيمها
الملائم للبيئة والظروف القائمة هناك . وإن التعليم الذي تقدمه تلك الجامعات كان
أميريكيا وبريطانيا في الاتجاه والمحتويات . وإذا سارت جامعات البلاد على خطى تلك
الجامعات الأوروبية فمعنى ذلك أنها كانت تريد أن تبدل شعب هذه البلاد غير
الشعب وغير شؤونه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية لتعود البلاد صورة
ممكوسة للدول الأوروبية وكأنها هي قطعة من أرض أوروبا فصلت عنها وأقيت على أرض أفريقيا .
وإن المتبع للغزو الفكري الذي يشكل التعليم الغربي في شتى مراحله وأقسامه
ركنا أساسيا منه ، يرى آثاره الكبيرة في عملية الهدم والتحويل والتشكيل التي شملت
جميع مرافق الحياة في المجتمعات الأفريقية . ومع بداية قيام الحركة الوطنية كانت
هناك دعوة في أوساط المثقفين الأفريقيين تنادي بضرورة تكييف التعليم الغربي حسب
الظروف المحلية لإبراز الحالة الاجتماعية والسياسية والدينية القائمة في هذه البلاد
قبل دخول الاستعمار والتبشير . وفي ذلك يقول ل . ج . لويس (L. J. Lewis)
" قد رأت الحكومة الاستعمارية والإرساليات التبشيرية ضرورة هذا التكييف عند وضع
البرامج التعليمية " منذ خمسينات هذا القرن . وقد بذلت كلتاها جهودا كبيرة
في هذا السبيل حتى استطاع التعليم الغربي أن يحفظ جميع المبادئ الأساسية

من تقاليد البلاد ونظمها الاجتماعية وفي نفس الوقت بقي كذلك وسيلة قومية
لتحقيق التقدم والازدهار. (١) *

وقد وجدت هذه الدعوة آذا صاغية في مصاف المثقفين الأفريقيين ، وإن كان
كثير من المسؤولين الأجانب وبعض المثقفين النيجيريين يمارضون بشدة إدراج معارف
البلاد من حضارة ونظم اجتماعية في مناهج التعلم العالي . وكانوا يحتجون دائماً
بأن معارف البلاد كانت بالية ليس فيها ما يستحق أى اهتمام من جانب طــــــلاب
الكليات . قال ل . ج . لـ Lewis : " قد فات هؤلاء القم أن المثقفين
الأفارقة الذين حملوا على أكتافهم مسؤولية تفجير الثورة الاجتماعية التي تؤدي إلى
تغيير أسلوب الحياة القديمة في المجتمعات الأفريقية المتخلفة إلى أسلوب
الحياة الأوروبية المسيحية المتحضرة إذا لم يكن لديهم معلومات وافية عن شئون مجتمعاتهم
المحلية فلا يتم لهم ما كانوا يسمون وراء " (٢) * وبالإضافة إلى ما كانت جامعات
البلاد تقدمه بواسطة برامجها التعليمية وأقسامها المختلفة والدورات التدريبية
التي تقام فيها وما توفره من الإمكانيات في مجال إعداد البحوث العلمية ونــــــسب
إقامة المؤتمرات والندوات العلمية ، فقد انفتحت أمامها مجالات أخرى
بسبب قيام حركة تكييف التعليم حسب الظروف المحلية وأصبح لزاماً عليها
أن تقوم بإعداد البحوث العلمية في الدراسات الأفريقية وإجراء بعض التعديلات
والتنظيمات في مناهج الدراسة لتلائم البيئة والظروف الاجتماعية السائدة في البلاد .
" وإذا أريد أن يستقر أمر الجامعات في أفريقيا الاستوائية فإن أول خطوة نحو ذلك
هو دراسة شئون المجتمعات الأفريقية وطريقة تغييرها تحت نفوذ الدول الغربية .
ويجب اعتبار هذه الدراسة مادة إلزامية ضمن منهاج الدراسة لا مجرد مادة اختيارية .

(1) L.J. Lewis, op.cit., P.69

(2) Ibid P.113

إن الخطر الذى يهدد غرب أفريقيا يشبه الخطر الذى تعاني منه بلاد الهند . وإن التفاوت الكبير القائم بين المفكرين الجدد وبين جماهير الشعب سيزداد يوماً بعد يوم فى الاتساع والعمق حتى يستفحل خطره فى النهاية بحيث لا تنفع صلة القرابة ولا الولاء القومى فى لم شمت المجموعتين^(١) . وعلى الرغم من أن الجامعات هى المصدر الوحيد الذى كان ينبغى أن تتوفر فيه المعلومات القيمة التى تركز عليها هذه التفسيرات والتعديلات فى عملية وضع المناهج الجديدة التى تسير عليها المدارس بشتى مراحلها وأنواعها إلا أن هذه الجامعات كما سبق أن قلنا كانت أجنبية على البلاد التى أقيمت جدرانها فوق أرضها لأنها كانت تخرج سنوياً مجموعة كبيرة من أبناء هذه البلاد يعرفون كل ما يتعلق بشئون بريطانيا سياسياً واجتماعياً وتاريخياً واقتصادياً فى حين لا يعرفون عن شئون بلادهم إلا قليلاً . وقد أبدت جامعة إبادان وجامعة مدينة إيفى وكذلك بقية الجامعات - اهتماماً كبيراً بتنمية برامج البحوث العلمية فى مجال الدراسات الأفريقية فى التاريخ والشئون الاجتماعية والجغرافيا ودراسة اللغات المحلية ودراسة الأديان الوثنية الموجودة فى البلاد والحضارة الأفريقية القديمة وما إلى ذلك . وذلك استطاعت هذه الجامعات أن تسهم فى إدخال بعض التعديلات فى مناهج الدراسة فى مختلف المراحل التعليمية . وقد كانوا يقولون * إن المؤسسات العلمية المالية فى هذه البلاد لا ينبغي أن تكون فقط مراكز لنشر الحضارة الغربية والثقافة الغربية كما هو شأن الجامعات الراقية بل يجب أن تكون مؤسسات مهنية فى هدفها ونيجييرية فى محتويات التعليم الذى تقدمه لطلابها^(٢) . ولكن ياترى هل بإمكان

(1) Sir. Eric Ashby, Functions of Universities in the West African Intellectual Community, Ed. J.T. Saunders and M. Dowuona. London (Ibadan University Press, 1965) P.55

(2) Quoted in L.J. Lewis, op. cit., P.112
from "Eastern Region of Nigeria, University of Nigeria :
Progress Report (Government Printer, Enugu, 1960)
P.3

جامعات البلاد أن تعمل في معزل من نفوذ الحضارة الغربية لتبرز معارف البلاد في صورتها الحقيقية ؟ إن التعليم الغربي في هذه البلاد سواء قبل حركة تكييفه حسب الظروف المحلية أو بعدها وفي شتى مراحله وأشكاله كان بلا شك استثماراً الهداف و صليبي الغاية وفي بعض الأحيان وتحت ظروف خاصة يوجه هذا التعليم نحو الاتجاه العلماني اللاديني • وإن المدارس الأجنبية كانت تعلم الأفريقيين العلم الغربي والتعاليم المسيحية وتخرج لنا أناساً قد انبهرت نفوسهم بالحضارة الأوروبية أيما انبهار • وأصبحوا ينظرون إلى المجتمعات الأفريقية التي كانت في حالة من التأخر والانحطاط والجهل والقر قبل دخول الحضارة الغربية إليها نظرة احتقار وازدراء • وقد كان المثقفون الجدد يسمون جادين ليروا كل شيء غريب في المجتمع الأفريقي وهو آخذ في طريقه في التحول والتبدل تحت نفوذ الحكم الأجنبي ليلحق بركب الحضارة الغربية • وإذا كان هذا هو شأن التعليم الغربي وأهدافه وغاياته • وتلك هي طبيعة المدارس الأجنبية ومهمتها • وكان ذلك هو حال المثقفين الجدد • فكيف نتظر من رجال الاستثمار ووسل التبشير أن يستجيبوا لتلك الدعوة ويدرجوا معارف البلاد في البرامج التعليمية بطريقة ترفع من شأن هذه المعارف وتبرز خصائصها ومميزاتها وخاصة في المناطق الإسلامية التي قامت فيها الحضارة وازدهر فيها العلم قبل دخول الحضارة الغربية إليها بقرون كثيرة ؟

إن البحوث والرسائل التي تقدمها جامعات البلاد حتى الآن في الدراسات الأفريقية كانت تصور أفريقيا في صورة من التخلف العلمي والحضاري في جانب ما أحرزته الدول الغربية في العصور الحديثة من التقدم والازدهار في مسار الحياة • وكان الهدف من وراء هذه الحركة إظهار خصائص ومميزات الحضارة الغربية لتبقى على مدى الحياة هي المسيطرة والمتحكمة في كيان الأمم الأفريقية • وإذا نظرت إلى القارة الأفريقية اليوم رأيت آثار الحضارة الأوروبية واضحة جليلة في كل ناحية من نواحي الحياة • ورغم قيام الحركة الوطنية التي آلت إلى الاستقلال السياسي فكان الحكم

الاستعماري الأوربي ما يزال قائما على قدم وساق في القارة الأفريقية . وإذا كانت جيوش الاحتلال الأوربي قد تولت عن القارة الأفريقية مدبرة عين النزو الفكري الأوربي ما يزال هو المسيطر على جميع مرافق الحياة في أفريقيا .

ورد في أحد منشورات وزارة الاعلام النيجيرية الصادرة عام ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م . أن عدد المدارس الابتدائية الموجودة في جميع أنحاء البلاد سنة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م . يقدر بخمسة عشرة ألفا وثلاثمائة وأربع وثمانين مدرسة (١٥٣٢٤) وكذلك توجد فيها ألف ومائتان وأربع وثلاثون مدرسة ثانوية (١٢٣٤) وسبع وستون مدرسة صناعية (٦٢) ومائة وتسع وستون مدرسة لإعداد المدرسين (١٦٦) وست جامعات . ولقد زاد عدد هذه المدارس زيادة كبيرة حتى عمت جميع المدن والقرى القريبة والبعيدة . وقد بلغ عدد الجامعات الموجودة حاليا في أنحاء البلاد ثلاث عشرة جامعة وكلها تتجه نحو الاتجاه العلماني اللاديني . وإذا كان يوجد في بعضها مراكز لتعليم اللغة العربية للمربين لإعداد المدرسين الذين يتولون تدريس مادة اللغة العربية والتعليم الإسلامي في المدارس الابتدائية والثانوية الإنكليزية ، كما توجد في بعضها أيضا أقسام للدراسات العليا العربية على مستوى دراسة الماجستير والدكتوراه ، إلا أن الدراسة في هذه الأقسام كانت على أساس مجرد اعتبار اللغة العربية إحدى اللغات الحية في العالم وكونها داخل نطاق الدراسات الشرقية . ولذلك فتحت هذه الأقسام أبوابها لقبول الطلاب المسيحيين والوثنيين بجانب الطلاب المسلمين . والخريب جدا أن لهؤلاء الطلاب المسيحيين والوثنيين إقبالا عجيبا على الدراسات العربية لم يوجد مثله في صفوف أبناء المسلمين أنفسهم . وبعد فترة قصيرة من الزمن وجد من بين هؤلاء المسيحيين والوثنيين من يحسن القراءة والكتابة باللغة العربية ويحفظ بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ويعرف الشيء الكثير من التاريخ الإسلامي . ولقد استطاع بعضهم أن يؤلف كتبها وم رسائل عديدة في بعض الموضوعات الإسلامية الخطيرة وكانوا يتصدون دائما للنقاش والجدال في بعض المسائل الدينية يستدلون

بِالآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ لَتَرْجِيحَ آرائِهِمْ وَمَعْتَقَدَاتِهِمْ فِيهَا . وقد كان خذلان هؤلاء الناس على عوام الناس من المسلمين كبيراً جداً ، لأنهم لم يكن يخالجهم أدنى الشك في أمر كل من يعرف القراءة والكتابة باللغة العربية على أنه من زمرة المسلمين المخلصين وخاصة إذا قرأ أمامهم آية قرآنية أو روى لهم حديثاً نبوياً .

وقد ذكر لي الأستاذ عبد السلام أولاتندي (١) أنه كان يحاضر الطلاب المسلمين يوماً في جامعة لاجوس فجرى بينه وبين أحد خريجي قسم اللغة العربية بجامعة إيدان نقاش حول قصة مريم وكان الرجل مسيحياً وحفظ عن ظهر قلب كثيراً من الآيات الواردة في القرآن في شأن المسيح عيسى وأمه . ثم ذكر الأستاذ أن ذلك المسيحي قال له : إن القرآن قد أثبت أن المسيح عيسى كان ابناً لله . واستدل على ذلك بآيات كثيرة من جملة ما قوله تعالى " ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا " (٢) الآية . ثم ذكر تفاصيل ذلك النقاش وكيف دحض ما يمسك به ذلك الرجل من الحجج الواهية ثم تناول الآيات التي كان يستدل بها وأفاها شرحاً وقضياً . وقد تبين من خلال هذا النقاش أن ذلك المسيحي كان على جهل مطبق باللغة العربية وعلوم القرآن والأحاديث النبوية . ولكن لو التقى مثل هذا الرجل بمسلم عادي لا يعرف اللغة العربية ولا يفهم معاني الآيات القرآنية وقف أمامه مثل هذا الموقف ، ألا يكون له تأثير كبير في تغيير أفكار ذلك المسلم العادي ومعتقداته ؟

نعود بعد ذلك إلى دراسة السياسة التعليمية المتبعة في كل من المناطق الجنوبية والمناطق الشمالية الإسلامية لنلقى نظرة فاحصة على أسباب اختلاف هذه السياسة بعضها عن بعض ، ونبين الأجواء والظروف المحلية التي كان المستعمرون والمهشرون يتذرعون بها في تبرير خططهم المتباينة في كلا المنطقتين . ولنتكشف في النهاية النقاب عن الأهداف الكامنة وراء ذلك كله . لقد ذكرت فيما سبق أن المهشرين كانوا قد دخلوا إلى المناطق الجنوبية

(١) هو أحد المثقفين المسلمين المعاصرين له جهود كبيرة في سبيل الدعوة الإسلامية في مدينة لاجوس العاصمة . ويقوم بنشر التوعية الإسلامية عبر أحاديثه ومحاضراته القيمة التي يلقيها في إذاعة وتليفزيون المدينة .

(٢) سورة التحريم ، [٤]

الوثنية في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي وبينت الظروف المحلية القائمة في تلك الفترة، والتي مهدت الطريق أمام توغلهم وفتحت أبواب المنطقة على مصاريعها أمام أعمال التبشير، فانتشرت أفكار المراكز التبشيرية والكنائس المسيحية ومدارس الإرساليات في كثير من المدن والقرى . ولقد كان المبشرون طلائع جيوش الاحتلال البريطاني، فما إن دخلوا أرض البلاد ونشأوا في أرجائها واكتشفوا فيها الأماكن الحساسة وأحرزوا بعض التقدم في أعمالهم حتى جاءت على أثرهم جيوش الاحتلال البريطاني فأخضعت شعب الجنوب بقوة السلاح . وفرضت سيطرتها السياسية والاقتصادية على هذه البلاد وأفسحت المجال أمام الإرساليات التبشيرية لتنفيذ مخططاتها الصليبية وأعطتها كل دعمها وتأييدها، فانتشرت المسيحية بين الأهالي، ولم تفسد فترة طويلة حتى ظهرت آثار الحضارة الأوروبية المادية في تلك المجتمعات الأفريقية المتخلفة، فازدهرت فيها الحياة وانفتحت أمام شعب هذه البلاد آفاق جديدة لم يكن لهم عهد بها من قبل . فأدى ذلك بطبيعة الحال إلى الإقبال الشديد على اعتناق المسيحية والانبهار بالحضارة الغربية، والخضوع المذل للنفوذ الأجنبي المتوغل . هذه هي حال المناطق الجنوبية الوثنية بالنسبة لدخول التبشير وتقدم أعماله فيها . وقد كانت الدعاية التبشيرية تتوغل وتزحف داخل هذه المناطق دون أن تلقى مقاومة عنيفة من جانب الوثنيين ، اللهم إلا ما كان نتيجة الحماسة الطائشة من جانب بعض المبشرين المهووين . كانت المنطقة مرتعا خصبا لأعمال التبشير ومراكزها متطلقة منها أولئك المبشرون المحليون الأوائل الذين ساعدوا في دفع عجلة حركة التبشير إلى الأمام في كافة أرجاء البلاد . وإن ذلك كله لما يفسر لنا سبب ذلك الاهتمام الكبير الذي أولاه المبشرون للقسم الجنوبي في ميدان التبشير بوجه عام وفي حقل التعليم بوجه خاص .

إن المناطق الجنوبية تتكون من الإقليمين الغربي والشرقي ومنطقة لاجوس وكان يوجد في كثير من المدن الكبرى وبعض القرى في الإقليم الغربي ومنطقة لاجوس عدد من المسلمين . وقد عمت ظاهرة الأمية جميع أرجاء هذه البلاد وكان شعبها في حالة شديدة من

التخلف الحضارى والثقافى ، ولم يكن للأقلية المسلمة سوى عدد قليل من المدارس المحلية غير المنظمة التى أقامها بعض العلماء فى بيوتهم وكانت مختلفة تماما وقاصرة عن توفير متطلبات المجتمع من حيث الحضارة والثقافة بالإضافة إلى أنها كانت قليلة تعدد بالأصابع . ورغم أن هدف الإرساليات التبشيرية من توفير التعليم الغربى لأهالى هذه المناطق منذ قيام حركة التبشير فيها هو نشر التعاليم المسيحية وتغيير أسلوب الحياة الأوربية فى سبيل تحويل المجتمعات الأفريقية إلى مجتمعات مسيحية ، فقد فتحت أبواب مدارسها لقبول أبناء المسلمين والوثنيين ولم تكن لتخفى عن الناس غايتها ، بل كانت فى أول الأمر تشترط موافقة أولياء أمور الأطفال على تعميد أبنائهم كخداوة أولية يجب أن تتم قبل قبولهم فى المدارس . ولما تبين للمبشرين أن ذلك سينفر بعض الوثنيين فضلا عن المسلمين ألفوا هذا الشرط واكتفوا بالحصول على موافقة الآباء على تعليم أطفالهم المبادئ والمعتقدات المسيحية والملم الغربية .

وعندما عرف المبشرون أن الوثنيين أقل تحملا لدينهم وأضعف مقاومة لمجابهة تيارات الأدیان الأخرى الزاحفة ، وأنه لم تكن لديهم مقومات روحية يستلزمون أن يثبتوا بها أقدامهم ويصمدوا بها فى مكافحة خطر الحرب المقدية . . . عندما عرفوا كل هذا استخفوا بالأديان الوثنية واستهانوا بما قد يأتى من جانب الوثنيين من خطر ، ففتحوا أبواب المدارس أمام أبنائهم دون قيد ولا شرط معتمدين فى ذلك على أن تحويلهم سيكون سهلا يسيرا داخل المدرسة . ولكنهم قد أدركوا من قبل ومن بعد أن الإسلام هو العقبة الكأداء التى تقف دائما فى طريقهم ، وأن السلم هو المد واليد الذى لا يرفع عنهم السلاح ولا يكف عن مطاردتهم حيثما حلوا أو ترحلوا . لم يستطع المبشرون أن يكظموا غيظهم الشديد من المسلمين أو يخفوا حقدهم الشديد وهذا وهم المتأصلة فى أعماق قلوبهم للإسلام . لقد أظهروا للمسلمين عداءا سافرا حيث اشترطوا فى قبول أبنائهم فى المدارس تغيير أسمائهم الإسلامية إلى أسماء أخرى لانتهت إلى الإسلام بأدنى صلة فى الوقت الذى كانوا يوافقون على استعمال الأسماء الوثنية والألقاب الوطنية للمبشرين المسلمين . وقد كانوا يفرضون عليهم حضور صلوات القداس التى تقام فى كنيسة

المدرسة وشهود الاجتماعات الدينية المسيحية • وكان لزاما على كل طالب أن يقتنى الكتاب المقدس والكتب الدينية المسيحية الأخرى ، وأن يولى مادة الديانة المسيحية اهتماما أكبر ، لأنها هي المحور الذى يدور عليه التعليم كله ، وقدرا اهتمامه بهذه المادة وقوة فهمه فيها يكون نجاحه ويكون له الحق فى الانتقال من فصل إلى آخر • وإذا كانت المناطق الجنوبية على تلك الحالة من الانحطاط والتأخر بسبب انتشار الأمية بين شعبها فقد كانت حال الأقلية المسلمة الموجودة فيها لا تختلف عن حال القبائل الوثنية المتخلفة حضاريا وثقافيا ، وأصبح الناس جميعا فى حاجة شديدة إلى الحضارة ثم جاء المبشرون فقاموا بتوفير وسائل التعليم لهؤلاء القوم ، ونشروا بينهم الحضارة والثقافة ولكنهم شنوا من خلال ذلك حربا شموا على الأديان كلها واتخذوا التعليم وسيلة لنشر المسيحية والملمم والأنكار الخربية ، وقد أظهر المسلمون خاصة عداوة شديدا وحقا كبيرا ولكن هؤلاء المبشرين كانوا هم الوسيلة الوحيدة للتعليم • ولم يكن للناس غنى عن الأخذ بأسباب التقدم والرفاهية • • فإذا كان موقف المسلمين تجاه هذه الأوضاع القائمة والظروف المحيطة بالتعليم الغربى والتبشيري ؟

كان أمام المسلمين طريقان لاثالث لهما إما الامتناع الكامل عن تلقى هذا التعليم الممادى للإسلام وإما أن يقبلوا تلك الشروط التى وضعها هؤلاء المبشرون بالنسبة لقبول أبنائهم فى المدارس التبشيرية ، ويدخلوهم فيها ليتلقوا التعاليم المسيحية والملمم الخربية سواء ترك هؤلاء الأطفال دين آبائهم أصلا — وهذا قليل جدا — أم احتالوا على المدارس بتغيير الأسماء والتظاهر بترك دينهم الأصلى ليتسكنوا — دخول المدارس لتحصيل الملمم والأخذ بنصيب من الثقافة الخربية ، وذلك هو حال الكثرة الكثيرة • ولقد نظر بعض المسلمون إلى حاجة المجتمع الماسة إلى وسائل التقدم والسرقي فى تلك الفترة التى كانت البلاد فى حالة شديدة من التخلف الملمسى والحضارى فطعموا فى التعليم الغربى والثقافة الأوروبية بعد أن ظهرت بعض آثار هذا التعليم فى المجتمع • ولم تكن لديهم رغبة فى اعتناق الديانة المسيحية على الإطلاق ،

فقد ظنوا أن طريقة الاحتياال على المدارس أهون من ترك دينهم الأصلي من أجل الحصول على الثقافة الأجنبية . فأصبح الواحد منهم يسمى بجورج داخل المدرسة ويعرف بهذا الاسم بين زملائه وهو الاسم الذي يكتبه فوق كتبه المدرسية وتحمله شهاداته العلمية وجميع أوراقه الرسمية . وأكبر من ذلك كله أن هذا الطفل المسلم الذي اختار أبوه طريقة الاحتياال على المدارس قد أصبح يشهد صلاة القدامس في كنيسة المدرسة ويدرس الكتاب المقدس ويجبر على حضور الاجتماعات الدينية المسيحية ولكنه يفعل ذلك كله حينما يكون داخل المدرسة وفي أوقات الدراسة . ولكن إذا عاد بمسند الظهيرة إلى بيته خلع عن نفسه الاسم المستعار ورجع عن الاحتياال إلى طبيعته الحقيقية ودينه الأصلي فهو معروف بين أهله وعشيرته وصارفه باسم إسلامي لأنه خرج من أسرة مسلمة . وقد ظن هؤلاء الناس أن أبناءهم يعتليهمون أن يأخذوا التعليم الغربي والثقافة الأوروبية بهذه الطريقة دون أن يتحولوا إلى المسيحية أو يكون للتعليم المسيحية والثقافة الغربية أي أثر في سلوكهم واتجاهاتهم . وقد كانوا يحسبون الأمر هينا ويمتقدون أن أطفالهم متى ما تخرجوا من تلك المدارس سيعودون بكل سهولة إلى دينهم الأول . ولكن هل كان هؤلاء الأطفال حين دخلوا تلك المدارس على معرفة تامة بأمور دينهم ، وعلى بصيرة مما كان عليه آبائهم ، وعلى يقظة بما يحاك ضد دينهم من المكائد حتى يستطيعوا أن يكونوا في مأمن من خطر المروق عن دينهم والانسياق وراء التيارات المعادية له ؟ ثم إن هؤلاء الأطفال قد دخلوا تلك المدارس في سن مبكرة ولم يكن لديهم من المقومات الروحية ما يتحصنون به ليدفعوا عن أنفسهم تلك الأخطار المحدقة بهم . وقد نتجت عن ذلك أضرارا بالغة لم تكن في حسان هؤلاء المسلمين حيث عاد إليهم أبناءهم إما صابئين وإما علمانيين متسميين بالإسلام أو متكرين للاديان كلها . وقد وجدت فئة قليلة من هؤلاء الأطفال أصبحت حريا كريمة على دينهم الأول وأصبحت عميلة للاستعمار ونصيرة للمبشرين . وحقيقة أن التعليم الإسلامي لم يكن متيسرا في تلك الفترة في المناطق الجنوبية بسبب حداثة

عهدنا بالإسلام . وإن القدر الضئيل الموجود فيها من ذلك التعليم كان يسير على أسلوب جاف منفر ، كما كان قاصرا في الوقت نفسه عن الوفاء بمتطلبات المجتمع . ولكن دخول أبناء المسلمين في مدارس التبشير قد أدى إلى ما أدى إليه من إفساد عقيدتهم وإبعادهم عن الإسلام . أما الفريق الآخر من المسلمين فقد امتنعوا عن إدخال أبنائهم في تلك المدارس حفاظا على دينهم وعقيدتهم ، ولأنهم كانوا يعرفون أن التعليم الغربي وسيلة إلى غاية ، هي نشر التعاليم المسيحية والعلم الغربية وهذه الغاية وسيلة إلى غاية أخرى كانت هي المقصودة بالأصالة وذلك هي محو الإسلام من الوجود أو زعزعة عقيدة المسلمين لإبعادهم عن الإسلام الذي هو مصدر قوتهم وعزيمتهم . وقد كانوا على يقين تام من أنه لا يمكن استخلاص الوسائل والحصول على المنافع التي يقدمها التعليم الغربي دون التأثير بنهاياته . ولكن ابتعاد المسلمين عن الأخذ بالتعليم الغربي والثقافة الأوروبية في تلك الفترة التي كانت شئون المجتمعات الأفريقية تأخذ طريقها نحو التحول والتغير سياسيا واجتماعيا وثقافيا تحت نفوذ القوة الاستعمارية إلى أسلوب الحياة الأوروبية مع عدم تطوّر التعليم الإسلامي في مواجهة خطر ذلك التعليم الأجنبي الغازي . . . إن ذلك الابتعاد من جانب بعض المسلمين وتغريبهم نفسيا اتخاذ الموقف المناسب في ساعته قد أدى بطبيعة الحال إلى تأخر المسلمين عن ركب الحضارة الغربية ، الأمر الذي جعلهم في معزل عن الحياة الواقعية ، وخف بذلك وزنهم في المجتمع وأصبحوا مستضعفين في الأرض . وأما غيرهم الذين انساقوا وراء التيارات الغربية وانكبوا على التعليم الغربي فقد أصابوا شيئا مما يشتهونهم وأصبحوا محط الأنظار ويشار إليهم بالهنان ، ولقد وا بعض المناصب في الخدمات الشبهية في ظل الحكومة الاستعمارية . والواقع أن الكثرة الكثيرة من المسلمين في الإقليم الغربي ومنطقة لاجوس قد انخدعوا بحطام الدنيا وزخارفها وفروهم المبشرون والمستعمرون في دينهم غرروا كبيرا فأقبلوا على المدارس الأجنبية إقبالا شديدا سواء أكان ذلك عن طريق التخلي عن الإسلام بالكلية أم عن طريق الاحتيايل بتغيير الأسماء والتظاهر بقبول الديانة

المسيحية • وقد وجد في هذه المناطق أفراد وأسر مسلمة بقيت متمسكة بدينهم واعتقدها فابتعدت عن المدارس التبشيرية وعن التعليم الغربي كله • ولكنها في الوقت نفسه كانت مقصورة تقصيرا كبيرا حيث لم تسع لتطوير التعليم الإسلامي ولم تأخذ نصيبها من أسباب الرقي والتقدم فتخلفت هذه المجموعة علميا وحضاريا وتأخرت كذلك عن ركب الحضارة الغربية وأصبحت أقليلة مستضعفة لا وزن لها في المجتمع • بينما كان المسيحيون وعلماء المستعمرين والمبشرين من أبناء المسلمين يحسب حسابهم في المجتمع ويقلدون المناصب في شؤون الإدارات المحلية وفي شتى القطاعات الخاصة والمامة في البلاد • ومن بين شعب المناطق الجنوبية خرجت النخبات الوطنية الأولى التي قلدتها الحكومة الاستعمارية أعلى المناصب في المناطق الشمالية الإسلامية • وقد مرت على المناطق الشمالية فترة كانت نسبة أبناء الجنوب المثقفين في شتى الدوائر الحكومية فيها تروا على السبعين في المائة وكانت قبائل الجبل والوادية من الإقليم الشرقي تحتفظ بالمراكز الحساسة في المناطق الشمالية منذ أيام الحكم الاستعماري وحتى بعد حصول البلاد على الاستقلال إلى فترة اندلاع نار الحرب الأهلية في هذه البلاد سنة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م، التي تم فيها إجلاء هذه القبائل برمتها إلى مناطقها • وأما بالنسبة للخطط التعليمية في المناطق الشمالية الإسلامية • فقد كانت مرسومة في غاية من الدقة والإحكام • فبما أن المناطق الشمالية تتألف من المسلمين، وكان للإسلام فيها قوة رهيبة ولم يكن الإسلام دين جماهير شعب هذه المناطق فحسب، بل كان كذلك نظامها للحياة • فقد استطاع شعب الشمال بفضل الإسلام أن يقيم في أراضيه الفصححة الأرجاء إمارات إسلامية على مدار التاريخ، انتشر فيها التعليم العربي الإسلامي والحضارة الإسلامية • ولقد كان زحف جيوش الإمارات الشمالية الإسلامية شديدا جدا على المناطق الجنوبية الوادية إبان فترة دخول الإرساليات التبشيرية إليها • ولولم تكن هناك إمدادات من قوة خارجية استعمارية لاكتسح هذا الزحف المناطق الجنوبية بأسرها • ولقد كان الشماليون شديدي التمسك بمعتقداتهم الإسلامية، ما جعل الجهود الأولية التي بذلها التجار الأوروبيون والمبشرون

تذهب أدراج الرياح ، وأغلق أبواب المنطقة في وجه التيارات الاستعمارية والتبشيرية حقبة غير يسيرة من الزمن . ولقد كان التعليم الوطني في حوزة المدارس الإسلامية عندما وطئت أقدام جيوش الاحتلال البريطاني أرض المناطق الشمالية، وكانت هذه المدارس شديدة التمسك بالدين، وإن كانت غير منظمة، وكانت تسير على الأساليب القديمة الموروثة، وذلك بالإضافة إلى أنها كانت متخلفة تماما عن الوفاء بمتطلبات المجتمع من حيث الحضارة والثقافة ، وأنها كانت دائما تأبى أى إصلاح تعليمي وتطور علمي وحضاري .

ولو كان بإمكان شعب الشمال تطوير تلك المدارس الإسلامية عن طريق حركة محلية واعية قبل قيام الحكم الاستعماري وحتى بعد قيامه ، لكان ذلك خطوة جلييلة الخطر . ولكن حينما بدا مثل هذا الأمل غير متيسر التحقيق على الصعيد المحلي تدخلت القوة الاستعمارية المسيحية بعد فرض سيطرتها السياسية على البلاد بقوة السلاح ، فأخذت على عاتقها مهمة إصلاح مناهج التعليم الإسلامي وتطويرها وأصبح أمام هذه المدارس أحد أمرين : فإما أن تتطور فيصبح التعليم فيها علمانيا لادينيّا تستعمل فيها اللغات المحلية بدل اللغة العربية ، والحروف اللاتينية بدل الحروف العربية ، وتقرر فيها العلوم الغربية المسيحية والثقافة الأوروبية بدل العلوم والثقافة الإسلامية ، وإما أن تتحجر في موقفها فحينئذ تموت فتختفى . ولما أراد المبشرون أن يبدأوا أعمالهم التبشيرية بإقامة المدارس والمراكز في المناطق الشمالية بعد الاحتلال البريطاني لها واجهتهم مقاومة عنيفة من جانب جماهير شعب هذه البلاد المسلمة ولم يكن عداء هؤلاء المسلمين للتعليم الغربي المسيحي فقط وإنما كان عدائهم كما أشرنا من قبل شاملا لكل شيء له طابع غربي ومظهر مسيحي .

ولقد كان المسلمون الشماليون مضرب الأمثال في قوة إيمانهم بدِينهم وشدة تمسكهم بالعقيدة الإسلامية مما أحبط جميع مساعي المبشرين وأوصد أبواب المنطقة أمام حركة التبشير ولم يتمكن المبشرون من إقامة المراكز والمدارس التبشيرية على التراب الإسلامي

في المناطق الشمالية مثلما استطاعوا أن يقيموها في المناطق الجنوبية.

وقد أقلق هذا الأمر الحكومة الاستعمارية التي كانت تحكم هذه البلاد بيد من حديد وإن كانت تتظاهر دائما بعدم الرغبة في التدخل في شئون هذه البلاد الدينية خوفا من قيام رد فعل من جانب المسلمين قد يشكل خطرا كبيرا على وجودها في هذه البلاد .

ولما ظهر الأمل في توفير التعليم الغربي المسيحي عن طريق إنشاء المدارس التبشيرية أصرا غير متيسر تحقيقه ، أصبح ذلك الأمر محصورا في تحويل التعليم وتطوير المدارس الإسلامية الموجودة على طريقة علمانية لادينية . ولقد كبر على الاستعمار الغربي الفنازي أنه تبقى المناطق الشمالية إسلامية التعليم كما كانت في سابق عهدها ، وكبر عليه أيضا أن يترك المسلمين شئون دينهم بعد أن أبى عليهم من قبل أن تظل بلادهم إسلامية الحكم وأن يترك لهم أرضهم . ولما رفض المسلمون الشماليون قبول التعليم الغربي المسيحي ولم تنفع معهم جميع محاولات الإرساليات التبشيرية ومن ورائها الحكومة الاستعمارية تشجيعها وهي متخفية عن أنظار الناس ، قررت الحكومة سياسة تعليمية دقيقة محكمة كانت مختلفة تماما عن السياسة المتبعة في المناطق الجنوبية في محتوياتها وغاياتها . وكما سبق أن أشرنا في معرض حديثنا عن الحركة التبشيرية في المناطق الشمالية فإن الحكومة الاستعمارية قررت أن تكون وسائل التعليم كلها تحت هيمنتها لتتمكن من تغيير المناهج التعليمية وتطويرها لتستطيع جميع المدارس المحلية الحصول على الإعانات المالية المقررة لها من جانب الحكومة لتدعيم نشاطها في سبيل تقدم التعليم في هذه البلاد . وقد عينت الحكومة وزيرا لشئون التعليم وأوعزت إليه أن يقوم بدراسة سياسة كرومر التعليمية في مصر المسلمية وسير على نفس الخطوة في المناطق الشمالية الإسلامية . وكانت أول خطوة اتخذتها الحكومة هي قرارها الذي أصدرته وأعلنت فيه اعترافها بالمناهج التعليمية التي تعبر عليها المدارس الإسلامية وكذلك الشهادات العلمية التي كانت تمنحها طلابها . ولكن هذه المدارس كما سبق أن قلنا كانت متخلفة وغير منظمة ، وقد اتخذت الحكومة ذلك ذريعة لضرورة إجراء بعض الإصلاحات والتنظيمات

فى شئون التعليم • وعلى هذا الأساس أسست الحكومة أول مدرسة إقليمية فى مدينة
كانو تحت إشراف وزير التعليم، وكانت المدرسة تقبل الطلاب من جميع المدارس الإسلامية
الموجودة فى أنحاء المنطقة • وقد ذكروا أن مهمة هذه المدرسة كانت إعداد المدرسين
للتعليم فى المدارس المحلية وإعداد الموظفين للعمل فى إدارات الحكومة المحلية
وتثقيف أبناء الأمراء والزعماء وتدريب بعض الطلاب على الصناعات المحلية • ولكن الذى
يمضى من هذا كله هو أن الاستثمار قد استطاع أن يستغل الوضع استفلا لا كبيرا • فإذا
رفض أهل الشمال أن يجيبوا داعى التبشير ويقبلوا التعليم النرويجى المسيحى فإن
الخطوة التالية هى محاولة إبعادهم عن الإسلام والتعليم الإسلامى بنشر التعليم العلمانى
اللا دينى بينهم • ولا بد أن يتحقق فيهم الجهل بدنيهم ليحقق غيهم من بعد أن من
جهل شيئا عاده • ولكن لا يمكن أن يتم ذلك عن طريق استعمال القوة وإنما يجب
أن نضع لذلك الخطط الدقيقة مع أخذ كل الحذر من استئثار حفظة نفوس المسلمين
ضد تنفيذ هذه الخطط المرسومة •

ولقد جعل التعليم فى المدارس الحكومية فى المناطق الشمالية باللغة المحلية
بدلا من اللغة العربية التى دخلت إلى هذه المناطق مع دخول الإسلام وانتشرت فيها
انتشارا كبيرا • ولو أن الاستثمار جعل التعليم باللغة الإنكليزية فى أول الأمر لنفـر
منه المسلمون نفورا كبيرا • ولكنه أدخل قدرا قليلا من اللغة الإنكليزية ابتداءً من
الصف الثالث • وكذلك جمعت الكتابة بالحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية •

وقد قام وزير التعليم بوضع المقررات والكتب التى تستعمل فى مختلف الفصول والمراحل
الدراسية حسب الخطة الموضوعة • ولقد استغل المستعمرون عقول هؤلاء المسلمين
بالتظاهر بعدم الرغبة فى التدخل فى شئونهم الدينية وإعلان الاعتراف بالمنهج
التعليمية التى تسير عليها المدارس الإسلامية واعتبار شهادتها فى قبول الطلاب
فى المدارس الحكومية، وما ترددت الحكومة دائما من أنها لا تريد بالتعليم غير تدريس

الموظفين وإعداد المدرسين على الأساليب الجديدة في الأعمال الإدارية وفي حقول التعليم . وهكذا استطاع الاستعمار أن يحول التعليم عما كان عليه منذ دخول الإسلام إلى هذه المناطق وبوجهه نحو الاتجاه العلماني الصرف . ولكن ذلك لم يحدث فجأة ، ولم تتم عملية التحويل والتغيير هذه دفعة واحدة ، وإنما وضعت لها خطط طويلة الأمد تنفذ حلقاتها واحدة واحدة حتى تمت أوار الخطة وحصل بعد تمامها المراد . ومن هنا تتوارد علينا بعض التساؤلات لأننا قد أثبتنا من قبل أن مسلمي هذه البلاد كانوا شديدي التمسك بالمقيدة الإسلامية وأنهم كانوا يحادون كل شيء له طابع غربي ومظهر مسيحي . وإذا كان الأمر كما قلنا فكيف نجحت فيهم خطط الاستعمار في ميدان التعليم ؟ ألم يكونوا قد رفضوا المبشرين من قبل وأبوا عليهم أن يقيموا مدارس تبشيرية في بلادهم ؟ فكيف سمحوا بعد ذلك للاستعمار المسيحي أن يقبض على وسائل التعليم ؟ ألم يعلموا أنه لن يرضى عنهم حتى يحول دينهم أو يغير اتجاه التعليم ليقطع صلتهم بدينهم ويضعف بذلك تمسكهم به ؟ إن بعض الإجابة على هذه التساؤلات قد وردت متناثرة في ثنايا هذا الفصل وفي بعض الفصول السابقة..

لم يكن هؤلاء المسلمون ليتهاونوا في أمور دينهم . بل كانوا في يقظة تامة لما يدبر لهم الاستعمار والتبشير من المكائد والحيل ، ولذلك قاوموا الزحف التبشيري الذي حاول أن يدخل مع جيوش الاحتلال ولم يمكنه من الدخول فضلاً عن التمكن والانتشار . ولكن الذي حدث في المناطق الشمالية هو ما حدث أيضاً في البلدان الإسلاميين الأخرى . ذلك أنه لما دخل الاستعمار إلى هذه البلاد فرض سيطرته العسكرية والسياسية عليها وجعل أعزة أهلها أذلة ونزع منهم زمام الحكم وجعله خالصاً لنفسه . ولم يهن المسلمون ولم يستكينوا . وإنما غلبوا على أمرهم ، ولكن رغم ذلك فقد أبوا أن يكون للاستعمار سلطان عليهم في تحويل عقيدتهم وتهديل دينهم ففعلوا دخول المبشرين إلى بلادهم . ومن هنا بدأ الاستعمار يخلق الظروف والأجواء المهيأة للتغيير السياسي والاجتماعي

والثقافي . وقد قرر أولاً سياسة الحكم غير المباشر باستخدام الطاقة المحلية في بعض شئون إدارات الحكومة المحلية لأنه لم يكن في مقدوره أن يفرض الحكم المباشر ويأتى بالخبراء والموظفين والجنود جميعاً من أوروبا للعمل في المستعمرات . ومن هنا وجد الاستعمار ما يملك به ويتخذ سبباً لضرورة توفير التعليم الغربي لتدريب الموظفين والمدربين المحليين على الأساليب الجديدة في الأعمال الإدارية وفي حقول التعليم .

ولما كان المبشرون هم الوسيلة الوحيدة للتعليم ، وقد منموا من دخول هذه المناطق لأنهم أعداء غير مقنعين فلم يبق أمام الاستعمار إلا أن يلجأ إلى التظاهر بسياسة حيادية في شئون الدين وفي مجال التعليم . ولكنه لم يكتف بسياسة الحياد وإنما تظاهر ببعض الحب للإسلام والعمل من أجل مصلحة المسلمين ، وقد أعلن اعترافه بالمناهج التعليمية التي تسير عليها المدارس الإسلامية واعتبار شهادتها في قبول الطلاب في المدارس الحكومية . واحتضن الاستعمار المدارس الإسلامية وأغدق عليها الإعانات المالية فترة من الزمن . ثم قرر أن تكون لمادة تعليم الدين الإسلامي مكانة بارزة في مناهج الدراسة في المدارس الحكومية . وكان يسمح لطلاب هذه المدارس بعد أوقات الدراسة بحضور مجالس العلم في بيوت بعض علماء المسلمين الكبار . وبما أن هذه المدارس كانت داخلية فقد حُصِّن فيها مكانٌ ليكون مسجداً ، وكان يسمح للطلاب بأداء الصلوات الخمس . وقد عيّن من بينهم إماماً وخطيباً . وزيادة على ذلك كله قرر المستعمر أن تكون فترة شهر رمضان إلى ما بعد عيد الفطر عطلة رسمية للمدارس الحكومية وكانت هناك عطلة أخرى في أيام عيد الأضحى . ثم إن الاستعمار لم يجعل التعليم في بدايته بالأمم باللغة الإنكليزية ، وإنما جعله بلغة هوسا^(١) . ولم يكن ذلك بسبب حبسه لهذه اللغة أو أنه لا يريد أن ينشر فيهم اللغة الإنكليزية ولكن ذلك كان حيلة مدبّرة وخطة مرسومة ، فقد أراد الاستعمار أن يستند إلى العوامل المحلية لإقصاء التعليم الإسلامي من ميدان التعليم . فمضى ما استطاع أن يغير أداة التعليم ، فعند ذلك

(١) See, Sir Charles Orr, op. cit., pp. 265 - 273

يسهل عليه تحويل مضمونه وتوجيهه نحو الاتجاه الذي يهواه . وإذا تم له سوق
مجامع عقول الناس إلى التعلق بالعوامل الوطنية ، فلن يجد صعوبة كبيرة بعدئذ
فى استدراجهم إلى قبول التعليم الغربى ولو بعد فترة من الزمن . وقد كان هناك
مجموعة من المدرسين الأوربيين كان لهم باع طويل فى لغة هوسا ، وكان بعضهم
مبشرين وإن لم يظهروا للناس فى ثوب التبشير ، وعلى هذه المجموعة اعتمدت الحكومة
الاستعمارية فى التعليم فى مدارسها . وهذه هى صورة الخطأ تنعكس فيها المكاييد والحيل
وتفصح عن غاياتها بأدنى التأمل والنظر . وحقيقة لم يتمكن الاستعمار من إقامة مدارس
تبشيرية فى هذه البلاد ، ولم يبن الكنائس فى المدارس الحكومية ، ولم يشترط على
المسلمين تغيير الأسماء الإسلامية ، ولم يقرر مادة الديانة المسيحية على الطلاب ، ولم
يوجد أبواب مدارسهم فى وجه أى راغب من أبناء المسلمين إذا كان حاصله على شهادة
علمية من إحدى المدارس الإسلامية . وإذا كان الاستعمار لم يتمكن من التبشير العلنى فى
هذه البلاد ولم يقدر على المجاهرة بالأعمال المعادية للإسلام مثلما كان يفعل المبشرون
ورجال الاستعمار فى المناطق الجنوبية ، فإن الخطأ التعليمى الذى وضعها الاستعمار
فى المناطق الشمالية المسلمة كانت تلتقى مع أعمال هؤلاء المبشرين ورجال الاستعمار
الذين خاضوا غمار الحرب المقدسة فى المناطق الجنوبية من حيث الهدف والغاية . وعلى
الرغم من أن الاستعمار لم يفلح فى تمكين المسيحية فى المناطق الشمالية الإسلامية
فقد أحرز نجاحا لا شك فيه فى نشر الملمانية اللادينية وإبعاد المسلمين عن الإسلام
وإضعاف تمسكهم به . وهما اختلفت خطط المستعمرين والمبشرين فى كلا الجزئين الجنوبى
والشمالى وتنوعت وسائلهم فى تنفيذها فإن هذه الخطط والوسائل جميعا تلتقى
على خصومة واحدة وحرب واحدة : الخصومة للإسلام . والحرب على المسلمين . وشمل
هذا الموقف وقفه الاستعمار والتبشير فى جميع البلاد الإسلامية .

وكل مانى الأمر هو أن اختلاف الخطط وتباين الوسائل كان تبعا لقوة الإسلام فى كل
منطقة ، وشدة تمسك المسلمين بالعقيدة الإسلامية ، وقوة مقاومتهم لما يدبر لهم

من الحيل وما يحاك ضدّهم من المكاييد . وقد كان لهذه السياسة التعليمية آثار بالغة في تغيير الأوضاع القائمة في هذه المناطق في مختلف مجالات الحياة . وقد ظهر لى من خلال هذه الدراسة أن الاستعمار لا هو ترك التعليم الوطنى القائم يسير فى طريقه ويضى فى اتجاهه حتى يأتيه التطور الذى هو من سنة الله فى هذا الكون ، ولا هو فى الوقت نفسه كان راغبا فى توفير التعليم الغربى للمسلمين لئلا يصبح هذا التعليم أداة قسوة سياسية فى يد المسلمين الذين يزداد تعدادهم بسرعة بالنسبة للفرنسيين، وهم فى ذات الوقت لم يخضعوا لسلطان الاستعمار الروحى فيصبحون بذلك مركز خطر للاستعمار ولأصحاب الأديان الأخرى الموجودة فى هذه البلاد . ولذلك حاول الاستعمار إلغاء المدارس الإسلامية مع أنه لم يفتح فى المنطقة إلا مدارس إنكليزية قليلة . وقد كان دائما يسعى لزيادة الجهل وتعميقه وإنشائه ، كان يسعى أولا لنشر الجهل بالنسبة للإسلام ومعاليمه فحصر التعليم الدينى فى نطاق ضيق وفتح التعليم اللادينى فى مواجهته ، وضيق الموارد المالية على التعليم الدينى وأغدى على التعليم اللادينى وحده . ولم يكن التعليم الدينى وحده يعهل الإنسان للحصول على المناصب عند الحكومة الاستعمارية بل كان التعليم اللادينى الوهيلى الوحيدة للحصول على مناصب عديدة مغرية فى المظهر والأجر . ولكن الاستعمار بجانب ذلك قد حدد القدر الذى يقدمه لهؤلاء المسلمين من التعليم الغربى نفسه ليتحقق فيهم الجهل والضعف من هذه الناحية أيضا . ولم يقصد الاستعمار بهذه السياسة سوى كسر شوكة المسلمين وإضعاف قوتهم حتى لا تخفيهم كشرتهم من الأمر شيئا . وليصبحوا غطاءا كغشاء السيل أو قطيما ينساق وراء الراعى ويذهب حيثما يوجهه . ومع مرور الأيام والحكومة الاستعمارية تسير على هذه السياسة فى شئون التعليم استطاع المشرون أن يتسللوا إلى بعض المحافظات التى توجد فيها أقلية وثنية ذات شأن فى المجتمع مثل محافظة زاريا Zaria وجوس Jos وفى بعض أحياء الأجانب المقامة فى خارج بعض المدن الإسلامية ، فأقاموا فيها بعض المدارس التبشيرية ولكنهم لم يستطيعوا أن يقيموا الكنائس فى تلك المدارس ولم يشترطوا على أبناء المسلمين

الذين دخلوا مدارسهم تغيير الأسماء الإسلامية • ولم يجبروهم على دراسة الديانة المسيحية • بل كانوا في بعض الأحيان يدرسون لهم صورة مشوهة من تاريخ الإسلام ويعرضون لهم المسلمين الأوائل في صورة المتسلطين النهابين المخربين • وكل ذلك من أجل حمل الأطفال الصغار على النفور من الإسلام والإقبال على التعليم الغربي المسيحي • والتعلق بالغرب حتى يصبحوا غربيين • وقد كان هؤلاء المشرون يختارون عددا من نجباء الطلاب فيبعثونهم إلى أوروبا لمواصلة دراساتهم على نفقة الهيئات العليا للإرساليات التبشيرية • وقد لجأوا إلى ابتعاث الطلاب إلى الخارج ليزدادوا جهالة بدينهم وقيمهم وشلهم ويزدادوا تعلقا بأفكار الغرب واتجاهاته • وفي الابتعاث إلى الخارج يتم تطبيع الطلاب بطباع غير إسلامية • ومع مرور الزمن يصير التطبيع طبعا فينسلخ هؤلاء الطلاب من حيث لا يشعرون من دينهم وقيمهم وراثتهم وحتى من تقاليدهم وادانهم السليمة وطريقتهم في التعامل مع الناس بصدق وأمانة وإخلاص ويفقدون غربيين أو أشباها للغربيين •

هذه هي الظروف المحيطة بالتعليم الغربي في المناطق الإسلامية • ولكن هذه هي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي أوجدها الاستعمار ليحمل الناس على الإقبال الشديد على هذا التعلم ويرغمهم في الثقافة الغربية • إن السيطرة العسكرية التي حققها جيش الاحتلال البريطاني هي التي مكنت القوة الاستعمارية من فرض سيطرتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على هذه البلاد وهي التي اعتمدت عليها حتى تمكنت من تحويل وتغيير جميع شئون هذه البلاد • ولكن بينما كان المسلمون يرفضون سلطان الاستعمار الروحي ويأبون عليه أن يتخذ التعليم وسيلة لتحويل دينهم وتغيير عقيدتهم • فإنهم في الوقت ذاته كانوا يخضعون لسيطرته الثقافية • وكما قررنا سابقا أن الاستعمار وإن كان قد أخفق في اتخاذ التعليم الغربي وسيلة لنشر الديانة المسيحية في المناطق الإسلامية فإنه قد استطاع أن يحرز نجاحا لا شك فيه في نشر الثقافة الغربية وتحويل التعليم بشكل عام نحو الاتجاه العلماني الصرف • وقد كان

المهدف من المدارس الأجنبية في بداية الأمر تنصير المسلمين • ولكن لما لم يتمكنوا من ذلك قنعوا أنفسهم بإخراجهم من الإسلام أو بزعزعة عقيدتهم •

وفي ذلك يقول القس صموئيل زويمر (Rev. Samuel Marinus Zwemer)

زعم المبشرين في خطابه الذي ألقاه على زملائه المبشرين في مؤتمر القدس سنة ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م " لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر الميلادى إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنايس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيم عليها الدول الأوروبية والأمريكية •• إنكم أعددتُم نشأ في ديار المسلمين لا يعرف الصلوة بالله ولا يريد أن يعرفها • وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية • وبالتالي جاء النشر الإسلامى طبقاً لما أرادته له الاستعمار المسيحى • لا يهتم بالعظام ومحبة الراحة والكسل • ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات • فإذا تعلم فللشهوة • وإذا جمع المال فللشهوة • وإن نبوا أسس المراكز في سبيل الشهوات يوجد بكل شيء (١)

إن الواقع في المناطق الشمالية المسلمة بالنسبة للتعليم الغربي أن الكثرة الكاثرة من المسلمين قد امتنعوا من إدخال أبنائهم في المدارس الأجنبية والمدارس الوطنية الإنكليزية التي أقامتها الحكومات المحلية • ولم يتغير موقف مجموعة كبيرة من المسلمين حتى بعد ظهور آثار الثقافة الغربية في المجتمع • ولقد أبدى المبشرون والمستعمرون اهتماماً كبيراً بالقسم الجنوبي من الناحية التعليمية وكانوا يفكرون ذلك بأن الشعب الجنوبى حين دخل التبشير والاستعمار إلى بلاده كان هذا الشعب يشعر بالنقص الذاتى بسبب انتشار ظاهرة الأمية في أرجاء بلاده وقام حالة التأخر والانحطاط مما جعله يهرع إلى قبول التعليم الغربي والثقافة الأوروبية لإكمال ذلك النقص ورفع مستوى بلاده

(١) أساليب الفزو الفكرى للمسلم الإسلامى • تأليف د • على محمد جريشة ومحمد شريف

الزريق ص ٦٣ • كتاب المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام تأليف الشيخ

محمد محمود الصواف ص ٢٩٧ - ٢٩٨ •

كتاب جذور البلاء تأليف عبد الله التل ص ٢٧٥ - ٢٧٦ •

الحضارى والاجتماعى إلى مكانه اللائق • وهذا أراد هؤلاء المشرىون والمستعمرون والمستعمرون أن يقوموا بمثل ذلك النشاط فى مجال التعليم فى القسم الشمالى حصل صراع عنيف بين التعليم الإسلامى والثقافة الإسلامىة وبين التعليم الغربى والثقافة الأروبيةة وقد بذل الاستعمار كل ما فى وسعه لتخية التعليم الإسلامى عن شئون المجتمع والتقليل من شأنه • وسبب وجود عوامل محلية معادية لسياسة الاستعمار التعليمية ضمن الاستعمار بالتعليم الغربى نفسه على الشعب الشمالى فعمّ الجهل بسبب ذلك جميع أرجاء المنطقة وتأخر المسلمون علميا وحضاريا • وقد كان لسياسة الاستعمار فى بسط التعليم الغربى للشعب الجنوبى وحصر هذا التعليم وتحيده بالنسبة للشعب الشمالى أبعاد عميقة فى مستقبل شعوب كلا الجزئين الشمالى والجنوبى • وقد برهنت الأيام والأوضاع القائمة فى هذه البلاد على أن للاستعمار قصدا فى ذلك، إنه كان يريد أن يكون غير المسلمين فى وضع أفضل من المسلمين • وإذا كان المسلمون الذين يشكلون الأكرية الساحقة قد غلبوا على أمرهم وحيل بينهم وبين مصدر المزة والسعادة فى مجتمعهم • وقطعت الصلة بينهم وبين تراثهم • وفى الوقت نفسه كانوا محرومين من التعليم الغربى بينما كان الوثنيون والمسيحيون الذين هم الأقلية تفتح أمامهم مجالات التقدم العلمى والحضارى • فهل هناك شىء أدل من هذا على أن الاستعمار قصد الوقعة بالمسلمين بعميه فى نشر الجهل بينهم ليصبحوا فى المستقبل أمة مستضعفة فى الأرض ؟

إن سياسة التمييز بين المسلمين وغيرهم فى التعليم الغربى بعد أن قضى الاستعمار على التعليم الوطنى وحول شئون المجتمع كلها إلى الاتجاه الغربى العلمانى • قصد أخرت المسلمين كثيرا فى شتى مجالات الحياة، وأدت إلى تفوق الأقلية المسيحية والوثنية عليهم • وقد أيتحت الفرصة أمام الجنوبيين فتقدموا على الشماليين فى كل شىء حتى استطاعوا أن يحتلوا جميع المراكز الحساسة فى مختلف القطاعات الهامة فى الحكومات

الشمالية ، في حين كان الشماليون لا يصلون إلا إلى أدنى الوظائف والمناصب المتواضعة . وقد تغير هذا الوضع بعد حصول البلاد على الاستقلال وخاصة بعد فوز الشماليين في الانتخاب العام سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م ، فقد ظهرت جوانب ضعف الشماليين وتخلّفهم في العلم الغربية والثقافة الأوروبية عندما أسند إليهم سبل الحكومة فلم يستطيعوا ذلك ، فأشركوا معهم بعض الجنوبيين * وتم بذلك تشكيل حكومة ائتلافية بين الحزب الشمالي الفائز وبين أحد الأحزاب الجنوبية . ومنذ ذلك الوقت ازداد تعلق الشماليين بالتعليم الغربي وإقبالهم على الثقافة الأوروبية ، فوجدوا كل طاقاتهم لإدراك ما فاتهم في هذا السبيل وإلحاق شعبهم بركب الحضارة والثقافة الغربية . وكان لذلك أثره الكبير في انتشار العلمانية اللادينية في المناطق الشمالية المسلمة .

ولقد بدأت سلطة المدارس الأجنبية في التقلص منذ قيام الحركات الوطنية في أعقاب الحرب العالمية الثانية حيث توقفت هذه المدارس عن النمو والتكاثر فانتشرت المدارس الوطنية في جميع أنحاء البلاد ولكن الأخطار التي كانت تتمثل في وجود المدارس الأجنبية ما تزال قائمة ، إذ إن المدارس الوطنية نفسها لا تختلف في جوهرها ونتائجها عن المدارس الأجنبية ، وإنما كانت تستقي من ينابيعها وتسير على منوالها . وكأنه لم يحصل في الأمر سوى وضع كلمة الوطنية بدلا من الأجنبية عندما انتقلت المدارس التي أقامتها الحكومة الاستعمارية إلى يد الحكومة الوطنية بعد الاستقلال .



((البحث الثانى))

ميدان الطب

إن من سنة الله تعالى فى مخلوقاته أن يصيبهم بعض الأمراض والأسقام والأوجاع والآلام ، ومن رحمته تعالى أنه لم يخلق داء إلا جعل له دواء . وقد علمه بعضنا من خلقه ليستخدموه فى خدمة إنسانية نبيلة لإنقاذ بنى البشر مما يفتك بهم من الأمراض والأسقام . وإن وسائل الصحة لمن ضرورات الحياة فى المجتمع البشرى ، فحيثما وجدنا البشر لابد أن تكون هنالك آلام وأسقام ، وإذا لم يكن بينهم من يخفف تلك الآلام ويقضى على تلك الأمراض عن طريق الملاجىء الطبية التى علمها الله هذه الفئة من الناس فلن تتحقق بينهم السعادة .

وتظهر أهمية الطب بالنسبة لحياة الإنسان من أن المريض المتألم لا يتردد فى التضحية بأشياء كثيرة فى ملكه من أجل أن يتخلص من آلامه ، وقد لا يرضى بتقديم هذه الأشياء فى غير هذه الحال .

وكذلك إذا رأى الإنسان قريبا له مريضا سواء كان ابنا له أو أما أو زوجة فإنه سيزداد رضاء فى التضحية بكل ما يملك وذلك لقلّة قيمة هذه الأشياء فى عينه بالنسبة لشفاء قريبه المريض .

ولقد أدرك البشرون هذه الحقائق منذ فترة طويلة وعرفوا ميول الإنسان فى مثل هذه الحالات فسخرُوا الطب فى سبيل تحقيق غاياتهم الخاصة ومآلهم الذاتية .

يقول أنا ملغان : " حيثما تجد بشرا تجد آلاما وأسقاما ، وحيثما تكون الآلام والأسقام تكون حاجة الناس إلى الطبيب شديدة جدا . " (١) وحيثما تكون حاجة الناس إلى الطبيب لمعالجة ما يصيبهم من الأمراض والأسقام فهناك تكون الفرصة سانحة تماما للتبشير فيهم . وبهذه الطريقة اتخذ البشرون الطب وسيلة للوصول إلى مختلف

(1) A.A.Milligan, Facts and Fals in our Fields Abroad, Philadelphia, 1921, P.133

طبقات الناس ليكرزوا بالمسيحية بينهم . ولقد اهتمت الإرساليات التبشيرية منذ قيام حركة التبشير في هذه البلاد بتوفير وسائل الصحة على أساس اعتبارها إحدى وسائلها الهامة لنشر المسيحية بين أهالي هذه البلاد . وكان هدف المبشرين من وراء هذا العمل هو أن يظهروا للناس أن المسيحية دين الرحمة والمحبة والإنسانية النبيلة ، وأن المسحيين والأطباء المبشرين منهم بوجه خاص جماعة الرحمة وأهل الخير يحبون البشرية جمعاً وسهرن من أجل راحتهم وسعادتهم .

ولكن لو قارنا بين الاهتمام الذي أبداه المبشرون بمجال الطب من قديم قيام حركة التبشير في هذه البلاد وبين ذلك الاهتمام الذي أولوه جانب التعليم باعتبار المجالين التعليم والتطبيب سبلتين من أهم وسائل التبشير عند جميع الإرساليات . . . لو قارنا بين الاهتمامين علمنا عن طريق استعراض جهود المبشرين في كل مجال منهما والوقوف على نتائج تلك المجهودات أن اهتمام المبشرين بمجال الطب أقل بكثير مما كان عليه الأمر في مجال التعليم . والسبب في ذلك أن مجال التعليم أوسع من مجال الطب ، فإن أبواب التعليم مفتوحة أمام الأصحاء رجالاً ونساءً وأطفالاً ونسبة الأصحاء في المجتمع بطبيعة الحال أكثر من نسبة المرضى . ثم إن الإنسان يقدم على التعليم وهو في حالة جيدة من الصحة يفتح ذهنه لقبول ما يلقي إليه من الأفكار والمبادئ والمعلوم، ثم إلى أن الدافع للتعليم عادة يكون اختيارياً من أجل الحصول على مظاهر ومناجح دنيوية . وكذلك فترة التعليم فإنها طويلة مستمرة على مدار عمر الإنسان يتقل فيها من مرحلة إلى أخرى لينتهي في آخر سلسلة المراحل إلى دائرة العمل حيث يعيش بقية حياته ليزداد تمكناً وتأثراً بما حصل عليه من العلم في مراحل حياته التعليمية .

وفوق ذلك كله فإن وسائل التعليم من مدارس وكتب وأدوات مدرسية أقل مؤنة وكلفة من وسائل الطب بحيث إنه لو وجد مدرس واحد ومعه نسخة واحدة من الكتب المقررة في مختلف المواد استطاع أن يقوم بمهمته خير قيام مدة طويلة من الزمن . بينما وسائل الطب من المراكز الصحية والعلاجات والمعدات

الطبية الحديثة أكثر كلفة ومؤنة ، إذ أنه بالمقارنة لو وجد طبيب واحد ومعه نموذج من الأدوية لبعض الأمراض فإنه لا يستطيع أن يقوم بمهمته على الوجه الأكمل لأن المرضى سيستهلكون ماله من الأدوية خلال فترة قصيرة من الزمن .

ثم إن الإنسان لا يتقدم إلى الطبيب إلا في حالات خاصة يكون فيها قلق البال لا يدري ماذا يقال له ، لأن همه كله في الشفاء مما ألمّ به من المرض . وقد يقبل هذا المريض أشياء كثيرة نتيجة ضغط متزايد من الآلام والأسقام ولكنه ربما يتراجع عنها إذا عادت إليه ذكريته وشفى من مرضه . وقد لاتحيز فرصة الطبيب مع بعض الأشخاص ، وقد تقل فترة المعالجة بحيث لا يمكن معها إحداث أى تأثير في قلب المريض أو الذين يحيطون به .

ثم إذا ربط تأثير الطب بضرورة الاعتقاد والإيمان كما كان يفعل المبشرون قبل أن يباشروا معالجة المريض حيث يطلبون من المرضى الاقتراب من المسيح هو المنقذ الشافي وأن العلاجات بخير هذا الاعتقاد لاتخفف / شيئاً من الآلام ولا تشفى الإنسان من المرض ، وإذا اتفق أن مات المريض أو تأخر شفاؤه بعد هذا الاعتقاد وتماطى ذلك العلاج فسوف يكون لذلك رد فعل عكسي في نفوس الناس تجاه ما يدعو إليه الطبيب المبشر .

من هذه الزوايا كلها يمكننا أن نفهم ذلك الاهتمام الأكبر الذى أولاه المبشرون جانب التعليم . ولقد كانت الإرساليات التبشيرية تخصص بعثة طبية لكل مركز تبشيري في المدن والقرى . وكان اهتمام البعثة يتوجه قبل كل شيء نحو رعاية صحة المبشرين الأجانب الذين كثيراً ما يتعرضون للأمراض نتيجة عدم ملائمة المناخ الأتريقى لمزاج الأوروبيين . وكانت البعثة تقوم بتدريب بعض الأولاد على المهن الأولية في شئون الطب لمساعدتها في أعمالها . وبجانب ذلك كله كانت تشتمل بمعالجة الناس بإمكاناتها الطبية المحدودة في حالات الطوارئ . وقد بدأت مراكز التبشير عند بعض الإرساليات التبشيرية مراكز للطبيب ، ووجهت فيها عناية خاصة بأعيان الناس ووجهاتهم ، وقد استطاعت الإرساليات بهذه الطريقة أن تستغل

هؤلاء الناس لصالح تبشيرية . ولقد قام المبشرون منذ فترة طويلة بإنشاء مستشفيات عامة ومراكز صحية ومستشفيات للتوليد ومستوصفات اختصاصية لمعالجة أمراض الأطفال والأمراض العقلية والأمراض المعدية وأمراض الأسنان والعيون . وكذلك أقاموا مراكز صحية لمعالجة وتحسين حالة المجذومين ، وأنشأوا دوريات طبية متنقلة منتشرة في معظم أنحاء هذه البلاد . ومنذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي كانت لبعض الإرساليات التبشيرية الموجودة في المناطق الجنوبية مستشفيات في بعض المدن والقرى . وقد تم في تلك الفترة إنشاء مستشفى إيني IyiEnu Hospital لجمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية قرب مدينة أونتشا Onitsha والمستشفى المعمدانى في مدينة أبوماشو Ogbomosho ومستشفى الطائفة الويلزية المنهجية فى مدينة إيشا Ilesha ومستشفى روح القدس لجمعية الإرساليات الأفريقية فى مدينة أبيوكوتا Abeokuta وقد كان المبشرون في سياستهم في ميدان الطب يلاحظون الأمراض المنتشرة في المنطقة التي يريدون العمل فيها فيبادرون إلى إنشاء مستشفى خاص لتلك الأمراض في تلك المنطقة، ثم يأتون بأطباء اختصاصيين مبشرين للعمل فيها ، وكانت هذه المستشفيات تصرف الأدوية والملاجات للمرضى مجاناً . ولكن ياترى ماذا كان هدف المبشرين من وراء جهودهم في مجال الطب؟ هل هذه الجهود من أجل غايات إنسانية نبيلة : أم إنها مجرد وسائل تستغل لتحقيق مصالح أخرى بعيدة كل البعد عن الخاية الأساسية التي تهدف إليها وسائل الصحة في حقيقتها ؟

يقول بول هارسون Paul Harrison في كتابه (الطبيب في البلاد العربية) : " إذا كان للأطباء المبشرين مستوصف أو مستشفى فإن مهمتهم الأولى - التي هي التبشير بالسيحية - تكون أسهل ، وذلك لأن الطبيب المبشر يجد في غرفة الاستشارة فرصاً مناسبة ليدخل التعامل المسيحية في قلوب المرضى ، وبهذه الطريقة يكون كل من دخل المستشفى للمعالجة قد تلقى من طبيبه المبشر تلك البشارة التي توجهه نحو المسيح " (١) . وقد جاء في كتاب الفارة على العالم الاسلامى

(1) P.W.Harrison, Doctor in Arabia, London, 1943, P.141

ترجمة محب الدين الخطيب وساعد اليافى عن مجلة العالم الاسلامى التبشيرية قول
المستر هابر فى " وجوب الإكثار من الإرساليات الطبية لأن رجالها يحتكسون
دائما بالجمهور ويكون لهم تأثير كبير على المسلمين أكثر مما يكون للمبشرين الآخرين؛ (١)
قال جوليوس ريشتر J.Richter: يمكن للطبيب عن طريق التطبيب نفسى
المستشفى أن يخاطب المسلمين بكلام كثير لو سمعوا بعض هذا الكلام فى مكان آخر
غير المستشفى ومن شخص آخر غير الطبيب لامتاروا غيظا وغضباً (٢) . إن كل ما يقوم
به المبشرون من مجهودات وأعمال فى مجال التطبيب إنما هو من أجل تحقيق غاية
واحدة هى إدخال المرضى تحت حظيرة المسيحية " . ولقد استخدم المبشر الأفريقى

صمويل كراوذار Samuel Crowther والمبشر الأهرى هوب واديل Rev. Hope

Wadell عملية التطعيم ضد الجدري وسيلة للتبشير فى بعض مدن المنطقة
الشرقية من هذه البلاد. (٣) وقد قال الدكتور أراهارس: " يجب على طبيب
إرساليات التبشير أن لا ينسى ولا لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شئ ثم هو طبيب
بعد ذلك (٤) " ويجب بعد ذلك أن نلقى نظرة خاطفة إلى ما كان يجرى
داخل مستشفيات الإرساليات لنصرف مدى اهتمام المبشرين فيها بالتبشير أكثر من
التطبيب . كانت مستشفيات الإرساليات فى بداية الأمر قبل إنشاء المستشفيات الحكومية
والأهلية تشدد كثيرا فى شروط قبول المرضى للمعالجة فيها . وكانت تفرض على المرضى
قبل معالجته الإقرار بفكرة التثليث " وأن المسيح هو الشافى القدير " (٥) . وأن

(١) الفارة على العالم الاسلامى . ترجمة محب الدين الخطيب وساعد اليافى
ص ٦٠ .

(٢) J.Richter, The History of the Protestant Missions in the Near East, New York, 1910, P.252

(٣) . J.F.A. Ajayi, op.cit., P.159

(٤) الفارة على العالم الاسلامى . ترجمة محب الدين الخطيب وساعد اليافى
ص ٦٢ .

(5) Anna A.Milligan, op.cit., P.158

الأدوية والعلاجات بغير هذا الاعتقاد لا تخفف الآلام ولا تشفى من الأمراض ، ولا يمكن أن يجد المريض أى عناية من قبل المستشفى ولو كان يموت أمامهم صرعا إلا بعد ذلك الإقرار " وكوج المريض أمام الطبيب ليسأل المسيح المنقذ أن يشفيه من مرضه " (١) . وكما يسير التعليم والتبشير جنبا إلى جنب ، فكذلك الحال بالنسبة للتطبيب والتبشير .

وقد كان الأطباء المبشرون يلقون صعوبات كثيرة فى التوفيق بين مهنتى التبشير والطب ، وحتى الممرضة التى تسهر الليالى الطويلة فى تخفيف الآلام عن المرضى فإنها لا تدخر وسعا فى انتهاز هذه الفرصة للتبشير فيهم . وقد كان المبشرون فى محاولاتهم مع المرضى يقدمون لهم الإنجيل ويعرضون عليهم التعاليم المسيحية بأسلوب بسيط مركز لا يدعو إلى التطرف فى النقاش والجدال . وكانوا يذكرون لهم الخدمات التى تقوم بها الإرساليات التبشيرية فى مجال التطبيب ليستنتجوا من ذلك أن المسيحيين جماعة الرحمة ومنقذو البشرية من الأمراض والأسقام . وتوجد داخل مستشفيات الإرساليات دوريات تبشيرية تنقل بين المرضى صباح مساء لتعليمهم مبادئ الديانة المسيحية وتلقينهم الدعاء فى أوقات صلوات القدايس . وقد كانت لبعض الإرساليات مراكز صحية متنقلة ودوريات طبية جواله فى السيارات تنقل بين المدن والقرى النائية وتصرف العلاجات للمرضى مجانا وتكرز من خلال ذلك بالمسيحية بين الأهالى . وكان طبيب الإرساليات فى بعض الأحيان يقوم بزيارة المريض فى بيته إما للمعالجة وإما لمجرد الزيارة بعد نقاهة المريض من مرضه .

كان هدف المبشرين من وراء ذلك هو محاولة اتخاذ المريض واسطة لجمع عدد من الناس وخاصة أقرائه الذين يأتون إليه لمدايته ، فحينئذ ينتهز الطبيب هذه الفرصة السانحة ليبشر فى هذه المجموعة من الناس . وبهذه الطريقة يتمكن الطبيب من الوصول إلى جميع طبقات الناس وهو يتستر وراء التطبيب لينفذ من خلاله إلى جميع الناس ، حتى أولئك الذين لا يخالطون غيرهم خوفا من

أن يكون للمتسللين الدخلاء تأثير عليهم • يقول بول هارسون Paul Harrison "إن بإمكان الطبيب المبشر أن يصل بتبشيريه إلى جميع طبقات المسلمين بواسطة المرضى الذين يحالجهم • وبإمكانه أن يخير الذين حولهم ويجعل منهم نصارى أو يترك في نفوسهم أثرا عميقا." (١) • وعلى الرغم من ضيق مجال التبشير في ميدان الطب • إذا قيس بالمجال الواسع المتاح أمام التعليم الغربي • فقد كانت آثار أعمال المبشرين في مجال الطب بالغة جدا بحيث إنه لا يكاد يخرج مريض من مستشفيات الإرساليات إلا وقد صبا من دينه وصبح بعد ذلك بطاطى رأسه للمسيح الذي يعتقد أنه هو الذي شفاه من مرضه • وأتخذ حياته من الهلاك • وقد استطاع المبشرون أن يؤثروا في بعض المسلمين الضعاف الإيمان حيث أغراهم المبشرون بتظايرهم بالمحبة والرحمة والشفقة وادعائهم بأن الأطباء المبشرين مبعوثون من قبل الله لإنقاذ الناس من الأمراض ونشر السعادة بين بني البشر •

ومنذ أن احتلت الحكومة البريطانية الاستعمارية هذه البلاد لم تبد اهتماما كبيرا بشئون الصحة • وإنما وكلت الأمر إلى الإرساليات فترة طويلة من الزمن • وكانت تقدم لها الإعانات المالية لتدعيم نشاطها في هذا المجال كما كانت تفعل في ميدان التعليم العام • وبذلك استطاع المبشرون أن يستغلوا مجال الطب استفلا كبيرا • وعندما بدأت الحكومة الاستعمارية في إنشاء المستشفيات والمستوصفات لم تكن جهودها في هذا المجال توازي جهود الإرساليات • وقد ظلت الإرساليات فترة طويلة تسيطر على شئون الصحة سيطرة كاملة في معظم مناطق هذه البلاد • وإن قلة مستشفيات الحكومة في معظم هذه المناطق مما ساعد المبشرين كثيرا في تحقيق غاياتهم التبشيرية • وفي بعض المدن والقسم لا توجد مستشفيات إلا مستشفيات الإرساليات • وفي بعض الحالات يكون المستشفى المختص بالمرض الذي أصاب المريض مستشفى تبشيرية • وفي مثل هذه الحالات لا يجد الأهالي مطلقا من غشيان مستشفيات المبشرين سواء أرضوا بذلك أم لم يرضوا به • وحتى في الوقت الحاضر فإنه رغم وجود المستشفيات الحكومية والأهلية لا يزال

(1) Paul W. Harrison, op.cit., P.276

عدد مستشفيات الإرساليات في بعض المناطق يربوا على عدد المستشفيات الأخرى بنسبة كبيرة . ولنستعرض بعضا من إحصائيات المستشفيات الحكومية والتبشيرية والأهلية في بعض مناطق هذه البلاد لنصرف الدور الذي تلعبه الإرساليات في ميدان التطبيب .

في ولاية نجد بينوي Benue Plateau State من المناطق الشمالية توجد تسعة مستشفيات عامة لحكومة الولاية بالإضافة إلى ثلاثة أكواخ بنيت سنة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م على شكل مستشفيات ، وبذلك يرتفع عدد المستشفيات الحكومية إلى اثني عشر مستشفى . والإرساليات التبشيرية عشرة مستشفيات عامة وثلاثة مستشفيات أخرى للولادة . ومن جملة المستوصفات المنتشرة في أنحاء الولاية والبالغ عددها مائة وأربعة وخمسين مستوصفا (١٥٤) تمتلك الإرساليات التبشيرية تسعة وخمسين مستوصفا . ويوجد في الولاية أيضا خمسمائة وثمانية وخمسون (٥٥٨) مستوصفا لمعالجة المجذومين تمتلك الإرساليات التبشيرية منها ستة وأربعين مستوصفا فقط . وتقوم السلطات المحلية بتمويل المجسوع الباقي وإدارة شؤونه . وتوجد في الولاية مدرستان حكوميتان لإعداد المرضى والقابلات هما مدرسة التمريض في مدينة جوس (Jos) ومدرسة إعداد القابلات في مدينة جوس أيضا ، بينما توجد للإرساليات التبشيرية ثلاث مدارس لإعداد المرضى والقابلات وهي في مستشفى (سيدة الرسل) Our Lady of Apostles في مدينة جوس ومستشفى التبشير في مدينة جوس ومدرسة الإرساليات التبشيرية للتمريض . وكانت حكومة الولاية تقدم إعانات مالية كبيرة سنويا لكل من الإرساليات والسلطات المحلية تمكينا لها من القيام بنققات المستشفيات والمستوصفات والمدارس لتقديم شؤون الصحة في هذه البلاد .

وأما في ولاية الشمال الشرقي فقد أنشأت الحكومة ستة عشر مستشفى عاما في مختلف المدن وثلاثة مستشفيات أخرى لأمراض الأسنان ومستشفى واحدا للتوليد ومركزا واحدا لإعداد المرضى والقابلات بينما تمتلك الإرساليات التبشيرية خمسة

مستشفيات عامة وثلاثة مستوصفات وآوى لمعالجة المجذومين وواحدا وخمسين
مستوصفا و عشرة مستشفيات للولادة وأمراض الأطفال وثلاثة عشر مركزا للأسعاف . وفى
ولاية الشمال الأوسط يوجد اثنا عشر مستشفى عاما للحكومة منها خمسة مستشفيات
وللإرساليات ثلاثة ، وتشرف جامعة أحمد بيلو على الأربعة الباقية . وهناك
مستشفيان لمعالجة المجذومين لكل من الحكومة والإرساليات . وللحكومة خمس مدارس
لإعداد المرضى والقابات وللإرساليات مدرستان للتمريض . وهناك مستوصفات كثيرة
فى أنحاء الولاية تشرف عليها السلطات المحلية . وكانت الحكومة تقدم إعانات
مالية ضخمة إلى الإرساليات والسلطات المحلية فى هذا المجال .

وفى ولاية الشمال الغربى يوجد خمسة عشر مستشفى عاما ، للحكومة منها
أربعة عشر وللإرساليات مستشفى عام واحد فقط . وهناك خمسة عشر مستشفى للولادة
 وأمراض الأطفال ، تملك الحكومة منها ثمانية مستشفيات وللإرساليات ثلاثة
والسلطات المحلية أربعة . وفى الولاية أيضا مائة وثمانية وخمسون مستوصفا (١٥٨)
للسلطات المحلية منها مائة وتسعة وثلاثون مستوصفا وللإرساليات تسعة عشر مستوصفا
فقط . وكذلك يوجد فى الولاية أربع مائة وتسعون مستشفى لمعالجة المجذومين ،
للحكومة منها أربع مائة وستة وسبعون مستشفى وللإرساليات أربعة عشر مستشفى فقط .
وأما فى ولاية كانو من المناطق الشمالية فقد خفت وطأة الإرساليات التبشيرية وتكاد
الحكومة تسيطر على شئون الصحة كلها . وقد أنشأت الحكومة ستة مستشفيات عامة
ومستشفين اختصاصيين لأمراض الأسنان والأمراض المعدية ، وسبعة مستشفيات للولادة
 وأمراض الأطفال . وكانت جامعة أحمد بيلو تقوم بإدارة شئون المستشفى الوحيد
فى المنطقة لتجهيز العظام . وتمتلك إرسالية مناطق بلاد السودان الداخلية
Sudan Interior Mission المستشفى الوحيد لأمراض العيون ومستشفى
لمعالجة المجذومين . وليس للإرساليات مدرسة للتمريض ، وإنما كانت مدارس إعداد
المرضى والقابات كلها حكومية . وفى ولاية كوارا من المناطق الشمالية أنشأت
الحكومة أحد عشر مستشفى عاما وخمسة مستشفيات لمعالجة المجذومين ومستشفى

واحدًا للولادة في مدينة إلهرن وثلاثة مستشفيات للأمراض المعدية وثلاثة مراكز صحية في الأرياف . وتمتلك الإرساليات التبشيرية أربعة عشر مستشفى عامًا في هذه الولاية . ومع هذا تنتقل إلى المناطق الشرقية ونبدأ بولاية الشرق الجنوبي .

كانت حكومة ولاية الشرق الجنوبي تمتلك سبعة مستشفيات عامة وستوصفين لأمراض الأسنان ومستشفى واحدًا للولادة وأمراض الأطفال وخمسة مستشفيات لمعالجة المجذومين وتسعة مراكز صحية . بينما تمتلك الإرساليات التبشيرية أحد عشر مستشفى عامًا وستة مستشفيات أخرى اختصاصية . وهناك ثلاثة مستشفيات أهلية ومستشفيان آخران لبعض الشركات التجارية .

وأما في ولاية الشرق الأوسط . فقد أنشأت الحكومة أحد عشر مستشفى عامًا وأربعة مستشفيات الولادة وأربعة مستشفيات لأمراض الأسنان وأربعة وثلاثون مركزًا صحيًا ومستشفيان لمعالجة المجذومين . وهناك مستشفى تابع لكلية الطب في مدينة أينوجو Enugu . بينما أنشأت الإرساليات التبشيرية سبعة عشر مستشفى عامًا وثلاثة مستشفيات أخرى اختصاصية . وهناك أيضًا اثنان وهشرون مستشفى ومستوصفًا أهليًا ومستشفى واحد لشركة تجارية . وأما في ولاية أنهار "الزيت" الشرقية فقد أنشأت الحكومة سبعة مستشفيات عامة وخمسة مستشفيات أخرى اختصاصية ومستشفى واحدًا عسكريًا وأربعة مراكز صحية . وأما الإرساليات التبشيرية فإنها لا تمتلك غير خمسة مستشفيات عامة . وهناك في الولاية اثنا عشر مستشفى أهليًا ومستشفيان آخران لأمراض الأسنان ومستشفى واحد لإحدى الشركات التجارية . وأما في ولاية المنطقة الغربية فقد أسست الحكومة عشرين مستشفى عامًا واثنى عشر مستشفى إقليميًا وستصفيين اختصاصيين . ولالإرساليات التبشيرية أربعة عشر مستشفى عامًا في بعض المدن الرئيسية في هذه المنطقة . وكذلك يوجد في الولاية أربع مائة وستون وثلاثمائة مستشفى للولادة وأمراض الأطفال تشرف عليها السلطات المحلية وتقوم كلية الطب والمستشفى الجامعي بجامعة إبادن وكلية الطب وكلية الصيدلة

بجامعة مدينة إيفي بإعداد الأطباء والممرضين والقابلات وخبراء الطاقة الإشعاعية والصيادلة ، وفي ولاية الغرب الأوسط يوجد سبعة عشر مستشفى عاما للحكومة وستة مستشفيات عامة للإرساليات التبشيرية وأربعة مستشفيات أهلية . وتقوم الحكومة بتقديم مساعدات مالية كبيرة لكل من الإرساليات والشركات التجارية وحض الأهالي الذين أسسوا مستشفيات ليتمكنوا من تنمية مستشفياتهم وإقامة مستوصفات جديدة في القرى والأرياف البعيدة عن المدن الرئيسية التي تتوفر فيها وسائل الصحة .

هذا ملخص إحصائيات المستشفيات الحكومية والتبشيرية والأهلية المنتشرة في ربيع هذه البلاد . وقد استقينا المعلومات الواردة في هذا الملخص من كتاب صغير حول نيجيريا نشرته وزارة الإعلام النيجيرية عام ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) ^(١) وقد رأينا من خلال هذا الاستعراض الدور الكبير الذي تلعبه الإرساليات التبشيرية في مجال التطبيب بحيث تكاد جهودها تتركز على جهود الحكومة الاستعمارية والمحلية في بعض المناطق . ولولم يكن ضيق مجال التبشير في ميدان التطبيب كما أسلفنا وقيام المستشفيات الحكومية والأهلية الذي أدى إلى تقلص سلطة مستشفيات الإرساليات لكان لجهود المبشرين في هذا المجال شأن خطير في عملية تحويل الناس إلى المسيحية .

وهما يكن أثر وسيلة التطبيب في هذه البلاد بالنسبة لأثر المجال الواسع في ميدان التعليم الغربي فقد اعتبرت جميع الإرساليات مجال التطبيب أثمن الفرص المتاحة أمامها للتبشير بمد ميدان التعليم .

ولئن لم يفلح المبشرون في جعل مستشفياتهم محافل حقيقية لتبشير كل من دخلها للمعالجة ، فقد استطاعوا أن يرفصوا من شأن المسيحية والمسيحيين في مجال الخدمات الاجتماعية بفضل كون الإرساليات التبشيرية هي الهيئات الدينية الوحيدة التي تقيم المؤسسات الخيرية في هذه البلاد . وقد أدى ذلك إلى تخير مشاعري بعض الناس تجاه أعمال المبشرين وخاصة عندما انتهجوا سياسة اعتدالية في شئونهم الصحية بإلغاء بعض الشروط الشديدة والطرق المنفرة ، وذلك نتيجة نفور مجموعة

(1) Federal Ministry of Information, Nigeria Handbook, Lagos, 1974. P.109-117

كبيرة من الناس من دخول مستشفياتهم وانصرافهم إلى المستشفيات الحكومية والأهلية .

إن أثر أعمال المبشرين في مجال الصحة في نفوس الصابئين كان كبيرا جدا ، فإن هذه الأعمال من شأنها أن تزيد الصابئ قوة في إيمانه وتمسكه بدينه وولائه لرسول التبشير الذين أسدوا إليه هذا الخير الجليل وأنقذوا حياته من الهلاك . فأما أثر هذه الأعمال في أصحاب الأديان الأخرى فإنها إن لم تكن سببا مباشرا لإدخالهم في حظيرة المسيحية ، وتلك هي الغاية الأساسية التي تهدف إليها هذه الأعمال فإنها تؤدي على الأقل إلى تقريب هؤلاء الناس إلى المبشرين ليبتشروا فيهم أفكارهم ومعتقداتهم سواء تمكنوا من تحويلهم أم لم يتمكنوا من ذلك ، فإنه إذا لم يستطع المبشرون أن يحولوا هؤلاء الناس إلى المسيحية فإنهم لا يخسرون المعركة تماما بل تترك أعمالهم أثرا عميقا في نفوس المرضى الذين شفوا على أيديهم وفي نفوس أقربائهم الذين يهتمهم أمر شفائهم . ومن شأن هذا الأثر أن يقرب هؤلاء الناس إلى المبشرين ويحببهم إلى الناس جميعا ، وهذا يخفف من شدة عداوة الناس للمبشرين ويهدئ من روح العصبية الشديدة تجاههم ويجعل بعض الناس ينظرون إلى أعمال المبشرين من زاوية الخدمات الاجتماعية والأعمال الخيرية نظرة إعجاب وتقدير ، ولا يلتفتون إلى الغاية الأساسية التي يهدف إليها المبشرون بهذه الأعمال .

وبذلك تكون وسيلة التطبيب قد حققت نوعا من النجاح في هؤلاء الناس ، وإن هذا النجاح المحدود نسبيا هو الذي يمهّد الطريق أمام نجاح كبير يمكن أن يأتي فيما بعد عن طريق وسيلة أخرى أقوى أو خطة أخرى أدق ، أو عن طريق اتصالات متكررة بين الأطباء المبشرين وبين هؤلاء الناس في مجال التطبيب نفسه ، فإن القلوب مجبولة على حب من أسدى إليها المعروف وقدم إليها الخير والإحسان . وكما سبق أن قلنا فإن الأعمال التي يقوم بها المبشرون في مثل هذه المجالات وإن كانت في ظاهرها أعمال خير إلا أنها في حقيقتها وجوهرها أعمال نفعية لم يقصد من ورائها غايات إنسانية نبيلة . إن تشابه ظواهر الأشياء لا يدل على

وحدة القيمة والجوهر . فما قيمة عمل الصياد الذي يضع طعاما دسما في كلابسه
 لينثرى به فريسته ؟ ولو أن الفريسة أكلت من الطعام حتى شبعت ولم تقع
 في الفخ المضروب لها، فهل يرضى الصياد بذلك أم يحتق عليها ؟ وهل الطعام
 الذي أكله هذا الصيد - سواء وقع في الفخ أم لم يقع - إحسان وخير قصد به
 الصياد منفعة الصيد أم الخاية منه محاولة القيمة بالصيد لينتفع به الصياد في
 مصالحه الذاتية ؟



المبحث الثالث :دور وسائل الاعلام فى الدعاية التبشيرية

إن لوسائل الإعلام من كتب ومجلات وجرائد ومحلات بيع الكتب والمحطات الإذاعية والأجهزة السينمائية والتلفزيونية أهمية كبيرة فى المجتمع من حيث التأثير فى الناس وتغيير معتقداتهم الدينية واتجاهاتهم السياسية وشؤونهم الاجتماعية . ولقد أدرك المبشرون ما لمجال النشر من أهمية كبيرة فى الدعاية التبشيرية فى هذه البلاد فأولوه عنايتهم الخاصة لأنهم عرفوا أن أشد الوسائل أثرا فى الناس إنتاج النشرات المسيحية بالإضافة إلى ما يقدمه النشر من خدمة كبيرة لجميع وسائل المبشرين الأخرى فى مختلف مجالات أعمالهم التبشيرية .

إن الكتب والمجلات والجرائد والنشرات كانت توجه للتبشير بين طلاب المدارس والمتعلمين من الكبار والمتقنين . وأما الإذاعة والسينما والتلفزيون فإنها توصل الأخبار المسيحية إلى الناس جميعا وهم فى عقرب دارهم . ولقد استغل المبشرون جميع أوجه الأعمال الاجتماعية للتبشير ، حتى تلك التى لا يسبق إليها الوهم لأول وهلة أنها وسائل تبشيرية . ومن ذا يظن أن محلات بيع الكتب التى هى فى ظاهر أمرها مؤسسة تجارية صرفة قد اتخذها المبشرون وسيلة لنشر المسيحية بين الذين يدخلونها لشراء الكتب ، وذلك زيادة على كونها وسيلة قوية لنشر الكتب المسيحية فى المجتمع . وقد قرنا سابقا أن هناك مجموعة كبيرة من الأوربيين قد جاءوا إلى هذه البلاد تجارا ومدربين وأطباء وموظفين ومستكشفين وحكاما وجنودا ولكنهم كانوا طلائع وروادا للاستعمار الصليبي . إن غاية المبشرين من وسائل النشر هى نشر مبادئ ومعتقدات وتعاليم الديانة المسيحية بين جميع طبقات المجتمع من الطلاب والمتقنين والكبار الذين استطاع المبشرون أن يعلموهم القراءة والكتابة باللغات المحلية وطبقة الأميين من الرجال والنساء الذين تتجفع فيهم طريقة الإذاعات المسموعة والمرئية . ولقد أدرك المبشرون منذ بداية حركة التبشير الحديثة فى مستعمرة سيراليون فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى أنهم لن يستطيعوا أن يحققوا أى نجاح فى أعمالهم التبشيرية بين المبيد المحررين فى تلك المستعمرة إذا لم يتعلموا بعض اللغات المحلية ليستطيعوا أن يتفاهموا مع هؤلاء الناس وتعرفوا على شؤونهم السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية . إن وسيلة التبشير الأولى التى قام بها المبشرون فى تلك الفترة هى محاولة تعلم اللغات الأفريقية لأنهم يعرفون

أن نجاح أعمالهم فى الدعاية التبشيرية يرتكز على معرفة لغات الشعوب الأفريقية .
 إن الأفريقيين الذين جاء المبشرون إليهم لينشروا فيهم الديانة المسيحية لا يفهمون لغة هؤلاء
 المبشرين ، وكذلك المبشرون الأوروبيين أنفسهم لا يعرفون لغات الشعوب الأفريقية . فكيف
 يستطيع المبشرون أن يقوموا بأعمالهم فى مثل هذا المجتمع إن لم يتعلموا لغات هؤلاء الناس ؟
 لذلك أصبح لزاما على المبشرين أن يتعلموا أولا قبل أن يبدأوا بتعليم الناس . ولكن بأى طريق
 استطاع المبشرون أن يتعلموا هذه اللغات ؟ إذا علمنا أن هذه اللغات لم تكن مكتوبة بحروف
 خاصة بها ، وأن شعوب هذه البلاد لم تكن لها فى تلك الفترة مدارس لتعليم هذه اللغات ،
 وأن التعاليم الدينية التى يريد المبشرون أن ينشروها بين هؤلاء الناس تحتاج إلى دراسة
 عميقة فى علوم هذه اللغات حتى يستطيعوا أن ينقلوا إليها التعاليم الدينية . . . إذا علمنا
 هذا كله أدركنا أن مهمة المبشرين فى هذه الفترة كانت شاقة وعويصة . ولكن الغاية
 التى يرمى إليها المبشرون هى التى جعلتهم فى جميع المواقف يستخفون بالمشاكل
 ويستسيغون أنواع المذاب ويقذفون بأنفسهم فى أعماق المخاطر . لقد بدأ المبشرون
 بدراسة اللغات المحلية منذ وقت مبكر عندما بدأت الإرساليات التبشيرية أعمالها بين العبيد
 المحررين الذين جمعتهم الحكومة البريطانية فى المدينة الحرة (Freetown) فى مستعمرة
 سيراليون . " ولما رأى القس ج . ت . رابان (J.T. Raban) وهو أحد مبشرى إرساليات
 الكنيسة الإنكليزية أن قبائل يوريا أخذ يزداد عددها يوما بعد يوم حتى أصبحت الأغلبية
 الساحقة من بين سكان هذه المستعمرة الجديدة ، قام بدراسة لغة يوريا منذ سنة ١٢٤٦هـ
 / ١٨٣٠م حتى سنة ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م وذلك من أجل خدمة أعمال التبشير داخل المستعمرة .
 " وإن القوة الدافعة وراء اهتمام المبشرين باللغات المحلية هى رغبتهم الشديدة فى تعليم
 الصابئين وكل من يرغب فى اعتناق المسيحية قراءة الكتاب المقدس .^(٢) والكتب الدينية المسيحية
 الأخرى . ولقد بدأ المبشرون بدراسة لغة هوسا ولغة إيبوا ولغة يوريا منذ قيام رحلة نهر
 النيجر المشهورة التى نظمتها الحكومة البريطانية سنة ١٢٥٧هـ / ١٨٤١م . وقد كان من
 بين المشتركين فى هذه الرحلة مبشران من إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية ، وكان أحدهما
 أوريبا وهو القس ج . ف . سكون (Rev. J.F. Schon) والآخر نيجيريا وهو المبشر صمويل أجاي كراونار

(1) J.F.Ade. Ajayi, op. cit., P.127

(2) Ibid P.131

Samuel Crowther : وأن المهمة التي كلف بها القس سكون (Schon) في هذه الرحلة هي دراسة لغة هوسا ولغة إيبو تمهيدا لخدمة أعمال التبشير في المناطق الشمالية المسلمة والمناطق الشرقية الوثنية . وقد استطاع هذا القس أن يضع كتابين في هاتين اللغتين سنة ١٢٥٩ هـ / ١٨٤٣ م أولهما كتاب " مفردات لغة هوسا وقواعدها اللغوية " وقد أعاد هذا القس طبع هذا الكتاب للمرة الثانية سنة ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٢ م بعد أن قام بمراجعته الكتاب وأضاف إليه معلومات مستفيضة ، وثانيهما كتاب " مفردات لغة إيبو " . وهناك كتاب ثالث ألفه القس سكون (Rev. Schon) سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٦ م وهو " قاموس لغة هوسا " . وأما المبشر النيجيري المطران صمويل أجاى كراوذار (Samuel Crowther) فقد كلف بدراسة لغة يوريا لأنها لغته ، وقد استطاع هو الآخر أن يضع كتابه " قواعد ومفردات لغة يوريا " الذي طبعه أول مرة سنة ١٢٥٩ هـ / ١٨٤٣ م وفي سنة ١٢٦٩ هـ / ١٨٥٢ م أخرج الطبعة الثانية من هذا الكتاب منقحة ومزودة بمعلومات كثيرة ذات أصالة لغوية وقيمة نحوية . * وقد قام هذا المبشر أيضا بترجمة أربعة أسفار من كتاب العهد الجديد إلى لغة يوريا سنة ١٢٦٨ هـ / ١٨٥١ م وهذه الأسفار الأربعة هي سفر القديس لوقا وسفر أعمال الرسل وسفر القديس جيمس وسفر القديس بطرس . * (١) وإن المبشر صمويل كراوذار والمبشر توماس كينغ (Thomas King) هما اللذان قاما بترجمة الكتاب المقدس بأكمله وكتب الصلوات وبعض الكتب الدينية المسيحية الأخرى إلى لغة يوريا . ولم تقتصر جهود المبشر صمويل هذا في مجال الترجمة على لغة يوريا فحسب وإنما امتدت جهوده في هذا المجال إلى دراسة لغة إيبو ولغة نوسة . وقد استطاع أن يؤلف في مفردات وقواعد هاتين اللغتين كتابين نشرهما سنة ١٢٨١ هـ / ١٨٦٤ م وكان المبشر القس هوب واديل (Rev. Hope Waddell) أول من قام بدراسة لغة إيفكى التي هي إحدى لغات قبائل المنطقة الشرقية ، ووضع في هذه اللغة كتابا سماه " مفردات لغة إيفكى " طبعه سنة ١٢٦٦ هـ / ١٨٤٩ م ثم بعد ذلك جاء دور القس هوج غولديا (Rev. Hugh Goldie) فقام بدراسة لغة إيفكى دراسة عميقة حتى استطاع أن يخرج للناس كتابه الجامع لعلوم هذه اللغة الذي أسماه كتاب " قواعد لغة

(1) J.F.Ade. Ajayi, op. cit., P.127

إيفكى مع النماذج والأشلة * وطبعه سنة ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٢ م. وقد قام هذا القس كذلك بترجمة كتاب العهد الجديد إلى لغة إيفكى وطبعته هذه الترجمة سنة ١٢٨٠ هـ / ١٨٦٣ م . وفى سنة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م قام هذا المبشر الكبير بنشر ثلاثة من كتبه هى " قاموس لفظة إيفكى * وكتابان آخران فى قواعد هذه اللغة أحدهما بلغة إيفكى والآخر باللغة الإنكليزية . " وقد كتب القس غولديا Rev. Goldie ما يزيد على مائة رسالة بلغة إيفكى فى موضوعات دينية مسيحية .^(١) وقد بحث الهيئة التبشيرية العليا للشئون الخارجية العالم اليهودى الشاب الدكتور روب (Dr. Robb of Aberdeen) إلى نيجيريا لدراسة لغة إيفكى وفى سنة ١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م فرغ هذا العالم اليهودى من ترجمة كتاب العهد القديم إلى لغة إيفكى وطبع منه عدد كبير . ولكن الدكتور روب هذا لم يلبث أن غادر البلاد وانتقل إلى جاميكا (Jamaica) لأسباب صحية . وأما القس الألمانى س . و . كولى (Rev. S.W. Koelle) الذى كان أحد مبشرى إرساليات الكنيسة الإنكليزية فقد كلف بدراسة لغة كورى وهى إحدى اللغات الرئيسية فى المناطق الشمالية . وقد ألف هذا المبشر كتابين فى قواعد هذه اللغة وعلومها نشرهما سنة ١٢٧١ هـ / ١٨٥٤ م وهذان الكتابان هما كتاب " قواعد لفظة كورى * وكتاب " الأدب المحلى الأفرىقى * . ولهذا المبشر كتاب آخر فى مقارنة اللغات الأفرىقية جمع فيه نحو ثلاثمائة كلمة وجملته من أكثر من مائة لغة أفرىقية . وقد طبع هذا الكتاب فى لندن سنة ١٢٧١ هـ / ١٨٥٤ م .^(٢) ومن المبشرين الأوربيين الذين درسوا لغة يوربا دراسة جيدة وألفوا فيها بعض الكتب المشرح . ت . بـوون (J.T. Bowen) رئيس إرساليات الكنيسة المعمدانية فى نيجيريا وقد ألف فى هذه اللغة كتابا كبيرا أسماه " قواعد وقاموس لغة يوربا * طبعه ونشره عام ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٢ م . وكذلك العالم اليهودى ديفيد هندرار (David Hinderer) من إرساليات الكنيسة المعمدانية فهو الذى قام بالإشراف على ترجمة كتاب العهد القديم إلى لغة يوربا، ثم قام هو نفسه بنقل كتاب " رحلة الحجيج * إلى هذه اللغة . ومنهم أيضا القس س . أ . غولمار (Rev. C.A. Gollmer) أحد مبشرى

(1) J.C. Anene, Southern Nigeria In Transition, Cambridge, 1966;

(2) J.F.A. Ajayi, op. cit., P.129 (from the footnote)

إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية الذى قام بنقل كتاب " خلاصة العقيدة المسيحية " الذى ألفه وات (Watt) إلى لغة يوريا ، كما نقل إليها أيضا كتاب " قصص الكتاب المقدس " تأليف كارل بارث (Carl Barth) . وعندما تغرغ المبشر الشهير صمويل كراوندار لدراسة لغة يوريا كانت مهمة دراسة لغة إيبو ولغة إجو (Ijaw) ملقاة على عاتق المبشر النيجيرى الآخر ج . س . تايلور (J.C. Taylor) والمبشر تايلور هذا من إحدى قبائل إيبو الأصلية . وقد أتم ترجمة كتاب المهد الجديد إلى لغة إيبو سنة ١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م وبعث بالترجمة إلى الهيئة التبشيرية العليا فى لندن للطبع . ولكن

الهيئة قدمت هذا المصل إلى القس البريطانى ج . ف . سكون (J.F. Schon) للمراجعة فأبدى القس انتقادات كثيرة حالت دون خروج الكتاب إلى الطبع وقد ثبت ذلك همه تايلور Taylor وكان سببا مباشرا لتخليه عن خدمة الإرساليات نهائيا . وهناك جهود أولية قام بها القس بول Rev. Paul وهنرى جنسون Henry Johnson فى دراسة لفظة نوبة وكذلك المبشر ب . ج . وليامز (P.J. Williams) فى دراسة لغة إيبيرا ، ولكنهما جهود متواضعة بعيدة عن الدقة والعمق . إن الجهود الكبيرة التى بذلها هؤلاء المبشرون الأوائل فى وضع الحروف اللاتينية لكتابة معظم اللغات الرئيسية فى هذه البلاد ونقل مجموعة كبيرة من الكتب الدينية المسيحية إليها كانت ذات فائدة كبيرة وآثار ملموسة ، فإنها قد مهدت الطريق أمام هؤلاء المبشرين والذين جاءوا من بعدهم حتى استطاعوا أن يقوموا بأعمالهم التبشيرية بين مختلف قبائل هذه البلاد . وإن الكتب التى وضعها هؤلاء المبشرون فى قواعد وعلوم تلك اللغات كانت تعتبر مصادر أساسية اعتمد عليها جميع المبشرون اللاحقون جاءوا من بعدهم فى تعلم هذه اللغات وفى دراساتهم وبحوثهم فى ترجمة الكتب الدينية المسيحية إلى هذه اللغات وفى تعليم الناس القراءة والكتابة وفى الدعاية التبشيرية .

" إن طريقة التهجى المتبعة اليوم فى قراءة وكتابة لغة يوريا هى تلك التى وضعها هؤلاء المبشرون منذ تلك الفترة ، وإن كانت القواعد اللغوية التى وضعوها لاتزال ترد عليها الانتقادات من حيث عدم الدقة والعمق ولكن أعمالهم فى ميدان الترجمة قد ظلت حتى اليوم

تحمل قيمة أدبية رفيعة^(١) وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض المبشرين قد أسسوا جمعية تبشيرية سنة ١٣٠٩ هـ / ١٨٩١ م مهمتها دراسة لغة هوسا . وكان رئيس هذه الجمعية جورج غولديا (George Goldie) . ويذكر أن هذه الجمعية قد أنشئت تخليداً لذكرى أيام المبشر المفامر الكبير ج.أ. روبنسون (J.A. Robinson) الذي مات في تلك السنة بعد أن قام بجهود كبيرة في ترجمة قسط كبير من الكتاب المقدس إلى لغة هوسا^(٢) . " إن غاية هؤلاء المبشرين من تأسيس هذه الجمعية هي تمكين بعض المبشرين من دراسة لغة هوسا من أجل خدمة أعمال التبشير ونشر الدعاية التبشيرية بين شعوب هذه البلاد المسلمة وكذلك إنشاء كلية في مدينة ليفربول (Liverpool) حيث يستطيع الهوساويون أن يتعلموا اللغة الإنكليزية ويستطيع البريطانيون كذلك أن يتعلموا فيها لغة هوسا . ولكن هذه الجمعية لم تنجح في تحقيق غاياتها التبشيرية^(٣) . وقد ذكر كانون روبنسون (Canon Robinson) " أن هذه الجمعية وكالة تبشيرية ومن الواجب علينا أن نقوم بترجمة الكتاب المقدس إلى لغة هوسا وتأسيس كلية في مدينة كانولا لعداد المبشرين^(٤) . ولقد بعثت الهيئة العليا لإرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية عدداً كبيراً من المبشرين إلى طرابلس سنة ١٣١٦ هـ / ١٨٩٨ م لدراسة لغة هوسا استعداداً لبدء أعمال التبشير في المناطق الشمالية الإسلامية . وقد اختيرت مدينة طرابلس بسبب وجود جالية هوساوية كبيرة فيها ولأن الحجاج الهوساويين كانوا في تلك الفترة يهرون بهذه المدينة في طريقهم إلى مكة المكرمة . ولكن هؤلاء المبشرين لم يمضوا فترة طويلة في طرابلس حتى طلبوا من الهيئة التبشيرية التي بعثتهم إلى هذه المدينة أن تسمح لهم بالتوجه إلى ميدان العمل في المناطق الشمالية من نيجيريا . وقد كان من بين هؤلاء المبشرين المبشر

(1) J.F.Ade. Ajayi, op. cit., P.128.

(2) E.A.Ayandele, op. cit., P.124.

(3) The Journal of Committee, Liverpool, 14 July, 1894. quoted by Ayandele P.124.

(4) CMS G3/A3/07 The Hausa Association Ocasional Paper No X111 1898.

المشهور في ميدان العمل التبشيري في شمال نيجيريا الدكتور والتار ملار Dr. Walter Miller^٢ الذي ولد سنة ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م في مدينة ديفونشير (Devonshire) والد الذي كان منذ طفولته عدواً للإسلام وللمسلمين الأتراك وكان يتمنى لو أنه كان بمدينة أرمينيا سنة ١٣١٤ هـ / ١٨٩٦ م لينتقم من الهزيمة النكراء التي منى بها المسيحيون هناك والمذاب الأليم الذي أصابهم فيها^(١). ولقد قام المبشرون بجهود كبيرة ونشاط واسع منذ فترة طويلة في نشر دعايتهم في جميع أنحاء هذه البلاد، وإضافة إلى جهودهم في وضع الحروف اللاتينية لكتابة وقراءة اللغات المحلية وترجمة مجموعة كبيرة من الكتب الدينية المسيحية إلى هذه اللغات ونشر هذه الكتب بين جميع طبقات المجتمع، فقد كان المبشرون يبذلون جهوداً كبيرة في نشر المجلات والجرائد والمنشورات التي تنقل أخبارهم وتنشر أعمالهم التبشيرية بمختلف اللغات المحلية إلى جميع الناس. وكانوا يوزعون هذه المنشورات في جميع المدن والقرى بواسطة المبشرين العاملين في المدارس وفي الكنائس وكذلك عن طريق الفرق المسيحية الجواله ومحلات بيع الكتب. لقد عرف المبشرون أهمية الصحافة في المجتمع حيث إنها تهيئ الظروف والأجواء أولاً لقبول ما تنشره في المجتمع ثم بعد ذلك تخلق الرأي العام في هذا المجتمع وفي النهاية تقوم بتوجيه الرأي العام نحو الأهداف التي تصبوا إليها. ولذلك كانت جميع الإرساليات التبشيرية العاملة في مختلف مناطق هذه البلاد تقوم بإصدار صحف ومجلات ونشرات خاصة لنشر دعايتها التبشيرية منذ فترة طويلة. وإن من هذه النشرات ما يصدر يومياً أو أسبوعياً أو شهرياً وبمض هذه النشرات ينشر باللغات المحلية والبهمة الآخر بالغة الإنكليزية. ومنذ سنة ١٢٧٦ هـ / ١٨٥٩ م بدأت جمعية يوربا التبشيرية تصدر أول جريدة تنشر في هذه البلاد، وقد أطلقت الجمعية على جريدتها اسم (Iwe Irohin) أي جريدة الأخبار وكانت تنشر أخبارها بلغة يوربا وكانت تصدر نصف

(1) Walter Miller, An Autobiography, Zaria, 1953, P.1

(٢) جمعية يوربا التبشيرية فرع لجمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية في نيجيريا وهي التي كانت تعمل في بلاد يوربا في تلك الفترة وكانت لها مراكز كثيرة في مختلف المدن والقرى داخل بلاد يوربا.

شهرية) كل أسبوعين . وإن الغاية الأساسية التي من أجلها أنشئت هذه الجريدة هي نشر التعاليم المسيحية وأخبار الكنيسة ورسائل التبشير بين الصابئين الجدد ومجموعة المبعدين المحررين الذين عادوا من مناهمهم إلى بلاد يوربا في تلك الفترة . وكانت بجانب ذلك تقوم بنشر الثقافة بواسطة مقالاتها في التاريخ والسياسة والمعلومات العامة . وكان القس البويطاني هنري تونسنند Rev. Henry Townsend رئيس جمعية يوربا التبشيرية هو مؤسس هذه الجريدة والمشرف على شئونها . وقد بدأت مطبعة الجمعية تنشر مجموعة كبيرة من الكتب والرسائل في المبادئ والمعتقدات والتعاليم المسيحية . وعندما وصلت إرسالية الكنيسة المشيخية إلى هذه البلاد سنة ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٦ م كانت معها آلات الطباعة، وكان من بين مبشريها خبيرا في شئون الطباعة وقد بدأت هذه الإرسالية التبشيرية مهمة الطباعة والنشر في الحال ولم تض فترة طويلة حتى استطاعت أن تطبع مجموعة كبيرة من الكتب المدرسية وبعض المذكرات والرسائل والكتب في التعاليم المسيحية بلغة إيفيك Efik واللغة الإنكليزية وكذلك بعض الأسفار من الكتاب المقدس . وقد كان للمطبعة التي أسسها هذه الإرسالية التبشيرية منذ تلك الفترة أثر كبير في تقدم أعمالها في المنطقة الشرقية . وقد سار القنصل روبرت كامبل (Robert Campbell) على منوال القس هنري تونسنند (Henry Townsend) فأنشأ جريدته التي أسماها " الجريدة الإنكليزية الأفريقية " وكانت هذه الجريدة تعنى في المقام الأول بالقضايا السياسية ومشاكل المبعدين الأفريقيين المحررين وإلى جانب ذلك تقوم بنشر الدعاية التبشيرية . وعندما بدأ مجال التعليم الغربي يؤتى ثماره في المجتمع وظهرت طبقة المثقفين ومجموعة كبيرة من الكبار الذين تعلموا القراءة والكتابة باللغات المحلية في مدارس الإرساليات هرعت جميع الإرساليات التبشيرية الموجودة في المناطق الجنوبية إلى إنشاء المجلات والجرائد الخاصة بها لنشر معتقداتها ومبادئها وتعاليمها على اختلاف مذاهبها . وفي سنة ١٣٣٦ هـ / ١٩١٧ م بدأت إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية بإصدار أول مجلة تظهر في هذه البلاد وقد أسمتها مجلة " في أوقات الفراغ " (In Leisure Hours) ولا تزال هذه المجلة تصدر حتى الوقت الحاضر . وفي نفس السنة ظهرت مجلة " جامع أخبار الكنيسة الأفريقية "

(African Church Gleaner) وهى لإحدى الكنائس الأفريقية ولكن لم تضى فترة طويلة حتى توقفت عن الصدور . وفى سنة ١٣٣٨ هـ / ١٩١٩ م ظهرت مجلة "الأمل الأفريقى" (African Hope) . وبعد ذلك بدأت الإرسالية المعمدانية تصدر مجلة "المعمدانى الأفريقى" * (African Baptist) منذ سنة ١٣٤١ هـ / ١٩٢٢ م. ظهرت مجلة "المنهجى النيجيرى" * (The Nigerian Methodist) التى أنشأتها الإرسالية الويلزية المنهجية التبشيرية (Wesleyan Methodist Missionary Society) / وقد أتبعت هذه الإرسالية التبشيرية مجلتها الأولى بمجلة أخرى نقدية سنة ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٦ م وهى المجلة النقدية للمنهج النيجيرى (The Nigerian Methodist Review) . ولم تبدأ الإرساليات الكاثوليكية بإصدار مجلة خاصة بها حتى سنة ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٦ م التى أنشأت فيها مجلة "الرائد الكاثولى" * (Catholic Herald) ومجلة الحياة الكاثوليكية (Catholic Life) ولا تزال المجلة الثانية تصدر حتى الوقت الحاضر ويبلغ معدل عدد النسخ التى تنشر من هذه المجلة شهريا نحو سبع عشرة ألف نسخة . وهناك مجلة أخرى بدأت تصدر منذ سنة ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٦ م وهى " مجلة تاريخ الكنيسة الأفريقية " ورغم ما لهذه المجلة من أثر كبير فى جمع شمل المسيحيين الأفريقيين وتوحيد صفوفهم لمجابهة مشكلة العنصرية التى ظهرت بين المبشرين الأروبيين وبين الصابئين الأفريقيين فقد توقفت عن الصدور بعد سنوات قليلة . وهناك مجلات وجرائد كثيرة يحمل بعضها عناوين تبشيرية ويحتوى على الدعايات التبشيرية وهذه الفئة من المجلات والجرائد وسيلة ظاهرة لنشر المسيحية بين الناس . وأما الفئة الأخرى فهى مجلات وجرائد سياسية أو أدبية أو طمعية أو تجارية لا تظهر عليها ملامح التبشير لأول وهلة ولكنها وسائل قوية من جملة الوسائل الكثيرة التى يستخدمها المبشرون فى الدعاية التبشيرية . ولا أريد أن أستطرد كثيرا فى ذكر أسماء المجلات والجرائد والمنشورات التى تصدرها الإرساليات التبشيرية فى هذه البلاد خوفا من التطويل الممل ولأن هذه الجرائد والمجلات والمنشورات تخدم غاية واحدة هى التبشير ، ولكن هناك منشورات دورية خاصة ذات أهمية كبيرة عند جميع الإرساليات التبشيرية ، وإن غاية الإرساليات التبشيرية من هذه المنشورات

الدورية الخاصة هي استنهاض هم القاعين بتحويل الإرساليات التبشيرية والكنايس
المسيحية إلى بذل مزيد من الإعانات المالية وغيرها لتقدم أعمال التبشير داخل هذه
البلاد . وهذه المنشورات تستحث المبشرين وجميع القاعين بأعمال التبشير في هذه
البلاد على مواصلة الجهود في سبيل إنجاح مهمتهم التبشيرية في كافة أنحاء البلاد .
ويجب أن نقف قليلا لنلقى بعض الأضواء على هذه المنشورات لأنها تختلف عن النوع
الأول الذي سبق الحديث عنه منذ قليل . إن إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية
وإرساليات الكنيسة الويلزية المنهجية التبشيرية تقوم بإصدار أربع فئات مختلفة من هذه
المنشورات الدورية .

الفئة الأولى : محضر جلسات إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية
'Proceedings of the CMS' ومحضر وقائع جلسات مؤتمر إرساليات الكنيسة الويلزية المنهجية
التبشيرية Minutes of WMMS Conference وتستعرض في هاتين الإرساليتين
في مجالات التبشير وكذلك يحتوى كل محضر على تقارير الأمين العام للإرسالية عن شئون
الإرسالية وأعمال المبشرين والتقارير السنوى لنفقات الإرسالية . والفئة الثانية من هذه
المنشورات هي " بيان إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية " " The CMS Report "
" وتقارير إرساليات الكنيسة الويلزية المنهجية التبشيرية " " The WMMS Notices "
وهذه الفئة الثانية نشرات شهرية تهدف إلى نقل أخبار أعمال التبشير إلى القراء من مختلف
مجالات وميادين التبشير وتحتوى كذلك على بعض المقتطفات من رسائل ويوميات المبشرين
وتعليقات موجزة من هيئة التحرير . وأما الفئة الثالثة فهي " جريدة إرساليات الكنيسة
الإنكليزية التبشيرية " " The CMS Intelligencer " " ومجلة إرساليات الكنيسة
الويلزية المنهجية التبشيرية " " The WMMS Magazine " وهذه منشورات ذات
أهمية كبيرة، وهى خاصة بطبقة المثقفين من الرجال والنساء، وتحتوى على مقالات عديدة
في التعاليم المسيحية والدعايات التبشيرية والجغرافيا وعلم الأعراق البشرية Ethnology
وتُقدم في هذه المنشورات بحوث ودراسات في طريق تنظيم الأعمال التبشيرية،
وفيها تُستعرض جهود المبشرين ووسائلهم في ميدان العمل التبشيري وتُقدم بعض الإرشادات

والتوجيهات الهامة في هذا الصدد . وإلى جانب ذلك تحتوى هذه المنشورات على الرسائل والتقارير التي ^{كان} يبعثها المبشرون إلى الهيئة التبشيرية المحلية . وأما الفئة الرابعة

فهي " جامع أخبار إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية " 'The CMS Gleaner'

وبهانات إرساليات الكنيسة الويلزية المنهجية التبشيرية " The WMMS Reports .

وهذه أشهر منشورات هاتين الإرساليتين وقد أعدت إدارا خاصا لتناسب مستوى طلاب مدارس أيام الأحد التبشيرية وتقوم بنقل أخبار المبشرين في شتى مجالات التبشير وكذلك تنشر بعض المقطوعات من رسائلهم ويومياتهم مع تعليقات مستفيضة من هيئة التحرير .

وأما إرساليات اتحاد الكنائس المشيخية التبشيرية فإن أهم منشوراتها هو " بيان إرساليات

اتحاد الكنائس المشيخية " United Presbyterian Missionary Record وهي نشرات شهرية

تنقل أخبار أعمال التبشير إلى القراء وتحتوى على بعض المقطوعات من رسائل ويوميات المبشرين مع تعليقات هيئة التحرير . وتتضمن هذه النشرات أيضا التقدير السنوى لمجموع نفقات الجمعية

وتقارير الهيئة التبشيرية للشئون الخارجية التى تتضمن خلاصة أعمال هذه الهيئة والقرارات التى أصدرتها وملخص البحوث التى قدمت فى اجتماعات هذه الهيئة مع ذكر تفاصيل المناقشة فى

المسائل الخلاقية . وأما الإرسالية المعمدانية فإنها تقوم بنشر صحيفة خاصة تتفق مع منشورات إرساليات الكنائس المشيخية فى محتوياتها . وفى سنة ١٢٦٨ هـ / ١٨٥١ م بدأت

تصدر " مجلة الشئون الخارجية والداخلية " Home and Foreign Mission وهي تشتمل

على أخبار الإرساليات الخارجية والكنائس الداخلية . وفى سنة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م فصلت هذه

الإرسالية بين الشئون الداخلية وبين الشئون الخارجية وجعلت لكل واحدة منها مجلة مستقلة .

وقد خصصت " مجلة الشئون الخارجية " Foreign Mission Journal لنقل أخبار الإرساليات

المعمدانية التبشيرية فى الخارج . وهناك مجلة أخرى تصدرها الإرسالية المعمدانية

خصيصا لطلاب مدارسها وهي " مجلة الوكالة التبشيرية " 'The Commission'

وأما جمعية الإرساليات الأفريقية الكاثوليكية The Catholic Society of African Missions

فكانت تعتمد على المنشورات الأسبوعية التى تصدرها الجمعية التبشيرية لنشر الديانة المسيحية

The Association for the Propagation of the Faith بعنوان " بيان الإرساليات الكاثوليكية

Les Missions Catholique وكذلك " سجل نشاط الإرساليات فى نشر الديانة المسيحية
 Annals of the Propagation of the Faith . إن جميع الإرساليات التبشيرية تقوم فى الوقت الحاضر
 بنشاط كبير وخطير فى الدعاية التبشيرية فى مختلف مناطق هذه البلاد ، وقد مكنتها من ذلك
 ظروفها الحكم العسكرية القائم فى البلاد . وقد انصرفت الحكومة نحو الاتجاه العلمانى
 الصرف معتمدة فى ذلك على مبدأ حرية التدين وسياسة الحياد التى كانت الحكومة الاستعمارية
 تتظاهر باتباعها فى الشئون الدينية طوال فترة حكمها . ولقد استطاع البشرون الآن
 أن يجاهرُوا بالدعاية التبشيرية فى المناطق الإسلامية وفى بعض المدن الإسلامية الهامة التى
 اشتهرت بعلمائها الأجلاء ومدارسها الإسلامية الكثيرة . ولقد رأيت الشئ الكثير عندما
 سافرت إلى البلاد فى أيام العطلة الصيفية سنة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م وكذلك عندما قمت برحلة
 ميدانية إلى البلاد سنة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م . لقد رأيت فى مدينة لاجوس العاصمة ما تقوم به
 جميع الإرساليات التبشيرية الموجودة بها من نشاط كبير فى حق التبشير . إن لكل إرسالية
 تبشيرية من مجموعة الإرساليات التى تعمل فى هذه المدينة أراضى واسعة فى الأماكن الهامة وسط
 المدينة ، وقد شيدت فيها كنائسها الضخمة على الفن المعماري الحديث . ولكل واحدة منها أيضا
 مكتبات كبيرة تضم مجموعة كبيرة من الكتب فى مختلف العلوم والفنون . وأهم هذه المكتبات مكتبة
 إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية التى تقع فى وسط المدينة . وقد تم تشييد مكتبة جديدة
 قرب موقع المكتبة القديمة وهذه المكتبة الجديدة عبارة عن مبنى ضخم مرتفع يضم أكثر من عشرة
 طوابق ، ويحتوى على قاعات المطالعة ومحلات بيع الكتب ومستودعات الكتب ، ويضم أيضا آلاف
 مؤلفات من الكتب والمصادر والمخطوطات النادرة والسجلات التى دونت فيها تاريخ إرساليات
 الكنيسة الإنكليزية وأعمالها التبشيرية فى هذه البلاد ، ولكن المكتبة لا تسمح بالاطلاع على
 هذه المخطوطات والسجلات إلا لخواص الناس بعد إجراءات إدارية معقدة . وإن بعض
 هذه الإرساليات التبشيرية تنظم فرقا تبشيرية جواله تضم عددا من المبشرين مزودين بكل
 ما تحتاج إليه أعمالهم من الإمكانات . وكانت هذه الفرق التبشيرية تطوف فى أنحاء المدينة
 صباح مساء فى سياراتها الخاصة المجهزة بمكبرات الصوت والتى تحمل شارات التبشير وهى
 تعلن عن مواعيد دعاتياتها وأماكن إقامتها وتنشر النشرات فى الشوارع وتلصق بعضها على

الجدران ، وكانت تتنقل بين المدن والقرى لتبث فيها التعاليم المسيحية . وقد انتشرت هذه الفرق التبشيرية الجواله فى كثير من المدن والقرى فى هذه البلاد . وقد رأيت بعضها فى مدينة لاجوس العاصمة وفى مدينة إلورن إحدى المدن الإسلامية الهامة التى اشتهرت بسلامتها الأعلام الذين أدخلوا الإسلام إلى المناطق الجنوبية ونشروا فيها العلم والثقافة الإسلامية . إن الفرقة التبشيرية الجواله التى تعمل فى هذه المدينة تقوم بأعمالها على نطاق واسع وخطير ولديها من الإمكانيات الشئ الكثير . وقد تحدثت إلى بعض العلماء المسلمين فى هذه المدينة فى شأن هذه الفرق التبشيرية والأخطار الكامنة وراء أعمالها فى المجتمعات الإسلامية ، ولكن بعض هؤلاء العلماء لم يبدوا اهتماما كبيرا بشأن هذه الفرق التبشيرية ولا بأعمال الإرساليات التبشيرية بصفة عامة ، وقد قالوا إن أعمال المبشرين فى هذه البلاد تذهب سدى وإن دعاياتهم لاتجد آذانا صاغية ولا قلوبا واعية . وقد سألتى بعضهم عما إذا رأيت من أبناء هذه المدينة الأصليين أحدا صبأ من دينه الأصلى إلى المسيحية التى يدعوا إليها المبشرون منذ فترة طويلة ؟ وقالوا إن الذين يستجيبون لنداء هذه الفرق أناس أجنب جاءوا إلى هذه المدينة من القبائل الوثنية فى المناطق الجنوبية . وسيأتى حديث مفصل عن هذا عندما نستعرض آثار أعمال المبشرين فى فصل مستقل إن شاء الله تعالى .

والذى نريد أن نقرره هنا قبل أن نأتى إلى مجال الدراسة المستفيضة فى آثار التبشير فى مختلف مجالات الحياة فى شئون هذه البلاد هو أن هذه الظاهرة من أمر الإرساليات التبشيرية فى المدن الإسلامية الهامة خطة مرسومة منذ عهد الاستعمار ، وهى نتيجة حتمية لبدأ حرية التدين الذى قرره الحكومة الاستعمارية وكذلك سياسة الحياد التى تظاهرت بها فى الشئون الدينية طوال فترة حكمها فى هذه البلاد . وقد سارت على نهجها واقتفت آثارها الحكومات المحلية التى خلفتها سواء فى ذلك الحكومة المدنية أو العسكرية فاتجهت نحو العلمانية اللادينية وفتحت الأبواب على مصاريعها أمام الإرساليات التبشيرية حتى استطاعت أن تحقق بعض النجاح بجهودها الكبيرة فى كثير من المجالات والبيادين . وقبل أن ننقل إلى بقية وسائل الإعلام التى يستخدمها المبشرون فى الدعاية التبشيرية يجب أن نؤكد أن جهود الأروبيين فى ميدان الترجمة لم تقتصر على الكتب الدينية المسيحية

نحسب - وإن كان اهتمامهم بها أكبر وأوسع - وإنما امتدت هذه الجهود إلى حركة أخرى قاموا بها منذ فترة طويلة لجمع المخطوطات القيمة التي كتبها علماء المسلمين في المناطق الشمالية في مختلف العلوم والفنون ، وكذلك الكتب التي ألفها علماء العرب في التاريخ والجغرافيا ووردت فيها أخبار بلاد السودان الغربي . وقد جمع هؤلاء الأوروبيون هذه الكتب والمخطوطات وترجموها بعضها إلى اللغة الإنكليزية والبعض الآخر إلى اللغة الفرنسية وقد نفستهم هذه الكتب كثيرا حيث استطاعوا أن يتعرفوا - من خلال المعلومات المدونة فيها - على أحوال شعوب هذه البلاد وعلى شئونها الدينية والسياسية والاجتماعية " إن القيمة الأساسية للمصادر العربية هي أن هذه المصادر تضم " تاريخ بلاد السودان الغربي وغيرها " في الفترة ما بين القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي والقرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي تقريبا وفي هذه الفترة لم تكن للأوروبيين معرفة ببلدان غرب أفريقيا ولا لهم أي اتصال بها ^(١) . ومن الكتب العربية التي وردت فيها أخبار هذه البلاد وترجمها هؤلاء الأوروبيون إلى اللغة الإنكليزية أو الفرنسية كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد الله بن عبد العزيز البكري ترجمه إلى الفرنسية دي سلفي M.G. De Slane وكتاب تاريخ ابن خلدون قام بترجمته أيضا دي سلفي M.G. De Slane وكتاب بسط الأرض في الطول والعرض المشهور بكتاب الجغرافيا لأبي سعيد المغربي على بن موسى ترجمه وتحقيق ج . فجنيس J.V. Gines وكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لأحمد بن علي الدين المقرئ ترجمه غاستون ويست Gaston Wiet وكتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لشهاب الدين ابن فضل الله المصري ترجمه هوبكنس Hopkins وكتاب تاريخ البلدان لأحمد بن أبي يعقوب ترجمه غاستون ويست Gaston Wiet وكذلك كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى لأحمد بن خالد الناصري وكتاب صبح الأعشى لأحمد بن عبد الله القلقشندي وكتاب معجم البلدان لياقوت الحموي وقد أعداه للطبع ف . وستنفلد F.Wustenfeld وكتاب رحلات ابن بطوطة لمحمد بن عبد الله بن بطوطة ترجمه إلى الفرنسية ديفريري Defremery وسانفونيت Sanguine وغير ذلك من الكتب القيمة . وأما المخطوطات التي كتبها علماء المناطق الشمالية فمنها كتاب

(1) T.Hodgkin, Nigerian Perspectives, London, 1975 P.8

نور الألباب للشيخ عثمان ابن فوديو نقله إلى اللغة الفرنسية أ. هـ. I. Hamet
سنة ١٢١٥ هـ / ١٨٩٧ م . وكتاب وثيقة أهل السودان ومن شاء الله من الإخوان للشيخ
عثمان بن فوديو قام بطبعه ونشره الدكتور بفار Dr. Bivar وكتاب تنبيه الإخوان
على أحوال أرض السودان للمؤلف نفسه ترجمه إلى اللغة الإنجليزية ه. ر. بالمار Palmer
وكذلك كتاب تعليم الإخوان تأليف هذا الشيخ نفسه وقد نقله إلى الإنكليزية
ب. ج. ب. مارتن B.G. Martin وكتاب تاريخ السودان للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله
السعدى ترجمه إلى الفرنسية و. هوداس O. Houdas وكتاب إنفاق الميسور فى تاريخ
بلاد التكرور للشيخ محمد بيلو ترجمه إلى الإنكليزية أ. ج. أرنيث E.J. Arnett
وأعداه للطبع وايتين وكتاب تزيين الورقات لعبد الله بن فوديو قام بترجمته وطبعه م. هيسكت
M. Hiskett وكتاب تأليف أخبار القرون من أمراء بلاد إلورن للشيخ أحمد بن أبى بكر
ترجمه وحشاه ب. ج. ب. مارتن B.G. Martin إلا أن الترجمة غير مطبوعة . وكتاب
مجموعة القصائد الهجائية للطاهر بن إبراهيم الفلاتى وقد أورد الشيخ محمد بيلو هذه القصائد
فى كتابه إنفاق الميسور . وقد قام بفار Bivar وم. هيسكت M. Hiskett بترجمة
هذه القصائد فى كتابهما " الأدب العربى فى نيجيريا حتى عام ١٢١٩ هـ ١٨٠٤ م " .
وكتاب تاريخ الفتاش للشيخ محمود بن الحاج المتوكل ترجمه إلى الإنكليزية و. هوداس
O. Houdas وزميله م. ديلفوس Delafosse وكتاب شرب الزلال لمحمد بن الحاج
عبد الرحمن البرنوى ترجمة بفار Bivar وهيسكت Hiskett . وهناك كتب كثيرة قام
هؤلاء الأوربيون بترجمتها إلى اللغة الإنكليزية أو الفرنسية تركنا ذكرها خوفا من الإطالة .
وإن من وسائل المبشرين لنشر المسيحية فى هذه البلاد الإذاعات والتلفزيون والأجهزة
السينمائية . وللمبشرين أجهزة سينمائية خاصة بهم يستخدمونها لنشر دعاياتهم ويتنقلون
بها بين مختلف المدن والقرى يمرضون فيها أفلاما خاصة عن تاريخ الديانة المسيحية
والتعاليم الدينية المسيحية وجهود المبشرين فى نشر التعليم الغربى والثقافة الغربية
وفى تقرير الحياة الروحية المسيحية فى المجتمعات الأسيقية . ويظهر المبشرون فى هذه
الأفلام فى صور عالية من الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة ويثقلون أحيانا دور معلم

الأطفال أو طبيب القرية أو منقذ العبيد من أغلال العبودية أو المحسن إلى الفقراء والمساكين . . . يظهر المبشرون في ذلك كله بقلوب لينّة رحيمة لاتعرف الشدة وصدور رحبة واسمعة لاتعرف الغضب ولا الطيش . . . وإن غاية المبشرين من عرض مثل هذه النماذج التي تحمّل المعاني الإنسانية النبيلة إنما هي من أجل أن يحببوا المسيحية إلى الناس وينشروا المعتقدات والتعاليم المسيحية بينهم . . . وللمبشرين أيضا دور كبير يلعبونه في الأجهزة السينمائية العامة وفي التلفزيونات الحكومية . . . وكانوا يستوردون الأفلام العربية أو الإنكليزية التي يعدّها بعض المستشرقين المسيحيين عن بعض الجوانب الهامة في التاريخ الإسلامي مثل الفزوات أو سير بعض أبطال الإسلام ، وقد لفق هؤلاء المستشرقون في هذه الأفلام الافتراءات والأكاذيب على الإسلام وشوهوا حقائقه تشويها بشما وصوروا العرب المسلمين فيها جبارين ظلمة خرجوا من جزيرتهم الجرداء القاحلة حاملين فكرة استعباد البشرية فأشروعوا السيوف على من سواهم من الأمم يقتلونهم ويخربون ديارهم وينهبون أموالهم حتى استطاعوا أن يسيطروا على بعض الأمصار وأخضعوها تحت سلطانهم السياسي والديني ردحا غير يسيّر من الزمن . . . وقد عرضوا فيلما من هذا القبيل في مدينة إلورن سنة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م وكان عن غزوات خالد بن الوليد رضي الله عنه . . . وأما دور المبشرين في الإذاعات فإنه خطير للغاية . . . وقد خصصت لهم أوقات معينة لتقديم برامجهم الدينية في مختلف محطات الإذاعات الحكومية . ولهم جهود كبيرة يبذلونها في هذا السبيل حتى كادت برامجهم تغطي معظم الفترتين الإذاعيتين الصباحية والمسائية في كل يوم أحد . . . وللمبشرين محطة إذاعة كبيرة خاصة في مدينة إباجنسى Igbaña وهي على مقربة من مدينة إلورن في ولاية كوارا من المناطق الشمالية . . . وتذيع هذه المحطة الإذاعية دعاياتها التبشيرية باللغة العربية واللغة الإنكليزية وبعض اللغات المحلية الرئيسية . . . وكانت هذه الإذاعة قوية بحيث كنت ألتقط إذاعتها أيام كنت في المدينة المنورة عندما أرغب في الاستماع إلى أخبار البلاد . . . وإن شأن هذه المحطة مثل شأن أخواتها من الإذاعات التبشيرية في شتى أنحاء العالم مثل ما في لبنان وأمريكا والسودان وأثيوبيا وليبيريا والفاتكان وغيرها فكلها أبواق للتبشير ووسيلة قوية لنشر الديانة المسيحية في العالم . .

المبحث الرابع :

وسائل أخرى ذات أهمية فى مجال التبشير

إن للمبشرين طرقا عديدة فى الدعاية التبشيرية لا يمكن حصرها ولا الإحاطة بها تفصيلا .
وعندما يصل المبشرون إلى أى بلد من بلدان أفريقيا يبدأون أعمالهم بتنظيم رحلات
استكشافية إلى المناطق التى يريدون العمل فيها ، وقد يمتدون السنة الأولى والثانية
فى هذه المهمة ، ويقومون خلال تلك الفترة بإرسال تقارير مفصلة عن رحلاتهم هذه
إلى الهيئة التبشيرية العليا التى تتولى الإشراف على شئون ابتمات المبشرين إلى أفريقيا
لنشر الديانة المسيحية فيها . وقد وافتنا التقارير التى كتبها هؤلاء المبشرون الأوائل
بأخبار المفامرات التى قاموا بها داخل مناطق مختلفة فى هذه البلاد ، وما كان من أحوال
هذه البلاد وشئون أهاليها السياسية والاجتماعية والدينية . نجد ذلك فى التقارير
المذكرات التى كتبها أمثال المستكشف بارث Barth والمبشر فريمان Freeman
وتونسند Townsend وفولمار Gollmer وبون Bowen وواديل Wadell
وتوفول Tugwell وهندار Hindeler وغيرهم . وإذا لم يستقر المبشر فى منطقة
معيّنة ولم يقيم مركزا تبشيريا ولم يبن كنيسة ومدرسة ولم يقيم بإرسال تقارير مفصلة عن أعماله
إلى الهيئة التبشيرية العليا فى أوروبا ليطلعهم على نتائج أعماله فى ميدان التبشير
فإن الذين يمولون الإرساليات التبشيرية سوف لا يثقون فى قدرة هذا المبشر على العمل وحسن
استغلاله للأموال الطائلة التى يبذلونها لنشر المسيحية فى هذه البلاد . وإن الحماسة
الدينية الشديدة التى ملئت بها قلوب هؤلاء المشرفين على توجيه الحركة التبشيرية وتنويعها
هى التى جعلتهم دائما يتمطشون إلى سماع أخبار تنصير مجموعة كبيرة من القبائل الأفريقية
وهذه من جملة العوامل التى بعثت روح الإقدام والعمل فى بعض المبشرين ذوى القدرة
الفائقة والولاء المفرط للهيئة التبشيرية التى بعثتهم إلى الخارج ، فقاموا بأعمال كبيرة
ونشاط واسع فى سبيل نشر المسيحية فى المدن والقرى القريبة والبعيدة ، وبذلك
دلّوا العقبات الماتية ومهدوا الطرق أمام توغل المبشرين الآخرين الذين أتوا من بعدهم

وللإرساليات التبشيرية طريقتان فى ميدان أعمالها التبشيرية من حيث التخطيط والتنظيم :

فبعض هذه الإرساليات تسير على خطة تركيز أعمالها على منطقة معينة أو مدينة معينة .

وقد يحدد بعض المبشرين دائرة أعمالهم ويركزون على أسرة معينة أو قبيلة من القبائل كما فعل المبشر هند رار Hinderer فى مدينة إبادان والمبشر وليام كلارك William Clark فى مدينة أوبوماشو Ogbomosho والبعض الآخر من الإرساليات يسير على خطة توسيع دائرة أعماله فى جميع المناطق ^{جميع} ويستخدم الوسائل الممكنة فى هذا السبيل حتى يستطيع أن يوصل العوامل الأخرى المساعدة على تقدم أعمال التبشير إلى مجموعة كبيرة من الناس فيكون لهذه العوامل والوسائل أثرها الفعال فى المستقبل . والفريق الأول الذى ذهب إلى تركيز الأعمال التبشيرية على منطقة معينة وعلى قبائل معينة فى المجتمع كان يطمح كثيرا فى الأجيال المعاصرة ويمتقد أن تنصيرهم أمر سهل ، فهو يريد أن يكون من الأجيال المعاصرة من يلقى أعباء الأعمال فى تنصير الأجيال القادمة على عواتقهم . إنه كان يطمح فى النتائج الماجلة . . . كان يريد أن يكسب إلى حظيرة المسيحية مجموعة كبيرة من الصابئين . وقد نفهم من عمل هذا الفريق فى تحديد نشاطه بمنطقة معينة أنه كان ينظر إلى قلة إمكاناته المالية التى لا تفى بتحمل تكاليف إنشاء المراكز التبشيرية وإقامة الكنائس وبناء المدارس وابتعاث المبشرين والأساقفة إلى مختلف المناطق ، أو أن هذا الفريق كان ينظر إلى ناحية صحة المبشرين الأوربيين الذين كثيرا ما كانوا يتعرضون للأمراض بسبب عدم ملائمة المناخ الأفريقى لمزاجهم . وأما الفريق الآخر الذى يرى توسيع دائرة أعماله فى الآفاق واستخدام الوسائل المتعددة فى سبيل تحقيق أهدافه فكان يملق أملا كبيرا على الأجيال القادمة وينظر إلى صلابة قلوب الجيل المعاصر وشدة تمسكه بما كان عليه من الأديان ومن أجل هذا لجأ إلى السياسة الطويلة الأمد ، ولم يطمح فى النتائج القليلة الماجلة ، ولم يضيق فى الوسائل والطرق التى يستخدمها فى أعماله ، بل كان هذا الفريق يعتمد على الإمكانيات المالية الضخمة التى فى حوزته وتحت تصرفه ، ويستخدم العوامل الأخرى الممهدة لتقدم أعمال التبشير من نشر الحضارة والثقافة الغربية والعمل على تقدم الشؤون التجارية والتأثير على الشؤون الاجتماعية والسياسية فى هذه البلاد . ولقد كانت روح التنافس الطائفى بين

الإرساليات التبشيرية دافعا قويا حمل هذا الفريق على الامتداد والتوسع وهو يعلق آماله
الكبيرة على الأجيال القادمة التي تدخل في المسيحية زرافات ووحدانا عندما تظهر آثار
أعمال التبشير ونتائج خطط المبشرين ووسائلهم في المجتمع . قال ليفنستون Livingstone
” إذا اعتبرنا نسبة الصابئين الحقيقة من بين سكان المناطق التي تعمل فيها الإرساليات
التبشيرية نتيجة مباشرة لأعمال هذه الإرساليات ، واعتبرنا انتشار المبادئ والتعاليم المسيحية
والحضارة والثقافة الغربية في جميع أصقاع هذه البلاد بين الأذغال والأودية وفي المدن
والقرى نتيجة غير مباشرة ، فلا أتردد في الجزم بأهمية الطريقة الثانية أكثر من الأولى .
ولا يعني ذلك أنني أنتقص من قيمة عملية تحويل الناس إلى المسيحية ، ولكن فائدة ذلك
مقصورة على الصابئ شخصا . ولو قارنا بين هذا النجاح المحدود الذي يمكن تحقيقه في
صفوف الأجيال المعاصرة عن طريق التركيز على منطقة معينة وقصر أعمالنا على التحويل والحصول
على مجموعة من الصابئين ، وبين أعمالنا في نشر بذور التعاليم المسيحية والثقافة الغربية والحضارة
الأوربية في جميع الأصقاع بالنسبة للحصاد الكبير الذي يمكن أن نجتبه في المستقبل عندما
تخضع لنا الرؤوس ، فهناك تظهر الأهمية التي قررناها ، ويتضح بطلان الموازنة بين
الطريقتين . فإن العمل على مدى أطول من الزمن أكثر أهمية من تركيز الأعمال على نقطة
م معينة محدودة “ (١) وليس كل مبشر يوافق على فكرة السياسة الطويلة الأمد التي كان يقررها
ليفنستون Livingstone بالنسبة لتنصير السواد الأعظم في المجتمع في المستقبل . وفي
نظر كثير من المبشرين فإن تفضيل ليفنستون Livingstone للطريقة غير المباشرة التي هي
المخطط الطويل الأجل في سبيل تنصير الأجيال القادمة بواسطة حسن استخدام الخطط
والوسائل وتوسيع دائرة الأعمال التبشيرية . . . إن تفضيل هذه الطريقة على الطريقة المباشرة
التي هي الهجوم السافر في سبيل الكرازة بالمسيحية لتنصير العدد القليل من الجيل المعاصر
يبدو في نظر كثير من المبشرين تطرفا وأما يثير العجب “ (٢) ولكن رغم ذلك فقد أخذت

(1) R.Oliver, The Missionary Factor in East Africa, London, 1952
P.10

(2) J.F.A. Ajayi, op.cit., P. 91

معظم الإرساليات التبشيرية بفكرة تفضيل الطريقة غير المباشرة فى نشاطها فى مجال الدعاية التبشيرية . وإن نفوذ دعاة الإنسانية فى مجرى العلاقات الأوروبية الخارجية ورغبة الأوربيين الشديدة فى نشر الحضارة الغربية والثقافة الأوروبية ومالهم من المصالح الجمة فى قيام الشئون التجارية بين الدول الأوروبية وبين بلدان أفريقيا واعتبار ذلك كله من جملة العوامل الممهدة لنشر المسيحية فى هذه البلاد ، كل ذلك هو الذى أدى بالناس إلى التفكير فى أجدى الطرق فى التأثير وهل يكون ذلك عن طريق العمل على المدى الطويل بحشد جميع الطاقات والانطلاق نحو الامتداد والتوسع ، أم تركيز الأعمال فى نقطة معينة محدودة لضمان فعالية هذه الأعمال وظهور نتائجها فى القريب العاجل . إن جميع الإرساليات التبشيرية التى ^{كانت} تعمل فى هذه البلاد منذ قيام حركة التبشير الحديثة فيها باستثناء الكنيسة المشيخية تؤمن بفكرة السياسة الطويلة الأمد ، وتوسيع دائرة الأعمال التبشيرية ، وإقامة سلسلة مراكز تبشيرية فى كافة أنحاء مناطق البلاد امتدادا من شواطئ البحر المحيط حتى أقصى المناطق الشمالية . وقد بذلت هذه الإرساليات مجهودات كبيرة فى هذا السبيل فأقامت عددا كبيرا من المراكز التبشيرية الرئيسية والكنائس المركزية والمدارس فى معظم المدن الهامة ، وعددا من المراكز الفرعية والكنائس المحلية فى بعض المدن الصغيرة والقرى القريبة والبعيدة ، وكانت ترسل إليها مجموعة كبيرة من المبشرين والقسم والأساقفة . وقد رأى المبشر القس فريمان Rev. Freeman وهو رئيس إرساليات الكنيسة المنهجية فى ساحل الذهب ونيجيريا . " إن انتشار أعمال المبشرين فى كافة المدن والقرى سيحقق فى المستقبل القريب " تقدما اجتماعيا " ويحدث تغييرا جذريا فى شئون المجتمعات الأفريقية وهذا التغيير من شأنه أن يمهّد الطرق أمام توغل المبشرين الذين يأتون فى المستقبل للعمل فى هذه البلاد فيجئوا شارعا أعمال السابقين الكادحين . وقد تنبأ هذا المبشر بحتمية انتشار أساليب الحياة الأوروبية والمبادئ الأخلاقية الغربية ولكنه لم يحدد وقتا معينا لحدوث هذا الانتشار الكبير الذى يؤدى إلى تغيير كثير من شئون بلدان المناطق الاستوائية فى أفريقيا. ^(١) وقال المبشر توماس بوون Thomas Bowen من الإرساليات المممدانيّة :

(1) J.F.Ade Ajayi, op.cit., P.91-92

"إن إرساليات الكنيسة المنهجية توسع دائرة أعمالها على نطاق كبير فى ميدان الدعاية التبشيرية فى هذه البلاد ، ولكن جهودها ومساعدتها فى هذا السبيل لم تكن مركزة تركيزاً يتلاءم مع توسعها الإقليمى ، لأنها جهود ومساعد ضئيلة واهية ، وكذلك إمكاناتها المالية فإنها كانت محدودة جداً بحيث لا تكفى لتنفيذ الخطط التى رسمتها هذه الإرساليات فى ميدان عملها التبشيرى . وأما إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية التى تعتبر أكبر جميع الإرساليات التبشيرية الموجودة فى هذه البلاد فإنها كانت تدعم جميع مراكزها بالمقدد الكافى من المبشرين ورجال الدين وتنفق أموالاً طائلة لتنفيذ خططها وبرامجها التبشيرية وكانت تعمل بجهد أكبر وكفاءة كبيرة وإمكانات مالية ضخمة . ولأن المحاولات الضعيفة تضعف معها الإمكانات المالية مهما كثرت وتذهب معها المجهودات المبذولة فى أدرج الربح مهما عظمت تلك المجهودات ."^(١) وفى ذلك يوازن هذا المبشرين العمل على مدى أطول من الزمن وبين تركيز العمل فى منطقة معينة محدودة يرى توسيع دائرة الأعمال التبشيرية فى حدود الإمكانات المتوفرة لضمان فعالية ما يبذل من الجهود وحتى لا تذهب الأعمال فى مآهات الضياع . إن إرساليات الكنيسة المشيخية هى الإرسالية التبشيرية الوحيدة التى تفضل تركيز العمل فى منطقة معينة . ومنذ أن دخلت هذه الإرسالية منطقة كلابار من الإقليم الشرقى سنة ١٢٦٣هـ / ١٨٤٦م ركز مبشروا هذه الإرسالية أعمالهم فيها فترة طويلة من الزمن ، ولكن رغم ذلك لم يستطيعوا أن يحولوا أحداً من أهالى المنطقة إلى المسيحية إلا بعد سبع سنين من العمل الجاد المتواصل ، ولم يستطيعوا أن يقيموا الكنائس فى المدن والقرى حتى سنة ١٢٧٢هـ / ١٨٥٥م وكل ما استطاعوا عمله منذ أن دخلوا المنطقة هو أنهم أقاموا مراكز تبشيرية ونوا مدارس أيام الأحد لتعليم الإنجيل وكانوا يقومون بالدعاية التبشيرية وإلقاء المواعظ فى أبنية بيوت الزعماء المحليين وفى الأسواق . ولم تتخذ هذه الإرسالية أسلوب الهجوم السافر لاكتساح جميع مناطق هذه البلاد ومحاولة إدخال جميع أهاليها تحت حظيرة المسيحية ، بل قصرت أعمالها فى منطقة كلابار فى الإقليم الشرقى ، وكانت

(1) Bowen to Taylor 7th Sept, 1851 Bowen Letters.

تعلق آمالا كبيرة على تنصير الجيل المعاصر في المنطقة . وقد كانت هذه الإرسالية على يقين تام^{من} أنه لن تمضي فترة طويلة من الزمن حتى تخرج من بين هذا الجيل الذي قصرت عليه مجموعة من الصابئين ، وعلى عواتق هذه المجموعة يلقي عبء الأفعال التبشيرية لنشر الديانة المسيحية في جميع المناطق الأخرى الباقية في هذه البلاد . ومن أجل هذا فضلت هذه الإرسالية طريقة تركيز نشاطها التبشيري في منطقة معينة محدودة وذات تمارض شديدة فكرة توسيع دائرة هذا النشاط وامتداده إلى منطقة أخرى إلا بعد إحراز النجاح في تلك المنطقة المعينة واستقرار أمر المسيحية فيها وظهور نتائج أعمال المبشرين في شتى نواحي الحياة ولو بعد مئات السنين . أما الإرساليات التبشيرية التي تؤمن بالسياسة الطويلة الأمد في ميدان العمل التبشيري — وعلى رأسها إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية — فقد اتخذت حيل فكرتها هذه بعض التنظيمات ورسمت بعض الخطط ووضعيت بعض الوسائل الكفيلة بإنجاح أعمالها . ولقد قررت هذه الإرساليات التبشيرية ضرورة إقامة سلسلة مراكز تبشيرية في جميع المدن والقرى ، وإعداد رجال الدين المحليين وإنشاء الكنائس المحلية وتكوين هيئة أسقفية محلية لهذه الكنائس وتحديد دائرة أعمال المبشرين والقسس والأساقفة وتنظيم شؤون الطوائف المسيحية ، وكل ذلك من أجل أن تقدم أعمال التبشير ونجاح الخطط التي تسير عليها هذه الإرساليات . قال هنري فين (Henry Venn) سكرتير الهيئة العليا لإرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية : " إن ازدهار شؤون الكنائس المحلية يركز أساسا على الحكم الذاتي والدعم والجهد الذاتي من جانب الأفارقة أنفسهم في سبيل نشر المسيحية في هذه البلاد ، وإن المبشرين الأوربيين المخاضين الذين يقومون بالأعمال التبشيرية في بعض المناطق الأفريقية — إذا لم يعدوا للمستقبل عدته ولم يعملوا لإعداد رجال الدين المحليين فإنهم يقيمون بيوتهم فوق الرمال . ومن الحكمة أن نركز في خططنا التبشيرية منذ البداية على أهمية إنشاء الكنائس المحلية وتكوين هيئة أسقفية محلية لإدارة شؤونها . ويجب ألا تعتمد هذه الهيئة اعتمادا كلياً على الدعم الخارجى والإدارة الأجنبية المباشرة . " (١)

(1) W. Knight, The Missionary Secretariat of Henry Venn, London , 1882, Pp.416-417

وهذه خلاصة الأفكار التي استفادها هغرى فين (Henry Venn) من خلال دراسته الطويلة لتاريخ أعمال الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية التي كانت تعمل في الهند منذ ^{الماضية} الأعتاب الطويلة / وإن هناك فارقا كبيرا في المبادئ والتعليقات المسيحية بين مهمة المبشرين ومهمة القس . فالمبشر يدعو عامة الناس إلى المسيحية ويجب على استفسارات الصابئين ويتنقل بين أحياء القرية والمدينة وبين مختلف المدن والقرى ليكرز بالمسيحية بين الناس ، وينشر بينهم التقاليد والمعتقدات والمبادئ المسيحية . وأما القس فهو الذى يشرف على الشؤون الدينية لطائفة معينة من المسيحيين المحليين ويقود الناس فى صلوات القداس فى الكنيسة ويعلم الصابئين الجدد الأناشيد الدينية والتراتيل والأدعية . وبينما لا يهمل المبشر مقابل أعماله أجرا من هؤلاء الناس الذين يريد تحويلهم إلى المسيحية لأنه موفد من قبل الهيئة العليا للإرساليات التبشيرية التى تمول حركة التبشير ويحفظه بوافر رعايتها وعنايتها ويتقاضى مرتبا كبيرا منها فإن الطائفة المسيحية المحلية هى التى تتكفل بإعطاء القسوس المحليين مساعدات مالية مقابل تفرغهم للإشراف على شؤونها الدينية لأن الثور الذى يدرس الحنطة يجب على أصحابه أن يطعموه منها . وإذا نزل المبشر الأوربى بأرض قوم دعاهم إلى اعتناق المسيحية ، وإذا استطاع أن يجذب مجموعة من الناس إلى ما يدعو إليه كَوْن منهم طائفة مسيحية وعين عليهم زعيما من بينهم وهكذا يحصل حتى تجتمع لديه طوائف كثيرة . ثم بعد ذلك يقوم هذا المبشر بإنشاء صندوق خاص لدعم الشؤون الدينية وتنمية الكنائس المحلية ، ويستحث جميع أفراد هذه الطوائف على تقديم المساعدات المالية لدعم هذا الصندوق ، وإن كانت المساهمات المحلية لا تعد شيئا فى جانب الإعانات المالية الضخمة التى تقدمها الهيئة العليا للإرساليات التبشيرية فى الدول الأوربية فى سبيل تقدم أعمال التبشير فى هذه البلاد . وإن من مهمة هذا المبشر أن يحصل كل ما فى وسعه لتوحيد صفوف هذه الطوائف المسيحية حتى يكون منها كتلة مسيحية موحدة وتقوم بإدارة شؤون هذه الكتلة المسيحية هيئة أسقفية محلية ، وتكون لها مراكزها التبشيرية وكنائسها المحلية ، وهى التى يجب عليها أن تقوم بدفع رواتب رجال

الدين المحليين من صندوقها الخاص . ومتى ما استطاع المبشر الأوربي أن يحرز مثل هذا النجاح في منطقة عمله فقد حقق انتصارا كبيرا في ميدان العمل التبشيري . ويجب عليه بعد ذلك أن يتقدم إلى منطقة جديدة لاستكشافها ونشر المسيحية فيها . وهكذا تسير خطط الاستكشافات وعطية التبشير وتنظيم شئون الصابئين . وإن المبشر الذي يجول الأقاليم الأفريقية ويدعو أهلها إلى الديانة المسيحية ، إذا استطاع أن يكون من بينهم كلمة مسيحية ويقيم لها كنائس محلية فما عليه بعد ذلك إلا أن يقوم بتزويدها بالقسيس والمبشرين المحليين ، ويهذل قصارى جهده في توجيه هؤلاء القسس وتشجيعهم على العمل . ويرى القائمون بأمر التبشير وجوب انتقال المبشر من منطقة إلى أخرى إذا رأى أنه قد حقق قدرا من النجاح في أعماله فلا يجوز له أن يبقى في منطقة معينة طول عمره يزاوِل مهمة القسس بين الصابئين وإذا قصر نشاطه على منطقة معينة وبين مجموعة الصابئين ولم يتقدم نسي سبيل امتداد هذا النشاط وتوسيعه إلى المناطق الأخرى المجاورة فلن يتحقق هدف الهيئة العليا للإرساليات التبشيرية في نشر المسيحية في جميع مناطق هذه البلاد ، ولن تنهي الفرصة للصابئين الأفارقة لتقرير الحكم الذاتي بإنشاء صندوق تنمية الكنائس المحلية ليفعلوا نفقات أعمال التبشير من غير ما يحتاج إلى الدعم الخارجي أو الاعتماد الكلي عليهم . وقد قال هنري فين (Henry Venn) : " يجب علينا أن نعد الأفريقيين لمهمة الأسقفية والقسوسية ^(١) (ويجب أن نستخلص أجور أعمال رجال الدين المحليين من المساهمات المحلية التي يقدمها الأفارقة أنفسهم علينا أن نقاوم كل ما من شأنه أن يحجب إلى المبشرين الأوربيين منصب القسس في الكنائس المحلية لأنه حتى لو توفرت لدينا الإمكانيات اللازمة لتعيينهم قساوسة في الكنائس المحلية فإن قيامهم بهذه المهمة سيؤدي إلى ضعف شأن المجموعة المسيحية ويجعلها طالة في جميع أمورها على الحوامل الخارجية " . ^(٢)

(١) جاء في القاموس المصري (عربي - إنكليزي) كلمة قسوسة بمعنى " Priesthood " تأليف إلياس أنطون إلياس وأدوار . إلياس ص ٥٣٩

وهكذا رأينا جميع الإرساليات التبشيرية التي دخلت غمار الحرب المقدية في هذه البلاد منذ قيام حركة التبشير الحديثة تؤكد أهمية إعداد رجال الدين المحليين وإنشاء الكنائس المحلية في المدن والقرى وتعتبر ذلك من خطة العوامل الأساسية المساعدة على نجاح السياسة الطويلة الأمد وخطة توسيع دائرة أعمال التبشير إلى كافة أنحاء مناطق البلاد . وقد قررنا سابقاً أن الإرساليات التبشيرية الرئيسية الخمس التي ^{كانت} تعمل في هذه البلاد منذ قيام حركة التبشير الحديثة فيها لم تنتهج جميعها تلك السياسة ولم تسر جميعها على تلك الخطة في أعمالها ، وقد ذكرنا ما كان من أمر الإرسالية المشيخية في منطقة كلابار من الإقليم الشرقي في هذه البلاد . وإنما نحود بعد ذلك لنؤكد أن إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية والإرسالية المعمدانية والإرسالية الويلزية المنهجية كانت جميعها تؤمن بتلك السياسة وتقرر تلك الخطة في أعمالها ، وقد بذلت جهوداً كبيرة ومساعى واسعة في هذا السبيل . وتلك هي الحقيقة الكامنة وراء نجاحها الكبير في ميدان التبشير وانتشار مراكزها التبشيرية وكنائسها ومدارسها في جميع المناطق وإن من خطة الوسائل والطرق التي استخدمها المبشرون في ميدان العمل التبشيري في هذه البلاد محاولة حشد المجموعات المسيحية وإقامة قرى مسيحية يعيش فيها المسيحيون في استقلال تمام من المجتمعات الأفريقية في جميع نواحي الحياة . وعندما قامت مجموعة صغيرة من الصابئين ^{الأفريقية} في المجتمعات في الفترة الأولى من قيام حركة التبشير الحديثة في هذه البلاد ، وكانت في تلك الفترة أقلية قليلة لا وزن لها في تلك المجتمعات الأفريقية ، حصلت مشاكل كثيرة نتيجة اختلاف المبادئ وتباين المعتقدات وتصادم الأفكار . ومن أجل تضاد وقسوة الانطباعات على تلك الأقلية المسيحية وتجنّبها أخطار الحياة في الوحدات السكانية المائلية كما ذكر أحد المبشرين ، أراد بعض المبشرين التابعين لبعض الإرساليات التبشيرية أن يجمعوا الصابئين الأفارقة في مكان واحد يسكنون فيه معتزلين المجتمعات الأفريقية كلها وما كان عليه أهلها من الأديان . وقد أدرك هؤلاء المبشرون الفوائد الجمة التي

تأتى من وراء ذلك حيث يتمكنون من القيام بأعمالهم التبشيرية بين تلك المجموعات . وقد كان بعض هؤلاء المبشرين يريدون أن ينشئوا أحياء مسيحية داخل المدن والقرى ويحصلوا فى وسط كل حى من هذه الأحياء مركزا تبشيريا كنقطة اجتماع لكافة المسيحيين القاطنين فى المدينة ولتكون ملاذهم عند الفزع . وذهب فريق آخر من هؤلاء المبشرين إلى أبعد من ذلك إذ كانوا يريدون أن ينشئوا للمسيحيين مدنا وقرى مستقلة يعيشون فيها تحت سلطان هؤلاء المبشرين الروحي والسياسي . قال المبشر هنرى تونسنند (Townsend) : " هناك ميل شديد من جانب المبشرين لجمع الصابئين فى مكان واحد وقد أدرك الصابئون أنفسهم ما يشجعهم على ذلك من المصالح ولكن لم تكن لدينا قرية مسيحية نموذجية واحدة فى هذه البلاد لتتخذها مثلا يحتذى فى بقية أنحاء البلاد . ولكن الصابئين يحاولون قسرا استدلائهم أن يقيموا بيوتهم حول المراكز التبشيرية " (١) . إن عددا كبيرا من الصابئين الأفارقة الذين اعتنقوا المسيحية على يد المبشر توماس شمينس (Thomas Champness) وكانوا تحت إشرافه وتوجيهه ، يشكلون مجموعة مسيحية تميز فى وحدات سكنية فى ناحية المدينة . ونحن نعلق آمالا كبيرة على هذه المجموعة ونرجوا أن تكون هذه القرية الصغيرة مركز انطلاق أعمال التبشير إلى القبائل المجاورة فى المستقبل . (٢) وقد وقعت حادثتان تتعلقان بالمسيحيين المضطهدين الذين خرجوا فى مجموعة كبيرة من بعض المدن ليؤسسوا لأنفسهم قرى مسيحية أو يحتلوا بعض القرى الصغيرة . فى سبعينات القرن التاسع عشر الميلادي خرجت مجموعة من الصابئين من مدينة أبوكوتا إلى القرى المجاورة لهذه المدينة احتجاجا على موقف الحكومة المحلية تجاه المبشرين الأوربيين حيث نفتهم الحكومة المحلية من المدينة بعد ما لاحظت أخطار تدخلهم فى شئونها السياسية .

قال القس جيمس جونسون (Rev. Johnson) : " إن نسبة المسيحيين فى هذه القرى الصغيرة

(١) Townsend Annual letter for 1865 dated 1st Feb. 1866

GMS CA2/085

(٢) Methodist Missionary Notices Vol. xvi P.210

25 Nov. 1861 Mann Journal Entry.

كانت قليلة جدا إلى جانب سكانها المسلمين والوثنيين بحيث لا يمكن أن نطالع عليها اسم القرى المسيحية^(١).

وقد وقعت الحادثة الثانية قرب مدينة أسابا في الإقليم الشرقي من هذه البلاد فـ في ثمانيات القرن التاسع عشر الميلادي، فعندما بدأت الإرساليات الكاثوليكية أعمالها التبشيرية اشترت مجموعة من المباني وأنشأت لهم قرية صغيرة قرب مدينة أسابا وبحثت إليها المبشرين والقساوسة، وعاولت أن تجعل هذه القرية منفصلة تماما عن سائر المدن والقرى المجاورة لها، ومستقلة في جميع شئونها الدينية والسياسية والاجتماعية. ولكن هذه الإرسالية التي ظلت تعمل في تلك القرية طوال عشرين سنة لم تستطع أن تحقق من أهدافها إلا شيئا يسيرا. ولما أدركت هذه الإرسالية فشل خططها هذه عدلت عنها إلى استخدام وسائل أخرى فبحثت مبشراتها إلى داخل المدن والقرى فأقاموا فيها المراكز التبشيرية والمدارس وركزوا على وسيلة التعليم، وبذلك استطاعوا أن ينشروا المسيحية بين الناشئين الصغار. وقد كان المبشر هفري تونسنند (Townsend) ينكر أن تكون هذه القرى التي هاجرت إليها مجموعة الصابئين أو التي حاولت بحفر الإرساليات التبشيرية أن تنشئها في بعض مناطق هذه البلاد قرى مسيحية في حقيقة أمرها. وقد قال هذا المبشر: من فكرة إقامة القرى المسيحية قد نشأت أصلا لدى الطائفة الكاثوليكية وأكثر من اجتهد في تطبيقها في مدينة باراغواي (Paraguay) هم الآباء اليسوعيون حيث كانوا يقومون بتنصير سكانها الهنود وينشئون لهم قرى مسيحية مستقلة يتولون الإشراف على شئونها الدينية والسياسية والاجتماعية^(٢). وكانت هناك محاولة من جانب الإرساليات الكاثوليكية لإنشاء مثل هذه القرى المسيحية المستقلة قرب مدينة لا جوس وهذا المحاولة تستحق الذكر والملاحظة في هذا الصدد. فعندما قام الأب هفريو (Father Broghe-ro) المبشر الأكبر للإرساليات الكاثوليكية في مدينة

(١) The Report on the State of Churches in Yorubaland
1887 CMS CA2/056

(٢) J.F.Ade Ajayi, op.cit., P. 114

واداء (Whydah) بزيارته الثانية لمدينة لاجوس سنة ١٢٨٠ هـ ١٨٦٣ م ورأى الأراضي الفسيحة الممتدة على طول شواطئ المحيط الأطلسي قال : " إذا استطاع الميسيون أن يحشدوا في هذه الأماكن الواسعة مجموعة صغيرة من المسيحيين الأفارقة وتمكنوا بعد ذلك من القبض على زمام أمرها والإشراف على شئونها الدينية والاجتماعية ، فلن تضي فترة طويلة من الزمن حتى تقوم في هذه المنطقة دولة مسيحية نموذجية تكون ملاذا للشعوب المتناثرة في جميع مناطق هذه البلاد ^(١) . ولم تخرج هذه الأمنية إلى حيز الوجود لمدة تزيد على عشر سنوات نتيجة الحرب الأهلية التي اندلعت أوارها في فرنسا سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م .

وفي سنة ١٢٩٢ هـ ١٨٧٥ م قدم جيمس مارشال (James Marshall) من الإرساليات الكاثوليكية طلبا إلى الحاكم البريطاني الذي يحكم مستعمرة ساحل الذهب ومنطقة لا جوس لمنحه أرضا خارج مدينة لاجوس . " وقد صرح جيمس مارشال (James Marshall) أن غرضه من هذا الطلب هو إنشاء مؤسسة زراعية لتنمية المستوى الزراعي ، وكان هذا أمرا ضروريا في هذه المستعمرة بسبب تأخر الشؤون الزراعية في هذه الناحية من أفريقيا ^(٢) . وقد أنشئت هذه المؤسسة في قرية توبو سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٦ م وسميت مؤسسة القديس يوسف ولكن الذي كان يجري داخل هذه المؤسسة أكثر بكثير من الأعمال الزراعية التي تسيطر وراءها هؤلاء المبشرون . قال الأب بيل (Father Bell) الذي كان يرأس هذه المؤسسة سنة ١٣٠٦ هـ ١٨٨٨ م : " بالإضافة إلى الأولاد الذين كانوا تحت كفالة ورعاية الآباء اليسوعيين فإننا كنا نقطع بعض الأسر الأفريقية الفقيرة جزءا من أرض الإرسالية إذا قبلت الالتزام بالأنظمة والشروط التي وضعناها في حق كل من يطلب قطعة من أرض الإرسالية للزراعة فيها . وإن هذه الأسر الأفريقية الفقيرة تقوم بزراعة الأرض التي نمنحها إياها لحاصلها الذاتية ولكنها تدفع أجرا عينيا ضئيلا مقابل انتفاعها بهذه الأرض . ويجب على هذه الأسر أن تقبل تحويل أولادها إلى المسيحية وتقدمهم إلى الآباء اليسوعيين

(١) Father Broghero 1863, Annals of the Propagation of the Faith 1865, P. 81-82

(٢) Father Cloud to the Governor of Gold Coast 1875, cited Notes by Father pages on the History of Topo, 'Rapport de Topo-Badagry' by Father L. Freyburger with Notes by Father Pages Quoted in J.F.A Ajayi, op.cit., P, 115

لينشئوهم على العقيدة الكاثوليكية ويضعوهم لبان التعاليم الكاثوليكية . وعند ما كان هؤلاء
الأولاد يبلغون رشدهم كان من واجبتنا أن نقرر لهم مصيرهم في الحياة ونعمل على تقدمهم
ولأجل هذا أقطعنا هذه الأسر الفقيرة قطعاً من أرض الإرسالية مسيحتاً لتزرعها . وعند ما
يكبر هؤلاء الأولاد وقد تلقوا من التعاليم المسيحية ما يمكنهم من أن يعيشوا حياة أفضل
بدون إشراف الإرسالية نسمح لهم بالزواج* .^(١) قال الأستاذ أجايي : " وبالإضافة إلى كصون
قرية توبو التي أقيمت فيها هذه المؤسسة الزراعية مصحة للأوربيين ومنطقة زراعية خصبة
فإنها كانت أن تصبح دويلة مسيحية مستقلة بسبب ما بذله هؤلاء الآباء اليسوعيون فيها
من جهود كبيرة لتحويل أهاليها إلى المسيحية* .^(٢) وبطبيعة الحال فإن محاولة
الإرسالية الكاثوليكية حشد المجموعات المسيحية في قرية مستقلة قد لقيت معارضة عنيفة
من جانب الحكومة الاستعمارية البريطانية التي كانت تحكم مستعمرة لاجوس ، وكذلك من الإرساليات
البروتستانتية والأهالي المواطنين . وقد أحست الإرسالية الكاثوليكية نفسها منذ وقت
مكرب أن فكرة إقامة القرى المسيحية المستقلة لمجموعة الصابئين الأفارقة تضر بمصالحهم
أكثر مما تنفعهم وأدركت هذه الإرسالية أيضاً أن تبني مثل هذه الفكرة ومحاولة إخراجها
إلى حيز الوجود في بلاد لم تكن خاضعة للحكومة الكاثوليكية لا يتناسب مع المنطق السليم
لما عرف من التنافس الشديد بين الطوائف المسيحية ، والنزاع القائم بين مختلف الدول
الأوروبية الاستعمارية حول اقتسام بلدان أفريقيا فيما بينها . وقد كانت الإرساليات
البروتستانتية تعارض بشدة فكرة إقامة قرية مسيحية تكون منفصلة عن المجتمعات الأفريقية
ومستقلة عن سلطة الحكومة المحلية في شئونها السياسية والاجتماعية والدينية وذلك لما
يترتب على هذا العمل من أخطار جسام قد تؤدي إلى كسر شوكة الأقلية المسيحية واستئصال
شأفتها . وقد أشرنا فيما سبق إلى أن بعض القرى التي هاجرت إليها مجموعة الصابئين
البروتستانتين لم تكن قرى مسيحية مستقلة في حقيقة أمرها ، لأنها لم تكن منفصلة عن
المجتمعات الأفريقية بل كانت خاضعة لسلطة الحكومة المحلية في جميع شئونها ، ولأن عدد

(١) Father Bel to Father Planque in "Les Missions Catholiques"
21 Dec. 1888 Cited in J.F.A. Ajayi, op.cit., P. 115

(٢) J.F.A. Ade Ajayi, op.cit., P. 116

كل من المسلمين والوثنيين فيها يربو على عدد الصابئين . وقد أشرنا من قبل إلى أن ما كان يجرى في مؤسسة القديس يوسف التي أنشأتها الإرسالية الكاثوليكية في قرية توبو لم تكن مجرد تدريب الأولاد على أعمال الزراعة والفلاحة وإنما كان المبشرون يقومون إلى جانب ذلك بتعليم هؤلاء الأولاد الديانة المسيحية . وقد كان القسم الخاص بتربية الأطفال وتعليمهم في هذه المؤسسة بمثابة دار الأيتام ، لأن هذا القسم كان يقبل الأولاد الصغار تحت حضنته ويجعلهم تحت كفالة المبشرين الذين يتعهدون بتربيتهم وتنشئتهم على أساليب الحياة المسيحية . ويتكفل هذا القسم لهؤلاء الأولاد ببعض مستلزمات الحياة من المسكن والطعام والملابس والمشرب فترة إقامتهم في هذه المؤسسة . " وتبدأ الأعمال اليومية في هذه المؤسسة مبكراً بصلاة القديس ويحدها يقوم المبشرون بتدريس كتاب خلاصة العقيدة المسيحية لهؤلاء الأولاد . وهذا الكتاب مؤلف على طريقة الأسئلة والأجوبة . وبعد ذلك يذهب هؤلاء الأولاد للحمل في المزارع حتى منتصف النهار ويتوقفون عن العمل لتناول طعام الفداء . وبعد ذلك تأتي الفترة الدراسية الثانية ويتوجه هؤلاء الأطفال إلى مبنى المؤسسة لتلقى التعاليم المسيحية . وتستمر هذه الفترة حتى الساعة الرابعة والنصف ويحدها يعود الأطفال للمرة الثانية للحمل في المزارع حتى غروب الشمس . (١) ولقد سلك المبشرون طرقاً عديدة واستخدموا وسائل كثيرة في سبيل نشر المسيحية في كل بلاد دخلوها . وحاولوا منذ أيام الاستكشافات البرتغالية في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي أن ينصروا الملوك والزعماء الأفريقيين ليقودوا رعاياهم جملة واحدة إلى اعتناق الديانة المسيحية ولكنهم كما أشرنا إلى ذلك من قبل فشلوا في هذه المحاولة فشلاً ذريعاً . وقد لقوا صعوبات كثيرة في تنصير الملوك والزعماء الوثنيين فضلاً عن الملوك والأمراء المسلمين . وحتى المناطق الوثنية القليلة في الإقليم الشرقي التي تنصر فيها عدد من زعماء القبائل الوثنية فإن بخية المبشرين لم تتحقق فيها إذ لم يدخل أتباع هؤلاء الزعماء في حظيرة المسيحية ، وفوق ذلك فقد اعتبروا

(١) M.J. Walsh, Catholic Contribution to Education in Western Nigeria, London, 1953, Pp.120-22

عمل زعمائهم هذا خروجاً على تراث القبيلة وتقاليدها . ولم يكن من بين المبشرين الذين عملوا في هذه البلاد أحد كرس نفسه لمهمة تنصير الملوك مثلما فعل المبشر هوب واد يسل (Hope Wade) مع الملك أيبو (King Eyo) ملك منطقة كلابار في الإقليم الشرقي من هذه البلاد . فقد استفند هذا المبشر جميع قواه واستخدم جميع الوسائل في هذا السبيل . وإن فشل محاولاته وجهوده الكبيرة لبرهان قاطع على صعوبة هذا الأمر إن لم يكن دليلاً على استحالة . ولما يقنع المبشرون من تحويل الملوك والزعماء إلى المسيحية قنعوا أنفسهم بتنصير الأفراد " وجندوا لذلك كل طاقاتهم . وقد حققوا بعض النجاح في هذا السبيل ، ولكن هناك عدداً من المبشرين تصدى لتنصير بعض الأسر الأفريقية الوثنية وقصروا أعمالهم التبشيرية على أسرة معينة من هذه الأسر حتى استطاعوا بعد فترة قصيرة من الزمن أن ينصروا أفرادها ويحملوا من أبنائها من يزدود عن حمى المسيحية ويستमित في سبيل نشرها وتقدم أعمال التبشير . وكان المبشر دافيد هندرار (Rev. D. Hinderer) أحد هؤلاء المبشرين المفاشرين القلائد الذين وقفوا حياتهم لخدمة أعمال التبشير وركضوا على أسرة أفريقية معينة حتى تمكنوا من تحويل معظم أفرادها إلى المسيحية * ولقد بعثت الهيئة المحلية للإرساليات التبشيرية المبشر دافيد هندرار (Rev. D. Hinderer) إلى هذه البلاد لمهمة خاصة هي دراسة لغة هوسا ومحاولة الاتصال بالقبائل الهاوساوية للتمسرف على شغونها ثم القيام برحلات استكشافية إلى بلاد هوسا لدراسة كيفية نجاح أعمال التبشير (١) وتقدمها في تلك البلاد . وقد وصل هذا المبشر إلى مدينة بداغري (Badagry) في طريقته إلى بلاد هوسا سنة ١٢٦٦ هـ ١٨٤٩ م ولكنه لم يستطع مواصلة رحلته إلى المناطق الشمالية المسلمة بسبب الحروب الأهلية التي قامت في أنحاء بلاد يوريا في تلك الفترة وقد أقام في مدينة أبيوكوتا (Abeokuta) قرابة أربع سنين استطاع أن يتعلم في خلالها لغة يوريا وكان يقوم بمساعدة المبشر هنري تونسن (Henry Townsend) والمبشر

(١) Secretaries to Hinderer 1849, CMS CA2/L1

غولمار (Gollmer) في أعمالهما التبشيرية في تلك المدينة والقرى المجاورة لها . وفي أثناء إقامة المبشر دافيد هندرار (David Hinderer) في مدينة أبيوكوتا (Abeokuta) تغيرت فكرته حول التقدم مباشرة إلى المناطق الشمالية للعمل التبشيري فيها قبل إتمام عملية استكشاف المدن والقرى داخل بلاد يوروبا وفتح أبوابها لتوغل المبشرين فيها وإقامة سلسلة المراكز التبشيرية فيها . وقد رأى هذا المبشر أنه من التورط الكبير وعدم الدقة في التخطيط أن يقفز المبشرون بدافع الحاسة الشديدة إلى العمل في المناطق الشمالية لنشر المسيحية فيها تاركين وراءهم المناطق الجنوبية الوثنية لم تستقر فيها أعمال التبشير ولم تدخل المسيحية إلى معظم مدنها وقراها . ورأى هذا المبشر أيضاً ضرورة وضع خطط مركزة لا يصال أعمال التبشير إلى المناطق الشمالية عن طريق التقدم التدريجي بإقامة سلسلة المراكز التبشيرية في عواصم مناطق بلاد يوروبا ومدنها الهامة حتى تصل السلسلة إلى مدن المناطق الشمالية . وقد أشرنا إلى هذه الفكرة من قبل . وفي نظر المبشر هندرار (Hinderer) كانت مدينة إبادان (Ibadan) هي النقطة التالية بعد قيام أعمال التبشير في مدينة أبيوكوتا والقرى المجاورة لها . وقد اختار هذه المدينة لنفسه ودخلها سنة ١٢٧٠ هـ ١٨٥٣ م لبدأ فيها أعماله التبشيرية . ولم يكن لأن من أنصار خطة تركيز العمل في نقطة معينة محدودة فقد أستوطن هذه المدينة وبقي فيها طول أيام مقامه في هذه البلاد ولم تكن دائرة أعمال هذا المبشر وجهوده في سبيل الدعاية التبشيرية ممتدة إلى سكان هذه المدينة جماعاً وإنما كانت مقصورة ومركزة غاية التركيز على أسرتين كبيرتين في المدينة . فعند أن دخل المبشر هندرار هذه المدينة بذل أقصى ما في وسعه من جهود ليكسب صداقة أسرة كوديتي (Kudeti) وأسرة أريمو (Aremo) وهما أسرتان عريقتان كانتا تحتلان مراكز هامة في شئون هذه المدينة . ويرجع السبب في نجاح أعمال هذا المبشرين هاتين الأسرتين إلى دقة خطة وحسن اختياره للوسائل المستخدمة لتحويلها إلى المسيحية . وقد كان هذا المبشر محبباً كثيراً إلى هاتين الأسرتين لدرجة أنه كان يتمتع بكل الحقوق والامتيازات التي يتمتع

بها أبناء الأسرتين أنفسهم . وقد عاش طول أيامه في المدينة تحت كفالة وحماية إحدى هاتين الأسرتين وهي أسرة كوديتي (Kudetj) " وقد كانت هاتان الأسرتان دعاة متدينين قويتين ارتكز عليهما نجاح أعمال التبشير وانتشار الديانة المسيحية في هذه المدينة . ولم تحض فترة طويلة من الزمن حتى خرج من بين أبناء هاتين الأسرتين عدد كبير من رجال الدين المسيحيين الأساقفة والقساوسة الذين نشروا المسيحية في أنحاء مناطق شمال بلاد يوربا .^(١) وكان من بين رجال الدين المحليين الذين^{نشأوا} في حجر هذا المبشر وتربوا عليه ولازموه عشرات السنين حتى نهضوا في التحالف المسيحية واحتلوا مراكز هامة فسي تتكون الكنائس المسيحية في هذه البلاد القس دانييل أولوب (Rev. Daniel Olubi) الذي عين رئيسا عاما للكنائس إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية في مدينة إبادان (Ibadan) ومدينة أويو (Oyo) ومدينة أبوماشو (Ogbomosho) سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٦٩ م ومن بين هؤلاء الرجال أيضا المؤرخ النيجيري الكبير القس صمويل جنسون (Samuel Johnson) وقد عين هو الآخر قسيسا على مدينة أويو (Oyo) سنة ١٣٠٤ هـ ١٨٨٦ م . ولم يكن المبشر دافيد هندرار (David Hinderer) وحده الذي سار على هذه الخطى ، فهناك عدد من المبشرين ساروا على منواله ووقفوا حياتهم لخدمة أعمال التبشير بين بعض الأسر الأفريقية ، كان من بينهم المبشر شانبنس (Rev. Champness) والمبشر وليام كلارك (William Clarke) .

ونذكر على سبيل المثال جهود المبشر وليام كلارك ومساعديه الكبيرة في هذا الصدد . وصل هذا المبشر إلى هذه البلاد سنة ١٢٧١ هـ ١٨٥٤ م وهو أحد مبشري الإرساليات الممعدانية ، وكان مخاضا كبيرا مثل المبشر هندرار الأتف الذكر . وقد استقر وليام كلارك في مدينة أبوماشو (Ogbomosho) وجعل أعماله التبشيرية مقصورة على أسرة أبولا (Agbo-Ola) في حارة أوكي أفو (Oke-Afo) وكانت هذه الأسرة إحدى الأسر الوثنية الكبيرة في المدينة . وقد عاش هذا المبشر طول أيامه في المدينة تحت كفالة

(1) Anna Hinderer, op. cit.,

راجع كتاب المبشرة هندرار لمزيد من الإيضاح

وحماية هذه الأسرة واستطاع أن يحقق نجاحا كبيرا في تحويل هذه الأسرة إلى المسيحية. وقد لعبت هذه الأسرة أدوارا هامة في ميدان التبشير في هذه المدينة وعلى جهود أبنائها يعتمد نجاح أعمال الإرساليات التبشيرية المعمدانية وعلى أيدي أبنائها القساوسة ورؤساء الكنائس انتشرت المبادئ والمعتقدات والتعاليم المعمدانية في مناطق بلاد يوروبا ، وقد وفروا على الأوربيين كثير عناية في مهمتهم الشاقة وكانوا لهم عون كبير في خدمة أعمال التبشير، وذلك قللوا من حدوث احتكاكات كثيرة ومشاكل عويصة بين هؤلاء المبشرين الأوربيين وبين مختلف المجتمعات الأفريقية الوثنية .

إن القس الأفاقة الثلاثة الأول الذين اعتمدت عليهم الإرساليات المعمدانية في أعمالها التبشيرية في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي في هذه البلاد كانوا من الأولاد الصغار الذين أخذتهم هذه الإرساليات من الأسر الأفريقية في مدينة إجا يي (Ija ye) أثناء وقوع الحرب الأهلية فيها . وقد نقلت هذه الإرساليات هؤلاء الأولاد إلى مدينة التبشيرية أبيوكوتا (Abeokuta) سنة ١٢٧٩ هـ ١٨٦٢ م لتلقى التعاليم المسيحية في المدرسة لإعداد رجال الدين المحليين . وكانت هذه المدرسة تابعة لإرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية وتحت إشراف المبشر هنري تونسن (Henry Townsend) وكان على رأس هؤلاء القس المحليين الثلاثة القس موسى لاديجو ستون (Rev. Moses Ladejo) الذي نشأ تحت كفالة أحد المبشرين الأوربيين ورافقه فترة من الزمن يساعده في أعماله التبشيرية وفي ترجمة مواظمه إلى لغة يوروبا . وقد عينت الإرساليات المعمدانية موسى لاديجو ستون (Rev. Moses Ladejo Stone) قسيسا سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨٠ م كانت البعثات التبشيرية في كثير من المناطق الأفريقية توقع مع عدد من الأسر الأفريقية الفقيرة عقود اتفاقية تقوم تلك البعثات التبشيرية بموجبها بتقديم مساعدات عينية إلى هذه الأسر الفقيرة ، وتضمن هذه العقود لتلك البعثات حق اختيار بعض أطفال هذه الأسر لتربيتهم على حسابها كما تتضمن هذه العقود بين فقراتها مادة تنص على أن الأسرة التي توقع على مثل هذه الاتفاقية

مع الهيئات التبشيرية تكون مجبرة على رد قيمة المساعدات المعينية المقدمة لها من قبل تلك الإرساليات وكذلك تكون ملزمة باسترجاع النفقات المصروفة على أبنائها، إذا هي خالفت شروط الاتفاقية . وتختار الإرساليات التبشيرية - بموجب هذه الاتفاقية - من أطفال تلك الأسر الفقيرة صبياناً دون الخامسة من العمر وتضعهم تحت كفالة بعض مبشريها لفترة من الزمن ثم ترسلهم إلى المدارس التبشيرية وينقطع هؤلاء الصبيان عن أهلهم خلال تلك الفترة وينشئون تنشئة مسيحية ويبرهون على أساليب الحياة الغربية، ثم ترسلهم الإرساليات إلى كلية فورابي في هيرمون أو إلى أوروبا لإتمام التعليم العالي. بعدئذ يعادون إلى أفريقيا ليستخدموا في الأعمال التبشيرية ويستغلوا في الأغراض الاستعمارية، وللمبشرين وسائل عديدة تظهر فيها الأغراض التبشيرية بظهور الشمس في رابعة النهار ووسائل أخرى خفية قد تبدو بريئة في مظاهرها الخارجية ولكنها تحمل في طياتها نفس الأغراض التبشيرية والمصالح الاستعمارية التي تهدد فيها الوسائل الظاهرة. فهناك أوجه كثيرة من النشاط الاجتماعي كانت الهيئات التبشيرية تستغلها لغاياتها التبشيرية ومصالح دولها الاستعمارية. فميدان الأعمال الاجتماعية الذي يشمل أعمال البر والإحسان، والعمل التبشيري بين النساء والترغيب في الزواج بالأجنبيات المسيحيات ، وتأسيس الجمعيات المسيحية للشبان والشابات وإقامة ملاجئ الأطفال ومبوت الطلبة وإنشاء الأندية الرياضية والثقافية والجمعيات الكشفية، ونشر الكتب والمجلات والصحف اليومية .. هذه كلها مظاهر بريئة قد يكون فيها بعض المنافع في ناحية العلاقات الاجتماعية إلا أن هذه المنافع غير مقصودة في ذاتها وقد أسلفنا أن هذه الجوانب كلها ميدان فسيح للتبشير .

وما أن الكلام عن هذه الجوانب من النشاط الاجتماعي في أعمال التبشير معناه إعادة الكلام على حركة التبشير كلها من وسائل الدعاية التبشيرية وطرقها وخطط العمل وقسود سبق الحديث عن كل ذلك - فسنتكفى هنا بالإشارة إلى الجوانب التي لم نسبق الإشارة إليها من قبل لا على وجه التفصيل خوفاً من التكرار ، ولكن على وجه الإيجاز لإبراز النقاط الهامة

في الموضوع . وقد أكدنا مرارا أن وسائل التبشير كثيرة ومتنوعة لا يمكن حصرها ولا الإحاطة بها تفصيلا، فكم من وسيلة استخدمها المبشرون ثم تركوها إلى غيرها عندما أثبت التجارب أن الوسيلة الثانية أجدي من الأولى، أو عندما يتبين فشل الأولى في تحقيق الغاية التي تُستخدم من أجلها . إن الأعمال الاجتماعية هي المناسبات الحاضرة التي تربط بعض البشر بعضهم ببعض، وتتيح الفرص للناس أن يتعرف بعضهم إلى البعض الآخر . وإن البشر شعوب مختلفة الألوان ومتباينة اللغات وفيهم قبائل متعددة مقسمة إلى فرق كثيرة وطبقات مختلفة حسب الأعمال والاتجاهات الشخصية . فكلما نتاح الفرص لاجتماع هذه الفرق والطبقات ببعض الآخر، ومن أجل ذلك لجأ الناس إلى خلق الأجواء الاجتماعية لجمع أفراد هذه الفرق المختلفة والطبقات المتعددة في بعض المناسبات في الأندية الرياضية والثقافية وفي الجمعيات وفي الملاهي وبيوت الطلبة وفي اتصال الناس بعضهم ببعض عن طريق الكتب والمصحف والمجلات وغير ذلك . وغاية المبشرين من إقامة مثل هذه العلاقات الاجتماعية في المجتمعات الأفريقية هي محاولة اختراق الأسوار الضروية حول الأسر المسلمة والوثنية لكي تفتح أمامهم أبواب جديدة يتوغلون منها للتبشير بينهم وكان المبشرون يحاولون أن يجعلوا نشاطهم الاجتماعي مساهمة للتحاليم والمبادئ المسيحية بحيث يكون هذا النشاط عاملا أساسيا من العوامل المساعدة على نشر الديانة المسيحية في المجتمع .

ويبدأ هذا النشاط الاجتماعي بالصلوات اليومية للأفراد والجماعات، وما يتصل بالأطفال الصغار والأمهات داخل نطاق الأسرة ثم تتوسع تلك الصلوات حتى تشمل دائرة العلاقات الاجتماعية خارج البيوت وفي المدارس وفي المعامل والمصانع وفي الإدارات والمؤسسات المختلفة بين الشبان والشابات والطبقة المثقفة . وقد أوجد المبشرون اليوم عن طريق نشاطهم الاجتماعي مناسبات متعددة أتاحت لهم فرص الاتصال برجال ونساء وأطفال فسي المجتمعات الأفريقية الإسلامية والوثنية على حد سواء، لم يتح لهم مثلها من قبل . وقد تعرفوا من خلال الاتصال على أحوال هذه المجتمعات من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والدينية وتأثروا بإصلاح تلك الحالات ساعين إلى تغيير الأوضاع القائمة والتأثير على

الرأى العام ، مستخدمين فى ذلك الدعايات البراقة والأمانى المعسولة . وتقوم الأندية الرياضية والثقافية بعلاقات اجتماعية مختلفة الأنواع . فهناك حفلات خطابتها بية وسياسية ورياضية تقام فى تلك الأماكن فى فترات متقطعة، وفيها تلقى محاضرات ودروس فى التماليم المسيحية، ومن بين الأشياء التى تحتويها تلك الأندية مطاعم وفنادق رخيصة لصحى الاقتصاد وأسباب تسلية يهرع إليها طلاب المدارس ويقصدها الشبان والشابات . على أن القائمين بتمويل هذه الأندية وتنظيم شئونها لا يهمهم فى المقام الأول أن يستمتع الناس بما تظمه هذه الأندية من أسباب التثقيف والترويح والتسلية وإنما الذى يهمهم أكثر هو أن يستغلوا هذه الأسباب فى لفت أنظار الناس إلى ما يجرى داخل تلك الأندية وترغيبهم فى غشيانها للاستماع إلى صوت المبشرين ورجال الاستعمار ، وأعلى الأكل لاستخدام تلك الأسباب فى تثبيت حب الغرب والثقافة الغربية فى قلوب الأفريقيين . وإن مهمة هذه الأندية هى التأثير على أولئك الذين سيقطعون سهم الأمور فى المستقبل، أو معاونة الذين عند هم رغبة شديدة فى الوصول إلى المراكز الأساسية والمناصب العليا حتى يصلوا إلى غاياتهم المنشودة ويظهروا على مسرح الأحداث فى شئون المجتمع . وما أن الكتاب الأوروبيين والأفريقيين الذين بحثوا موضوع التبشير والاستعمار فى هذه البلاد فى كتبهم ورسائلهم وذكرايتهم قد أهملوا بعض هذه الجوانب من الأعمال الاجتماعية فى أعمال المبشرين ، يدعوى أن تلك الجوانب تعنى بالنشاط الاجتماعى الصرف ، وأنها لا صلة لها بالهبة بالتبشير، أو بسبب استصغار شأن هذه الجوانب فى ميدان الدعاية التبشيرية ، فقد رأينا إدراجها ضمن الوسائل المستخدمة فى الدعاية التبشيرية فى هذه البلاد ، رغم أن القائمين بهذه الأعمال يحاولون قدر استطاعتهم أن يظهروا للناس أن أعمالهم مجردة من الأغراض التبشيرية . وما فعلت ذلك عن أمرى وإنما هو لقيام الأدلة الظاهرة والحجج القاطعة التى تدل بوضوح على أن غايات القائمين بهذه الأعمال الاجتماعية تبشيرية استعمارية . وبذلك تكون تلك الأعمال أدوات للتبشير ووسائل لتحقيق الأطماع الاستعمارية .

إن الجمعيات المسيحية للشبان والفتيات تعمل في معظم المدن الهامة وخصوصاً في
محيط الطلاب والطبقات المثقفة . وقد استطاعت هذه الجمعيات عن طريق نشاطها الاجتماعى
أن تجتذب إلى حظيرة المسيحية رجالاً ونساءً وشباناً وشابات لم يكونوا ليتقبلوا النصرانية
لو أن تلك الجمعيات استعطت معهم الطريقة المباشرة في الدعاية التبشيرية . وإن الهدف
الرئيسى لهذه الجمعيات هو تنشئة الشبان والشابات على الأسس والتعاليم المسيحية ونشر
الديانة المسيحية في مصافهم، ولجمعيات الشبان المسيحيين والشابات المسيحيات مركز
رئيسى في مدينة لا جوس العاصمة، ولها فروع كثيرة في بعض المدن الهامة وفي الجامعات
وبعض المدارس الثانوية . ومن المنظمات المسيحية التى تستغل النشاط الاجتماعى
فى سبيل التبشير الجمعيات الكشفية للفتيان والفتيات ولكن نصيبها فى هذا الضمار ضئيل
جداً . وأعمال البر والإحسان هى من حطة الوسائل التى استغلها المبشرون لخطاباتهم
التبشيرية وأطاعهم الاستعمارية فقد أدركوا أن الإحسان خلق جميل وهو فى معناه الحقيقى
مخالف من القوى على الضعيف وهو من الموسر على المحروم . ويتبدى هذا المطف والبر فى
صور مختلفة أبرزها وأهمها الإعانة المالية . وقد يجرى الإحسان مجارى أخرى متعددة كالتعليم
المجانى وتوزيع الكتب مجاناً وإقامة الملاهى لايواء الأطفال المساكين وكذلك
بيوت الطلبة وإنشاء صندوق الإعانات لإغاثة منكوبى الحرب والمتضررين بالفيضانات ومساعدة
الفقراء المحوزين وما يجرى هذا المجرى . ولم يكن المبشرون محسنين بالمعنى النبيل
الذى تتضمنه كلمة الإحسان ولكنهم كانوا يستغلون وسائل الإحسان والأعمال الخيرية
للوصول إلى أغراضهم التبشيرية ومطامعهم الاستعمارية . ورغم ذلك كانوا يرضون بالخير
الذى يقدمونه للناس ولا ينفقون إلاّ بمقدار ما ينتظرونه من الفوائد الماجلة . فلاتطعن
الأموال إلاّ للبعيد عن الكنيسة الذين يرجى دخولهم تحت حظيرة المسيحية . وكما
زاد اقترابهم إليها بدأت تقل المحونة التى يملطونها تدريجياً وإذا دخلوها منعت
عنهم الإعانات المالية إلاّ فى أوقات الحاجة الشديدة .

" وقد تأسست جمعية مسيحية لإغاثة منكوبي الحرب إبان الحرب الأهلية التي قامت في مدينة إجاين (Ija ye) لتقدم إعانات مالية وغيرها إلى الأقلية المسيحية في المدينة ولرعاية الأيتام الصغار الذين قدمتهم الأسر الفقيرة إلى المبشرين^(١) . وقد خصص بمبنى المبشرين أجنحة خاصة في المراكز التبشيرية جعلوها ملاجئ لإيواء الأطفال الفقراء وكانوا يقومون بإطعامهم وكسوتهم وتربيتهم . وإذا كانت هذه الطريقة وغيرها قد نجحت في تحويل أبناء الوثنيين إلى المسيحية فإنها في الوقت نفسه قد فشلت في مهتها الأولى في مضاف أبناء المسلمين إذ إنها لم تستطع أن تجعل منهم نصارى حقيقيين وإن كانت لهم تربيتهم مسلمين كأبائهم .

التبشير في محيط النساء

إن المرأة هي مدار الحياة الاجتماعية وعنصر أساسي في كيان الأسرة . والتمكن من التبشير في محيط النساء يجعل الأمل كبيرا في الوصول بالدعاية التبشيرية إلى الأسرة كلها . ومن أجل ذلك كانت الجهود المبذولة في تنصير المرأة ، ومن أجل ذلك أيضا كانت جميعية الشابات المسيحيات والمدارس التبشيرية الخاصة للبنات . ولهذا السبب نفسها بعثت الإرساليات التبشيرية النساء المبشرات ليمهالن بين النساء الأفريقيات . وقد أدرك المبشرون ما للأُم في أطفالها من قوة التأثير على سلوكهم واتجاهاتهم ، وكذلك عرفوا دورها الكبير في المحافظة على عقيدة أطفالها . ومن أجل ذلك أولوا جانب العمل بين النساء اهتماما كبيرا ووضعوا في سبيل ذلك الخطط المتعددة . وهناك تملّات كثيرة تدرع بها المبشرون لتحرير الاهتمام بأمر التبشير بين النساء الأفريقيات وعلى الأخص المسلمات منهن ، منهن ما كانوا يزعمون من أن المرأة غير الغربية متأخرة وراحة تحت نير اليهودية وأنه لا يمكن أن تتحرر وتتقدم إلا إذا دخلت في النصرانية . ولا يمكن حصر الأقاويل الكثيرة التي قالها المبشرون في حق النساء غير الغربيات المسيحيات ، وكان غرضهم من ذلك هو إثارة عواطف الأغنياء الذين

(١) J.F. Ade Ajayi, op. cit., P. 163

يمولون حركة التبشير في إفريقيا للبدل في سبيل تقدم أعمال التبشير فيها. كما أراد وبذلك أيضا أن يفلوا من عزيمة أهالي هذه البلاد ، ويجملوهم على الشعور بالنقص في أنفسهم حتى ينساقوا وراءهم ويترسوموا خطاهم .

إن المرأة نصف المجتمع وهي نصف خطير في هذا المجتمع لما يؤديه من رسالة خطيرة . فالأم هي المدرسة التي لا بد أن يتخرج منها كل إنسان . وإذا صلحت المرأة صلح خريجوها هذه المدرسة وإذا فسدت فسدت خريجوها . ولقد أدرك المبشرون والمستعمرون هذه الحقيقة وعرفوا أهمية المرأة ودورها الكبير في المجتمع ، وأن التغيير في شئون هذا المجتمع لن يكون إلا من طريق تغيير حياة المرأة تغييرا جذريا وإفسادها أخلاقيا واستخدامها حربا على القيم الروحية والأخلاقية والاجتماعية . وكما كانت السلطنة مذهبها هداما وشمارا خادعا غالبا يخفي وراءه الحرب على الدين والإلحاد عن قيمه ومثله وأسسها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحضارية .. وكانت الدعوة إلى القومية والشمولية شعارا خادعا كذلك وممولا هداما استخدمه المستعمرون لمواجهة الدين وكسر شوكتهم وتمزيق وحدة الأمة وإضعاف قوتها كذلك كان الأمر بالنسبة لقضية المرأة التي يعتمدون إثارته تحت شعار تحرير المرأة ليظهروا للناس في مظهر المدافعين عن حقوق المرأة والمحررين لها من اليهودية والمنقذين لها من المظالم والحاضلين من أجل مصلحتها .

إن قضية المرأة مشكلة كبيرة كان المستعمرون والمبشرون والمستشرقون والنخب الوطنية التي تلقت العلم والمعرفة على أيديهم كلهم جميعا هم المحدثين لها والحقوليين كبرها ، ويقصدون من ورائها اجتذاب المرأة إلى قبول السير على نهج المخططات الموضوعة لها ، وإغراءها بقبول ما يأتيها من الغرب والاستغلال لها في تغيير شئون المجتمع ، وإفسادها واستخدامها في حرب القيم الروحية والأخلاقية وغيرها . ولئن كانت هناك للمرأة قضية أو مشكلة فإنهم هم سببها . إن ما يزعمونه من حلول هذه المشكلة ووسائل للتغلب عليها لبرهان قاطع على ذلك . إنهم هم الذين تسببوا بوسائل التعليم والاعلام في إثارة المشاكل

برفع دعاوى المساواة المريضة بين المرأة والرجل فى أمور كثيرة ، فسووا بينهما فى مجال
 التعليم وفى مجالات العمل ، ودعوا إلى تصرية المرأة من زيبها وأخرجوها من بيتهن
 وزينوا لها التبرج فى الشوارع وفى الأسواق ، والاغتلاط بالأجانب ، ولم تمتد قوامة للبيت
 ولا صالحة لإخراج الأجيال المظلمة ، وأصبحت وسيلة لإفساد المجتمع نتيجة انفلاتها من
 تعاليم الدين الحنيف واستجابتها لداعى الفساد والانحلال الأخلاقى والإباحية ، حستى
 قامت المشكلة وعم الفساد أرجاء البلاد ، وتم لأنصار قضية المرأة ما أرادوا من تغيير فى أهم
 جوانب الحياة فى هذا المجتمع ، فجاءت الأجيال الناشئة طبق ما غطوا لها . إن تعليم المرأة
 فى حد ذاته شئ حسن مرغوب فيه ولا يكون مصدر قلق إذا التزم الحدود الشرعية وسار على
 تخطيط قويم لا يصادم فطرة المرأة واهبيتها . ولكن مصدر القلق كله هو التوسع غير المحدود
 فى مجال تعليم المرأة وفى نوع التعليم الذى يعطى لها، وفى الغاية منه، وفى عدم وضع تخطيط
 قويم يرتكز على أسس تعاليم الدين الحنيف والفطرة السليمة، وفى إنكار اختلاف فطرة المرأة
 عن فطرة الرجل، مما يقتضى وجوب اختلاف مناهج تعليم المرأة عن تعليم الرجل ، واختلاف
 مجالات العمل بينهما ، أى أن أساس المشكلة كامن فى أهداف هذا التعليم وغاياته . ولقد
 كانت الغاية الأساسية من التعليم الغربى فى بادئ الأمر مقصورة على تنصير المرأة ثم صارت فيما
 بعد لإخراجها من الدين سواء دخلت فى النصرانية أم لم تدخل فيها . ومن هنا امتدت خطوط
 المشكلة إلى جوانبها الأخرى حتى دفعوا المرأة لمزاومة الرجل فى مجال التعليم وفى مجال
 العمل بدعوى مساواتها للرجل فى كثير من الأمور ، وبدعوى التحرر والتمدين والتحضُّر،
 حتى وإن صادم ذلك فطريتها واهبيتها الأنثوية . ولقد سارت قضية المرأة على الخطوط
 المرسومة لها طبق دراسة دقيقة، فكانت بداية المعركة فى مجال التعليم على اختلاف مراحلها
 الجامعية والابتدائية والثانوية ثم امتدت إلى الدعوة إلى تحرير المرأة بإخراجها من بيتهن
 وتعميرتها من زيبها واغتلاطها بالرجال الأجانب، فكانت النتيجة ظهور أمهات من الطراز الذى
 يريده مشيرو القضية والمؤيدون لها ، أمهات رخصن لبيان التعليم الغربى ولم يعدن قوامات

للبيوت ولا مدرسة صالحة لتكوين الأجيال العظام، بل أصبح وسائل للإغراء بالقاحشية
 وإفساد المجتمع وتحلله وسقوطه نتيجة بعده عن قيمه الروحية والأخلاقية، وانسياقه
 وراء الحرب وترسمه خطاه، حتى آل أمر هذا المجتمع إلى ما آلت إليه حالة
 الدول الخريبة التي سبقته في هذا المضمار وقادته عن عمد إلى حافة الهاوية.

الأم مدرسة إذا أعددتها أعدت شعبا طيب الأعراق

(حافظ إبراهيم)

الفصل الثالث:

ظهور الحركة القومية في الكنيسة وامتدادها الى شئون الحكم والسياسة.

ظهور الحركة القومية في الكنيسة
وامتدادها إلى شئون الحكم والسياسة

إن الإرساليات التبشيرية التي كانت طلائع جيوش الاحتلال البريطاني إلى
دولة نيجيريا ، وكانت أداة طيعة في أيدي الحكام البريطانيين المستعمرين فاستخدموها
في تحقيق السيطرة السياسية والمطامح الاقتصادية في مختلف مناطق هذه البلاد ..
إنها هي نفسها التي بدأت السعى من حيث تدري ومن حيث لا تدري في إضعاف
سلطانها الروحي أولاً ثم القضاء على حكم الاستعمار الاستبدادي في هذه البلاد
ثانياً ، وذلك لما أحاط بالكنيسة المسيحية من ظروف وأوضاع وأزمات طوال النصف
الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي جعلتها موطناً خصباً نبتت فيه الحركة القومية
الزنجية وانطلق منه دعاة القومية والوطنية الذين شرعوا السلاح في وجه المستعمرين
الكنيسة لإنهاء السلطة المطلقة التي كان المبعوثون البيض يمارسونها في شئون الكنيسة
وفي ميدان التبشير وكذلك لمجابهة سياسة التمييز العنصري التي كانوا يتبعونها
في معاملاتهم مع الصابئين الأفارقة حتى امتدت خطوط الحركة بعد الحرب العالمية
الأولى إلى ميدان السياسة للأجهزة على الحكام المستعمرين في حكمهم الاستبدادي
واستغلالهم للشعب .

وهكذا أصبحت الكنيسة المسيحية في هذه البلاد منتدى خاصاً لمناقشة القضايا
القومية قبل فترة ظهور الصحف والمجلات التي أنشأها دعاة القومية في خلال الربع
الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي .

وقد خفيت هذه الحقيقة عن أنظار الباحثين الذين كتبوا عن الحركة
القومية الزنجية وأدار التطور الدستوري في نيجيريا . ومن هؤلاء الباحثين ج. م. كولمان

J.S.Coleman في كتابه "المدخل إلى القومية النيجيرية" وجوان وهرى Joan Wheare
في كتابه "المجلس التشريعي النيجيري" . وكذلك كالوايزرا Kalu Ezera

فى كتابه " التطور الدستورى فى نيجيريا " • وقد تناضى هؤلاء الباحثون جميعا عن الحركة القومية التى نبتت فى الكنيسة المسيحية منذ أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى وأخذت تنمو وتشتد وتوسع دائرتها حتى امتدت إلى مجال السياسة خلال العقد الثانى من هذا القرن العشرين • وقد أكد كولمان (Coleman) أن الحركة القومية لم تبدأ فى حقيقتها فى هذه البلاد حتى عام ١٣٣٧ هـ / ١٩١٨ م وأن الحركة التى قامت فى الكنيسة المسيحية فى الفترة ما قبل عام ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م إنما هى حركة انتقادية بمعنى أنها كانت حركة غير بناءة • وقد حاول فى كتابه تبرئة الإرساليات التبشيرية من مسئولية إثارة روح القومية فى نفوس الصابئين الأفارقة حيث قال : " إنه لم يكن هناك علاقة مباشرة بين نشاط الإرساليات التبشيرية وبين قيام الحركة القومية النيجيرية (١) " • إن الصلة الوثيقة القائمة بين نشاط الإرساليات التبشيرية وبين قيام الحركة القومية فى هذه البلاد ، تلك الصلة التى لم يدركها كولمان (Coleman) وزملاؤه أو حاولوا تجاهلها ، كانت بينة واضحة فى سجلات الإرساليات وتقاريرها الرسمية بحيث لا يمكن لأحد أن يحاول إخفاءها عنا أو تبرئة الإرساليات من سوءات التورط فى إثارة روح القومية بأعمالها غير الانسانية • فالحركة القومية النشطة التى بدأت بعد الحرب العالمية الأولى واستمرت حتى سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م التى نالت فيها البلاد استقلالها السياسى - وهى الفترة التى ركز عليها هؤلاء الباحثون فى كتبهم وبحوثهم - كانت ترجع من حيث نشأتها وتطورها وامتدادها إلى شئون السياسة والحكم ومجال الاقتصاد وإحياء الحضارة الوطنية إلى الأوضاع والظروف القاسية المحيطة بالكنيسة المسيحية ونشاط الإرساليات التبشيرية الأجنبية وذلك أن نظرية القومية الزنجية التى تنهاها المهشرون والصابئون الأفارقة كانت مستنبطة من مفهوم آية وردت فى سفر المزامير من الكتاب المقدس على

ما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ثم إن ظهور الصحافة منذ ثمانينات القرن التاسع عشر الميلادى وما لعبته من الدور الهام فى تهيج روح القومية فى نفوس الصابئين الأفارقة وفى نشر مبادئ القومية وأفكارها فى مختلف مناطق هذه البلاد وبين مختلف طبقات المجتمع كان إلى حد كبير بجهود المثقفين الأفارقة المسيحيين الذين امتعضوا من الظروف الحرجة التى كانوا يعيشونها والتى كانت مليئة بالمظالم المتراكمة والهموم والأحزان التى سادت أجواء الكنيسة المسيحية والمراكز التبشيرية ، وذلك نتيجة سياسة التمييز العنصرى التى كان المبشرون البيض ينتهجونها فى تلك الفترة وتصرفاتهم غير الانهائية تجاه الصابئين الأفارقة . ولما كان معظم دعاة القومية الأوائل من رؤساء الكنائس والمبشرين المحليين قريبي عهد بالثورة الحنيفة التى قامت فى أوروبا ضد طغيان الكنيسة المسيحية وجور الحكام الاقطاعيين المستبدين ، فقد نظروا نظرة الإعجاب إلى أبطال هذه الثورة فى نضالهم ومقاومتهم للمظالم وتنظيمهم الحركات الثورية لرفعها وإصلاح الأوضاع الاجتماعية السيئة التى سادت المجتمع الأوروبى فى أحقاب التاريخ فساروا - من ثم - على منوالهم وبدأوا يثورون فى وجه سلطان الكنيسة الطاغى فى هذه البلاد منذ النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى . ويجب أن نعتصر فى إيجاز نظريّة القومية الزنجية لدراسة منشأ روح الحركة القومية الزنجية ومفهومها من حيث التصور والتطبيق العملى قبل أن نبدأ فى دراسة العوامل الأساسية التى أدت إلى قيام الحركة القومية وطبيعتها والأدوار والمراحل التى مرت بها وما رافقها من المشاكل والأزمات الاجتماعية وآثار ذلك كله على أعمال الإرساليات التبشيرية ، وما أدى إليه من الانقسامات داخل الكنيسة المسيحية وبين الفرق المسيحية المتعددة ثم فى نهاية المطاف نخرج على دراسة امتداد الحركة القومية إلى مجال السياسة والحكم لفك أغلال البوذية السياسية وإنهاء الاستغلال الاقتصادى وإحياء الحضارة الوطنية وتقد يسها وكيف تم سوق مجامع عقول المسلمين والمثقفين منهم بوجه خاص إلى

التعلق بالانتماءات القومية والشعوبية حتى ضحفت رابطة العقيدة الإسلامية في نفوسهم وتقلص سلطانها في الهيمنة على شئون حياتهم السياسية والاجتماعية وما إلى ذلك .

قال الأستاذ أينديلي Professor Ayandele * نشأ مفهوم القومية الزنجية من آية وردت في الكتاب المقدس في سفر المزامير جاء فيه " يأتى شرقاً من مصره كوش تسرع بيديها إلى الله " (١) .
قد ضمن المثقفون المسيحيون كلمة

" كوش " التي وردت في هذه الآية معاني عاطفية وجدانية عميقة بحثت روح القومية وفكرة الوحدة الجنسية في نفوس المسيحيين الأفارقة حيث اعتقدوا أن الشعوب الأفريقية المسيحية ستبلغ شأواً عالياً ومنزلة رفيعة في مستقبل حياتها القومية حتى تصبح قبلة أنظار العالم بأسره حسب وعد الله لها بذلك في كتابه المقدس . وقد علقوا أملاً كبيراً على هذا التنبؤ واعتقدوا حتمية تحقيقه في مستقبل الأيام حين يظهر الجنس الزنجي على رؤوس بقية الأجناس البشرية ليقودها إلى الله . ويظهر لي من هذا أن مفهوم القومية الزنجية التي استنبطه دعاة القومية الأفارقة من الكتاب المقدس كان بإيعاز من أساتذتهم المبشرين البيض وتوجيههم ، ويبدو أن هؤلاء المبشرين الأوروبيين أرادوا أن يوجهوا أنظار الأفارقة إلى أنهم لم يكونوا ذوي شأن يذكر في سابق عهدهم الطويلة وأنهم قد ارتقوا إلى منزلة رفيعة بسبب اعتناقهم المسيحية ولذا يجب عليهم أن يقيموا بناء حياتهم القومية على أساس العقيدة المسيحية إذ بها وحدها يلدنون مالم يحلموا به في أحقاب التاريخ الطويلة الماضية .

إن الحركة القومية الزنجية التي قامت في الكنيسة المسيحية في هذه البلاد حركية ثورية لمواجهة طغيان الإرساليات التبشيرية الأجنبية في الاحتفاظ بالسلطة المطلقة للمبشرين البيض في شئون الكنيسة وفي مجال التبشير وكذلك سياسة التمييز العنصري كانت التي تنهضها هذه الإرساليات، وتصرفاتها الأخرى غير الانسانية التي كانت تواجه

(١) E.A.Ayandele, op. cit., P.177

نقلنا ترجمة الآية من الكتاب المقدس ٨٦ : ٢١ سفر المزامير (النسخة العربية) .

(٩) ترجمته كلمة "كوش" بالحيشة في النسخة الإنكليزية.

بها الصابئين الأفارقة ، كما أنها تهدف إلى محاولة إظهار الخصائص الوطنية الأفريقية من ناحية الحضارة والتقاليد والعادات، والرفع من شأن الأهالي الأفارقة مسن المستوى الأدنى ، الذي أنزلهم فيه المبشرون البيض ، وإنهاء المظالم الاجتماعية التي سادت أجواء الكنيسة المسيحية . وإذا كانت الإرساليات التبشيرية تقوم بإعداد رجال الدين المحليين منذ وقت مبكر من قيام حركة التبشير في مناطق غرب أفريقيا وتفتح أمامهم بعض الفروض للعمل في مراكزها التبشيرية وكنائسها وللوصول إلى بعض المناصب والمنازل المتواضعة في شئون الدعاية التبشيرية فإن سبب ذلك راجع إلى أن مناطق أفريقيا الغربية لم تكن صالحة لسكنى الأوروبيين بسبب مناخها الجاف وحرارتها الشديدة اللافحة وكذلك وجود بعض الأوبئة التي كانت تؤدي بحياة الأوروبيين مما لم يتمكنهم من استيطان هذه البلاد والاستقرار فيها .

وكان ذلك سببا مباشرا جعل القوى الاستعمارية الصليبية تعتمد على استخدام

الركلاء المحليين لتحقيق مصالحها في شئون الإدارات المحلية . وفي مجال الاقتصاد وفي ميدان الدعاية التبشيرية . " إن الحركة القومية الزنجية في غرب أفريقيا كانت تتبنى فكرة تحويل أفريقيا كلها إلى المسيحية وتتضمن الفكرة نظريا ضرورة إقامة مملكة لاهوتية مسيحية تسيطر نفوذها السياسي وسلطانها الروحي على كافة الأقطار الأفريقية " (١) . وقد كان شيئا طبيعيا جدا أن تكون الكنيسة المسيحية منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي مركزا نهضت روح الحمية القومية وإثارة الطموح السياسي والاجتماعي في نفوس الصابئين الأفارقة والمثقفين منهم بوجه خاص وذلك لما ساد أجواء الكنيسة المسيحية منذ أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي من الظروف والأوضاع السيئة والأزمات الاجتماعية المتراثمة ، إلا أنه طوال تلك الفترة لم تكن لهم شكاوى سياسية ضد الحكومة الاستعمارية التي كانت تحكم مستعمرة لاجوس

(1) E.A.Ayandle, op. cit., P.177

وقد كانوا ينظرون إلى الحكم الاستعماري نظرة إجلال وتقدير ، ويرون أنه الكفيل لهم بضمان الأمن والاستقرار ورفع مستواهم الاجتماعى إلى أعلى المنازل فى المجتمعات الأفريقية المختلفة . فلقد اعتنق هؤلاء الصابئون الأفارقة المسيحية وأذعنوا لمبادئها وتحاليمها من غير أن يكونوا على بينة من أمرهم أو يكونوا على بصيرة من أمر المسيحية نفسها . وقد كانوا يؤكدون فى مناسبات كثيرة أن المسيحية قد حذرت أتباع الكنيسة فى نصوص صريحة من خطر التحلق بالشئون السياسية المحضة . وقد شاعت هذه الفكرة فى مصاف المثقفين الأوائل ، ولذلك ظلت الحركة القومية محصورة فى حدود إصلاح شئون الكنيسة المسيحية وإنشاء الكنائس الأفريقية الانصالية لمدة خمسين سنة بمسند نشأتها . ثم عندما اتسعت دائرة تفكير هؤلاء المثقفين المسيحيين ودأوا ينظرون إلى مدى أبعد ، وأصبحت تجيش فى أذهانهم أفكار سياسية ، أدركوا أن جميع نشاطهم القومى فى الكنيسة المسيحية إن هو إلا مراحل تمهيدية وجهود أولية لتهيئة الظروف المناسبة لقيام حكومة محلية عن طريق دعمهم وتأيدهم وموازراتهم لتقدم أعمال التبشير وانتشار المسيحية فى هذه البلاد . إن الاستقلال السياسى الذى كان دعاة القومية يسمون إلى تحقيقه لا يمكن أن يتحقق حتى تستقر المسيحية فى هذه البلاد وتنتشر فيها انتشارا كبيرا . وإن المثقفين المسيحيين هم الذين سيتم ذلك الاستقلال على أيديهم ، وهم الذين سيتولون السلطة الكاملة فى الحكومة الجديدة . وما إن يتحقق لهم الاستقلال فى إدارة شئون الكنائس حتى يأتى بعد ذلك الاستقلال السياسى بطريقة تلقائية مثلما تأتى النتائج بعد قيام الأسباب (١) .

وقد سبق أن تحدثت عن خطبة القس هنرى فين Rev. Henry Venn السكرتير العام لإرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية فى تنظيم شئون المجموعات المسيحية بواسطة إعداد رجال الدين المحليين وإنشاء الكنائس المحلية والعمل على جعل هذه

(١) E.A.Ayandele, op. cit., P. 179

الكنائس تعتمد على الدعم الذاتى المحلى فى تمويل نشاط الدعاية التبشيرية وفى توسيع دائرة أعمالها ثم تشكيل هيئة محلية للقساوسة فى كل منطقة • وذكرت ما أدت إليه هذه الخدلة من النتائج حيث بحثت فى نفوس الصابغين الأفارقة روح الاعتداد بالنفس والرغبة فى إظهار الخصائص المحلية والعمل من أجل التخلص من سيطرة المبشرين البيض على شئون الكنيسة وأعمال التبشير • ولقد كرس المبشرون والمستعمرون منذ فترة طويلة مجهودات كبيرة فى سبيل تكوين طبقة جديدة فى المجتمعات الأفريقية تشمل رجال الدين المحليين والمثقفين العلمانيين والوكلاء التجاريين الذين ينتظرون أن تنتقل إليهم سلطات الملوك والحكام المحليين كما ينتظرون أن تتفجر على أيديهم الثورة الاجتماعية التى كان المبشرون والمستعمرون يسمون إلى إحداثها عن طريق الكنيسة ووسائل الدعاية التبشيرية والحكم الاستعمارية والتعليم الغربى والمبادئ والنظم الأوروبية فى ظل سيطرة القوى الاستعمارية العسكرية •

(Thomas Bowen)

قال القس الأمريكى المستكشف توماس بون

” لم تكن هناك حضارة قدر لها البقاء والرقى فى تاريخ البشر إلا وهى تقسم الناس فى المجتمع إلى الطبقات العليا والوسطى والأدنى من أجل أن تضمن لنفسها البقاء والقوة • ويجب أن نؤكد أن التقسيم الطبقي شئ ملازم للمجتمع الانسانى ولا يمكن أن تستغنى عنه أى حضارة مهما كان نوعها وكيفما كانت تلك الحضارة من حيث الرقى والتخلف • ولم تكن هناك فى أفريقيا طبقة الرجال النبلاء الذين يستلهمون بمجهوداتهم الكبيرة أن يحققوا للمجتمع الأفريقى الوحدة والقوة ويوجهوه نحو الاتجاه السليم الأفضل، كما لم تكن فى أفريقيا أيضا الطبقة الوسطى التى تنزود بانجازات الطبقة العليا وتلقى المعرفة والقوة والحوائز الدافعة إلى العمل من السادات الأفضل لتطبيقها من أجل إسعاد الملايين من الناس الماديين • وباستثناء بعض الرعاة السياسيين المحليين الذين كانوا هم أنفسهم همجيين • فقد كانت مجتمعات بلاد السودان الغربى مغلدة إلى حد كبير الجمود والركود، وقد بقى الناس فيها فقراء جهلاء وهالكين بسبب عدم وجود طبقة

الرجال النبلاء (١) . ولقد ظن المبشرون والمستعمرون أن ما يذلونه من جهود كبيرة في إعداد الطبقة الوسطى من الأفريقيين للخدمات التبشيرية في الكنيسة وفي حقل التبشير وكذلك الخدمات الشعبية في الإدارات المحلية في شؤون الدولة سيجعل هذه الطبقة خاضعة لسيطرة الأوروبيين السياسية والاجتماعية والاقتصادية وسلطانهم الروحي مدى الحياة . ولكن هؤلاء الأفريقيين الذين تلقوا التعليم الغربي في مدارس الإرساليات وأصبحوا مثقفين بارزين أو رجال دين مبشرين قد صاروا هم أنفسهم كارهين لرسول التبشير وللملازمة القائمة بين حركة التبشير وبين الحكم الاستعماري . وذلك عكس ما كان يتوقعه الأوروبيون المتسلطون . فقد كانوا يعتقدون أن تحويل الأفارقة إلى المسيحية وتعليمهم في مدارس الإرساليات ودخولهم الحياة الاجتماعية بتوظيفهم في الخدمات الشعبية لدى الحكومة الاستعمارية أو استخدامهم في شؤون الكنيسة وأعمال التبشير أو في شؤون التجارة لدى الشركات الأجنبية . كل ذلك إن لم يجعلهم خاضعين للنفوذ الأجنبي مدى الحياة فسيجعلهم يطمثون إلى سيطرة الأجانب على شؤون بلادهم لفترة طويلة على الأقل . ويجب أن نؤكد هنا أن ما وصل إليه الأمر في هذه البلاد في شتى مجالات الحياة لم يكن قط هو الغاية القصوى التي كان يحمل المبشرون من أجل تحقيقها . هناك أسباب كثيرة أدت إلى ظهور الحركة القومية في مصاف الطبقة الوسطى التي رباها المبشرون والمستعمرون ، وليس في استطاعتنا الإحاطة بتلك الأسباب تفصيلاً ، ولكننا سنذكر هنا أهمها قبل أن نمرج على دراسة الأزمان الاجتماعية التي وقعت في فترة ظهور هذه الحركة في الكنيسة المسيحية وآثار ذلك على أعمال التبشير . وقد أثبتنا من قبل أن الحركة القومية نشأت من داخل الكنيسة المسيحية وأن دعائها الأوائل هم رجال الدين والقساوسة المحليون ، وأن أهداف الحركة ظلت محصورة لمدة لا تقل عن خمسين سنة في محاولة إصلاح الأوضاع المحيطة بأعمال التبشير في شؤون إدارة الكنائس والمراكز التبشيرية التي كان المبشرون يسيطرون عليها

(1) Rev. T.J. Bowen, Adventures and Missionary Labours in Several countries in the Interior of Africa, Charleston, 1857, Pp, 339-340

سيطرة كاملة ، وأنها امتدت بعد ذلك إلى إحياء الحضارة الوطنية وإظهار الخصائص المحلية ، وأنه في المرحلة الأخيرة عندما تراكمت المظالم السياسية والاجتماعية اشتدت روح القومية في نفوس المثقفين المسيحيين ووسعوا دائرة نشاط الحركة وددوها إلى الأجهزة على الحكام المستعمرين مطالبهم بالاستقلال السياسي . وليس هنالك أي دافع تبشيري يمكن أن يبرره المبشرون عملية الاستعمار والاستعمار وذلك لأنها من وجهة نظر الدين ظلم وجور واعتداء على حقوق الآخرين وانتقاص وإهانة لبني البشر . ولقد فشلت المسيحية الغربية في تحقيق أهدافها في شحوب الأقطار التي منيت بالغزو التبشيري ، لأنه كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالاستعمار الأوربي منذ بداية توفله ، حتى أصبح مفهوم التبشير يتركز على تنقيح المنصر الأبيض والحضارة الأوروبية كما أصبح التبشير نفسه وسيلة قوية لتحقيق سيطرة الأوربيين السياسية والاقتصادية والدينية . ونحن نعلم أن روح المسيحية القائمة على المحبة والسلام والإخاء والتي جاء بها سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام لا يمكن أبدا أن تقبل حتى ولو نظريا فكرة استعمار لشعب لشعب آخر ، وأن هناك فارقا جوهريا عميقا في مختلف الجوانب بين الاستعمار الذي هو ظلم واستغلال وخداع ومحو للقيم والحضارة وبين روح المسيحية . ولكن الذي رأيناه هو أن الكنيسة المسيحية في جميع الأقطار التي ابتليت بالاستعمار الأوربي قد ربطت مصيرها بالوجود الاستعماري ، وذلك مخالفة بينة واضحة لتعاليم المسيحية . ولقد قامت عقبات كثيرة في وجه انتشار المسيحية في أفريقيا الشمالية

كان من بينها ما يتعلق بجوهر الديانة المسيحية الغربية التي كانت الإرساليات التبشيرية تبشر بها من ناحية مفاهيمها المحققة ومبادئها الأخلاقية المتناقضة مع المبادئ الإنسانية والفطرة السليمة ، ومن بينها أيضا مواقف الأوربيين العدائية تجاه الأديان التي سبقت المسيحية إلى أفريقيا والحضارات التي سادت أرجاءها قبل توفيل الحضارة الأوربية . إن ارتباط حركة التبشير بالغزو الاستعماري الأوربي وربط المسيحية الغربية بمجلة الحضارة الأوربية كان عاملا أساسيا من جملة العوامل التي أدت إلى

ظهور الحركة القومية في مصاف الصابئين الأفارقة خاصة وقد بنى الأوروبيون ذلك كله على أساس تفوق المنصر الأبيض على جميع الأجناس والمناصر الأخرى في سلم الأصاله البشرية .

وبناء على ذلك كانت آراء المهشرين والمستعمرين في شحوب البلدان المستعمرة تتلخص في اعتبارهم أقواما همجيين متأخرين ومستضعفين في الأرض ، واعتبار الأديان والحضارات القائمة في تلك البلدان مجموعة عادات شريرة وحشية وتقاليد بالية وخرافات شيطانية أدت إلى انتشار الفساد والفسق والظلم ، مما جعل هذه البلدان تمانسى حالة التأخر والانحطاط قرونا طويلة ، وعلى هذا رأى المهشرون والمستعمرون وجوب استعباد هذه الشحوب واستعمار أراضيها والقضاء على الأديان والحضارات القائمة فيها ومحوها من الوجود . فمن هنا بدأت المشكلة كلها حيث تقررت بذلك في أنظار الأوروبيين سيادة المنصر الأبيض وتفوق حضارته وظهور الديانة المسيحية الغربية على الأديان كلها .

ولكن ياترى هل هذه السيادة مطلقة أم نسبية ؟ أى أن الأفريقى مثلا لو تحول إلى المسيحية وأخذ قسطا كبيرا من الحضارة الأوروبية ، فهل يصبح بذلك غريبا لا يتميز عليه الأوروبى بشىء آخر ؟ (١) . ورغم أن المهشرين والمستعمرين سموا إلى محو الأديان بتحويل مجموعة من الأفارقة إلى المسيحية كما سموا أيضا إلى محو القيم والحضارات بإلزام الصابئين بالأخذ بالحضارة الغربية وأبعد وهم عن شئون مجتمعاتهم حتى غدا هؤلاء الصابئون حائرين بين عالمين كبيرين : عالم أفرىقى وثنى وعالم أوروبى مسيحى ، واستولت الفوضى الفكرية على عقولهم لأنهم قطعوا أواصر ارتباطهم بمجتمعاتهم القديمة واعتنقوا المسيحية وانبهرت عقولهم بالحضارة الأوروبية وبدأوا يتطلعون إلى المجتمع الأوروبى المتقدم في عالم المادة وأرادوا أن ينصهروا في بوتقته . . رغم ذلك كله فقد واجهتهم الصدمة العظمى عندما رفض الأوروبيون أن يكونوا إخوة لهم في الدين

مساوين لهم في المنزلة • ومن هنا نجمت مشكلة التمييز العنصري الذي يحتبر أكبر دافع إلى قيام الحركة القومية في مصاف الصابئين • ولم يكن من الممكن بأي حال من الأحوال أن يرضى المهشرون والمستعمرون بأن يرتقى الصابئون الزنج ليسا ودهم ففى المنزلة فضلا عن أن يكونوا أعلى منهم • ولكنهم دائما وأبدا كانوا يريدون من هؤلاء الصابئين أن يكونوا أشخاصا يستتبعون ويستغلون بلادهم حفاظا على سيادة العنصر الأبيض وسيادة حضارته • ومن أجل تحقيق السيطرة السياسية والاقتصادية والدينية ، وفي الوقت الذي انبهرت عقول الصابئين الأفارقة بالحضارة الغربية وجميع مبادئها أيما انبهار حتى إن أحدهم ليمتد أن يحصلوه على الثقافة الغربية يجعله إنسانا آخر أرفع منزلة وأعلى درجة من أبناء جنسه الذين لم يحصلوا على مثل هذا النوع من الثقافة حتى كان من الصعب وقتئذ أن يحاول إنسان إقناع المثقف الأفريقي بأنه ليس أوريبيا عندئذ واجهتهم مشكلة التمييز العنصري وكانت في الحقيقة صدمة كبرى خيبت آمالهم وأدت بطبيعة الحال إلى تغيير موقفهم تجاه الحضارة الغربية وحركة التبشير والاحتلال الأجنبي • وقد كان المثقفون الأفارقة يمتدنون بأنهم إذا تعلموا اللغة الإنكليزية وحصلوا على العلم الغربية الحديثة، وأخذوا بالتقاليد والمبادئ الأوروبية والمبادئ الأخلاقية الغربية • وتشبهوا بأساتذتهم الأوربيين في المظاهر الخارجية، وقد وهم في كل شيء ، فإنهم سيصبحون بذلك في مستوى الأوربيين في مجال الحياة الاجتماعية وفي شؤون الكنيسة وحقل التبشير وفي مجال الحكم والسياسة • حيث يكون ميسار التفاضل بينهم مهنيا على أساس المقدرة العلمية والخبرة العملية لا على أساس اللون أو الجنس • ولكن الصدمة كانت عنيفة جدا عندما بدأ الأمر على عكس ما هو متوقع تماما • وجد لا من أن يصر الأوربيون ويمثلوا غبطة وفرحا من تقليد الأفارقة لهم في كل شيء وجد الصابئون أنهم قد أصبحوا أضحوكة لجميع طبقات الأوربيين بما فيها طبقة المهشرين ورجال الدين • بل إن الأوربيين الذين سعوا إلى طمس الحضارات ونحو القيم والتقاليد والمبادئ القائمة في المجتمعات الأفريقية وبدأوا يسمون بعزم وجد لنشر حضارتهم

وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم على أنقاضها أخذوا ينظرون بعين الاحتقار والازدراء إلى الأفريقيين الذين تعلقوا بأذيال الحضارة والثقافة الأوروبية لأنهم يمثلون صورة شوهاء للأوروبيين • إنهم مجرد مقلدين وبيغاوات لا يحسنون غير المحاكاة والتقليد •

ومن هنا بدأ الأفارقة يتحيرون من أمرهم • إذا كان الأوروبيون قد سعوا في هدم ما وجدوه في بلادهم من قيم روحية وحضارة محلية ومبادئ اجتماعية • وحملوهاهم على احتقارها حتى نبذوا الأفارقة وقبروا منها وأخذوا يتعلقون بما جاء به الأوروبيون من حضارة وثقافة وقيم ومبادئ • وانكبوا عليه حتى بدأ يسيطر على جميع شئون حياتهم • فماذا ياترى يكون سبب احتقار الأوروبيين لهم بعد ذلك كله ومواجهتهم لهم بمشكلة التمييز العنصري والمعاملات الأخرى غير الانسانية ؟ • من هنا بدأت أنظار الأفريقيين تتجه نحو إظهار خصائصهم الوطنية وأصبحوا ينظرون إلى الماديات والتقاليد المحلية نظرة افتخار واجلال وتقدير • كما أخذوا يأمنون من الانبهار الشديد الذى أعمى أبصارهم وقولهم حتى قبلوا الحضارة الأجنبية دون التمييز بين النفع والضرر وبين النافع منها والضرار • ولكن الذى يجب أن نبقه في أذهاننا ونحن بصدد الحديث عن الحركة القومية التى نهضت لرد اعتبار الأفريقيين بتخطيم الحضارات الأفريقية وتقدير الماديات والتقاليد المحلية • وتدعو إلى إظهار الخصائص الوطنية في جميع شئون الحياة الخاصة والعامة - الذى يجب أن نبقه في أذهاننا هو أن هذه الحركة في حد ذاتها قائمة على النمرات القومية الجاهلية وكانت تدعو إلى العودة إلى التمسك بالحضارة الأفريقية المتخلفة البالية • والماديات والتقاليد الوثنية والأديان الأفريقية الوثنية •

ثم إن الفترة التى اعتبرها القوميون عهد النهضة الحضارية في هذه البلاد والتى ابتدأت بظهور الحركة القومية كانت حركة إحياء الحضارات الأفريقية قائمة فيها على أساس إحداث بعض التغييرات السطحية فيها • وإصلاح المظاهر دون الجوهر والتمسك بالقشور والمفرغ عليها دون اللباب • ويمثل ذلك في عودة الأفريقيين إلى استعمال

الأسماء الأفريقية واللغات المحلية ، والقيام بكتابة تاريخ الشعوب الأفريقية ودراسة
تقاليدها وعاداتها وأديانها الوثنية ، وذلك لأن المسيحية الغربية قد خيبت آمالهم
بسبب ارتباطها بالإمبريالية وسعيها في محو الحضارات الأفريقية لتأكيد سيطرة المنصر
الأبيض والحضارة الأوروبية . وقد بدأت مشكلة التفرقة المنصرية أول مبادئ ثـمـس
هذه البلاد في داخل الكنيسة المسيحية، وكانت المشكلة تدور حول شئون إدارة الكنائس
والمراكز التبشيرية وإدارة الإرساليات، وهناك قانون ثابت في نظام الكنيسة وشئون التبشير
يقضى بمنح وضع الأوربي تحت سلطة الأفريقي بأي حال . وهذه هي الحقيقة
الكامنة وراء احتكار الأوربيين منصب الرئاسة وجميع المناصب الدينية الهامة في إدارة شئون
الإرساليات والكنائس والمراكز التبشيرية، وامتناعهم من تعيين الأفريقي أسقفاً لأن ذلك
يجعل المبشرين الأوربيين تحت سلطته . وقد كانوا يشغلون الأفرقة في المناصب الدنيا
تحت سلطة المبشرين البيض ، كما كانوا يمنحون الصابئين الزنج من الاشتراك معهم
في بعض مجالات النشاط الاجتماعي الهامة، إضافة إلى أن الأفرقة المستخدمين في
شئون التبشير وشئون التجارة وشئون الخدمات الشعبية كانوا يتقاضون أجوراً ضئيلة جداً
لا تسمن ولا تغنى من جوع ، وكانوا يحرمون من الامتيازات والحقوق المنوية التي كان
يتمتع بها الأوربيون المساوون لهم في غالب الأوقات في المستوى العلمي والخبرة العملية .
وقد وصل الأمر في بعض الأحيان إلى إغلاق المبشرين الأوربيين أبواب الكنائس
الكبرى في وجه الصابئين الزنج . وأكثر من ذلك أن هؤلاء الصابئين قد مروا بفترة
حرجة في تاريخ التبشير المسيحي في هذه البلاد اعتبروا فيها الديانة المسيحية
مقصورة على المنصر الأبيض بل اعتقدوا أنها ديانة خاصة بذلك الجنس فقط . ولما
اشتدت سياسة التمييز المنصري على الصابئين الأفريقيين وكادت أن تسلبهم جميع
حقوقهم حتى أصبحوا يشعرون بالخرقة وهم في عقد يارهم وقعت نزاعات عنيفة وشاكل
كبيرة داخل كنائس الإرساليات التبشيرية في مستعمرة لا جوس بين الصابئين الأفارقة
والمبشرين البيض . وقد كانت النزاعات والمشاكل القائمة في كنائس إرساليات الكنيسة

الإنكليزية التبشيرية أشد وأعنف منها في كنائس الإرساليات الكاثوليكية والمشيخية والمنهجية والمحمدانية . ولما أدركت الهيئات التبشيرية الأجنبية خطورة الحركة القومية على أعمال التبشير وتقدم المسيحية في هذه البلاد بدأت محاولة استرضاء القوميين والسعى من أجل توجيه نشاطهم بقصد استغلاله لمصالحها الذاتية أو إضعاف قوة حركتهم بصرفها عن جادة الطريق والاتجاه السليم . وقد أبدت الإرساليات التبشيرية تجاوبا لمطالب الصابئين وأعلنت موافقتها على خطة القس هنرى فين التبشيرية في تنظيم شعون المجموعات المسيحية وشعون الكنائس وأعمال التبشير ما يحقق لهم استقلالاً جزئياً في تلك المجالات . وقد نقلت إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية القس النيجيـرى جيمس جنسون (James Johnson) من سيراليون إلى مدينة لاجوس سنة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م ليقوم برعاية شعون هؤلاء القوميين . وقد استحوذ على تفكير هذا الرجل أن انتشار أعمال التبشير في أفريقيا لا يكون إلا عن طريق الأفريقيين . ونفى فكرته هذه على أساس ما كان يعتقد من أن السبب المباشر لنجاح الإسلام وتقدمه في أفريقيا كان يكمن وراء اعتماده على استعمال الدعاة والأبطال الأفاقة وكذلك عدم تنفيره لبعض المبادئ والتقاليد الأفريقية المتأصلة . وقد فات هذا القس أن سبب نجاح الإسلام في أفريقيا يعود إلى جوهر الدين الإسلامي نفسه ، وسهولة تماليمه ومعتقداته ومبادئه وما تتضمنه أحكامه وشرائعه من المبادئ الإنسانية السامية من الصدق والعدل والمحبة والمساواة والإخاء وغير ذلك . فانه أيضا أن العرب المسلمين الذين جاءوا إلى بلدان أفريقيا ونشروا فيها الإسلام وأقاموا مع شعوبها العلاقات التجارية وقبضوا المنافع الكثيرة ثم انخرطوا في المجتمعات الأفريقية دعاة خير ومصلحين فاعتنقت شعوبها الإسلام وقبلت حضارته الراقية ونظامه الاجتماعي السليم عن تفهم ولى بصيرة وإيمان ، حتى استطاعت أن تقيم حكومات إسلامية على أراضيها في أحقاب التاريخ . . . وكذلك المسلمون الذين أدخلوا الإسلام إلى بلاد الهند وغيرها من دول آسيا . . . فأتى هذا الرجل أن هؤلاء جميعا لم يعرف عنهم احتقارهم وكراهيتهم واضطهادهم لغيرهم

من الشعوب بسبب اللون أو الجنس أو الدين ، وأن الدعوة الإسلامية لم تقم في تلك الأقطار بغرض الاستعمار على شعوبها ولا باستغلال موارد البلاد الاقتصادية كما تفعل الأوربيون في تبشيرهم بالمسيحية الغربية .

ويعتبر القس جيمس جنسون (Rev. James Johnson) هذا أبرز شخصية في الحركة القومية التي ظهرت في الكنيسة المسيحية في هذه البلاد طوال الفترة الأولى قبل امتداد الحركة إلى شئون السياسة والحكم . وكان القس جيمس جنسون يعتقد أن نجاح الحركة القومية يتوقف على انتشار المسيحية في هذه البلاد وأن القوميات الأساسية لهذه الحركة لا توجد إلا في الديانة المسيحية مما جعل إمكان فصل الحركة القومية عن المسيحية أمراً في غاية الاستحالة . كان القس جيمس جنسون وزملاؤه المبشرون الأفارقة يسمون إلى إنشاء هيئة القساوسة المحليين . وقد قال : " إن إنشاء هذه الهيئة المحلية قضية دينية ، وفي الوقت نفسه هي مسألة الجنس الزنجي . ولكنها رغم ذلك ليست هي الشاية كلها وإنما هي نصف الطريق نحسب . وإذا قامت هيئات محلية للقساوسة في مختلف مناطق هذه البلاد فالمرحلة التالية بعد ذلك هي أن تتحد جميعاً لتكون الكنيسة الأفريقية المستقلة التي ستقضي على الروح الطائفية وتوحد بين كافة المسيحيين الأفريقيين لتكون منهم دولة أفريقية واحدة (١) " . وكان القس جنسون يؤمن بأن الكنيسة الأفريقية المستقلة التي كان يتطلع إلى قيامها إذا استقر أمرها بقوة وشوكتها " ستضع لنفسها مسيحية أفريقية خاصة وستبني هذه المسيحية الأفريقية الجديدة مجموعة من المبادئ ومعتقدات الأدیان الوثنية التي تحمل بعض أوجه الشبه بالمبادئ والمعتقدات المسيحية كما أنها ستقرر استعمال اللغات المحلية وتضع لنفسها التراتيل والتراتيم والطقوس الدينية الخاصة لأن كنيسة انكلترا ليست كنيستنا نحن (٢) " .

(1) CMS CA/0123 J. Johnson to Taylor 1873

(2) CMS CA1/025e Cheethan to Wright 1873 quotes Johnson's article in the (NEGRO)

وعلى ضوء هذا كله يتبين لنا أن الحركة القومية بالنسبة للقس جيمس جنيسون
 ما هي إلا حركة دينية روحية ولكنها حركة شاملة لجميع نواحي الحياة • إنها حركة
 عنصرية تفصل بين العنصر الأبيض والعنصر الزنجي • إنها تقرر المسيحية الغربية
 للعنصر الأبيض والمسيحية الأفريقية للعنصر الزنجي • وإذا كانت المسيحية الغربية
 تقوم على الحضارة والماديات والتقاليد الأوروبية فيجب أن تقوم المسيحية الأفريقية أيضا
 على الحضارة والماديات والتقاليد المحلية • إن غاية هذه الحركة هي إبعاد العنصر
 الأبيض من شئون الكنيسة في هذه البلاد وإعادة السلطة إلى أيدي الأفريقيين وإقامة
 الكنيسة الأفريقية المستقلة تمهيدا لحشد المجموعات المسيحية كتلة واحدة لإقامة
 دولة أفريقية مسيحية • ولقد نتج عن الحالات الضطرية والظروف الحرجة التي قامسك
 داخل كنائس الإرساليات منذ بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى أصحاب
 معظم الصابئين الأفارقة من كنائس الإرساليات الأجنبية وإنشاء كنائس أفريقية
 متعددة في بعض المدن الكبرى في المناطق الجنوبية منذ سنة ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٨ م • وقد
 استطاعت هيئة القساوسة المحليين في مدينة لاجوس أن تضم كافة الكنائس الموجودة
 في المدينة تحت سلطتها الإدارية سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م • ولكن رغم قيام
 الحركة القومية في الكنيسة المسيحية في تلك الفترة وإنشاء هيئة القساوسة المحليين واحتلال
 الأفريقيين المراكز الهامة في شئون الكنائس المحلية بعد نزع سلطة إدارتها من
 أيدي المبشرين البيض وجهود المبشرين المحليين من أجل إظهار الخصائص الوطنية
 في شئون الكنيسة ومجال التبشير •• رغم ذلك كله فقد رأينا أن الحركة القومية الأفريقية
 ظلت تخضع لتوجيهات القوى الأجنبية التي لا تزال تتقرب إليها وتحاول أن تتظاهر
 لها بشموه عاطفي لصورتها في التغلب على مشكلاتها • وعلى الرغم من أن الحركة
 القومية قامت أساسا ضد طغيان الكنيسة والمعاملات غير الإنسانية التي كان المبشرون
 البيض يعاملون بها الصابئين الأفارقة فقد حاولت الهيئات التبشيرية الأجنبية منذ
 وقت مبكر استغلال هذه الحركة لصالحها وأهدتها الصليبية بإثارة شموه ديني

وعاطفة وجدانية مشتركة في نفوس المسيحيين الأفارقة من أجل حشد طاقاتهم وتكثيف قواهم وجهودهم لإقامة حكومة شعبية مسيحية في هذه البلاد . ولكن فشل الديانة المسيحية في تحقيق مبدأ الأخوة والمساواة والمدالة بين الأوربيين الذين أتوا بالمسيحية إلى هذه البلاد وبين الصابئين الأفارقة وعدم تمكنها من القضاء على روح التنافس الشديد والنزاعات الحنيفة القائمة بين مختلف الإرساليات التبشيرية العاملة في البلدان الأثرقية . كل ذلك كان عاملاً أساسياً أدى إلى فشل الهيئات التبشيرية وحضر المبرشون الأثريقيين عندما أرادوا أن يستغلوا الحركة القومية الأثرقية لصالح المسيحية الغربية عن طريق جعل رابطة العقيدة المسيحية أساس الوحدة القومية الأثرقية . وهو السبب نفسه الذي أدى بالصابئين إلى التجمع والتفطيس بالنصرات القومية الأمر الذي قادهم في آخر المطاف إلى انتقال مسيحية جديدة لشرقية ولا غربية ولكنها أفرقية فسي معتمداتها ومبادئها ومظاهرها أوخيلط بين هذه وتلك . وقد لاحظ المبرشون الأوربيون وفلامنتهم الأفارقة على السواء الآثار السياسية التي يمكن أن تترتب على طموح الصابئين ونضالهم من أجل تولي السلطة الإدارية في شؤون الكنائس . قال أدولفوس مان (Adolphus Mann) : " لقد بذل مجلس الكنيسة المسيحية " فسي هذه البلاد " كل ما في وسعه لإثارة روح الثورة في هذه الكنيسة وإن الصيحة الموجهة ضدهم بأن انقلوا الأهالي وراعوا حقوقهم هي أسوأ ما يمكن أن يواجه ضدهم وهم لا يستطيعون أن يتحملوا ذلك . وهذه الحركة الثورية التي تجرى الآن في الكنيسة ضد المنصر الأبهى ، أغلا يكون لها امتداد إلى الشؤون السياسية في المستقبل ؟ (١)

ومنذ الفترة الأولى من قيام الحركة القومية في الكنيسة المسيحية في سبعينات القرن التاسع عشر الميلادي ظهرت عدة صحف ومجلات اتخذها القوميون وسيلة قريّة لتحقيق أهدافهم الوطنية وغاياتهم السياسية . وقد لعبت هذه الجرائد والمجلات أدواراً هامة في إثارة المشاعر الوطنية في نفوس الصابئين الحثيفين في أقصى البلاد وأدناها . وإذا كانت

هذه الصحف والمجلات قد حملت على عواتقها مهمة تعزيز ودعم الحركة التبشيرية بنشر التعاليم والمبادئ المسيحية في طول البلاد وعرضها ، فقد رأينا أنها كانت تفتش في ذلك بطريقة تخدم في المقام الأول مصالح الأفريقيين القومية وقضاياهم الوطنية في مختلف كنائس الإرساليات الأجنبية . وبسبب ظهور الصحف والمجلات أصبح في ميدهم القوميون إيصال آرائهم وأفكارهم إلى زملائهم في مختلف المناطق ، كما أصبح في استطاعتهم إعلان رغباتهم وإظهار طموحهم بصوت واحد ، وبشكل يترك في نفوس الناس أثارا بالغة . لقد قامت هذه الصحف والمجلات بإيجاد الأجواء الملائمة لتقبل آراء هؤلاء القوميون وأفكارهم ، كما قامت أيضا بإثارة المشاكل وروح الطائفة وتحقيق جذور المنعرجية ومحاولة التأثير على شئون البلاد سياسيا واجتماعيا وثقافيا ودينيا .

لقد صبت هذه الجرائد والمجلات جام غضبها على سياسة التمييز العنصري التي تسير عليها مختلف الإرساليات الأجنبية في شئون الكنائس . وكذلك تصرفات أفراد المبشرين البيض صارت توجه ضدها الانتقادات الشديدة . ولم تفس فترة طويلة حتى امتد نشاط القوميون إلى شئون الدولة فبدأوا يهاجمون الحكومة الاستعمارية في حكمها الاستبدادي وسيطرتها المطلقة على جميع شئون البلاد على ما ينبغي فيما بعد . وقد تكلمنا عن دور الصحافة في نشر الدعاية التبشيرية عند معرض حد يثنا عن الوسيلة الثالثة لنشر المسيحية في هذه البلاد ، وذكرنا في ذلك الفصل مجموعة من هذه الصحف والمجلات مع بيان مؤسسيها ومحرريها وتاريخ بدء صدور كل واحدة منها . ولكن يجد ربنا أن نذكر هنا فئة معينة من تلك الصحف والمجلات ظهرت في فترة قيام الحركة القومية الأفريقية واهتمت بالقضايا الوطنية التي يناضل من أجلها القوميون ، كما وضعت نصب أعينها الخلافات والنزاعات التي تسود رحاها داخل كنائس الإرساليات الأجنبية . ومن بين تلك الفئة جريدة أخبار مدنيستة لاجوس " Lagos Times " التي بدأت تصدر منذ سنة ١٢٩٧هـ / ١٨٧٩ م .

والجريدة الأفريقية الإنكليزية " Anglo - African " التي ظهرت

سنة ١٢٨٠ هـ / ١٨٦٣ م ، وكذلك جريدة مراقب مدينة لاجوس
 " Lagos Observer " التي ظهرت سنة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨١ م ومن
 بينها كذلك جريدة النشروناقد مدينة لاجوس " The Eagle & Lagos Critic
 التي بدأت منذ سنة ١٣٠١ هـ / ١٨٨٣ م ، وجريدة المرأة " The Mirror " التي
 ظهرت سنة ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٦ م وغيرها ،

ومن هذه الأوضاع التي سordنا بعض مظاهرها نشأ الاتجاه لدى معظم
 المسيحيين الأفريقيين إلى الاستقلال عن الإرساليات الأجنبية والانسحاب من الكنائس
 التي أنشأها المبشرون البيض . وقد أدت تلك المحاولات الاستقلالية والحركات
 الانفصالية التي وقعت في الكنيسة المسيحية في هذه البلاد إلى قيام الكنائس
 الأفريقية المستقلة وظهور المبادئ الوثنية المستحدثة وكنائس المتنبيين التي كانت
 تتبنى اتجاهات منحرفة وتقرر بدعاً وخرافات استحدثها بعض الأفريقيين الذين
 تأثروا بالمعتقدات والمبادئ المسيحية ومزجوا بينها وبين مفاهيم ومعتقدات الأديان
 الوثنية الأفريقية . والانقسام والانفصال داء عضال ومروع متأصل في العالم
 المسيحي وبين الأجيال المسيحية المتعاقبة . فلم تكد المسيحية تحقق الانتصار
 على الدولة الرومانية حتى بدأت تنقسم على نفسها إلى مذاهب متعددة وتتفرق
 وحدة المسيحيين إلى طوائف شتى من بينها الطائفة الكاثوليكية والأرثوذكسية
 وغير ذلك . وكذلك انفصلت بعض الطوائف المنشقة عن الكنيسة الرومانية أثناء
 حركة " الإصلاح " البروتستانتية في القرن العاشر الهجري / السادس عشر
 الميلادي فظهرت الكنيسة الإنكليزية والكنيسة المشيخية والكنيسة اللوثرية . وقد
 تفرعت من الكنيسة الإنكليزية نفسها كنيسة جديدة هي الكنيسة المشيخية الويلزية .
 ولم تكن هذه الحركات الانفصالية لتقف عند هذا الحد فقد وصلت إلى الولايات
 المتحدة الأمريكية حيث قامت فيها أيضاً طوائف مسيحية متعددة من بينها

الطائفة الممعدانية وطائفة الكنيسة الرسولية وطائفة كنيسة عيد الحصاد وكنيسة
المجيئين السبتين وكنيسة شهداء الرب . . وغير ذلك .

وإذا كانت هذه هي حال المسيحية في أوروبا وأميركا حيث انقسمت على نفسها
وتشعبت مذاهبها وتمددت طوائفها فإننا لم نكن مهالخين في قولنا إن الانقسام
والانفصال داء عضال مرض متأصل في العالم المسيحي وبين الأجيال المسيحية
المتعاقبة . وعلى هذا فإن الانقسام الذي وقع في الكنيسة المسيحية في بلادنا
لم يكن إلا امتدادا لما وقع في أوروبا وأميركا في أحقاب التاريخ .

كما أن حركات الطوائف المسيحية الجديدة التي ظهرت في هذه البلاد والتي أدت
إلى قيام الكنائس الأفريقية المستقلة وكنائس المتنبيين وظهور العبادات الوثنية
المستحدثة لم تكن إلا نظير تلك الحركات " الإصلاحية " التي قامت في أوروبا
على أيدي مارتن لوتر Martin Luther وجون كالفن John Calvin
وهولدرلتش زونفلي Huldreich Zwingli في القرن العاشر الهجري
السادس عشر الميلادي وكذلك تشارلز Charles وجون ويزلي John Wesley
في القرن الثاني عشر الهجري - الثامن عشر الميلادي مما أدى إلى
قيام كنائس انفصالية متعددة في أوروبا .

ولقد وقعت حوادث تاريخية متعددة في كنائس الإرساليات الأجنبية في مستعمرة
الاجواس ومناطق دلتا النيجر وفي بلاد يوربا كان لها وقع أليم في نفوس المسيحيين
الأفريقيين واهتزت لها مناطق غنيسرب أفريقيا كلها وتداعى المسيحيون الأفريقيون
لتنظيم حركات ثورية ضد المبشرين الأجانب . وقد قامت مشكلات ونزاعات عنيفة
داخل الكنيسة المسيحية كانت عقبة كأداء واجهت الديانة المسيحية في تلك الفترة
وكادت في بعض الظروف الحرجة أن تقلع جذور المسيحية من أساسها في هذه
المناطق . ولا أحد يدري ماذا كان يمكن أن يكون مصير أعمال التبشير في تلك

الفترة لولم تظهر الحركة القومية الأفريقية التي وجهت أنظار المسيحيين الأفريقيين إلى الاستقلال من سيطرة الإرساليات الأجنبية والانحساب من الكنائس الرسمية إلى إنشاء الكنيسة الأفريقية المتحدة والكنيسة المهدانية المحلية والكنيسة الأفريقية المنهجية المتحدة وهيئة القساوسة المحليين التي أنشأت في مدينة لاغوس ومنطقة دلتا النيجر .

وإذا كان المسيحيون القوميون قد سعوا إلى قيام الكنائس الأفريقية من أجل أهداف وطنية وغايات سياسية فإن الجهود الكبيرة التي بذلها المبشر أ.د. وارد ولما ت. بليدين Rev. Edward W. Blyden في سبيل إنشاء الكنائس الأفريقية لم تكن مقصودة على الأهداف الوطنية والغايات السياسية من أجل القضاء على سيطرة الأوربيين المحتلين . ولكن فوق ذلك كله كانت بدافع حقد صليبي يغلغ في صدره ، إذ كان يعتقد أن الكنائس الأفريقية وحدها هي التي تستطيع أن توقف تيار الإسلام الزاحف وتقضي عليه قضاء نهائيا . قال المبشر أ.د. وارد بليدين Rev. Edward W. Blyden " لقد تنبأ محمد نفسه / في آخر الزمان سيأتي الزنج إلى مكة لتدمير المسجد الحرام تدميرا ^{بأنه} كلياً بحيث لا يعاد بناؤه بعد ذلك أبداً " (١) . هكذا ذكر هذا المبشر في كتابه من غير أن يذكر صدره . وقد كان ينبغي له أن يظهر لنا ذلك لنعرف مدى صدقه أو على الأقل ليعمد عن نفسه مظنة الاختلاق والتقول خاصة وهو يعلم أنه يتكلم في حق عدوه الأكبر .

ونحن المسلمين لا نهاب من أي إنسان كان أن يتكلم جزافاً أو يرمي بالقول على هواه وخاصة إذا كان فيما يتعلق بالدين . فلا بد عندنا من إسناد الكلام إلى مصدر موثوق به ويكون مرجعه إلى الشارع الحكيم ، إما في كتاب الله العزيز وإما في كتب سنة نبينا المطهرة . أما أن يأتينا أي إنسان فيقول في شأن ديننا ما يملأ له هواه أو يبدى لنا ما يخل في صدره من الحقد ، فإن كلامه مردود إليه

(1) Edward. W. Blyden, The African Problem and other Discourses

London, 1890, Pp. 54 & 104

وَأَنْ يَهْدَى الْمَبْشَرُ مِنْ دَرَجَاتٍ قَاطِعٍ

إلا أن يأتينا بدليل قاطع/على ما ادعاه ! ولولم يعوزه ذلك لظهره قبل ان نطالبه به .
وبما أن النزاعات والخلافات التي وقعت في الكنيسة المسيحية في هذه البلاد
كانت نزاعات وخلافات داخلية في الديانة المسيحية كما رأيناها في ثنايا هذا الفصل
نقد أدت بطبيعتها الحال إلى قيام مشاكل اجتماعية وسياسية ودينية كانت مسؤولة
عن التحول والتغيير الذي حدث في نواحي الحياة منذ دخول التبشير والاستعمار
إلى هذه البلاد . ومن ساحة الكنائس المسيحية امتدت حركات المقاومة إلى شئون
الحكم الاستعماري لتناهض السيطرة الأجنبية التي تمارس ألوانا من المظالم على
حساب الشعوب المستضعفة .

إن تاريخ مشكلة التمييز العنصري في هذه البلاد طويل حافل بالآلام والآثام
التي اختلطت بحياة البلاد وتطورها . فقد ظهرت الاضطهادات العنصرية في صورة
الاستعباد والاستغلال وحرمان أهل البلاد من الوظائف الحكومية وأعمال الإدارة فيما
عدا الأعمال الثانوية وماندفعه حكومة الاحتلال لهم من المرتبات الضئيلة ، وكذلك
التفرقة في المعاملة بقوانين ما وراء البحار بين المستوطنين الأوروبيين وبين أهل
البلاد ووضع تشريعات خاصة بهم وتقييدهم بأصناف التأخر وحرمانهم من
الحقوق السياسية وأهم الحقوق المدنية .

ولقد اتضحت للمثقفين الأنارقة المألقة القائمة بين الاستعمار والتبشير ، ولكن
ذلك كان في نطاق محدود وفي زاوية ضيقة ، حيث لم يفهموا حقيقة الخطأ وغاياتها
فهما صحيحا . وإن لم يفهموها على حقيقتها فكيف يهتدون إلى الوسائل الناجعة
لمكافحتها ؟ وعندما بدأ النضج النسبي في عقول المثقفين الأنارقة منذ فترة
الحرب العالمية الأولى على وجه التحديد ، وبدأت النخب المثقفة التي صنعها
أيدي المبشرين واحتضنها المستعمرون تتدخل إلى شئون السياسة ، لم يكن
ذلك ليقلق الحكومة الاستعمارية والهيئات التبشيرية . لقد قاما في الوقت

المناسب فوضعتا خططا محكمة مدروسة لخلق الاتجاهات السياسية وتنظيم شئونهما وتوجيه نشاط العامة المحليين المستغلين المستغلين واعطاء روح المقاومة صورة مشوهة تبعدنا عن الواقعية . ولئن كان الجاه الأوربي قد تحلم في عيون الشعوب الأفريقية بمد الحربين العالميتين ، حيث اكتشف كثير من مكائد الدول الاستعمارية ومخططاتها وظهر للناس أن المشرين عملاء ماجورون للقوى الاستعمارية حاملون رسالة لم تكن سماوية ، وإنما كانت دنيوية غايتها تحقيق مصالح الدول التي ابتعثتهم إلى الخارج ، كما ظهرت حقيقة أمر الاستعمار الذي كان سندا للحركات التبشيرية والسلاح الذي يحميها ويظللها . . . فقد كانت النخب المثقفة التي ظهرت في هذه الفترة قد رضيت — من حيث تدري ومن حيث لا تدري — بأن تكون القوى الاستعمارية نفسها هي المنظمة والموجهة لحركات المقاومة ، تسارت الأمور على المجارى التي خطط لها الاستعمار . إن حركات مقاومة الاستعمار التي تتمثل في الحركات القومية والشموية كانت منذ نشأتها حركات ^{عاطفية} مشبوهة موجهة ضد الحسف والإرهاب الذي يلحقه الاستعمار بالشعوب المستضعفة . وإن شعب هذه البلاد الذي تأخر عن عالم الحضارة وتخلف عن ركب الحياة الراقية لم يكن في إمكانه في تلك الفترة أن يدرس ويتفهم خططا وضعها من هو أرقى منه عقلا وأدراكا وتفهما للحياة . . . وضعها لاستعباده واستغلاله ، فكان يخضع ويستذله بالعلم والنظام . . . بينما هذا الشعب يحاول التخلص منه بالحركات العاطفية والأعمال المرتجلة التي لا تنفذ إلى الأعماق ولا تقوم على الأسس السليمة ، والتي كانت في وادٍ وخطط الاستعمار في وادٍ آخر . . . وكانت نتيجة تباعد مابين وسائل الكفاح وبين خطط الاستعمار أن خسرت الشعوب المستضعفة المعركة . . . إن الاستعمار الذي أراد أن يضمن مستقبله في هذه البلاد وأن يحول بين أهلها وبين كل تنبه ويقظة ووعي سليم في المستقبل ، قد عزم منذ وقت مبكر على إفساد الحياة السياسية والاجتماعية لتفكيك عرى وحدة شعب هذه البلاد ، وإخماد جذوة القومات الروحية بإثارة

روح القوميات والقبليات في نفوس النخب المثقفة . وإن الحركات القومية كما تبدت ونفسى
 ظاهرها حركات عاطفية قامت كرد فعل للمظالم المتراكمة التي ظهرت في شؤون الكنيسة
 المسيحية وفي شؤون السياسة الاستعمارية . ولكنها كانت في حقيقتها من أفاعيل
 أيدي المبشرين والمستعمرين لتفريغ قضية النضال وحركة المقاومة من قيمتها الأساسية
 وتحويلها عن الاتجاه السليم لإضعاف قوتها بقصد استغلالها للمصالح الاستعمارية .
 ولقد قسمت الدول الاستعمارية فيما مضى مناطق نفوذها في أفريقيا لا على أساس
 ماضي الشعوب الأفريقية في تاريخها الأول ، بل على أساس السباق في احتلال
 السواحل وأحواض الأنهار والقضاء على الحكومات القائمة .

وهكذا فتت الاستعمار الشعوب الأفريقية في إطار هذا الوضع المفتعل وفوق
 الحدود الإدارية للقوى الاستعمارية ، لا الحدود الطبيعية لحضارة القارة ولها
 السالفة . وإن فكرة الشموعية والإقليمية والقبلية لم تأت من القاعدة وإنما نبئت ونمت
 وترعرعت بين الطبقة المثقفة من دعاة القومية ورجال السياسة الذين رباهم الاستعمار
 والتبشير . وكذلك فكر إنشاء النقابات العمالية والأحزاب السياسية التي تزعمت حركات
 المقاومة وقبضت على زمامها لمطالبة القوى الاستعمارية بالحقوق السياسية والمصالح
 الاجتماعية مثل تحسين أحوال المعيشة ورفع الأجور وإنهاء الاستغلال الاقتصادي . .
 وقد كان الاتجاه الذي تسير عليه الحركة القومية بوحى وتوجيه من رجال الاستعمار
 لتفريق شمل شعب هذه البلاد حتى يشغلوه بالحمد الإقليمي المحدود والرابطة
 المنحصرية والدموية والعرقية واللغوية ويعدو عن فكرة التجمع على أساس الرابطة
 الروحية . وإن الحرب في ذلك كله كانت من أجل القضاء على الإساءة كنظام
 مجتمع ومنهج حياة ، ومن أجل القضاء على الرابطة الإسلامية كعامل أساسي من
 عوامل التجمع والوحدة بين الشعوب . إن هناك حقا صعوبات تواجه الشعوب
 النيجيري ، وله مشكلاته القومية والقبلية ، ومشكلات الدين واللغة وغيرها ،
 ولكن بدلا من أن يعمل رجال الاستعمار والتبشير على حل هذه المشكلات وإزالة

الخلافات راحوا يعمقون جذورها ويمددون خطوطها • وكانت النتيجة فرقة
 في مكان الوحدة وضعفاً في مكان القوة فتمزقت وحدة شعب هذه البلاد كما تمزقت
 قبلها وحدة شعوب أوروبا عندما ظهرت فيها الحركة البروتستانتية في القرن
 السادس عشر الميلادي ، وتحولت أوروبا بعدها عن المسيحية كلية وعادت مسيرة
 أخرى إلى الوثنية اليونانية والرومانية وظهرت القوميات في عصر " النهضة الأوروبية "
 التي قامت فيه الثورة المنيفة على الكنيسة المسيحية • إن محاولة القوى الاستعمارية
 الغربية إثارة الحركات القومية وتوجيهها ، والاهتمام بمشاريع هذه الحركات واستغلالها
 لمصالحها الذاتية ، من شأن ذلك كله تقوية الشعور القومي والقومية والقبلية وتعميق
 وتمديد الخطوط التي تفرق بين الأوطان وتشتت الشعوب • وكما أدت إثارة القومية
 الطورانية في تركيا إلى تمزيقها وإبعادها عن التمسك بعنصر التجمع الروحي حتى
 تغلبت النعرة القومية على النزعة الدينية والروح الوطنية على الروح الدينية وأدت إثارة
 القومية العربية في البلاد العربية إلى تمزيق دولة الخلافة الإسلامية وكسر شوكة
 المسلمين وظهور النعرة القومية للقضاء على النزعة الدينية • • كذلك كان الأمر بالنسبة
 لبلاد السودان الغربي التي أثار فيها رجال الاستعمار والتشهير ربح القوميات
 والقبليات لتمزيق وحدة هذه البلاد ، والقضاء على الإسلام فيها ، وتخریب
 القضايا السياسية والاجتماعية من المحتوى الإسلامي ، وإحلال نظام حكم غربي
 محل نظام الإسلام الشامل ، واستبدال رابطة القومية والقبلية برابطة العقيدة
 الإسلامية لمزل شعوب هذه البلاد بعضها عن بعض • وإن مقومات القومية التي
 عول عليها دعاة القومية لتقوية شعور العداء للمستعمرين المتسلطين والتي تتمثل
 في نظرية العرق وعنصر اللغة والتاريخ والأرض والمصالح المشتركة قد لعبت دوراً كبيراً
 في تقوية الوطنية الشمولية وتدعيم مقوماتها وتمزيق وحدة الشعوب الأفريقية وإضعاف
 قوتها • ورغم أنه ليس في جملة هذه العناصر عنصر خالص يمكن أن تقوم عليه
 القومية ولا حتى جميع العناصر مجتمعة ، فإن ملاسات الحركات القومية من أحداث

تاريخية دليل كاف على أنها حركات مفتعلة نفخ الاستعمار في روحها واحتضنها
 قصد الإضمار الشعوب وأخماد النزعات الدينية .

نعود بعد هذا كله لنقرر أن السياسة الاستعمارية - التي أنشأت الروح القومية
 ابتداء - لم تكن ترضى عنها إذ تجاوزت حدودا معينة وأصبحت خطرا على مصالح
 الاستعمارية ، ولكنها في الوقت نفسه لم تكن لتقضى عليها قضاء كاملا خشية ظهور
 البديل الأخطر وهو الروح الإسلامية المجاهدة . لذلك فإنها كانت تقاوم الحركة
 القومية أحيانا لا تقتلها ، ولكن لتردها إلى الحدود المقبولة التي لا تشكل خطرا
 على مصالحها ، وتحصر في الوقت ذاته على استمرار تنفيذها فكريا وسياسيا حتى
 تظل السيطرة على مجرى السياسة في المنطقة ، وذلك لإيجاد شبح الإسلام
 الذي يمكن أن يجمع القوى الشعبية في حركة جهادية خطيرة على الاستعمار والتبشير
 معا في وقت واحد .

الباب الثالث

آثار النفوذ الغربى على مختلف شئون الحياة فى هذه البلاد

المبحث الاول : التغيير السياسى •

المبحث الثانى : التغيير الاجتماعى والحضارى •

المبحث الثالث : التغيير الدينى •

الباب الثالث

آثار النفوذ الفرسى على مختلف شئون الحياة فى هذه البلاد

لقد قدمنا لهذه الرسالة بتمهيدين استعرضنا فى أولهما صورة واقعية لحالة الممالك الإسلامية التى قامت فى بلاد السودان الغربى منذ أحقاب التاريخ الطويلة قبل غزو القوى الاستعمارية الغربية لهذه البلاد ، وذكرنا النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة والأسس الحضارية القائمة فيها ، وما للإسلام فيها من تاريخ طويل حافل بالأمجاد، حيث بسط سلطانه على ربوع هذه البلاد وانتشرت فيها الحضارة والثقافة الإسلامية ، وظهرت آثار ذلك كله فى كافة مجالات الحياة الخاصة والعامة . ثم قمنا بدراسة دوافع الغزو الاستعمارى الفرسى للعالم الإسلامى فى التمهيد الثانى ، وقررنا بعد تتبع الحوادث التاريخية وتلمس الأهداف الكامنة وراء غزو القوى الاستعمارية الغربية للبلدان المختلفة ، واحتلالها أراضى الآخرين من هنا وهناك ، قررنا بعد ذلك كله — ولنا ما الفين ولا مفاشرين — أن الدافع الأول لهذا الغزو إنما هو الحقن الصليبي الدفين فى أعماق القلوب ، وأن الأطماع الاستعمارية الأخرى ليست إلا دوافع عرضية قامت أثناء الطريق إلى تحقيق الهدف الأكبر الذى هو محاربة القضاء على الإسلام وحجوه من الوجود ، وتحطيم قوة المسلمين التى ظلت زمنا طويلا تشكل خطرا كبيرا فى وجه أحقاد الدول الغربية الدينية وأطماعها الدنيوية . وبعد أن استعرضنا حالة هذه البلاد قبل الاحتلال الفرسى ، وحددنا الغاية الأساسية من غزو الدول الاستعمارية المعسكرى والفكرى لهذه البلاد ، قدمنا دراسة مستفيضة عن طبيعة هذا الغزو فى امتداده المعسكرى وفى انتشار نفوذ الغرب من الناحية الفكرية والثقافية ، كما فصلنا القول فى عرض النشاط التبشيري وفى دراسة وسائل المبشرين فى نشر الدعاية التبشيرية .

وها نحن أولاء بعد ذلك كله بصدد دراسة آثار النفوذ الفرسى على شئون الحياة فى جوانبها الهامة فى المناطق الشمالية الإسلامية وبين الجماعات المسلمة فى المناطق الجنوبية من هذه البلاد . ونحب أن نؤكد أننا لم

نقصد من وراء دراسة تلك الأوضاع والأحوال التي تقدم الحديث عنها ^{مجرد} المقارنة بين حالة البلاد في المجهود الماضية التي صورناها في التمهيد الأول وبين حالتها القائمة منذ تعرضها للغزو الاستعماري الغربي وحتى بعد رحيل القوى الاستعمارية عنها كما هي ظاهرة جليلة في صلب موضوع هذه الرسالة ، نعم ، إننا لم نقصد من وراء هذه الدراسة مجرد عقد المقارنة بين حالة الماضي وبين حالة الحاضر ولكننا نهدف إلى محاولة كشف النقاب عن حقيقة الحرب العقيدية القائمة ، والصراع الحضاري الواقع ، وما وراء هذه الحرب من غايات ونتائج ، وما أحدثه هذا الصراع الحضاري العنيف من آثار أدت إلى تغيير جميع الأحوال والأوضاع القائمة في هذه البلاد . وإذا ألقينا نظرة خاطفة على الأحوال القائمة في هذه البلاد من نواح مختلفة منذ قيام الحكم الاستعماري وبداية الحركات التبشيرية على النحو الذي أوضحناه في ثنايا هذه الرسالة ، فإننا سندرك المدى البعيد الذي يمكن أن يبلغه النفوذ الغربي في تغيير شؤون الحياة الخاصة والعامة في هذه البلاد . ولم يكن من قبيل الصدفة أن نشاهد آثار النفوذ الغربي ظاهرة في جميع نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية وأن نراها شاملة لجميع الزوايا الخفية والظاهرة من تلك النواحي المختلفة بحيث لم يبق منها جانباً ولم تذر منها زاوية . وتختلف أبعاد تأثير النفوذ الغربي وقوته وشموله لجميع مجالات الحياة في المناطق المختلفة في هذه البلاد .

ويرجع السبب في ذلك إلى اختلاف موقف الشعوب والقبايل المختلفة تجاه توغل هذا النفوذ ، وتباين مقدار استعداد بعضها لتقبل الأفكار الغربية والحضارة الأوروبية ، وكذلك لتفاوت درجة انهيار بعضها بتلك الأفكار والحضارة الغربية .

فبينما نجد المناطق الشمالية الإسلامية تقيم حوالها لفترة طويلة حصونا منيعة لصد الغزو الاستعماري الأوربي ولمنع توغل الأفكار والحضارة الأوروبية في شؤون بلادها ، فإننا نشاهد المناطق الجنوبية الوثنية تفتح أبواب بلادها على مصارحها لتوغل الغزو الأجنبي وتسرب الأفكار والحضارة الغربية

على عكس ما كان عليه الأمر تماماً فى المناطق الإسلامية • وإن الذى يهمنى أكثر هو دراسة مظاهر هذا النفوذ الأجنبى فى مختلف شئون الحياة ففى المناطق الشمالية الإسلامية وبين الجماعات المسلمة فى المناطق الجنوبية ، وقوة رد فعل المسلمين لأطماع الاستعمار ومقاومتهم ضد غايات الفزرو الصليبى ، ومدى استعداد بعض المسلمين المستغفلين لتقبل الأفكار الغربية والحضارة الأوربية المادية ومفاهيمها اللادينية • ولئن كانت هناك فى الحقيقة فوارق كبيرة بين المناطق التى رسخ فيها قدم الإسلام وقويت فيها شوكته منذ قرون طويلة وبين المناطق التى دخل فيها الإسلام خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ،

فإننا سنستعرض الخطوط المريضة فى دراسة مظاهر النفوذ الغربى وآثاره ونتائجها فى هذه المناطق المختلفة • ويرجع السبب فى موقف الرفض الذى اتخذته المجتمعات الإسلامية تجاه الفزرو الأجنبى فترة طويلة من الزمن حتى أجبرت على الاستسلام ، وموقف القبول الذى اتخذته المجتمعات الوثنية إلى طهيمة الأسس الدينية والاجتماعية والحضارية التى كانت سائدة فى تلك المجتمعات • ولقد أقام الإسلام حصناً منيعاً حول أتباعه ليحميهم من داخله ، وليعتمد عنهم سهام الأعداء ، وكان من الصعب جداً اختراق جدران هذا الحصن أو تسليقها دفعة واحدة ، لأن الإسلام دين بمنى قواعد على أسس العقيدة السليمة والنظم السياسية والاجتماعية والحضارية القويمة •

وإن روح المقاومة الشديدة التى ورثتها الأمة الإسلامية حتى أصبحت بمعيدة المنال هى التى جعلت القوى الاستعمارية حتى بعد أن تمكنت من تحطيم القوى العسكرية والسياسية للدولة الإسلامية تتنهج خططا دقيقة قائمة على خطوات تدريجية طويلة المدى حتى لا يحس الناس بالأهداف البعيدة التى تكمن وراء تلك الخطط ، أو يشعروا بالألم والبأس الذى يجرى بها تغيير

شئون المجتمع ، و كأن هذا التغيير يجرى من تلقاء نفسه . وقد رأينا
كيف أدى موقف الرفض الذى اتخذه المسلمون تجاه الغزو الأجنبى فى المناطق الشمالية
إلى اختلاف السياسة الاستعمارية والخطط التبشيرية ووسائل الاستغلال الاقتصادى
فيها عما كان عليه الأمر فى المناطق الجنوبية .

إن وسائل الاستعمار والتبشير لتغيير شئون المجتمع فى حالاته السياسية
والدينية والاجتماعية والاقتصادية تتلخص فى جملتها فى هذه النقاط الهامة التالية
وهى : التوجيهات اللادينية فى شئون الحكم ، وفى مجال التعليم والاعلام
وإثارة الحركات القومية ، وقضية تحرير المرأة ، وسياسة الاستغلال الاقتصادى
والحملات التبشيرية ، واستخدام الوكلاء المحليين عملاء مسخرين لخدمة
مصالح القوى الاستعمارية فى تلك المجالات ، ليم بذ لك قطع الشجرة بأحد
أغصانها .

المبحث الاول

التفسير السياسي

منذ أن زحفت القوى الاستعمارية الغربية على هذه البلاد بدأت تتخذ وسائل عديدة لتغيير شؤون الحياة السياسية من أجل تحقيق سيطرتها التامة عليها لتتمكن بعد ذلك من تحقيق ما وراء تلك السيطرة من أهداف استعمارية وأحقاد دينية ومطامع اقتصادية . ولقد عدت تلك القوى إلى تحطيم سلطان الممالك الإسلامية وإضعاف شوكة المسلمين وتفكيك عرى الوحدة بينهم ، فأقامت الحدود المصطنعة ، وأحدثت التقسيمات السياسية الجديدة القائمة على أساس الفوز والاحتلال ، فتوزعت البلاد على الدول الغربية المستعمرة . فكان من آثار ذلك أن تقلص السلطان الروحي للحكومات الإسلامية وضعفت قوتها السياسية عندما قطعت أوصالها وفرق شملها وحطمت عرى الوحدة بينها .

وإن المملكة الإسلامية التي أقامها الشيخ عثمان بن فوديو منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادي والتي بسطت سلطانها على ربوع المناطق الشمالية المتراصة الأطراف ثم بدأت تمدد خطوطها لاحتياح المناطق الجنوبية الوثنية قبل توغل الفوز الصليبي فيها في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ، إن هذه المملكة الإسلامية القوية قد تعرضت لحملات ضارية وهجمات عنيفة من جانب القوى الاستعمارية لوقف مداهم الزاحف من احتياح المناطق الجنوبية أولاً ، ثم لتحطيم قوتها من الداخل ، وتقطيع أوصالها ، وفصل إماراتها بعضها عن بعض ، وقطع أواصر الاتصال بينها ، والقضاء على عوامل التجمع والوحدة بين شعوبها المسلمة .

وهكذا تمكنت القوى الاستعمارية من إخضاع تلك الشعوب الإسلامية تحت نير الحكم الاستعماري ضعيفة مستضعفة في الأرض . والتقسيمات السياسية والإدارية القائمة

(١) جاء في الفارة على العالم الإسلامي ترجمة محب الدين خطيب ومساعد اليافى ص ٢٠ مقدمة المسجوشاتلية ما يلي : " والتقسيم السياسي الذي طرأ على الإسلام سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوروبية ، إذ من المحقق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية وسوف لا يمتد غير زمن قصير حتى يكون الإسلام في حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوروبية " .

على أساس الفسز والاحتلال لم تكن وليدة الصدفة ، فلقد كشفت الأيام عن جوانب السياسة الاستعمارية والأحقاد الدينية فيها ، إذ إن حملات الغرب على هذه البلاد وعلى شعوبها المسلمة لم تقف عند حدود احتلال أراضيها وتقسيم بلادها ، بل امتدت إلى ما هو أبعد من ذلك في محاولة تفسير شئون الحياة المختلفة في هذه البلاد . وقد بدأت تلك المحاولة بالتنظيمات السياسية الجديدة التي وضعتها القوى الاستعمارية والنظم الجديدة التي قررتها في شئون الحكم ، مما أدى إلى حدوث تحولات خطيرة وقيام أوضاع جديدة لها أبعادها العميقة في مستقبل هذه البلاد .

فمنذ أن تمت سيطرة الغرب العسكرية على جميع المناطق الشمالية المسلمة وقام الحكم الاستعماري الغربي فيها أخذت الحكومة الاستعمارية تسير في سياستها نحو الاتجاهات المعاكسة للدين . بدأت ذلك بمحاولة فصل الدين عن شئون الحكم حتى استطاعت في نهاية الأمر أن تنحى الدين من شئون الدولة كلها ومن معظم الجوانب الهامة في شئون الحياة في المجتمع .

واستطاعت كذلك أن تحول اتجاه التعليم عن وجهته الدينية وأن تمحو الحضارة والثقافة التي كانت سائدة في المجتمع ، ثم أقامت على أنقاضها المدنية الغربية المادية ونشرت التعليم الغربي اللاديني ، وقررت أسلوب الحياة الغربية المسيحية . وكانت نتيجة ذلك كله أن رسب في أذهان الناس مفهوم جديد للدين ضيق آفاقه الواسعة ووظائفه المتعددة وحصره في نطاق محدود لا يتجاوز نطاق شعائر التمسك ، وحدد دائرة أهمال الشريعة الإسلامية في نطاق الأحوال الشخصية فضولت بذلك جذوة القيم الروحية وظهرت قيم أخرى لا دينية .

وقامت مدينة غربية مادية مهدت القوة الاستعمارية لها كل الطرق حتى سيطرت على شئون حياة المجتمع كلها .

وقد ظهرت هذه الاتجاهات في مجالات كثيرة كان أبرزها شئون الحكم

والقضاء ومجال التعليم ومجال الاعلام .

وإذا علمنا أن الإسلام هو دين الدولة في المناطق الشمالية ، وأنه هو الرابطة القوية التي تربط إماراتها بعضها مع بعض حتى اتحدت تحت راية واحدة التفت حولها شعوبها ، وأعطى ذلك التكتل مظهر القوة والوحدة والتضامن للمناطق الشمالية الواسعة ، وسار نظام الحكم فيها على نهج الإسلام ، وتقررت الشريعة الإسلامية وازدهرت فيها الحضارة والثقافة الإسلامية .

ثم علمنا بعد ذلك ما كان من سيطرة القوة الاستعمارية الغربية على هذه المناطق منذ أوائل هذا القرن ، فماذا نتصور أن يكون موقف الدول المسيحية الاستعمارية من الإسلام الذي كانت تعتبره أقوى عدولها وخطرا كبيرا يهدد كيان غزوها الاستعماري ، وحقبة كاداء تقف في وجه أحقادها الدينية ومطامعها الاقتصادية في كل مكان حطت فيه رحالها ؟ هل يمكن أن نتصور أن القوى الاستعمارية بعد سيطرتها العسكرية على هذه المناطق ستترك الأمور تجري في مجاريها الطبيعية ؟ هل يمكن أن تترك الإسلام - الذي عرفنا موقفها منه منذ عصور طويلة - ليظل هو المسيطر على شئون الحكم والمهيمن على جميع شئون المجتمع ، وخاصة في ناحية الحضارة والثقافة والدينية ؟

حقا إن بعض الحكام المستعمرين كانوا يتظاهرون بالمعطف والتودد للإسلام ، ^{وذلك الوعد نابعين من} وبعض الكتاب يعدون هذا المعطف أروح الإنسانية الطيبة والأسس الأخلاقية النبيلة ، ويحتجون دائما بتقرير الحكومة الاستعمارية نظام الحكم غير المباشر في المناطق الشمالية المسلمة ، وإعلانها سيادة الحياد في شئون الدين وتقريرها مبدأ حرية الدين ، واعترافها بالتعليم الإسلامي في المرحلة الابتدائية واعترافها بالشريعة الإسلامية في حدود الأحوال الشخصية ، وقيامها بالإشراف على مهمة إعداد القضاة والمدرسين وتدريبهم على الأسس الغربية في شئون القضاء والتعليم . ولكننا لن نفخذ بسياسة المراوغة والحيلة ما دنا علمنا الأهداف الاستعمارية والأحقاد الدينية الكامنة وراء هذه السياسة ، وأن الحكام المستعمرين لم يفعلوا ذلك القدر الضئيل إذ فعلوه متظاهرين بالمعطف والود إلا خوفا

من استشارة حفظة المسلمين ضد أهدافهم ، وتحاشيا لقيام انهماك روى قسوى يكون عبئة فى طريق أطماعهم فى هذه البلاد . وما أنه قد تقدم حديث مستفيض عن الجانب السياسى والثقافى فى آثار النفوذ الغربى على شئون هذه البلاد بما لا نحتاج معه إلى زيادة ، فإننا نحسب أن نؤكد هنا أن نظام الحكم غير المباشر الذى قررتة الحكومة الاستعمارية فى المناطق الشمالية الإسلامية لم يكن من أجل إصلاح وتطوير أسلوب الحكم القائم فى تلك المناطق ، وإنما كان من جملة المحاولات المقصودة لإحلال الحكم البريطانى محل الحكم الإسلامى ، كما أنه ^{كان} نوعا من المخططات الدقيقة القائمة على خطوات تدريجية كانت تتحاشى دائما إحداث ثورة عنيفة تستهدف وقوع تحولات جذرية دفعة واحدة فى شئون الحكم والقضاء وفى شئون الدين وفى مجال التفكير والسلوك .

ولذلك رأينا السلطات الاستعمارية - رغم تظاهرها بالاعتراف بالشرعية الإسلامية فى هذه المناطق فى بادئ الأمر - تلجأ بعد تمكنها من نزع السلطة الفعلية من أيدي الحكام والأمراء المحليين إلى تقرير القوانين البريطانية ، وتبني نظام الحكم على الأسس الديمقراطية ، ثم تعمل على تحديد المجالات التى تعمل فيها الشريعة الإسلامية شيئا فشيئا حتى قصرتها وحصرتها فى نطاق الأحوال الشخصية وبعض جوانب الحياة الاجتماعية . وكما هو الحال فى معظم المناطق الإسلامية الواقعة تحت الحكم الاستعمارى ، فقد قامت ازديادية مقصودة فى شئون القضاء بين القوانين البريطانية وبين الشريعة الإسلامية ، حيث تستعمل الأولى فى المسائل الهامة فى شئون القضاء وخاصة فى المسائل الجنائية وتمتبر الثانية قوانين شعبية تطبق فى حدود ضيقة .

ولقد أقامت الحكومة الاستعمارية المحكمة العليا محل المحاكم الإقليمية الشرعية الكبرى ، وحصرت اختصاصات المحاكم الصغرى فى نطاق ضيق ، ثم أنشأت محاكم ^{أخرى} فى معظم المدن الكبرى ، وكانت تحكم بالقوانين البريطانية ، وتحتاج

للمحامين كل الفروض لممارسة أعمالهم فيها .

عن طريق سياسة

وهكذا رأينا كيف استطاعت الحكومة الاستعمارية/الحكم غير المباشر

أن تخضع الحكومات الإسلامية في المناطق الشمالية تحت سيطرتها السياسية ،
وأن تغير نظام الحكم القائم فيها ، وأن تحول/القضاء ^{أسلوب} أبقّت الشيمى الشمالى
المسلم على حالة التخلف والانحطاط الحضارى والثقافى ، وعزلته عن الاتصال
بالعالم الخارجى ، بمد أن نزعّت السلطة الحقيقية من أيدي الأمراء والحكام
المحليين ، وأخضعتهم مقهورين تحت حكمها الاستبدادى ، وأجبرتهم على
الاستسلام لسيطرتها في شئون التشريع وإدارة/الحكم ^{دقة} في بلادهم ، فأصبح
هؤلاء الأمراء والحكام مجرد موظفين لا يملكون من الأمر شيئاً سوى أن يتلقوا
الأوامر والتوجيهات من السلطات الاستعمارية في كل صغيرة وكبيرة وتنفذوها
بحرفيتها .

ولقد فرضت الحكومة الاستعمارية الحظر على نقل الأسلحة والمعدات
الحربية ، ومنعت الدعاة المسلمين من التنقل بين المدن والقرى لنشر الدعوة
الإسلامية وكسب الأنصار والأتباع ، وكانت الموافقة على السفر إلى مكة لأداء فريضة الحج
وبناء المساجد وإشياء المدارس الإسلامية لا تصدر إلاّ من الحكام البريطانيين على
الأقاليم .

ولقد ذكرنا في معرض الكلام عن مجالى التعليم والإعلام في نشر الدعاية
التبشيرية في هذه البلاد أن المسلمين كانوا يقاومون كل/من ^{ما يوضع} المخططات لمحاربتهم
من حيث إنه يمس عقيدتهم ودينهم أساساً ظاهراً ، وأن ما يوجه ضدّهم من
هذه المخططات لإحداث ثورة حضارية وثقافية كان يأتى إليهم في صورة مقنعة
لا تتضح آثارها ونتائجها إلاّ بعد أمد طويل ، عندما تقضى على الحضارة
والثقافة القائمة وتنقلب شئون المجتمع وتقوم حضارة جديدة على أنقاضها . ولكنهم
حتى إن أدركوا أبعاد هذه الخطط في حين وضعها وقدروا فداحة الخطب
حين وقوعه فإن روح مقاومتهم لم تكن تستمر قوية فترة طويلة ثم كانوا يقومون ضحايا

الخطط المدبسة حيث تقوم الظروف الخاصة والأوضاع المعينة التي افتعلها البشرون والمستعمرون لتجبرهم على الاستسلام ولو كانوا كارهين . ولذلك رأينا أعمال الاستعمار والتبشير في مجال نشر الحضارة الغربية والمدنية الأوروبية في بلاد المسلمين تجرى في نشاط وتستمر في الانتشار .

وعندما استمرضنا الخطط التعليمية التي وضعتها الحكومة الاستعمارية في المناطق الشمالية المسلمة ، ذكرنا أن الاستعمار قد فرض التعليم الغربي على شعوب تلك المناطق وجعله الطريق الوحيد للوصول إلى المنازل المرموقة وللحصول على وسائل العيش والرفاهية في مجالات الحياة الجديدة التي كان يحاول أن يقيمها في هذه البلاد . ولكن المسلمين كانوا ينظرون إلى الأمر بمنظار آخر ، فإنهم لم يروا ضرورة ملحة في نشر التعليم الغربي في بلادهم إذ لم يروا منه ما يوفّر لهم وسائل العيش والرفاهية ويرفع من وضعهم الاجتماعي ، بل على العكس فقد رأوا فيه حربا عنيدة وصراعا حضاريا وإن تستر بعتار خادع ليخفي وراءه غاياته الحقيقية . لذلك اتخذ المسلمون موقف الرفض تجاه التعليم الغربي واستمروا ذلك قرابة خمسين سنة من قيام الحكم الاستعماري في هذه البلاد .

وكان نتيجة هذا الموقف الصلب أن تظاهرت الحكومة الاستعمارية - كما قررناه غير مرة - في بادئ الأمر بإعلان اعترافها ^{بالتعليم} الإسلامي في المرحلة الابتدائية واعتباره شرطا أساسيا في قبول الطلاب في المدارس الإنكليزية . وذلك لاسترضاء المسلمين حتى تخفف حفيظاتهم النائرة ضد أهدافها أولا ثم لتمهيد الطريق لقبول التعليم الغربي والثقافة الغربية ثانيا .

وقد حاولت دون جدوى التوفيق بين التعليم الغربي وبين التعليم الإسلامي ولما لم تستطع تطويع التعليم الإسلامي للظروف والأوضاع القائمة لجأت متعمدة إلى التركيز على اللغات المحلية في التعليم ، وأبدت اهتماما كبيرا بلغة هوسا ، ووضعت الحروف اللاتينية لكتابتها بدل الحروف العربية التي كانت تكتب بها

منذ زمن بعيد .

وهكذا كانت الخطط التعليمية تجري على الخطوط المرسومة لها لئلا
تحد عنها قيد شبر ، فقد فتحت المدارس الإنكليزية في مواجهة المدارس
الإسلامية ، وكانت تجري فيها الموازنة المتعمدة بين العلم الإسلامية والآداب
العربية في حالتها المتأخرة في المدارس الإسلامية آنذاك وبين العلم الغربية
والآداب الأوروبية في حالتها الراقية ، مع الصالح المادية التي تتحقق عن
طريقها .

وكانت هذه الموازنة تجري لقصد تفضيل العلم الغربية على العلم الإسلامية
وإبراز نواحي النشاط الثقافي والمدنية الحية في الغرب ، وتفضيلها على الثقافة
والحضارة الإسلامية ، ليخلق ذلك كله في نفوس المسلمين تخادلا وشعورا بالنقص
وليجلبهم من هذه الطريق على الرضا بالخضوع للحضارة الغربية المادية .

ولقد حولت الحكومة الاستعمارية اتجاه التعليم بدعوى التطوير والإصلاح ،
وأخذت تعمل على تنحية التعليم الإسلامي شيئا فشيئا عن مجال التعليم
المعالم ، حتى حصرته في نطاق ضيق ، وأصبح مادة واحدة ضمن المواد المقررة
في مناهج الدراسة . وقد استبدلت الحكومة الاستعمارية مناهج التعليم
الديني في المدارس الإسلامية مناهج التعليم اللاديني ، وشجعت الشباب المسلمين
على الذهاب إلى الدول الغربية لإكمال دراستهم المالية فيها لتحقيق فيهم الغاية
التي كانت تسمى جاهدة من أجلها ، وهي أن تحقق فيهم الجهل المطبق
بدينهم وقيمهم ومثلهم ، ويحدهم عنه بكل وسيلة ، وتصرف عقولهم إلى التعلق بقيم
الغرب ومثلهم ، وإلى الانهيار بحضارته المادية .

لقد عرف البشرون والمستمرون ما للثقافة الإسلامية من عظمة وقوة ، لكونها
مصدرا من مصادر عزة المسلمين ، كما عرفوا أن اللغة العربية هي الرابطة القوية
التي تربط حاضر المسلمين بترائهم الماضي ، ثم إنهم بعد ذلك كله أيقنوا أنه
لن يتم تحطيم مصدر قوة المسلمين وقطع صلتهم المتينة بالماضي إلا بشن حرب
شمواء على التعليم الإسلامي والكتابة بالحروف العربية ، لتقطع صلتهم تماما

بالقرآن الكريم وجميع الكتب الدينية واللغوية والتاريخية والفكرية والأدبية ، وليصبح القرآن مجرد كتاب دين لا علاقة له بشئون الحياة .

ولقد عرفنا أن المسلمين منذ مطلع العصور الحديثة قد أخذوا يتأخرون فى ميادين كثيرة ، كان أبرزها ميدان العلم النظرية والتطبيقية ، وميدان الاختراعات المادية ، وميدان السياسة الدولية وميدان اختراع وسائل الحرب الحديثة وغير ذلك ، ولكن يجب ألا ننسى أن المسلمين فى العصور الوسطى قد أدوا للعالم ^{بأسره} رسالة من أعظم الرسالات التى أدتها أمة من أمة الأرض ، كانت أهم العوامل التى أدت إلى قيام حركة النهضة الحديثة فى أوروبا .

وإذا اتفق أن تقوم فى أوروبا عوامل عامة أدت إلى قيام حركة النهضة فيها كما قامت من قبلها ومن بعدها حركات مماثلة فى مختلف بلدان العالم قديما وحديثا ، فما ذلك إلا دليل على أن العالم دائما كان يندفع نحو تقدم مستمر لا يمكن لأى قوة أن تقف فى وجهه، ولا ^{أن} تجعل أقطارا معينة تتقدم وأقطارا أخرى فى معزل لا تحس بهذا التقدم . إن المدارس الأجنبية المنتشرة فى هذه البلاد التى كانت تحمل آثارا للنهضة الأوروبية إلى بلدان أفريقيا لنشر الحضارة والمدنية الغربية فيها ، كانت منذ البداية وسيلة قوية لتحصيل عقائد الناس وتغيير قيمهم ومثلهم والمسلمين منهم بوجه خاص . ثم عادت تلك المدارس مع مرور الأيام وسيلة لإخراجهم من دينهم والقضاء على القيم الروحية سواء فى ذلك أدخلوا المسيحية أم لم يدخلوها .

ولم تدخر الحكومة الاستعمارية وسما فى استغلال وسائل عديدة لتفسير الناس من التعليم الدينى ، وقد وضعت خطأ دقيقة مقصودة فرقت بين طلاب العلم ^{الدينى} وعلماهم وبين طلاب التعليم اللادينى ومدرسيهم ، حيث جعلت الفريق الأول فى مستوى الحضيض وضيعت مستقبله فى المجتمع ، بينما رفعت الفريق الآخر إلى القمة وأمنت له مستقبلا زاهرا فى شئون المجتمع . فكانت نتيجة ذلك أن يترسب فى أذهان الناس المستغفلين نفور من التعليم الدينى لكساده

تجارته وإقبال على التعليم الفوسى اللادىنى لرواج تجارته • هذا ولئن كانت الاتجاهات اللادىنية فى مجال التعليم أقدم وأخطر منها فى مجال الإعلام فـإن آثار هذه الاتجاهات فى مجال الإعلام كانت أعم وأشمل • إذ بينما توجهه مناهج التعليم لتحويل أفكار واتجاهات الآلاف من الناس • فإن وسائل الإعلام المختلفة توجهه للتأثير على الملايين من القراء والمستمعين والمشاهدين •

ولقد رأينا كيف سخرت وسائل الإعلام المختلفة من صحافة وإذاعة وتلفزيون وسينما لتحويل عقيدة المسلمين • ولتغيير أفكارهم واتجاهاتهم • ولنشر الفساد فى الأرض • ولإشاعة الفاحشة وإفراة الناس بالجرائم • مما أدى إلى زعزعة عقيدة المسلمين وتحطيم مبادئهم الأخلاقية وقيمهم الروحية وثلهم العالية • فانهدم بسبب ذلك أساس بناء مجتمعهم • فأنسى للناس أن يقوم بمد انهيار أساسه وتقويض أركانه ؟

لم يكف المستعمرون أن يتهجوا فى سياستهم سبلا متشعبة تلتقى عند خط معاكس لطريق الدين الحنيف من أجل أن يضمنوا بقاء سيطرتهم المطلقة واستقرار النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى فرضوها على شعوب هذه البلاد • وقد رأينا أنهم منذ بداية فترة تهديد ظلام الاستعمار وبلوغ الشعوب المستعمرة مرحلة التفتح الفكرى والنضج العقلى النسبى هو مرحلة حتمية لا بد أن تبلغها مهما طال أمد الاستعمار أو كان دهاء المستعمرين أو بلغت خططهم من الدقة - رأينا أنهم فى هذه الفترة ذاتها لم يتركوا هذه الشعوب لتقرر مصيرها فى الحياة من غير تدخل فملى من جانبهم لخلق الأجواء واقتعال الأوضاع وتقديم الحلول لتسير الأمور على الخطوط المرسومة لها حتى تصل إلى الغايات التى كان يهدف إليها الاستعمار •

إن أبعاد التغييرات الجذرية التى أحدثها الحكام المستعمرون فى شئون الحكم والقضاء • وفى مجال التعليم ومجال الإعلام • وفى شئون الاقتصاد وغير ذلك كانت عميقة فى مستقبل شعوب هذه البلاد • وقد أدى ذلك إلى قيام انقلاب

اجتماعى شامل حيث تمكنت القوى الاستعمارية من الإطاحة بالحكومات المحلية القائمة واستبدت بالسلطة المطلقة فتبدلت أحوال المجتمعات الإسلامية وتغيرت النظم التى كانت سائدة فيها ، وتحولت اتجاهات الناس ، وصحيت مظاهر البلاد ومعالمها المميزة لها . ورغم أن هذا الانقلاب الاجتماعى الشامل كان فى أساسه من أجل بقاء السلطة الفعلية فى يد الغرب واستمرار السيطرة المطلقة للدول الغربية على البلدان المستعمرة دهورا لا تنتهى - إند إن مصالحها الاستعمارية ومظاممها الاقتصادية وأحقادها الدينية لا يمكن أن تنتهى عند أى حد مهما كان نجاحها فى تحقيقها - رغم ذلك كله فإن الوسائل التى استخدمتها الدول الاستعمارية فى تفجير هذه الثورة الاجتماعية العنيفة ولأخضعت بها الشعوب المستعمرة تحت سيطرتها . قد حملت فى طياتها عوامل معينة دفعت إلى الاتجاه المعاكس للسيطرة الغربية ، فقامت حركات المقاومة ولكنها كانت تجرى على الخطوط المرسومة لها وتدور فى حدود الحمى المضروب حولها .

إن النخب الوطنية المثقفة طاعة محلية صنعها الاستعمار ليستغلها فى تحقيق مصالحه الذاتية ثم ليمول عليها فى تحطيم نفوذ السلطات المحلية ولكن من غير أن يكونها مكان السلطة والحكم . وعندما بدأ نفوذ الاستعمار يضعف ، وأخذ سلطانها السياسى يتقلص ، وبلغت الطبقة المثقفة مرحلة التفتح الفكرى والنضج العقلى النسبى لم ترش القوى الاستعمارية التى صنعت هذه الطبقة الجديدة وطبعتها بالطابع الغربى حتى غدت غريبة فى مجتمعها ودخيلة على أهلها ..

لم ترش بتفويض الأمر إليها ولا بفك قيود الاستعباد والاستغلال عن الشعوب المستعمرة حتى أجبرتها الضغوط الشديدة والمقاومات العنيفة فتكفلت بتوجيه حركات المقاومة لقصد إضعافها وتحول اتجاهها عن الوجهة العلمية فافتمت الأوضاع وأحدثت المفكلات وأثارت الانمرات القومية والنزعات الإقليمية والقبلية فتملقت بأذيالها النخب الوطنية وهى تظن أنها وجدت الطريق

الأقوم لاسترداد ضالتها المنشودة من يد قوى الاحتلال الغربي ، فخصمت للتوجيهات التي قدمتها الحكومة الاستعمارية وقبلت الشروط والالتزامات التي فرضتها .

ولم تدر هذه النخب الوطنية أن تلك التوجيهات والشروط والالتزامات قد روعيت فيها مصالح الحكومة الاستعمارية قبل مراعاة مصالح الشعوب المستعمرة . ولقد تكلمنا فيما سبق عن تلك الأوضاع المصطنعة التي أحدثتها القوى الاستعمارية عندما آذنت على الرحيل عن هذه البلاد حيث ذكرنا ما فرضته الحكومة الاستعمارية على شعوب البلاد من قبول نظام الحكم الديمقراطي الذي أقامته على ركيزة التمرات القومية والنزعات القبلية والإقليمية والمصالح الذاتية صراع الطبقات ، كما ذكرنا ما نفخته من روح تأليف الأحزاب السياسية من أجل خوض ممارك الانتخابات لكسب الأصوات والفوز بالمقاعد وتولى زمام الحكم . إن الذي يهمننا هنا هو دراسة آثار تلك الأوضاع السياسية الجديدة على شئون الحياة السياسية في المناطق الشمالية الإسلامية وبين الجماعات الإسلامية في الجنوب . ولا يمكن أن نتخذع أبدا بما كان الكتاب الغربيون واليهافوات المحليون يقررونه دائما في بحوثهم وفي مؤلفاتهم من أن الشعوب الجنوبية هي التي أخذت تتأثر بالنفوذ الغربي بصورة تدريجية بينما لم يتأثر الشماليون المسلمون في شيء جوهري لأن السلطات المحلية الحاكمة قد رفضت إحداث أي تغيير في شئون بلادها كما أنها كانت تنظر إلى طمع الجنوبيين في شئون السياسة نظرة اتهام وحذر على أن الحركة الإقليمية حركة غير ملائمة (١) .

ونحن لا ننكر وجود فوارق كبيرة في قوة تأثير النفوذ الغربي على شئون الحياة في كلتا المنطقتين الشمالية والجنوبية ولكننا لا نقبل ما يقال من أن التغييرات التي حدثت في المناطق الشمالية لم تغص إلى الأعماق ولم تتناول النواحي الأساسية وإنما كانت تغييرات سطحية تناولت المظاهر دون الجواهر ووقعت على القشور دون اللباب .

(١) J.Spencer Trimingham, Islam in West Africa, Oxford, 1959, P.209

ولو استتقنا الوضع الحالى فى المناطق الشمالية لحدثنا عن أخباره الفين الكثير
ولقد أجبرت الشعوب الشمالية المسلمة تحت وطأة الأوضاع السياسية الجديدة على استبدال
نظام الحكم الديمقراطى بنظام الحكم الإسلامى واستبدال الولاء القبلى والقوى والإقليمى
برابطة العقيدة الإسلامية حتى أصبحت الرابطة القومية والإقليمية أساسا لتسديد
شئون الحياة حولها ، وعقيدة تبنى عليها الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية بوجه
خاص ، وهما الناس لا يسمون إلا من أجل الوصول إلى غايات دنيوية ومآل مادية ، فتفقرت
فى هذه البلاد قوانين وضعية ونحيب الشريعة الإسلامية من مجال التشريع والحكم
وحصرت فى زاوية ضيقة وأصبح المسلمون يتحاكمون إلى المحاكم الإنكليزية التى تحكم بغير
ما أنزل الله ثم اهتزوا بالولاء القبلى والقوى وتعلقوا بالعصبية الجاهلية وجعلوا
ذلك أساس الوحدة السياسية والتضامن القومى حتى قاتل المسلمون بعضهم بعضا وأوقع
بعضهم على المخالفين لهم فى الاتجاه السياسى أشد العذاب وأكبر التنكيل ووالى بعضهم
المسيحيين والوثنيين وقتلوا تحت لواء أحزابهم إخوانهم المسلمين ، ورفضوا هيمنة النزعات
الدينية على الطريقة التى يتم بها اختيار المثلين والمرشحين ولم يكونوا يعتبرون بها
عندما يدلون بأصواتهم فى الانتخابات ، ولم يعد للدين وجود فى حياتهم إلا فى صورة
وجسدان دينى منعزل عن السياسة وعن شئون الحياة العملية وإن كانت المناطق الشمالية
من هذه البلاد ودوله السنغال تعتبر خيرا من غيرها من بلاد غرب أفريقيا فى هذا المجال
إذ بقيت بعض المشاعر الدينية متعلقة بالسياسة على أساس أن الدين يمكن أن يكون
رباطا إضافيا يقوى رابطة القومية مما جعل السياسيين الجنوبيين يضيّقون ذراعا بهذه
النظرية وأبّون إدخال عنصر الدين فى شئون السياسة .

وحقيقة إن مسلمى المناطق الشمالية لم يستشرفوا إلى الغرب ليقدّم لهم الحلول
الملفوفة المختومة حق يتغلبوا على الحالات المتوترة التى كانت البلاد تعيش فيها
أثناء قيام الصراع السياسى ، ولكنهم رغم ذلك قد تأثروا إلى حد كبير بالحلول الستى
قدمها الغرب من أجل تحقيق وحدة الشعب المتجانسة المزعومة ، وقد كانت النزعة

الدينية المتبقية عندهم ضعيفة بحيث تعتبر جزءاً من مقومات الحركة القومية . ويظهر ذلك في مناوأة بعض المسلمين لإخوانهم المخالفين لهم في الاتجاه السياسى وترددهم إلى المسيحيين واليهوديين الموافقين لهم في ذلك .

وأكبر من ذلك أن حزب المسلمين الفائز في حلبة الصراع السياسى لم يستغل الفرصة المواتية له . مع أن الأغلبية الساحقة في المناطق الشمالية للمسلمين وأصحاب الأديان الأخرى بضمة آلاف . وقد كان بإمكانهم إجراء بعض التعديلات والاصلاحات في شؤون الحكم والقضاء وفق التعاليم الإسلامية ولو على النطاق الإقليمى المحدود .

إن آثار القومية واللمانية المترسبة في أذهان هؤلاء المسلمين هي التي جعلتهم يسمعون من حيث يدرون ومن حيث لا يدرون إلى إقصاء الدين عن شؤون الحكم ومنع إشرافه وتوجيهه لسلوك الدولة والشعب مجتمعا وأفرادا . وقد كانوا يعتقدون أن العلم يجب أن يعمل بعيدا عن الدين من دون أن يتقيد بأحكامه وآدابه ولا يسير على نهجه لاختلاف مجال العمل بينهما . كما كانوا يعتقدون أيضا أن قيام حكومة إسلامية في هذه البلاد أمر مستحيل بسبب اختلاف شعوبها وقبائلها وتباين لهجاتها واختلاف معتقداتها ، وأن التمسك بالدين إنما هو التعصب وروح الطائفية مما يشكل خطرا كبيرا على الوحدة المتجانسة لشعوب هذه البلاد ، كما يعوقها عن التقدم والتطور . فإن الأمم الراقية في العالم لم تتطور وتتحضر وترتق إلى سلم الحضارة والمدنية إلا بعد أن تخلت عن قيود الأديان ! وقد غفل هؤلاء المسلمون المتأثرون بأفكار الغرب وبإدائه ونظمه عن أن للمغرب ظروفًا تاريخية خاصة ، وأن للديانة المسيحية التي كانت سائدة في الدول الغربية أيضا ظروفها الخاصة التي كانت تجبر قيام الثورات الشعبية وظهور حركة القوميات وقيام العلمانية وإقصاء الدين عن شؤون الدولة . لقد قامت في أوروبا في عصورها المظلمة ظروف تاريخية خاصة وأوضاع اجتماعية معينة كانت نتيجة طفيان الكنيسة في حجرها على العقول والقلوب

حين أنشأت صكوك الفغران وقرارات الحرمان وأخذت تتاجسربها وتعتبرها وسيلة للكسب الحرام، ووقفت في وجه كل تفح فكري وكشف علمي . وتحالفت مع الملوك الطاغين المستبدين بالسلطة والحكم والإقطاعيين والطبقات المستعلية حتى خيمت المظالم على أجواء أوربا وفرقت بلادها في دماء ضحايا الكنيسة حيث زجت الآلاف المولفة في غياهب السجون وسامتهم سوء العذاب وأشد التنكيل كما سقط المئات تحت مشانق المحاكم التفحيش وقاصلهمها . وإذا كانت هذه هي حالة أوربا في عصورها المظلمة وكانت تلك هي ظروفها الخاصة وأوضاعها الممينة فلا عجب إذئذ أن تجد العلمانية مكانها في الدول الغربية .

إن الصراع العنيف الذي قام في تلك الفترة بين العلم والمقل وبين الكنيسة قد انتهى إلى قيام الثورة على الديانة المسيحية وقيام النظام الرأسمالي مع الثورة الصناعية على أساس غير ديني . وقيام الثورات الشعبية والتنافس بين القوميات والصراع بين الطبقات . وقد أدى ذلك كله إلى وضع أنظمة جديدة في شؤون السياسة والاقتصاد والاجتماع فتحطمت سيطرة الملوك الإقطاعيين وانهارت أنظمة الحكم الاستبدادي وتخلص سلطان الكنيسة داخل جدرانها . هذا ولم يكن في ظروف هذه البلاد التاريخية ولا في أوضاعها السياسية والاجتماعية قبل الاحتلال الغربي وحده ما يبرر قيام الثورات الشعبية في وجه الدين الإسلامي أو ظهور التنافس بين القوميات والصراع بين الطبقات وقيام الاتجاهات المماكنة للدين لفصله عن شؤون الدولة . غير أن المستعمرين أرادوا أن يحدثوا المشكلات وأن يثيروا الفتن والاضطرابات حتى يصلوا من خلال ذلك إلى تحقيق الغايات التي يهدفون إليها .

لم يكن في هذه البلاد صراع بين العلم وبين الدين ولم يقع قط طفيان من جانب علماء المسلمين إذ لم يحجروا على العقول ولا على القلوب ولم يضطهدوا أحدا ولم يقفوا في وجهه أن فتح الله عليه بكشف علمي أو إنتاج فكري . كما أن الإسلام نفسه لم يسمح بالفصل بين الدين وبين الدولة لأن الدولة في فقه الإسلام قسم من الدين لا قسم لسه ، ولأن الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة وهو بذلك لا يقبل التجزئة . ولا أن يقصر مفهومه على

دائرة العقيدة وشعائر التعبد . ويكون هناك آرباب آخرون من دون الله يقننون للناس ويدين لهم هؤلاء الناس في مجال الشريعة كما يدينون الله في مجال العقيدة . والمعادة (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) الآية (١) . وإن الإسلام لا يعارض كل علم ينفع البشرية ويكشف لها أسرار الكون ويحقق لها الأمن والاستقرار في حياتها ولازدهار في معيشتها ويدفع في مسيرتها إلى الأمام تقدما وتطورا ورفقا ، وكذلك كل علم يحفظ لمكان الأخلاق مكانها اللائق في المجتمع تحقيقا للأمن والاستقرار وإقامة للعدل فيه وإيتفاء للخير العام . ولا يدعو الإسلام فقط إلى مثل هذا العلم بل يحث عليه ويكافئ طالبه بالثناء الجميل والثواب الجزيل في الدنيا والآخرة . إن ادعاء بعض الناس بأن التمسك بالدين تعصب مقوت وعائق دون وحدة الشعب وتقدمه وتطور مرافق الحياة في المجتمع وأن قيام الدولة الإسلامية في هذه البلاد أمر مستحيل بسبب اختلاف شعوبها وقبائلها واختلاف اللغات والمادات والتقاليد والمعتقدات . . . إن هذا الادعاء لأساس له من الصحة ولا قيمة له في ميزان الحقيقة والواقع .

فقد قامت الدولة الإسلامية الكبرى في عصور الإسلام الذهبية واجتمع تحت سلطانها الكبير وظلالها الوارفة شعوب وأمم مختلفة اللغات والألوان والأجناس والعقائد انتشرت في بلاد متعددة متباعدة . وإذا صدقت هذه الدعوة على الديانة المسيحية التي مزلت وحدة الدول الغربية وحالت بينها وبين التطور وحجبت عنها النور وأبقتها على التخلف والانحطاط بسبب كل ما ذكرنا من الأوضاع والظروف التي كانت ترتع فيها الكومة المسيحية في العصور المظلمة / ^{حتى قامت في} وجهها حركات مواراة وثورات شعبية عنيفة قلبت الأمور على وجوهها ؛ إذا صدقت هذه الدعوة على المسيحية وقام عليها ذلك الاحتجاج فلن يصدق ذلك على الإسلام بأي وجه من الوجوه . لأن الإسلام دين الفكر والعلم ، وهدى بين الإخاء والعبادة ، ودين الحكم والسياسة وقد عرف بنظمه الاجتماعية القومية وأسه التربية السليمة .

فلا مجال لقيام مثل هذه الأوضاع والظروف تحت ظل الإسلام • والإضافة إلى ذلك فقد قامت خارج نطاق الإسلام أيضا وحدات سياسية بين شعوب اختلفت عقائدها وأفكارها مثل (الكومنولث) البريطاني وغيره من التنظيمات السياسية الحديثة •

ونستطيع أن نقرر بعد هذا كله أن النفوذ الغربي قد أفاد هذه البلاد من ناحية ازدهار الحياة المادية وبعث الوعي والحركة ، ولكنه في الوقت نفسه حمل معه مساوئ كثيرة وأضرارا بالغة • فإلى جانب النهضة العلمية والاقتصادية كان الفسوق الاستعماري والحركات التبشيرية الحاكمة وقيام الصراع القوي والطبقي والثورات الشعبية وضعف الوازع الخلقي وموت النزعة الدينية والوعي الديني الصحيح وانتشار المذاهب المادية وظلمة الأثرة والأنانية على الناس أفرادا وجماعات وفسوق الإلحاد والانهيار بالحضارة الغربية والاعتقاد بتفوق الغرب والشمور بالنقص وانتشار الأفكار الغربية والأنظمة السياسية والاقتصادية التي نشأت في أوروبا بسبب ظروفها التاريخية وطبيعة الديانة المسيحية واتجاه تعاليمها ومبادئها الخاصة بها والتي أدت إلى فصل الدين عن شئون الحياة الاجتماعية واعتباره أمرا شخويا محضا لا علاقة له البتة بشئون التشريع والسياسة والحكم ومجالات التعليم والثقافة والحضارة والشئون الاقتصادية والاجتماعية •

المبحث الثانى

التغيير الاجتماعى والحضارى

إن الحديث عن التغيير الاجتماعى والحضارى الذى أحدثه النفوذ الغربى الاستعمارى والنشاط التبشيرى فى المناطق الشمالية المسلمة وبين الجماعات الإسلامية فى الجنوب يشمل دراسة مظاهر هذه المجتمعات الإسلامية قبل توغل هذا النفوذ وقيام ذلك النشاط من جوانب مختلفة من حيث العقيدة والقيم والمثل التى كانت سائدة فيها ، والحضارة والثقافة والهادئ الأخلاقية التى كانت منتشرة فيها ، وكذلك العادات والتقاليد ، وآثار ذلك كله على شئون الحياة الاجتماعية من الناحية الفكرية والناحية الخلقية وفى تحقيق وسائل الأمن والاستقرار وتقييم سلوك الأفراد والجماعات ، ومن جانب ازدهار الشئون الاقتصادية بارتقاء الصناعة وانتشار النشاط التجارى ورفع مستوى المعيشة وتوفير وسائل الرفاهية وغير ذلك من الجوانب الروحية والمادية فى شئون الحياة الإنسانية فى المجتمع ، كما أن الحديث يشمل أيضا عرض مظاهر الحضارة الغربية فى جميع جوانب الحياة الاجتماعية وما أحدثته هذه الحضارة من تغييرات كبيرة فى أحوال المجتمعات الإسلامية .

لقد سبقت فترة الغزو الاستعمارى وترغل الحضارة الأوروبية عهد طويلة مرت بها هذه البلاد فى مراحلها التاريخية ، كان الإسلام فيها قوة هائلة حررت شعوب هذه البلاد من الوثنية وعادة الأصنام والتسك بالخرافات والعادات الجاهلية الشنيعة كما أنقذتها من الظلم والاستبداد ورفعتها إلى القمة فى الإنسانية ، فدان الناس لله الخالق واستقاموا فى سلوكهم وتصوراتهم ، وقام العدل فى المجتمع وتحققت فيه وسائل الأمن والاستقرار .

ثم جاءت بعد ذلك فترة تشوهت فيها صورة الإسلام وتلوث ثوبه الناصع وتغيرت معالمه وقلبت قيمه ومثله ، وبرزت مفاهيمه بالعادات والتقاليد المحلية وأسيئ تطبيق تعاليمه ، حتى صارت عباد المسلمين سلبية اعتزالية تمثلت فى الصورة الشكلية والطرق الصوفية التى تعزل الحياة العملية وتفر الناس من الانخراط فى معركتها ، وبدأت ظاهرة

جديدة في الحياة السياسية حيث قام الحكم الاستبدادي ، ثم كان التأخر والانحطاط ، في شئون الحياة الاقتصادية والاجتماعية نتيجة انحراف المسلمين عن جادة الطريق ففسد سلوكهم وتصورهم من جراء ما شاب عقائدهم من شوائب وما دخلها من عناصر غريبة . وقد كانت هذه الصورة المشوهة للإسلام ، وتلك الحالة المتأخرة الراكدة المتخلفة التي ظهر فيها المسلمون في جميع البلدان الإسلامية منذ عصر الانحطاط هي التي كانت قائمة في هذه البلاد إبان فترة الغزو الاستعماري وتغل الحضارة الغربية المادية ففسد أواصل هذا القرن الميلادي . ولكن رغم ذلك كانت هناك بقايا عقيدة إسلامية قديمة وبقياء مبادئ أخلاقية وقيم وعادات وتقاليد قديمة . وكان هناك الأمن والاستقرار وكان للتعاليم الدينية والثقافة الإسلامية رغم كل ما أصابها من جمود أو تحريف أثر كبير في حياة الناس كما كانت المبادئ التربوية والأخلاقية مثل الصدق والوفاء والاخلاص والحشمة والعفة وغير ذلك من الأخلاق الفاضلة تطبع حياة الناس بطابعها . وكانت المرأة المسلمة تحتفظ بمكانة في المجتمع وكانت لها حقوقها وعليها كذلك واجبات كانت تؤدّيها في أمانة واخلاص وكانت تلتمح حدود طبيعتها الرقيقة وتحافظ على تعاليم الإسلام وتهتدي بهديسه ولم تعرف التبرج في الأسواق في ثياب قصيرة فاتنة ولا التكسر والتميل في مشيتها في الشوارع ولكنها بقيت في دارها تربي الأجيال وإذا خرجت لقضاء حاجة لها خرجت مستخفية فسي ثوبها المفضاض وحجابها الساتر .

وكانت أواصر الأسرة والتضامن الاجتماعي قوية ولم تقم مشكلات اجتماعية وعائلية مثما قام في البلاد اليوم . ورغم ما ذكرنا سابقا من شدة روح مقاومة المسلمين لتيارات الحضارة الغربية فترة من الزمن فإن الأجيال المسلمة الناشئة التي لم تجد أمامها إلا الصورة المشوهة للإسلام ، وكانت تعتقد أنها الصورة الحقيقية للإسلام ، ثم رأت إلى جانب ذلك حالة الضعف والتأخر الحضاري والتخلف العلمي والركود والانحطاط التي كان المسلمون يعيشون فيها ، ثم بجانب ذلك كله رأت حواليتها مظاهر قوة الحضارة الغربية المادية التي لم تفهمها على حقيقتها ولم تتف على ما فيها من جوانب الضعف والنقص والفساد إن هذه الأجيال الناشئة لم تلبث بحكم الطبيعة فترة طويلة حتى فتنت بالحضارة الغربية

وانهضت بما عند الغرب • وراحت تعتنق مذاهب فكرية مستحدثة ونظما اجتماعية وسياسية واقتصادية جديدة • أحدثت تشويها جديدا للمفاهيم الإسلامية أفقدتها صورتها الأصلية وزادها بعدا عن القلوب والأذهان •

ومنذ أن سيطرت القوى الاستعمارية الغربية على شئون هذه البلاد اعتزمت تغيير الأحوال القائمة فبدأت تعمل جاهدة لنشر الحضارة الغربية والمذاهب الفكرية والنظم الاجتماعية والاقتصادية الأوروبية والعادات والتقاليد الغربية فأحدثت في المجتمعات الإسلامية أزمات جذرية عنيفة وثورة فكرية نفسية بسبب ما حملته الحضارة الغربية من المصالح الدنيوية والمنافع المادية بحيث أحدثت تطورا ملموسا وتقدما كبيرا في رفع مستوى المعيشة وازدهار شئون التجارة والتنمية العمرانية وتوفير وسائل المواصلات وزيادة رفاهية الإنسان وتهيئة وسائل الراحة في المأكل والسكن والمواصلات ونشر أسلوب الحياة الانعزالية والمادية والاحادية • وحين التقى الناشئون في الحضارة القديمة التي كانت سائدة في جميع بلدان المسلمين منذ عصر الانحطاط الذي وصفناه سابقا بالحضارة الغربية الحية الواجعة الآفاق حدث صراع حاد في نفوسهم • إذ لم يتلقوا في بيئاتهم الثقافية المتأخرة غير الصورة المشوهة الضيقة الأفق التي اعتقدوا أنها هي الإسلام • فكان نتيجة ذلك شعور بالنقص الذاتي في أنفسهم حيث وقفوا على جوانب النقص في حضارتهم وقيمهم ومفاهيمهم الدينية • مما أدى بطبيعة الحال إلى النفور والإعراض عنها • والانسياق وراء تيارات الحضارة الغربية الجارفة • فحدثت تحولات جذرية عميت جميع الطبقات • وانتشرت في جميع البيئات • وشملت جميع جوانب الحياة • وإن أول من تفاعل مع هذه التيارات هم المثقفون الذين تعلقوا بأدبيات الحضارة الغربية ووضعوها لبان التعليم الغربي فحجبوا عن رؤية مظاهر الإسلام الحقيقية واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير وثافع لقصر عقولهم وضعف مداركهم • وعلى الرغم من أن الحضارة الغربية قد ارتقت ببعض جوانب الحياة الإنسانية من الناحية المادية فقد أخفقت في جوانب هامة في الحياة البشرية من الناحية الروحية والأخلاقية

حين عجزت عن تحرير الإنعمان من عبودية غير الله الخالق والارتقاء به إلى القمة الإنسانية وتهذيب النفس البشرية وتقرير مبادئ الحق والعدل في العالم ٥ فكانت الأثرة والطمع الشديد إلى الذات المأجلة والتطلع إلى الجاه والمنصب وحب الذات وحب الاستعلاء والاهتمام بتحسين الوسائل وارتقاءها دون النظر في الفايات والأهداف ٥ مما رفع الحياة المادية إلى مستوى أعلى ولكنه أدى إلى الصراع العنيف بين الطبقات والفئات لا من أجل غاية نبيلة ومصالحة إنسانية عامة بل لمجرد تأمين وسائل الرفاهية وتحسين مستوى المعيشة واعتبار ذلك غاية تتقاتل من أجلها الطبقات المختلفة في المجتمع ٥

وقد سبق أن قررنا أن الدوافع التي كانت وراء غزو الأوروبيين وتوغلهم إلى هذه البلاد بل إلى جميع البلدان التي استعمروها لم تكن دوافع إنسانية ولا أخلاقية وإنما كانت دوافع مادية وأحقاداً دينية صليبية وأطماعاً استعمارية توسعية من أجل ذلك فشلت الاستعمار والتبشير في تحقيق وسائل الميادش الرغيد والتضامن الاجتماعي الذي زعم أنه جاء هذه البلاد من أجله ٥ وبالإضافة إلى ذلك فقد فشلت الحضارة التي يحملونها معهم في رفع المستوى الإنساني الذي يشمل الناحية الروحية والمادية في حياة الإنسان ٥ ويرتكز على العقيدة السليمة وما يصاحبها من قيم عليا ومبادئ قومية ويرجع السبب في ذلك كله إلى تصور الغرب الخاطئ لحقيقة أسرار الكون وحقيقة الإنسان والحياة ٥ إن الثورة الاجتماعية والحضارية التي أحدثها توغل الحضارة الغربية في المجتمعات الإسلامية كانت تجرى على أيدي النخب الوطنية التي صنعها رجال الاستعمار والتبشير واتخذها عيلة مأجورة وهم يعلمون أنها أقدر منهم في تفجير تلك الثورة إذ إن هذه الطبقة هي القادرة على منع إثارة المشاعر الدينية عندما تتحرك لمواجهة جيوش الاختلال الغربي التي زحفست لمكافحة القيم الدينية والحضارية وإضمار روح المقاومة وتوجيه حركات المقاومة وجهته أخرى غير سليمة ٥

قال ترمينغهام (J.S. Trimingham) (١) لم يتأثر المسلمون كثيراً بمظاهر الحضارة الغربية التي تنعكس على الأحوال الاجتماعية والثقافية (١) ٥

(١) J.Spencer Trimingham, op. cit., P.217

ولانندرى ماذا يريد هذا الكاتب البريطاني أن يكون للحضارة الغربية من آثار
عميقة على شئون حياة المسلمين الاجتماعية أكبر من التي شاهدنا من زعزعة عقيدة المسلمين
وتشويه المفاهيم الإسلامية وإفساد أخلاق المسلمين وإضمار الثقافة الإسلامية ومحاربة
التعليم الإسلامي وتغيير القيم والمثل والمعادن والتقاليد ، حتى قامت المجتمعات
الإسلامية مذاهب فكرية غربية وقيم مادية ، فانتشرت البادئ الديمقراطية
والرأسمالية والثقافة الغربية والمعادن والتقاليد والبادئ الأخلاقية المسيحية . وقد
أدى ذلك كله إلى تحول كبير في شئون الحياة الاجتماعية ، حيث قامت مشكلات اجتماعية
كثيرة وخرجت المرأة من بيتها لتنافس الرجل في اختصاصاته وصارت وسيلة للإغراء
والفتنة والفساد وتفككت أوامر الأسرة ، وعت الهوى وانتشرت الإباحية الجنسية ، (وقد
أثبت السير هسكيث بيل Sir Hisketh Bell الحاكم البريطاني على المحمية الشمالية
في السنتين مابين سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م وبين سنة ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ م أن الهيئات
التشهيرية هي التي جاءت بالأمراض الجنسية إلى أفنديا (١)) وقال الأستاذ أيدي يلسي
(Ayandele) (لقد بدأت الأمراض الجنسية مبكرا في نيجيريا بين هؤلاء الذين يسمون أنفسهم
بالمسيحيين قبل أن تبدأ بين الوثنيين وقد انتشرت في صفوف الموظفين الأفارقة) إلى
أن قال (وقد ندم معظم أولياء أمور الأطفال في بلاد يوريا على تركهم أولادهم يتلقون
التعليم الغربي على أيدي المبشرين) (٢) ونتيجة لفقدان عنصر القيم الروحية والأخلاقية
في الحضارة الغربية وتقديس الغرب للقيم المادية فقد ظهر الفساد في المجتمع ، وقامت
الفن والاضطرابات ، وظهرت مشكلات اجتماعية جديدة ، فانهار كيان المجتمع وأصبح
الناس في مآهات وحيرة وقلق قد ضلوا سواء السبيل .
وإن للتغيير الاقتصادي في هذه البلاد ارتباطا كبيرا بالتغيير الاجتماعي . وقد
بدأ التحول الكبير في الحياة الاقتصادية عندما ظهرت الفخامة على مسرح الأحداث التاريخية
لها بدأ الأوروبيون يتاجرون بالجنس البشري ويتنكرون منه أمتعة يبيعونها في الأسواق الأوروبية .

(١) E.A. Ayandele, op. cit., P.149

(٢) Ibid. P.292

وقد جلبت تجارة الرقيق التعاسة والمهلك على الشعوب الأفريقية حيث نقلت الآلاف المؤلفة إلى أوروبا فاستغلت في المزارع والمناجم • وعندما بدأت النخاسة تحدث مشكلات وأزمات اجتماعية في الدول الأوروبية • وأصبح أضرارها أكبر من منافعها • وبدأت تقل حاجة هذه الدول إلى الأيدي العاملة الكثيرة بسبب قيام الصناعة الآلية بعد تحطيم نظام الاقطاع وقيام نظم اقتصادية جديدة وانتشار الأسس الديمقراطية • وكانت الحاجة ماسة إلى إيجاد الأسواق خارج أوروبا لبيع المنتجات والبضائع الجديدة ••• عند ذلك كله قامت الدول الأوروبية تحت هذه الضغوط الشديدة والأوضاع الاقتصادية والسياسية الجديدة التي كانت تواجهها • بإلغاء تجارة الرقيق والعدول عنها إلى التجارة (الشرعية) فـسـى غلات الأرض وحاصلاتها •

ولقد كانت بلاد السودان الغربي منذ عهود طويلة تقيم علاقاتها التجارية مع بلدان شمال أفريقيا • بيد أن القوى الاستعمارية استطاعت أن تحول اتجاه الشئون الاقتصادية في هذه البلاد من الاتجاه الشمالي المؤدى إلى البلدان المطلة على البحر الأبيض المتوسط إلى الاتجاه الغربي عبر المحيط الأطلسي إلى الدول الأوروبية • وقد أقامت سلسلة من الطرق البرية والسكك الحديدية من المدن الداخلية إلى اتجاه شواطئ المحيط التي تتدفق إلى موانئ التجارة بضائع ومنتجات الغرب • وقد كان من آثار هذا التحول الاقتصادي أن قطعت العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين هذه البلاد وبين دول شمال أفريقيا • وضعفت شئون الحياة الاقتصادية في المدن الإسلامية الكبرى وقامت محلها مدن ساحلية تجارية أخرى احتلت مراكز هامة في العلاقات التجارية •

ولم تكن للنفوذ الغربي آثار كبيرة على شئون الحياة الاقتصادية في المناطق الشمالية المسلمة مثلما كان له في المناطق الجنوبية • ويرجع سبب ذلك إلى ما بيناه من قبل من شدة مقاومة المسلمين للغزو الاستعماري من ناحية وإلى سياسة الاستعمار في إبقاء المسلمين على التخلف والضعف من ناحية أخرى • وقد أنشأت الحكومة الاستعمارية العديد من الشركات الصناعية والزراعية والتجارية في مختلف المدن الكبرى في المناطق الجنوبية بصفة

خاصة وكانت شركات احتكارية استغلالية وكانت لها آثارها البالغة على شئون الحياة الاجتماعية . وقد حلت الفعالية الاقتصادية الجديدة محل الضعف والتخلف والتواكل والانعزالية التي فشت في البلاد فقامت فيها نهضة صناعية وازدهرت شئون الاقتصاد ونشطت العلاقات التجارية بين هذه البلاد وبين الدول الأوربية ودبت الحركة في عروق المجتمعات المحلية حتى أحلت القيم المادية المكانة الأولى في البلاد وانتشرت الهادى الرأسمالية وظهرت في الناس ميل شديد إلى جمع المال بكل وسيلة وظهر التنافس الشديد بين الأفراد وقام الصراع العنيف بين الطبقات والفئات . وقد أقيمت الوسائل الجديدة لتسهيل النشاط التجارى في مختلف المدن والقرى حيث أنشأت الأسواق الجديدة في المدن الهامة وفتحت الطرق البحرية والبحرية ونهت السكك الحديدية من المدن الداخلية إلى اتجاه شواطئ البحر المحيط . كما أنشأت وسائل الاتصالات ووسائل النقل وأقيمت بعض المزارع والمراكز التجارية وافتحت بذلك مجالات عمل جديدة في المجتمع وكثرت موارد الكسب ولكنها في الوقت ذاته زادت حدة الصراع في المجتمع وزادت من انكباب الناس على عالم المادة .

البحث الثالث

آثار النفوذ الغربي على الحياة الدينية في المناطق الإسلامية

لا يمكننا أن نهمل الجانب الديني أو نتجاهله في دراستنا لآثار النفوذ الغربي على النواحي التي تقدم الحديث عنها لأن الإسلام هو الخط المستقيم الذي نعرف به مدى انحراف الناس عن الطريق السوي ومدى ابتعادهم عنه ، كما أنه المقياس الصحيح الذي نعرض عليه أمورنا لنعرف هل هي جارية على ذلك الخط المستقيم مطابقة لفطرتنا أم متصادمة معها ، وهل هي مضرّة لصالحنا أم محققة لخيرنا وفلاحنا ، لذلك فإننا نود أن نشرح بعض الجوانب الهامة من التغيرات التي حدثت في حياة المسلمين الدينية عن طريق الغزو الاستعماري العكري وانتشار تيارات الغزو الفكري الأوربي في بلادهم وقد سبق أن قررنا أن أعمال التبشير في المناطق الشمالية الإسلامية لم تأت بالتأثير الجوهري الذي كان البشرون ورجال الاستعمار يتوخون منها ، وقد أخفقوا في هدفهم الأكبر الذي هو تنصير المسلمين أفراداً وجماعات رغم ما كانوا يبذلونه من مجهودات كبيرة وأموال طائلة منذ قرن ونصف قرن .

وهناك رجال من المبشرين أقاموا في بعض مدن هذه البلاد سنين طويلة يكرزون بالمسيحية ليل نهار ولكنهم لم يجدوا آذانا صاغية ولم يستطيعوا أن ينصروا فرداً واحداً من المسلمين . وإن المنذر اليسير الذي استطاعت الإرساليات التبشيرية أن تدخله تحت حظيرة المسيحية في المناطق الشمالية الإسلامية ، والكثرة الغالبة من الصابئين الذين انتقلوا إلى المسيحية أفراداً وجماعات في المناطق الجنوبية كانت في غالبيتهم من غير المسلمين . وقد أعترف البشرون أنفسهم بفشل أعمال التبشير الظاهرة والخفية في تحقيق غاياتها في المجتمعات الإسلامية حيث إن الجهود المبذولة في هذا السبيل قد ذهبت أدراج الرياح وفي مآلات الضياع ، ومن أجل ذلك لجأ البشرون ورجال الاستعمار إلى زعزعة عقيد المسلمين عندما فشلوا في تحويلها ومحوها .

ومن هنا تظهر لنا حقيقة بواعث التبشير بوضوح فهي ما كانت من أجل إصلاح

الحياة الروحية ، بل هى حرب شعواء لمكافحة الإسلام وجو عقيدة المسلمين وإفساد أخلاقهم ، ثم التوصل من خلال ذلك كله إلى السيطرة والاستعمار والاستغلال . (وقد صرح القس ج ١٠ • رومسون Rev. J.A. Robinson سكرتير إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية CMS بأن محاولة تغيير المسلمين تعتبر مضیعة للجهود)^(١) وحتى فى المناطق الوثنية التى انتشرت فيها الكنائس والمراكز التبشيرية ونشطت فيها الدعاية التبشيرية فإن الانتقال من المسيحية إلى الإسلام أكثر بكثير من الانتقال من الإسلام إلى المسيحية . (إن الإرسالية المشيخية التى بدأت أعمالها التبشيرية فى بلاد يورجا منذ سنة ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٦ م قد قامت بعمل متواصل ونشاط كبير فى الدعاية التبشيرية استمر سبع سنوات متوالية قبل أن تجد " من بين الوثنيين " من تحولوا إلى المسيحية حيث إنها أقامت أول حفلة ميمودية لها سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م . ولم تستطع أن تنهى أول كنيسة لها إلا فى سنة ١٢٧٢ هـ / ١٨٥٥ م)^(٢) وإذا كان رجال الاستعمار والتبشير لم يستطيعوا أن يغيروا وجه الوجود الإسلامى ذو التاريخ الطويل فى المناطق الشمالية الإسلامية تغييرا كليا ولم تتحقق جميع أحلامهم ، ولم يتم لهم ما أرادوا من إقامة الكنائس المسيحية على أنقاض المساجد ورفع صوت النواقيص على المآذن ، فقد أحرزوا نجاحا لا شك فيه فى تحقيق أهدافهم فى عدة مجالات . فقد استطاعوا أن ينشروا التعليم الغربى والثقافة الغربية والأسس الاقتصادية الجديدة كما استطاعوا أن يفرضوا نظام الحكم الديمقراطى على شعوب هذه البلاد ، وكذلك استطاعوا أن ينشأوا من الأجيال الناشئة طبقة المثقفين المحليين سواء من دخل تحت حظيرة المسيحية من هذه الطبقة ومن انجرف مع تيارات العلمانية الهدامة ولم يدخل فى المسيحية . ثم إنهم قد تمكنوا بفضل الجهود الكبيرة والأموال الطائلة والمفرات الكثيرة والدعايات من تغيير بعض المسلمين الضعفاء وكثير من الأولاد الصغار والشبان المسلمين فى المناطق الجنوبية ، فى حين لم يستطيعوا أن ينصروا من أبناء المسلمين الشماليين إلا عددا قليلا جدا تم اقتناصهم فى مجال

(١) E.A.Ayandle, op. cit., P.214

(٢) J.F.Ade.Ajayi, op.cit., P. 94

التعليم وعن طريق استغلال ظروف بعض الأسر الفقيرة • إن محاولات المبشرين وجهودهم المتواصلة في حقل التبشير قد هيأت ظروفاً مواتية أمام المستعمرين والتجار البريطانيين حتى تمكنوا من الفوز والاستعمار والاستغلال • وقد أدت حركة التبشير والفوز الاستعماري إلى قيام عهد جديد كانت عوامل التغيير الاجتماعي فيه سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم دينية أم ثقافية وليدة المؤثرات الخارجية أكثر من العوامل والظروف المحلية • (وقد ظهر أن الحكومة البريطانية كانت راغبة في استعمال القوة لإحلال المسيحية محل الإسلام في المناطق الشمالية •) (١).

إن أي عمل يتعلق بمستقبل الأمم والشعوب لا يمكن أن يحكم عليه بفشل أو نجاح في سنين قليلة ولا في جيل واحد إذ قد لا تظهر نتيجته إلا بعد أجيال وبعد عهود طويلة • ولم نر الكلام على عواهنه عندما حكمنا على الحملات التبشيرية بالفشل في غاياتها الأساسية في هذه البلاد بعد قرن ونصف قرن من قيام هذه الحملات الضارية • وإن هذه الفترة الطويلة كافية للوقوف على نجاح هذا الأمر أو فشله • وقد كانت غايات التبشير واضحة بينة منذ البداية وهو إخراج المسلمين من دينهم لمعتنقوا المسيحية اعتقاداً وصلاً • ولا شك أن هذه الغاية لم تتحقق بل هي أقرب إلى الاستحالة منها • إلى الإمكان بين الشعوب المسلمة • وذلك أن النسبة التي تم تصيرها من المسلمين نسبة قليلة تافهة يمكن أن تلحق بالعدم لتكون نتيجة سلبية تماماً • وبينما كانت مظاهر النفوذ الغربي تتوغل في سرعة هائلة إلى المجتمعات الوثنية لتقضي على أساليب الحياة التقليدية القديمة بحيث أدت إلى قيام أزمات اجتماعية وقع الناس فيها في قلق وحيرة من أمرهم حتى أرغوا على تمكين المسيحية الغربية من الانتشار وقبول الخضوع المذلل لسيطرة الغرب وسيطرة حضارته وثقافته • فإن المجتمعات الإسلامية قد ظلت لفترة طويلة تقسم حصناً منها • لصد تغول النفوذ الغربي • وقد تعرف هذا الحصن لهجمات عنيفة من جانب القوة الغربية الغازية حتى استطاعت في آخر الأمر أن تحدث فيه بعض الثقب والخسروق فتدخل المبشرون والمستعمرون من خلالها إلى الداخل • واستطاعوا أن يقتنصوا أبناء المسلمين عن طريق الظروف التي اصطنعوها والتي لا تملك الأجيال

الناشئة تحت وطأتها الشديدة أن تعتزل الحياة العملية الجديدة التي سيطر عليها الغرب أو تهتمد عن مجالاتها ابتعادا كلياً فلجأت إلى محاولة تكليف نفسها مع الوضع الجديد وانساق وراء تيارات الغزو الغربي الفكري وقبلة التعليم العلماني واعتنقت الأفكار الغربية فيما يتعلق بالدين والحياة الإنسانية .

وهكذا رأينا رجال الاستعمار والتبشير لما صعبت عليهم عملية تنصير المسلمين أفراداً وجماعات قنعوا أنفسهم بالاكتمال بإبعادهم عن دينهم بشتى الوسائل . وقد بذلت الحكومة الاستعمارية جهوداً كبيرة في نشر الاتجاهات المعاكسة للدين في شئون التعليم والإعلام وفي مجال التشريع والقانون وفي الشؤون الاجتماعية . وكانت لهذه الاتجاهات الجديدة آثارها البالغة في تشويه المفاهيم الإسلامية في أذهان أبناء المسلمين المثقفين من حيث التصور والتطبيق العملي .

إن تصور الغرب في مجال أسرار الكون وفي حقيقة الإنسان والحياة لا يركز إلا على أساس تأليه العقل الإنساني والاعتقاد بقوة وهيمته على شئون الحياة الإنسانية . وذلك نقيض تصور المسلمين في هذا الشأن . إذ أنهم يعتقدون أن هناك في هذا الكون قوة هائلة منفصلة عنه لها الأمر والخلق والتدبير . وليست هذه القوة هي عقل الإنسان ولا ينهض أن

تكون العقل . لأنه هو نفسه من آثار تلك القوة . ومن هنا كان موقف الرافض الذي اتخذ المسلمون الواعون المتحفظون تجاه كل ما يأتي من الغرب من حضارة مادية وتعليم لاديني واتجاهات أخرى معاكسة للمفاهيم الدينية .

ولقد نجحت الخطة الجديدة التي اتبعتها الاستعمار والتبشير لإبعاد المسلمين عن دينهم وخاصة في مصاف الأجيال الناشئة وقد كانوا يحاولون أن تتم العملية وتجري الخطط بحيث لا يقف الناس على حقيقتها وغايتها حتى لا تستثير حفيظة المسلمين أو تنههم إلى الأخطار المحدقة بهم .

وكما سبق أن ذكرنا أن نجاح النفوذ الغربي في هذه البلاد كان كبيراً جداً من ناحية تغيير مجرى الحياة الاجتماعية وتحول اتجاهات الناس وزعزعة عقائدهم ومحو قيمهم الأخلاقية ونظمهم السياسية والاقتصادية وتغيير عاداتهم وتقاليدهم .

وقد بدأ الإسلام يفقد سلطانه الروعى على حياة المسلمين تدريجياً عندما بدأت الطبقة المثقفة من أبناء المسلمين تتبنى تصورات قاصرة خاطئة عن الدين ، وأصبحت تعتقد أن الدين محصور فى زاوية ضيقة لا تتجاوز حدود الصغيرة ، كما أنه أمر شخصى بكل إنسان ويجب أن يلتزم الدين حدوده المعينة الضيقة ، يجب أن يلتزم حدود المساجد ويحتفظ بسلطان روحى محدود على جانب معين محدود من جوانب حياة المسلمين ويقف عند حدود الأموال الشخصية فى شئون القضاء دون أن يمد نفوذه إلى شئون التشريع والحكم والسياسة والتعليم العام والشئون الاجتماعية الهامة . وقد كان هؤلاء المثقفون الجدد ينظرون إلى مظاهر الحياة الاجتماعية بمنظار أساتذتهم الغربيين وأصبحوا يعتقدون أن التعاليم الدينية التى يقدسها آباؤهم ويحترمونها مجموعة تعاليم خرافية لا قيمة لها فى ميزان العقل النير والكمياسة السليمة . وطالما بقيت هذه التعاليم الدينية فى أنظار آباءهم المسلمين غير قابلة للتفسير والتبدل والتعديل ولا خاضعة للتطور فستظل تحمل طابع القدم والبلسبى والجمود والركود وغير ذلك مما تملكه العقيدة الانتهزمية على الدين والتقاليد الدينية . يقول جب : " الواقع أن الإسلام كمقيدة لم يفقد إلا قليلاً من قوته وسلطانه . ولكن الإسلام كقوة مهيمنة على الحياة الاجتماعية قد فقد مكانته . فهناك مؤثرات أخرى تعمل إلى جانبه وهى - فى كثير من الأحيان - تتعارض مع تقاليده وتعاليمه تعارضاً صريحاً . ولكنها تشيى طريقها بالرغم من ذلك إلى المجتمع الإسلامى فى قوة وعزم . فإلى عهد قريب ، لم يكن للمسلم من عامة الناس ، وللفلاح ، اتجاه سياسى ولم يكن له أدب إلا الأرب الدينى ولم تكن له أعياد إلا ما جاء به الدين ، ولم يكن ينظر إلى العالم الخارجى إلا بمنظار الدين . كان الدين هو كل شىء بالقياس إليه . أما الآن فقد أخذ يمد بصره إلى ما وراء عالمه المحدود وتعهدت ألوان نشاطه الذى لم يعد مرتبطاً بالدين فقد أصبحت له ميوله السياسية وهو يقرأ - أو يقرأ له غيره - مقالات فى مواضيع مختلفة الألوان لاصلة لها بالدين . بل إن وجهة نظر الدين فيها لا تناقش على الإطلاق . وأصبح الرجل من عامة المسلمين يرى أن الشريعة الإسلامية لم يعد هى الفيصل فيما يعرض له من مشاكل ، ولكنه مرتبط فى المجتمع الذى يحيا فيه بقوانين مدنية قد لا يعرف أصولها ومصادرها ولكنه يعرف على كل حال أنها ليست مأخوذة

من القرآن . وبذلك لم تعد التعاليم الدينية بحاجة لإمداده في حاجاته الروحية فضلا عن حاجاته الاجتماعية الأساسية . بينما أصبحت مصالحه المدنية وحاجاته الدنيوية هي أكثر ما يسترعى انتباهه وبذلك فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية ، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئا فشيئا حتى انحصرت في طقوس محددة ، وقد تم معنكس هذا التطور تدريجيا عن غير وعي وانتباه وكان الذين أدركوا هذا التطور قلة ضئيلة من المثقفين وكان الذين مضوا فيه عن وعي وتابعوا طريقهم فيه عن اقتناع قلة أقل . وقد مضى هذا التطور الآن إلى مدى بعيد ، ولم يعد من الممكن الرجوع فيه . وقد يبدو الآن من المستحيل - مع تزايد الحاجة إلى التعليم ومع تزايد الاقتباس من الغرب - أن يصدى هذا التيار أو يعاد الإسلام إلى مكانته الأولى من السيطرة التامة التي لا تناقض على الحياة السياسية والاجتماعية^(١) . إن تأثر أبناء المسلمين الذين ارتضوا لبسان التعليم الغربي بالأفكار الغربية والحضارة والثقافة الأوروبية واتجاهات الغرب اللادينية كان كبيرا جدا لدرجة أن بعضهم قد وصل بهم الانبهار إلى تقديس كل ما يأتي من الغرب من أفكار أو مذاهب وإلحس

(١) كتاب الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر تأليف محمد حسين الجز الثاني

س ٢٠٤ - ٢٠٥ نقلا عن كتاب :

H. A. R. Gibb, Ed., Whither Islam, London, 1939, Pp. 334 - 336.

الاعتقاد بأن الخروج عليه نكران للمعروف وجريمة كبرى في حق أساتذتهم الغربيين ، ولقد صبغت أفكار هؤلاء الناس بصبغة الفرنجة ، فكدرت عقلياتهم حتى وجدنا من بينهم من يتضايق من المسلمين المتمسكين بانتعاليم الإسلامية ومضمونهم بالتمنت والتنويع ، ويرجعون أسباب تأخر المسلمين وانحطاطهم إلى ذلك ، حيث لم يستجيبوا لداعى التقدم والتطور ، ولم يتعلقوا بسلم الرقى والحضارة ، وحصروا عقولهم في دائرة محدودة ونطاق ضيق حتى تحجرت وأصابها الصدا فتعطلت عن النمو والارتقاء .

وليس ذلك كله بغريب من هؤلاء الناس مادامنا علمنا أنهم قد تلقوا دراساتهم العالية في جامعات بريطانيا أو أمريكية . وحتى لو كانوا قد حصلوا التعليم العالى من إحدى جامعات البلاد فإنهم قد درسوا العلم على أيدي البعيرين وتلمذوا على المدرسين العلمانيين وترعرعوا تحت كفهم وطاشوا تحت أجواء الحياة التعليمية الغربية .

إن أمثال هؤلاء الناس أشد خطرا على الإسلام وأكثر ضررا على المسلمين من رجال الاستعمار والتبشير أنفسهم ، لأنهم من أبناء جلدتنا ، ويتكلمون بلغتنا ، بل يصلون ببعضهم معنا في المساجد ويتركون معنا في المواسم الدينية ، ولكنهم علماء ماجورون يسمعون وراء مصالح الأجانب ولا يفطنون .

إنهم يعيشون بين ظهرائنا ولكنهم ليسوا معنا فكريا ونفسيا وحضاريا . إنهم لا يزالون يتظاهرون لنا بأنهم منا مما جعل خطرهم أكبر وأعظم . إذ من السهل على الإنسان أن يتصرف على العدو والخارجى ويتقى شره من بعيد ، وقيم حاجزا منيعا في وجهه حتى لا يمكنه من الاقتراب منه . ولكن المصيبة كل المصيبة في العدو الداخلى الذى يتسربل في ثياب أخ وصديق ، ويبدى الحب والود تصنعا وهو في الوقت نفسه يضمم الغدر والحقد ، ويتحين الفرصة للوقعة بمن يخالطه . وقد رأينا كيف بدأ بعض أبناء المسلمين المثقفين يشنون حربا شعواء على الإسلام مجارة لنوائهم المسيحيين ، فادعوا عدم صلاحية الإسلام لمسيرة الزمن وللحاق بالركب الحضارى المتقدم . وقالوا بفصل الدين عن شئون الدولة ، وقالوا إن الإسلام يحدد حرية الإنسان بل يسلبها ، حيث يخدر أعصابه ويقف في وجه التقدم

والحضارة والرقى ويدعو إلى الجهل والتخلف • وقد أدى ذلك كله إلى تقلص سلطان الدين في نفوس هؤلاء الناس حتى وجدنا من بينهم أناس يحملون أسما إسلامية وهم أكثر ميلا إلى المسيحية والحضارة الغربية في عاداتهم ومظاهرهم •

ورغم ذلك كله فقد كانت هناك قلة قليلة من هؤلاء الملقين الجدد لاتزال تتخذ موقفا معتدلا نسبيا في شأن الدين فتدعو إلى العودة التدريجية إلى الإسلام وإنشاء محكمة شرعية استثنائية عليها يتحاكم إليها المسلمون ولاتزال البلاد تمتلئ بين الحين والآخر بحركات إسلامية تدعو خوفاً وعلانية إلى العودة التدريجية إلى الإسلام • ولكن هذه الحركات حركات غير بناءة • إذ لاتركز على أسس متينة وقواعد قومية • ولاتصدر عن وعى صحيح وفهم سليم للإسلام • ولا تجرى على خطط دقيقة مرسومة حتى تستطيع أن

تحقق ما تنسبوا إليه وذلك بالإضافة إلى أنها لاتدعو إلى العودة إلى الإسلام كمنهج متكامل لحياة الفرد والأسرة والمجتمع والدولة • ولاتدعو إلى تقرير الشريعة الإسلامية عقيدة وعادة وأخلاقاً وقانوناً • ولقد استطاع رجال الاستعمار والتشهير قبل زوال حكم الاستعمار الغربي في هذه البلاد أن يكوّنوا من أبنائها طبقة النخبات الوطنية التي كان من بينها بعض أبناء المسلمين ولاتطبق هذه الطبقة أن تسمع بالحركات الإسلامية • بل إنها تترقبها وتتحسس أخبارها • وما تبدأ تنقد جبراتها تحت الرماد لتصب عليها الماء وتطفئها قبل أن تستحيل نارا كبيرة • إنها لن تتركها تشتعل لئلا تحرقها • أو تصبح نورا ساطعا يضيئ الطريق أمام المسلمين ويردهم إلى الإسلام الصحيح الشامل لكل جوانب الحياة، وذلك كله هو تحقيق لأغراض التبشير كما أنه من نتائج برامج التعليم العلماني في هذه البلاد •

يقول جب : إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة فهي تنفجر انفجارا مفاجئا قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعوههم إلى الاعتبار في أمرها • فالحركات الإسلامية لا ينقصها ^{وجود} إلا الزمامة، لا ينقصها ^{ظهور} إلا إصلاح الدين ^(١) جديد •

(١) كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر / الجزء الثاني ص ٢٠٦ تأليف محمد حسين
نقل عن كتاب H.A.R. Gibb, op. cit., P.365

ولقد أضح القس صموئيل زويهر عن أغراض التبشير ونتائج التعليم الغربي العلماني غاية الإنصاح حيث أوضحها في خطابه الطويل الذي ألقاه في مؤتمر البشرين الذي عقد في القدس عام ١٣٥٥ هـ الموافق ١٩٣٥ م تقتطف منه ما يلي : قال القس زويهر لإخوانه البشرين : " إني أقركم على أن الذين أدخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين ، لقد كانوا كما قلت أحد ثلاثة ٠٠ إما صغير لم يكن له من أهله من يعرفه ما هو الإسلام أو رجل مستخف بالأديان لا يفهم غير الحصول على قوته وقد اشتد به الفقر وعزت عليه لقمة العيش ، وآخر يفهم الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية .

ولكن مهمة التبشير التي تدبتمكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليس هي إدخال المسلمين في المسيحية فإن في هذا هداية لهم وتكريما وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لاصلة له بالله والتألي لاصلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها ٠٠٠٠ ثم قال : لقد قمنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية وشرنا في تلك الربوع أماكن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيم عليها الدول الأوروبية والأمريكية ٠٠٠٠٠٠ إنكم أعدتم بوسائلكم جميع المقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد . إنكم أعدتم نشأ (في ديار المسلمين) لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية والتألي جاء النشأ الإسلامي طبقا لما أراد له الاستعمار المسيحي لايهتم بالمظاهر ومحبة الراحة والكسل ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات ، فإذا تعلم فللشهوة ، وإذا جمع المال فللشهوة وإن تروا أسى المراكز ففي سبيل الشهوات ، إنه يوجد بكل شيء للوصول إلى الشهوات ، إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه وانتهيت إلى خيبر النتائج (١) .

(١) كتاب جذور البلاء ص ٢٧٥ — ٢٧٦ تأليف عبد الله التل وكذلك كتاب المخططات الاستعمارية ص ٢٩٦ — ٢٩٨ للشيخ محمد محمود الصواف .

وقد جاء في مقدمة الميوساتلية في الفار على العالم الإسلامي ما يلي :

" لا ينبغي لنا أن نتوقع من جمهور العالم الإسلامي أن يتخذ له أوضاعا وخصائص أخرى إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية إذ الضعف التدريجي في الاعتقاد بالفكرة الإسلامية وما يتبع هذا الضعف من الانقراض والاضمحلال الملازم له سوف يقضي - بمقد انتشاره في كل الجهات - إلى انحلال الروح الدينية من أساسها لا إلى نشأتها بشكل آخر^(١) .

ولقد قررنا سابقا أن هناك فوارق كثيرة بين المناطق الشمالية الإسلامية وبين مناطق الإقليم الغربي التي كانت توجد فيها جماعات إسلامية دخلت في حظيرة الإسلام خلال القرن التاسع عشر الميلادي ولا يزال المسلمون يحتفظون حتى اليوم بالأغلبية بين شعوب تلك المناطق الوثنية والمسيحية . وبينما كانت هذه المناطق ميدانا واسعا للصراع العنيف القائم بين الحضارتين المحلية والغربية وبين الحضارة الإسلامية ، فقد ظلت المناطق الشمالية تعمل جاهدة لصد الحضارة الغربية من التوغل فضلا عن التمكن والانتشار وقد استمر ذلك فترة طويلة من الزمن قبل أن تتمكن القوى الاستعمارية الغربية من إجبارها على الاستسلام .

هذا وإننا لنقول إنه لا توجد ميول مضادة للنفوذ الغربي من جانب بعض المسلمين الجنوبيين كما أننا لنقول أيضا بققدان روح المقاومة تماما من جانب القلة قليلة منهم ، ولكن تلك الميول وروح المقاومة كانت مشوهة ضعيفة لأن معظم هؤلاء الناس انتهازيون غير مخلصي الولاء للإسلام بسبب تعلقهم بالمصالح المادية والمنافع الدنيوية التي تقدمها الحضارة الغربية . وهذه من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه على الرغم مما شاهدناه من المسلمين الشماليين أنفسهم من شدة التحفظ وقوة الشكينة وروح المقاومة الشديدة للنفوذ الغربي فإن حركات المقاومة التي قاموا بها للإجهاز على الاستعمار والتبشير لم تجر على الخط المستقيم ولم تتركز على أسس قهينة من التخطيط والتدبير اللازم حتى سقطت بلادهم تحت أقدام الغزاة المحتلين الغربيين وأخذت جذوة حركات المقاومة وأطفأت نيرانها

(١) الفارة على العالم الإسلامي ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد الياقبي ص ١٩ .

وذابت الروح الدينية في مجرى الحركات القومية التي وجه الاستعمار أنظار النخبات الوطنية إليها لأنها أخف ضررا على أهدافه ومآله وأهون خطرا عليه من الحركات الإسلامية التي هي أكبر خطرا يهدد كيانه ومآله وأهدافه . وهذا كله نتيجة عدم أخذ المسلمين الحذر اللازم وتهاوى الإرادة الحاسمة في مواجهة الأخطار المحدقة بهم واستسلامهم للوضع القائم والاستنامة عن الأخطار مما يعتبر مصدرا المباغتة التي واجهتهم على طول تاريخ أيام الاستعمار والتبشير في هذه البلاد . وفي المناطق الشمالية الإسلامية مثلا كانت مسألة الانتساب إلى الدين مرتبطة بالولادة على الفطرة السليمة ولذلك كان إيجاب المسلمين شديدا جدا لكل ما يصادم هذه الفطرة أو يشوهها أو يكدر نعيمها الصافي لأنهم يعتقدون أن سعادة الحياة الإنسانية وقوة تماسك أواصر الأسرة وبناء المجتمع ترتكز على أساس الدين . وأما في المناطق الجنوبية فإن هذه المسألة مفتوحة على مصاريحها إذ لا توجد عند الوثنيين روح الإيجاب مثلما وجدت عند المسلمين بالإضافة إلى أن الوثنية نفسها مصادمة للفطرة السليمة وخارجة عن الخط المستقيم ومنحرفة عنه إلى الجاهلية ثم إن انتشار نفوذ الغرب اللاديني في هذا البقاع قد زاد الطين بلة . وقد رأينا كيف تجرى فيها عملية التحول من دين إلى آخر من جانب أفراد المجتمع من دون أن يحدث ذلك أي ضجة في ذلك المجتمع إذ لا يمتد الناس أن اختلاف الولاءات الدينية يمكن أن يؤثر في وحدة الأسرة والتضامن القومي وبناء المجتمع .

وقد وجدنا في بلاد يوربا بعض الأسر التي تضم أصحاب أديان مختلفة يشترك بعضهم مع بعض في الأعياد الدينية الخاصة بكل فريق منهم من دون أن يؤمنوا بمعتقداتهم ، وقد كانوا ينظرون إلى اختلاف الأديان على أنه مجرد اختلاف الحضارات والمادات والتقاليد الذي لا يمكن أن يؤثر في بناء المجتمع والتضامن القومي .

وإن مثل هذا الموقف الجديد الذي بدأ الناس يتخذونه في شأن الدين قد ظهر في مصاف بعض المسلمين الجنوبيين المتأثرين بالنفوذ الغربي حيث صاروا يعتقدون الدين أمرا شخصيا محضا بالنسبة لكل فرد . وأن تغيير الإيمان ولاه الدين أو عدم إخلاصه

فيه أمر خاص بذلك الإنسان ولا علاقة للأسرة أو المجتمع به • ومن ثم لا يحدث ضجة كبيرة ولا يثير غضب جماهير الشعب كما هو الحال في المناطق الشمالية المسلمة ، وفي مجتمعات بلاد يوريا التي وجدنا فيها مثل هذا الاتجاه الجديد نحو الأديان أصبح الولاء الديني مجرد قوة مساعدة في تدعيم شئون الحياة الإنسانية لا أساساً ركيزاً يقوم عليه بناء المجتمع ولا رابطة قوية تقوم عليها الوحدة القومية • وقد ذكرنا أن تحويل الناس من الوثنية والمسيحية إلى الإسلام يعتبر ظاهرة اجتماعية منتشرة كثيراً في مختلف مناطق غرب أفريقيا حتى في المناطق الساحلية التي نشطت فيها أعمال الإرساليات التبشيرية وقام فيها الحكم الاستعماري الغربي وانتشر فيها النفوذ الغربي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي •

ومعترف الغربيون أنفسهم بأن الإسلام ينتشر بين الشعوب الأفريقية انتشاراً كبيراً أكثر بكثير مما تنتشر بينها المسيحية رغم كل المجهودات الكبيرة التي تبذلها الإرساليات التبشيرية ومن ورائها الحكومات الاستعمارية • وكذلك الأموال الطائلة التي تنفقها والخطط والتنظيمات والوسائل كل الكثير التي تضعها وتنفذها من أجل إنجاح أعمال التبشير في ربوع العالم الإسلامي • ورغم أن ذلك حقيقة واقعية يشهد بها العدو والصديق فإن لهؤلاء المبشرين من وراء أعرافهم هذا أهدافاً كثيرة هي المقصود تحقيقها لا مجرد تسجيل الاعتراف بتفوق الإسلام وسبقه المسيحية •

فإذا كان الإسلام الذي ليس له في هذه البلاد سلطة حاكمة تعمل في نصرته ولا هيئة دينية منظمة تملك إمكانات مادية ومعنوية وطاقات بشرية تحمل مهمة نشره وتمكينه في ربوع هذه البلاد يكسب من الأنصار والأتباع أضعاف ما تكسبه المسيحية التي تساند لها الدول الأوروبية والأمريكية وتعمل من أجل نشرها الهيئات التبشيرية الكثيرة • أفلا يكون ذلك باعث خوف وذعر ودافعا قويا لمضاعفة الجهود والإمكانات ؟ إنهم يريدون أن يستحثوا القائمين بتمويل الحركات التبشيرية على بذل المزيد من الأموال والدعم والتشجيعات • وإرسال الحملات التبشيرية لنشر مكامن التبشير وإنشاء المدارس والبراكيز والكنائس والمستشفيات وغيرها • كما أنهم يريدون أيضاً أن يدفعوا

البشرى إلى الاستمارة وذل النفس والتفيس والتضحية والتفانى من أجل تحقيق أهداف التبشير ووضع مخططات دقيقة تكفل النجاح للدعاية التبشيرية في هذه البلاد. ثم إنهم بجانب ذلك يهدفون إلى إضفاء عزيمة المسلمين ودفنهم إلى الاخلاق إلى الراحة والكسل/ وإغرائهم بأن من طبيعة دينهم أن يحرز الانتصارات الباهرة وأن لم يعملوا شيئاً في سبيل ذلك ، حتى يقعدوا عن الجهاد والدعوة الإسلامية معتمدين على أن هناك قوة معنوية تعمل تلقائياً على نشر الإسلام على ما قاله قائل أنا رب الإبل وللبيوت رب يحيمه ١ . وحقا إن الإسلام يكسب عددا كبيرا من القبائل الوثنية ومن المسيحيين ، وقد دخل إلى هذه البلاد منذ عصور طويلة واستطاع أن يثبت قدمه وينتشر في ربوعها ولم تصحبه قوة استعمارية ولا كان توغله عن غزو أو احتلال أو استغلال ، بل دخلها سلما وجاء لخير شعوب هذه البلاد وصالحها وخير البشرية جمعاء ، شأنه في كل بلد دخله وحط فيه رحاله . ولم يعرف عن الإسلام استعمارة للشعوب الخاضعة تحت نفوذه ولا استغلاله لخيرات بلادها ما عرف عن المسيحية الغربية التي كانت طليعة الغزو الاستعماري وأداة طمع في أيدي الحكام المستعمرين ، كما كانت امتدادا لخطوط الحروب الصليبية الأولى ، كانت تريد أن تأخذ بثأرها وأن تحول هزيمتها النكراء إلى انتصارات كبيرة .

ولكن لا يفوتنا ونحن في نهاية هذا الفصل أن نقرر أن التقدم العددي الذي يحرره الإسلام في هذه البلاد والرقم القياسي الذي يضربه من ناحية الانتشار وكسب الأنصار لا يمكن/ننخدع به كما انخدع به الكثيرون . إذ لا يهمننا الإسلام الاسمي بقدر ما يهمننا الإسلام العملي الذي هو منهج متكامل : حياة الإنسان في هذا الكون .

إن هناك حقيقة واحدة يجب أن نؤكد لها في هذا الصدد لأنها معضلة كبيرة تقف في وجه أي انتصار يمكن أن يكون الإسلام قد حققه في هذه البلاد ، وهي سرعة انتشار العلمانية الغربية والمذاهب المادية التي وضع غراسها رجال الاستعمار وتركوه في أيدي النخب الوطنية لتقوم برعايته وسقيه وإنماء من بعدهم ، فكان

من آثار ذلك ظهور أسلوب جديد للتفكير وأفكار وأنظمة جديدة في شئون الحكم والسياسة والقضاء واتجاهات جديدة نحو الدين ونظم ومبادئ جديدة في شئون الاقتصاد والاجتماع مما غير واقع حياة المسلمين بشكل عام وشامل .

ولقد أصبحت الحكومات المحلية تعلن سياسة الحياد في شئون الدين مجارة لما كانت تتظاهربه الحكومة الاستعمارية في أيام حكمها على البلاد .

وهكذا رأينا كيف أدى تعلق المسلمين بالأفكار العلمانية المعادية للدين إلى تقلص سلطان الإمام ، وتضييق آفاق نفوذه الواسعة إلى نطاق محدود يمس دور حول شمائل التعميد وجانب محدود من حياة الإنسان .

الاستشراف نحو مستقبل زاهر

لم أقصد من وراء عرض هذه الوقائع والحقائق بعث روح اليأس في نفوس المسلمين . كما أنني لا أرمى إلى القول بأن ما وصلت إليه حالهم لا يمكن أن يتغلبوا عليه . ولكني قصدت كشف النقاب عن هذه الحقائق وتلك الوقائع لتتعرف من خلال ذلك على الأمراض التي تنتاب المسلمين ، والمشكلات التي تواجههم والأزمات العديدة التي يعيشونها ، وذلك في محاولة البحث عن العلاج الناجع لهذه الأمراض ، والحلول السليمة لتلك الأزمات والمشكلات ليبادروا إلى محاولة إصلاح شؤون حياتهم وتغيير واقعهم المؤسف الذي يعيشونه إلى واقع أفضل وأكثر مرونة وحيوية . . . واقع إسلامي حقيقي . وحقا إن هذه البسالة قد وقعت من الانحدار والانحطاط في هوة سحيقة ووقعت في الهلاك من دون صحوة وانتباه . وقد غلبت على أمرها فترة طويلة من الزمن وتعاقبت فيها الأحداث والأزمات وقامت فيها الانقلابات الاجتماعية والسياسية وصراع الأفكار والمقائد ، ولكن رغم أن ذلك كله كان طامة كبرى ومشكلة عويصة ، فإن وسائل علاجها والتغلب عليها ليست بالأمر الصعب المستعصية . غير أن حركات الإصلاح قد تستغرق فترة طويلة من الزمن ، وقد لا يكتمل النجاح المرجو في جيل واحد ، وطريق الإصلاح محفوف بالمخاطر والعقبات ، وإن لم يكن الهادي والرائد فينعناية للرب والعزم القويم والإقدام على الخطوب وركوب المخاطر ، بعد دراسة عميقة لتفهم الموقف ووضع تخطيط دقيق مدروس ، وأخذ الحذر والأهبة اللازمة ، والإلمام بكافة جوانب الأمور ، فلن يمكن التغلب على تلك المشكلات والأزمات . ولكننا سنهتدي إلى الوسائل والأسباب التي تكفل لنا النصر المبين إذا درسنا أوضاعنا بتعقل وعلى بصيرة من أمرنا ، ونظرنا إلى حالتنا الراهنة بتفهم دقيق ، لنقف على حقيقة واقعنا وخاصة من جانب طبقة المثقفين الذين قبضوا على زمام الأمور في هذه

البلاد . وإن التجارب العديدة التي تمر بالمسلمين في هذه البلاد وتحديات العصر التي ظلت تواجههم لجديرة بأن تلفت أنظارهم إلى حقيقة ماثلة يجب ألا تغيب عن أذهانهم لحظة واحدة وهي أن مخططاتهم ومشاريعهم وساعيهم وحركات المقاومة التي ينظمونها يجب أن تقوم على أساس تلك التجارب وتسير على ضوئها ، كما يجب أن يكون ذلك عاملاً أساسياً لإنهاء همهم وإثارة مطامعهم ، وذلك لما أدت إليه هذه التحديات من الهزيمة والتخلف والضعف حين فقد المسلمون الإحساس بأخطارها وغفلوا عنها نتيجة ما غلب عليهم من الشعور بالأمن الذاتي والغفلة عن الحذر اللازم إزاء الأخطار المحدقة بهم ووضع تخطيط دقيق لمواجهة ما . وجماع القول أن مصدر كل ما واجه المسلمين من مآغات وما وقع في بلادهم من أزمات ومشكلات على طول تاريخ هذه البلاد كان راجعاً إلى الاستنامة عن الأخطار والغفلة عن أخذ الحذر اللازم والأهبة والوقاية المطلوبة . ورغم أن جيوش الاحتلال الغربي قد انسحبت من هذه البلاد بخروج الحكام المستعمرين المتسلطين حتى حسب الناس أن الحرب قد وضعت أوزارها أو هداً أو أوارها فإن المعركة مازال قائمة على أشدها ، إن لا تزال الدول الغربية الصليبية في صراع مرير مع الإسلام والمسلمين .

وإذا كانت جبهة الحرب قد تحولت من الاستعمار العسكري والسياسي إلى الاستعمار الفكري والعقدي والاجتماعي والترسوي حيث مخططات الاستعمار ومبادئه وأفكاره ونظائمه وحضارته هي المتحكمة في مصائر الناس والسيطرة على شئون حياتهم ، فإن الخطر ما يزال ماثلاً مهدداً للكيان الأمة الإسلامية . وقد كان بعض الناس ينظرون إلى الفوز والفكري الأوربي على أنه سلاح خفيف ، وكان الآخرون من السطحيين والسذج لا يدركون ما فيه من أخطار جسام . إن الفوز والفكري قد أراح القوى الأجنبية من عبء الصدام مع الشعوب النائرة في وجهها دائماً لفك أغلال الاستعمار والاستغلال حين قام في المجتمع فرييق من الجيل الناشئ صنعتته القوى الأجنبية على عينها بدأ يعتز بحمل لواء الثقافة الغربية والأفكار الأوروبية وتخلي أبناء المسلمين عنهم من دون شعور عن تراثهم الإسلامي والاستنارة بهداه ، ولم يعودوا يفكرون في تكتيل الجماعات الإسلامية على رابططة العقيدة الإسلامية .

إن حركات الاستعمار الحديث في حساب الغربيين أنفسهم مرحلة تالية للحروب الصليبية الأولى التي اندحرت فيها جيوش الصليبيين وردت على أعقابها تجر أذيال

الهزيمة النكراء . ولما خابت دول أوروبا المسيحية في تلك الحروب الضارية ولم تغلح حرب السلاح في تعطينهم قوة الإسلام وكسر شوكة المسلمين ، لجأت الدول الغربية إلى حرب الأفكار والعقائد فنشنت على المسلمين حروبا جديدة عن طريق التبشير ووسائله المختلفة من مدارس وكنائس ومراكز ومستشفيات وغيرها ، كما رفعت راية العلمانية اللادينية في هذه البلاد لحبس الدين بين جدران المعابد ، حتى لا يمتد سلطانها إلى ما وراء حدود تلك المعابد الضيقة ، ولم تترك مجالا من مجالات الحياة لشعوب هذه البلاد إلا شملته موجة العلمانية وثياراتها اللادينية ، لقد وضعت مبادئ الرأسمالية في مجال الاقتصاد ، وقررت مبادئ الديمقراطية في مجال الحكم والسياسة ، ونشرت مبادئ الحرية والتحرر التي تفضي إلى اللحد في مجال الاجتماع حتى أمحت القيم والمثل والأخلاق .

إن انسحاب القوى الأجنبية التي سيطرت على زمام الأمور في هذه البلاد ردحا غير يسير من الزمن ، وانتقال السلطة إلى أيدي النخب الوطنية التي صنعتها القوى الأجنبية بعناية خاصة طبق مخطط مدروس لم يكن ذلك كله ليغير شيئا من حالة هذه البلاد ، ... إذا علمنا أن تلك الطبقة المحلية المحلية خاضعة من حيث تدري ومن حيث لا تدري للقوى الاستعمارية لتتحكم في اتجاهاتها ومصيرها بحيث تسير شئون هذه البلاد بطريقة تحقق المصالح الأجنبية من غير أن تدرك ذلك جماهير الكادحين .

إن جذور مشكلاتنا هي الانحرافات التي وقع فيها المسلمون في تصوراتهم وسلوكهم ، وكانت أسباب ذلك ترجع إلى الغزو الأجنبي المقصود المخطط والتقبل الذاتي من جانب المسلمين أنفسهم نتيجة انحطاطهم وتخلفهم عن مواكب الحضارة والمدنية مما أدى إلى تسميم أفكارهم وانحصار مفهوم الدين في نفوسهم في دائرة ضيقة من شئون الحياة الإنسانية .

إن الأوروبيين المحتلين كانوا يحاولون دائما أن يحولوا حياة المسلمين إلى واقع غير إسلامي في مظاهره وحقيقته ليحققوا لهم الضعف والتخلف .

إن الفتنة الكبرى التي وقع فيها المسلمون هي أنهم لما نظروا إلى دول أوروبا

رأوها متقدمة في عالم المادة فانبهرت عقولهم وأعزت أوروبا إليهم أنها كانت متخلفة قروناً مديدة وأنها لم تبدأ في التقدم والرقى إلا بعد أن شرعت في التخلي والابتعاد عن ربقة الدين، ثم إنهم لما نظروا إلى حالتهم من الجوانب المقابل رأوا أنفسهم في تخلف وتأخر وأيقنوا أن سبب ذلك راجع إلى تسكهم بأهداب الدين كما كان حال أوروبا في عصورها المظلمة. وماذا نقول عن أوروبا التي أصبحت متقدمة راقية وهي بلا دين، وماذا نقول عن المجتمعات الإسلامية التي انحدرت إلى الحضيض في تخلف وتأخر وهي متعلقة بالدين ؟

إن هناك زيفاً وبالفحة متعمدة في هذا الكلام وتلك المقارنة ، إن المسلمون ليسوا ذوى الدين ولا متمسكين به بالمعنى الشامل وليست أوروبا أيضاً متقدمة في حقيقة الأمر وواقعته. ولكن من تلك الشكافة حصل تشويه كبير لصورة الإسلام في نفوس المسلمين، ومن هنا أيضاً حدث الانبهار بكل ما عند الغرب، ولما حصل ذلك الانبهار لم يستطاع المسلمون أن يميزوا بين الفسك والسمين فيما ينقلون من الغرب، وقد نقلوا كل ما يتعارض مع مبادئ دينهم ومعتقداتهم ونظمهم الاجتماعية ، نقلوا كل ما تقوله الدول الغربية عن الدين من أنه خرافة ومفوق ومخلف وأنه محصور في زاوية المعابد لا هيمنة له على شئون الحياة العملية .. نقل ذلك كله ببغاواتنا الوطنيين وأضافوه إلى الإسلام .

إن هناك مجموعة عوامل ساعدت على تكوين الغزو الفكري الغربي وانتشار تياراته ففسى ربوع هذه البلاد، منها ما هو من أنفسنا ومنها ما هو خارج عن إرادتنا . أما ما هو خارج عن إرادتنا فهو الغزو الأجنبي المقصود المخطط في برامج التعليم ووسائل الإعلام المختلفة وسياساته العلمانية اللادينية وحملاته التبشيرية والحضارة الغربية المادية والأفكار والمبادئ والنظم الأوروبية التي حاول الغزاة الأوروبيون نشرها في هذه البلاد. وأما العوامل التي كانت من أنفسنا فإنها تتمثل في بعد المسلمين عن حقيقة الإسلام وانحرافهم عنه في سلوكهم وتصوراتهم التي نشأ عنها انبهارهم بكل ما عند الغرب عند ما عاينوا تفوقه الحضارى القائم على أساس المادة، فقد نشأ عن هذا البعد والانحراف انهزام

داخلى فى مشاعر المسلمين أدى إلى هذا الانبهار والاستعداد لتقبل النفوذ الغربى
 مما قاد إلى التقليد والمحاكاة ونشأ عن ذلك فى آخر الأمر تحول كبير فى شتى مجالات
 الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ولم يكن هذا التحول تقدما حقيقيا
 فإنه كان ما يزال يتسم بالتخلف الحضارى والفكرى. ثم إن الحركات الإسلامية التى قامت
 فى هذه الفترة لم تكن قادرة على مواجهة أخطار الاستعمار والتبشير ومواصلة الجهاد
 وحمل الراية فى المعركة التى أعدت القوى الأوروبية لها كل العدة وظلت تعمل وفسق
 مخطط دقيق مدروس قائم على أساس تفهم عميق لطبيعة البلاد وعقائد شعبها ونفسياته
 وشئون حياته. بالإضافة إلى أن تلك الحركات لم تتبن فكرة إسلامية سليمة ولم تضع لنفسها
 منهاج عيلى واضح ، ولم تعمل وفق تخطيط دقيق مما مكن الاستعمار من النيل من قوة
 الإسلام وإضعاف المسلمين . وقد رأينا ما كان من نشاط الهيئات التبشيرية

وإذا نظرنا إلى الجانب المقابل لنفحص نشاط الحركات الإسلامية وجهود الدعوة
 المسلمين فإننا لا نجد شيئا كثيرا يستحق الذكر والتنويه عنه وكل ما كان هنالك لا يمكن أن
 نعتبره شيئا بالقياس إلى نشاط التبشير المسيحى من حيث الإمكانيات المالية الضخمة
 والطاقات البشرية الهائلة والوسائل المادية الأخرى المتعددة . وإن الطاقة المحدودة
 التى تمتلكها الجمعيات الإسلامية والجهود القاصرة التى تقوم بها لا يمكن أن تقف ^{في} وجه
 تلك القوة الهائلة والطاقات الضخمة التى تملكها الهيئات التبشيرية . وإذا نظرنا
 إلى الدعوة المسلمين الذين يعملون فى حقل الدعوة الإسلامية فى هذه البلاد فإننا لا نجد
 منهم إلا عددًا يسيرا جدا فمن يمكن أن نسميهم دعاة إسلاميين حقيقيين . وإن لعلهم
 المسلمين دورا كبيرا فى حصر مفهوم الدين والعبادة فى نطاق ضيق على طول العصور الحديثة
 وبين الأجيال وذلك بسبب التعصب والانحرافات وطريقة العزلة التى انتحلوها فيما يتعلق
 بمواكب الثقافة والحضارة ، وقد فات هؤلاء الناس أن الإسلام لا يفرق بين الدين والدنيا
 ولا يذم الدنيا إلا حين تكون هى غاية الإنسان الوحيدة وحين تصير أكبر همهم ومبلغ
 علمه . وقد غاب عن أذهانهم أن الشعائر التعبدية التى ركزوا عليها لم يفرضها الله

سبحانه/من أجل الحصول على الثواب الجزيل في الآخرة فحسب وإنما وضعت كذلك لتكون لها آثار عميقة من واقع الحياة البشرية . وإذا كان العلماء على مثل هذه الحالة من الانحراف عن جادة الطريق ، وفي حالة التخلف الثقافي والعزلة عن مواكب الحضارة والرقى ، فمن أين تجد جماهير المسلمين من يقدم الحلول السليمة للمشكلات المستجدة؟ وقد كان ذلك سببا هاما من جملة الأسباب التي أدت إلى ابتعاد الناس عن الدين . أضف إلى ذلك اهتمام هؤلاء العلماء بالقشور دون اللباب وتركيزهم على الأمور الجانبية وترك مهمها م الأمور التي لا يقوم بناء المجتمع إلا على أساسها ولا تصلح حال هذه الأمة الإسلامية إلا بها إذ بها صلحت حال الأولين . إن هناك مجموعة كبيرة ممن تصدوا للدعوة ونشر العلم في هذه البلاد لم يكن لهم باع طويل في العلم والمعرفة ولم يبلغوا مرحلة العالم والداعية وإن أدراجنا هم في عداد طلاب العلم فعلى سبيل تكثير سواء تلك الفئة فحسب . ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن نحسب تلك المجموعة في مصاف العلماء المتبحرين الألعبيين . ومن الجانب الآخر على ما سنفصله قريبا إن شاء الله تعالى فإن الجمعيات الإسلامية التي كان يمكن أن نعلق عليها آمالا كبيرة في حقل الدعوة كانت هي نفسها تركز على أعمال جانبية وتهمل النواحي الهامة ولا تصدر في أعمالها عن تخطيط ودراسة عميقة مما يكفل لها النجاح ويحقق لها أهدافها ،

وإذا استمرت الحالة على هذا الوضع المؤسف ، واستمر هذا النقص المؤلم في مصاف الدعوة المسلمين ، وظلت الحركات الإسلامية تتبنى اتجاهات قاصرة ، فإن مستقبل الإسلام فى هذه البلاد ينهب إلى خطر كبير قد لا يسهل تداركه إذا لم نبادر من الآن إلى اتخاذ موقف حاسم تجاه هذه القضية ، ووضع كل ما يلزم لها من المخططات الدقيقة والجهود الكبيرة ، إن هناك حركات إسلامية قامت فى هذه البلاد يتبنى أصحابها مناهج إصلاح غير متكاملة ، واتجاهات دينية قاصرة من بينها جماعة اقتصرت على إصلاح الانحرافات التي حدثت فى عقيدة المسلمين ثم غالت فى هذا الجانب . ومنها جماعة أخرى اقتصرت على نشر بعض التعاليم الإسلامية الممينة وغالت فى ذلك أيضا مثل جماعة المتعممين التي ركزت على تحريم خلق اللحى ووجوب التعمم على كل مسلم ومنع النساء من حضور المساجد وما إلى

ذلك وقد جعلت القواعد التي تبنتها محورا أساسيا يدور عليه إيمان المسلم وكأنها هي القواعد الخمس التي بنى عليها الإسلام ، في حين أنها كانت تهمل الأمور الأخرى الهامة في الدين . ثم إن من بين هذه الجماعات أيضا جماعة اقتصرت على النسك وغالبت فيه وهي الفرق الصوفية على اختلاف مذاهبها . ومنها أيضا جماعات اقتصرت على محاولة إصلاح طريقة التعليم الغربي والثقافة الأوروبية وإصلاح الأوضاع المحيطة بهكذا النوع من التعليم والعمل على إبعاد أبناء المسلمين من دخول المدارس التبشيرية . وإن هذه الاتجاهات لم تنتهج طريقة سليمة في برامجها الإصلاحية وهي بجانب ذلك مختصرة . غير متكاملة .

إن البدء باصلاح انحراف الناس في العقيدة نقطة انطلاق صحيحة لأن الإسلام يقيم بناءه على أساس العقيدة ولكن الخطر كله يكمن في اقتصارنا على ذلك ومغالاتنا فيه ، وكذلك الكلام في النسك . فكلنا يعلم فضل شعائر الله وعبادته وأنها هي عمد الدين التي لا يقوم بناؤه إلا بها ولكن مع ذلك لا ينبغي أن نقتصر على النسك فقط على أنه هو الدين كله .

وأما الحركة الإسلامية التي اقتصرت على إصلاح الأوضاع المحيطة بالتعليم الغربي والثقافة الغربية فإنها تسير في اتجاه قاصر وخطير ، ذلك أنها لم تغير في مناهج التعليم إلا تغييرا جزئيا طافيا ، يتعلق بعدم تدريس الدين المسيحي لأبناء المسلمين بينما تركت بقية المناهج على ما هي عليه ، ولم تفتن لما يحمله التعليم الغربي والثقافة الأوروبية في مبادئ وأفكار تتعارض مع الإسلام وقيمه ومثله ، وهي في الحقيقة معاول هدم لتقويض بنيان الإسلام فضلا عن أن الإسلام ليس مجرد ثقافة ، - حتى إن قد منا الثقافة السليمة - إنما هو منهج حياة عظيمة كاملة .

وقد رأينا أن الخطر الذي حاولت الجمعيات الإسلامية تفاديه لا يزال ماثلا رغم أن المدارس التبشيرية قد توقفت عن النمو والتكاثر ، لأن المدارس الحكومية والأهلية ومدارس الجمعيات الإسلامية التي أسست خصيصا لإبعاد أبناء المسلمين عن ورود مدارس الإرساليات

إن هذه المدارس جميعاً لا تختلف في جوهرها وأهدافها ونتائجها عن المدارس التبشيرية لأنها وإن لم تبشر بالمسيحية ظاهراً كما كانت تعمل مدارس الإرساليات فإنها غلّت تسهيم مساهمة فعالة في دفع عجلة التعليم الغربي اللاديني إلى الأمام مما يبعد الأمة الإسلامية عن حقيقة دينها ويغير قيمها ومثلها وأخلاقها ويربطها بعجلة الاستعمار الغربي إلى الأبد ، وهذا ما تهدف إليه القوى الغربية الصليبية . وهذا أن تنتهج هذه الجمعيات الإسلامية طريقة إصلاح شامل وبناء ، ولا تقتصر على جانب معين ضيق حتى يكون لجهودها النجاح المرجو .

وقد آن لها أن تعلم أن الإسلام منهج متكامل للحياة الإنسانية . وأنه بناء مرصوص تماسكت أركانه يشد بعضها بمضاء وأن عليها أن تعمل على ضوء هذا المعنى الواسع وتحسنت هذه الآفاق المترامية الأطراف ، ولا تقتصر على جانب ضيق من هذا البناء وتهمل بقية الجوانب الهامة . وإن المسلمين اليوم في حاجة إلى إعداد كل الحدة والاستعداد الكبير لحمل الأمانة الطلاقة على عواتقهم كما أن حاجتهم ماسة جداً إلى تنظيم حركة إسلامية شاملة تصيدهم إلى حقيقة الإسلام حتى يفهموه فهما صحيحاً عميقاً على أنه عقيدة وعبادة وشريعة وسياسة وأخلاق ومعاملات ، وأنه كل لا يتجزأ وأن تجزئته فتنة كبيرة مثل منعه جملة واحدة .

قال الإمام حسن البنا (أيها الإخوان أنتم لستم جمعية خيرية ولا حزباً سياسياً ولا هيئة موضوعية لأغراض محدودة المقاصد . ولكنكم روح جديد يسرى إلى قلب هذه الأمة فيحييه بالقرآن ونور جديد يشرق فيبدد ظلام المادة بمعرفة الله ، وصوت داو يعلو مرددا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن الحق الذي لا غلو فيه أن تشمروا أنكم تحملون هذا المصير بعد أن تخلص عنه الناس . . وإذا قيل لكم : إلام تدعون ؟ فقولوا ندعو إلى الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم والحكومة جزء منه والحرية فريضة من فرائضه ، فإن قيل لكم : هذه سياسة فقولوا هذا هو الإسلام ، ونحن لا نعرف هذه الأقسام) (١) .

(١) مجموعة رسائل الإمام حسن البنا ص ٢٣١ دار القرآن الكريم بيروت ١٣٩٣ هـ

وإن من أوجب الواجبات علينا هدم العبوديات السياسية والاقتصادية والاجتماعية
بتصفية رواسب الاستعمار كلها وإزالة جميع الطواغيت التي أقامتها القوى الغربية
السيادية من قيم ومبادئ ونظم وسائر طرائق وأساليب الغرب في شؤون الحياة .
ولقد ظل المسلمون منذ أمد بعيد يلتصون النور وسط الظلام الحالك وينشدون
الطريق وسط الغلالة التي تاهوا فيها ولكنهم ليسوا بالفي غايتهم حتى يفهموا أولا
ما هو النور الذي يتألمون إليه وما هو الطريق الذي إذا اهتموا إليه وسلوكه يقودهم
إلى النجاة والأمان والسعادة .

وإنني لأختتم هذا البحث بأن أقدم هذه الاقتراحات كوسيلة لحل المشكلات التي تواجه
المسلمين في هذه البلاد عليهم ينثفمون بها في تخطيط برامج أعمالهم من أجل تحقيق
مستقبل زاهر للإسلام في هذه البلاد . ويجدر بنا أن نشير إلى أنه ليس بإمكاننا
أن نقدّم منهجا مفصلا لنظام سياسي إسلامي قبل أن نقيم للإسلام دولة في هذه البلاد ،
ولكن الذي نطّكره هو أن نقدّم خطوطا عريضة يسيّر عليها هذا النظام ولتتزم حدودها
بحيث لا يحيد عنها قيد شبر .

أولا :

يجب أن تقوم في هذه البلاد حركة إسلامية ناهضة من جانب النخبات الإسلامية
الناشئة لأعلى أساس جمعية خيرية ولا حزب سياسي محض ولا مؤسسة اجتماعية
ولكن كقوة جديدة وروح جديد يمد الحياة الحقيقية إلى المجتمع ومن وراء هذه الحركة
علماء المسلمين الواعون الذين يجب أن يعطوا مهمة توجيه أعمالها الإصلاحية .

ثانياً :

يجب أن تبدأ هذه الحركات مهمتها بالقيام بالعمل الجاد المتواصل في سبيل نشر
التوعية الإسلامية بين جماهير المسلمين لتوضيح حقائق الإسلام فتبدأ أولا بتصحيح
التصورات والمفاهيم التي انحرف فيها المسلمون ثم تمضي بعد ذلك إلى تصحيح السلوك
وتقويمه .

ثالثا :

يجب العمل على تربية جيل جديد على حقائق الإسلام وتعاليمه الرشيدة وثقافته القيمة .

رابعا :

يجب توجيه عناية خاصة إلى طبقة المثقفين الإسلاميين لتعريفها بحقيقة الإسلام من جديد ومحاولة إعادتها إلى حظيرة الإسلام قلبا وقالبا .

خامسا :

دعوة علماء المسلمين إلى محاولة تحسين حالة التخلف الحضارى والتأخر الثقافى التى كانوا يعيشون فيها منذ أمد بعيد وإلى تصفية كل مايتعلقون به من رواسب البدع المنكرة والخرافات والعادات والتقاليد الجاهلية مما شوه صورة الإسلام فى نفوس الناس وأدى إلى ابتعادهم عنه . وإن أكثر التشوهات التى حدثت فى صورة الإسلام الناصعة فى أنظار المسلمين وخاصة طبقة المثقفين منهم ، كان هؤلاء العلماء هم المسئولين عنها فى الدرجة الأولى .

سادسا :

تصحيح المفاهيم والتصورات التى انحرف فيها المسلمون وأهمها توضيح حقيقة التوحيد ذاتها . وتصحيح مفهوم العبادة ومفهوم السياسة والحكم فى الإسلام ومفهوم القضاء والقدر وغير ذلك .

سابعا :

وضع تخطيط دقيق لإنجاح جهود الحركات الإسلامية يقوم على أساس من التفهم العميق والدراسة الواسعة لحالة المسلمين الراهنة وتنظيم برامج العمل وتنسيقها وتوحيد الجبهات وحشد الطاقات لتكون الأمة الإسلامية فى هذه البلاد يبدأ واحدة على كل من سواهم وقوة مرهوبة الجانب يحسب حسابها فى حلبة الصراع المعقد الذى لايزال قائما على أشده فى هذه البلاد .

ثامنا :

وضع منهاج قويم للنظام الإسلامى السياسى يقوم على أساس تقرير الشريعة الإسلامية وإيجاد الأمة الإسلامية التى تطبقها وتحولها إلى واقع عيسى فى شئون حياتها ومحاولة إيجاد الدولة القوية التى تهيم على شئون الأمة وتحميها .

تاسعا :

ومن الممكن أن يحمل المسلمون فى هذه البلاد عبء الدعوة الإسلامية فى المستقبل القريب ولكن حبذا لو بذلت الدولة الإسلامية مجهودات كبيرة فى سبيل نشر التوعية الإسلامية فى هذه البلاد وقد تمت العون اللازم فى هذا الصدد بإرسال الدعوات المخلصين للعمل/ليعرفوا الناس بحقيقة الإسلام ويصححوا المفاهيم التى انحرف فيها الناس وينشروا فيها الثقافة الإسلامية والتعليم الإسلامى ، وقد تمت كذلك المساعدة الفعالة فى سبيل رد اعتبار المسلمين السياسى والاجتماعى والاقتصادى .

ولعل هذه الرسالة تصلح أن تؤدى خدمة للأجيال الإسلامية الناشئة يتعرفون فيها إلى جهود المبشرين ونشاط الإرساليات الكبير فى حقل التبشير ومساغى رجال الاستعمار ومخططاتهم المدروسة فى سبيل تحقيق السيطرة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكذلك جهودهم الرامية إلى محو المقائيد والحضارة والقيم والمثل أو زعزعة عقيدة الأجيال الإسلامية الناشئة بوجه خاص ، وتهيئتها بشتى الوسائل والأساليب لقبول النفوذ الغربى والخضوع والاستكانة لأطماع الاستعمار وأهداف التبشير ، والأمل معقود بتلك الفخبات الإسلامية الطيبة التى تتأهب لتنسيق حركة إصلاحية عما قريب لإنهاض الأمة الإسلامية من كبوتها وإيقاظها من سباتها العميق ، فلعلها تجد فى هذه الدراسة وأمثالها ما تسير به للوقوف على أخطار حركات التبشير ومطامع القوى الاستعمارية وآثار أعمال التبشير والاستعمار والحضارة الغربية المادية على شئون حياة المسلمين ، ثم تضع منهاجها الخاصة وبرامج عملها الإصلاحى الدقيقة لإزالة رواسب الاستعمار

ومجابهة أخطار التبشير حتى يحقق الله على يديها النصر المبين .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، إن أريد إلا الإصلاح
ما استطعت وما توفيقي إلا بالله إنه عليه توكلت وإليه أنبت ، وآخر دعوانا
أن الحمد لله رب العالمين .

قائمة المراجع المربّية والمترجمة
=====

- موجز تاريخ نيجيريا للشيخ آدم عبد الله الالورى
بيروت ١٩٦٥ م
- الاسلام فى نيجيريا للمؤلف نفسه
بيروت
- افريقيا وراء السقرا* لذستان صلاح صبرى
المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب
(وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ،
نشره راندوم (Random) - الجزائر ١٨٥٢ م)
تاريخ افريقيا
تأليف اندرية جوليا
- تاريخ السودان ترجمة طلعت عوضى ابالغمة .
تأليف عبد الرحمن بن عبد الله السمدى
حققه ونشره هوداس وينوست (Houdas and E. Benoist)
الديانات فى افريقية السوداء* تأليف ديشامبس (H. Deschamps)
(ترجمة أحمد صادق ، مصر ١٩٥٦ م)
- افريقية الغربية فى ظل الاسلام نعيم قداح
دمشق ١٩٦١ م
- الدعوة إلى الاسلام : تأليف سير توماس . و . ارنولد (Sir Thomas W. Arnold)
ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور عبد المجيد عابد حسن
واسماعيل الدهراوى الطبعة الثالثة ١٩٧٠ م
- تاريخ الدعوة الاسلامية بين الامس واليوم للشيخ آدم عبد الله الالورى
بيروت ١٩٦٦ م
- انفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور تأليف الشيخ محمد بلو بن عثمان دان
فودن نشر فى لندن عام ١٩٥١ م
- الاستعمار أعقاد واطماع للشيخ محمد الغزالى
- فى موكب الدعوة = = =
الطبعة الرابعة القاهرة ١٩٦٥ م

- الاتجاهات الأدبية في الأدب المعاصر: للدكتور محمد محمد حسين
القاهرة ١٩٥٤م
- الاخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة . تأليف اسحاق موسى الحسيني
بيروت ١٩٥٢م
- حاضر العالم الإسلامي تأليف لوثرروب ستودارد .
ترجمة نوبيل وتعليقات شكيب ارسلان
- افريقيون والمغرب تأليف الدكتور احمد سويلم المصري .
القاهرة ١٩٦٧م
- مجموعة الرسائل للامام الشهيد حسن البنا دار القرآن الكريم بيروت
١٣٩٣هـ - ١٩٣٤م
- التبشير والاستشراق : اعقاد وحملات:
للمستشار محمد عزت
واسماعيل الطميطاوى
تأليف الدكتور مصطفى خالدى والدكتور
عمر فروخ .
ط ٥ المكتبة المصرية بيروت ٢٩٧٣م
- الاستعمار والتبشير في البلاد العربية :
المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام
تأليف الشيخ محمد محمود الصواف
دار الثقافة . مكة المكرمة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م
- الفارة على العالم الإسلامي تأليف ا.ل شاتليه (A. Le Chatelier)
لخصها ونقلها الى اللغة العربية محب الدين الخطيب ومساعد اليافى
ط ٢ جدة ١٣٨٧هـ دار السمودية للنشر
أساليب الفوز الفكرى للعالم الإسلامي . تأليف الدكتور على محمد جريشه والشيخ
محمد شريف الزبيد
القاهرة دار الاعتصام ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م
- مذكرة حاضر العالم الإسلامي تأليف محي الدين القضاينى
جدة مؤسسة الطباعة والنشر ١٣٩١هـ - ١٩٧١م
- اوربا المصور الوسطى الجزء الاول تأليف الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
اوربا في العصر الحديث الجزء الثانى ط ٥ القاهرة ١٩٧٢م .
- الاسلام في وجه التفريب : مخططات الاستشراق والتبشير .
تأليف الاستاذ انور الجندى

الاسلام والغرب . تأليف الاستاذ انور الجندى القاهرة دار الاعتصام .

نظام التعليم العربى فى نيجيريا للشيخ آدم عبد الله الالورى بيروت ١٩٦٧م

كتاب الدين النصيحة = = = = = ١٩٦٦م

مصرقة المصحف فى العالم الاسلامى للشيخ محمد الفزالى

ط٢ القاهرة دار الكتب الحديثة ٣٨٣هـ ١٩٦٤م

حضارة الاسلام وحضارة اوربا فى افريقية الغربية : تأليف نعيم قداخ

دمشق المطبعة الجديدة ١٩٦٥م .

امبراطورية غانة الاسلامية : للدكتور ابراهيم على طرخان مصر ١٩٧٠م .

دولة مالى الاسلامية = = = = = ١٩٧٣م

" نيجيريا "

من سلسلة مواطن الشعوب الاسلامية فى افريقيا تأليف محمود شاكر

دمشق ، دار الفكر ١٩٦٣م

الفكر الاسلامى الحديث فى مواجهة الافكار الغربية : تأليف الشيخ محمد المبارك

٢٧ بيروت دار الفكر ١٣٨٩هـ ١٩٧٠م

المستقبل لهذا الدين : للاستاذ سيد قطب

بيروت . دار الشروق ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م

جذور البلاء تأليف عبد الله التل

دار الارشاد بيروت ، ١٣٩٠هـ

بين الدعوة القومية والرابطة الاسلامية : ابو الاعلى المودودى ، دار الصروبة

بيروت .

1999	2000	2001	2002	2003	2004	2005	2006	2007	2008	2009	2010	2011	2012	2013	2014	2015	2016	2017	2018	2019	2020	2021	2022	2023	2024	2025	2026	2027	2028	2029	2030	2031	2032	2033	2034	2035	2036	2037	2038	2039	2040	2041	2042	2043	2044	2045	2046	2047	2048	2049	2050	2051	2052	2053	2054	2055	2056	2057	2058	2059	2060	2061	2062	2063	2064	2065	2066	2067	2068	2069	2070	2071	2072	2073	2074	2075	2076	2077	2078	2079	2080	2081	2082	2083	2084	2085	2086	2087	2088	2089	2090	2091	2092	2093	2094	2095	2096	2097	2098	2099	2100	2101	2102	2103	2104	2105	2106	2107	2108	2109	2110	2111	2112	2113	2114	2115	2116	2117	2118	2119	2120	2121	2122	2123	2124	2125	2126	2127	2128	2129	2130	2131	2132	2133	2134	2135	2136	2137	2138	2139	2140	2141	2142	2143	2144	2145	2146	2147	2148	2149	2150	2151	2152	2153	2154	2155	2156	2157	2158	2159	2160	2161	2162	2163	2164	2165	2166	2167	2168	2169	2170	2171	2172	2173	2174	2175	2176	2177	2178	2179	2180	2181	2182	2183	2184	2185	2186	2187	2188	2189	2190	2191	2192	2193	2194	2195	2196	2197	2198	2199	2200	2201	2202	2203	2204	2205	2206	2207	2208	2209	2210	2211	2212	2213	2214	2215	2216	2217	2218	2219	2220	2221	2222	2223	2224	2225	2226	2227	2228	2229	2230	2231	2232	2233	2234	2235	2236	2237	2238	2239	2240	2241	2242	2243	2244	2245	2246	2247	2248	2249	2250	2251	2252	2253	2254	2255	2256	2257	2258	2259	2260	2261	2262	2263	2264	2265	2266	2267	2268	2269	2270	2271	2272	2273	2274	2275	2276	2277	2278	2279	2280	2281	2282	2283	2284	2285	2286	2287	2288	2289	2290	2291	2292	2293	2294	2295	2296	2297	2298	2299	2300	2301	2302	2303	2304	2305	2306	2307	2308	2309	2310	2311	2312	2313	2314	2315	2316	2317	2318	2319	2320	2321	2322	2323	2324	2325	2326	2327	2328	2329	2330	2331	2332	2333	2334	2335	2336	2337	2338	2339	2340	2341	2342	2343	2344	2345	2346	2347	2348	2349	2350	2351	2352	2353	2354	2355	2356	2357	2358	2359	2360	2361	2362	2363	2364	2365	2366	2367	2368	2369	2370	2371	2372	2373	2374	2375	2376	2377	2378	2379	2380	2381	2382	2383	2384	2385	2386	2387	2388	2389	2390	2391	2392	2393	2394	2395	2396	2397	2398	2399	2400	2401	2402	2403	2404	2405	2406	2407	2408	2409	2410	2411	2412	2413	2414	2415	2416	2417	2418	2419	2420	2421	2422	2423	2424	2425	2426	2427	2428	2429	2430	2431	2432	2433	2434	2435	2436	2437	2438	2439	2440	2441	2442	2443	2444	2445	2446	2447	2448	2449	2450	2451	2452
------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------

بعضها أثناء العمل الميداني في مستودع السجلات الوطنية النيجيرية (Nigerian National Archives) في مدينة ابادن كما اطلعت على الصور الفوتوغرافية لبعض السجلات الموجودة بمكتبة جامعة ابادن (U.B.I) وكذلك عملت على البحث الآخر عن طريق الاتصال بمستودع السجلات والتقارير الرسمية لرساليات الكنيسة الانكليزية التبشيرية بلندن .

ويجد القارئ في ثنايا البحث علامات ورموزا تشير الى فئات هذه السجلات . فالسجلات والتقارير المتعلقة بارسالية غرب افريقيا التبشيرية مثلا تحمل علامة (CA1) بينما وضع السجلات جمعية يوربا التبشيرية علامة (CA2) كما وضع لمجموعة السجلات الخاصة بشئون جمعية النيجر التبشيرية علامة (CA3) . وكل مجموعة من هذه المجموعات الثلاث مقسمة الى قسمين احدهما خاص بالرسائل المصادرة من الهيئة العليا للرساليات الانجليزية الى الجمعيات التبشيرية او المبشرين في مختلف مناطق نيجيريا ، وقد وضع لهذا القسم علامة حرف (I) والقسم الثاني خاص بالرسائل الواردة وتقارير المبشرين عن شئون التبشير في مناطق اعمالهم ويشار الى هذا القسم بعلامة حرف (O) .

وقد تغيرت هذه العلامات والرموز بعد عام ١٩٨٢ هـ ١٨٨٠ م واسمحت تكتب هكذا
(G3A1/0) ، (G3A2/0) ، (G3A3/0) . كما ان السجلات والتقارير
المتعلقة بشئون التبشير في المناطق الشمالية الاسلامية تحمل علامة (G3A9/0) .

اما بالنسبة للارسالية المنهجية الويزلية (M.M.S) فقد اطلعت على بعض

سجلاتها الموجودة في مستودع السجلات الوطنية النيجيرية في مدينة ابادن . وكذلك اشملت

بمستودع سجلات الرسائل المعمدانية في نيجيريا ومكتبة روبرسن (The Robinson Collection)

فيما يتعلق بسجلات الرسائل المعمدانية كما اكملت بمستودع سجلات جمعية المبشرين
 الافارقة في مدينة ابادن . (Society of African Missionaries Archives)

(ب) السجلات الحكومية :

=====

لقد اشتملت بمستودع السجلات الوطنية النيجيرية (N.A.I) ومكتبة جامعة ابادان (U.I.L) واطلعت على بعض السجلات المتعلقة بشئون الحكومة الاستعمارية البريطانية فى كل من مستعمرة لا جوس والمناطق الجنوبية والشمالية . وتضم هذه السجلات معلومات كثيرة تتعلق بالحكم الاستعماري فى هذه المناطق وسياسة الحكام البريطانيين وتقاريرهم السنوية وبيانات المجلس التشريعي الاستعماري ومناقشاته حول شئون الادارات المحلية . وكذلك تضم معلومات عن الشئون الاقتصادية للحكومة الاستعمارية : تجارة الرقيق ، وشئون التجارة " الشرعية " ونشاط الشركات التجارية البريطانية وغير ذلك .

(ج) الدوريات والصحف :

=====

توجد مجموعة كبيرة من الصحف والمجلات والدوريات فى مستودع السجلات الوطنية النيجيرية (N.A.I) وفى مكتبة جامعة ابادان (U.I.L) تتعلق بشئون الحكومة الاستعمارية واخبار الرساليات التبشيرية ونشاطها التبشيري فى مختلف مناطق نيجيريا وخاصة فى المناطق الجنوبية . ويرجع تاريخ بعض هذه الصحف والمجلات الى عام ١٢٨٠ هـ ١٨٦٣ م وقد اطلعت على بعضها واستفدت من المعلومات الواردة فيها . واذكر على سبيل المثال بعض هذه الصحف والمجلات :

The Negro, 1873

Lagos Times, 1880-1883

Lagos Observer, 1883-1888

Lagos Weekly Record, 1891-1930

The Lagos Standard, 1899-1920

The Nigerian Pioneer, 1917, 1936

Nigerian Daily Telegraph, 1927-1936

The Nigerian Daily Times, 1926

- Adeleye, R.A. Power and Diplomacy in Northern Nigeria, 1804-1906, London, (1971)
- AJAYI, J.F.A. Christian Missions in Nigeria 1814-1891, The Making of a New Elite, London, (1975)
- AJAYI, J.F.A. and SMITH, R.S. Yoruba Warfare in the 19th Century, Cambridge University Press, (1964)
- ANENE, J.C. Southern Nigeria in Transition, Cambridge, (1966)
- ANON Minutes of the Church and Native Customs Conference, Onitsha C.M.S Archives, (1914)
- ATANDA, J.A The New Oyo Empire, London, (1973)
- ATANDA, J.A (ed) Travels & Explorations in Yorubaland, by W.H. Clarke Ibadan, (1972)
- AYANDELE, E.A. The Missionary Impact on Modern Nigeria, London, Longmans, (1971)
- BABALOLA, E.O Christianity in West Africa, Ibadan, (1976)
- BABALOLA, E.O The Advent and Growth of Islam in West Africa, Ibadan, (1973)
- BANI, M.J. Catholic Pioneers in West Africa, Dublin, (1956)
- BICBAKU, S.O. The Egba and Their Neighbours, 1842-1872, Oxford University Press, (1957)
- BROWNE, L.E. The Prospects of Islam, London, (1944)
- BULLARD, Sir R. Britain and Middle East, New York, (1951)
- BLYDEN, EDWARD Christianity, Islam and the Negro Race, London, (1887)
- BOER, H.R. A Short History of the Early Church, Ibadan, Daystar Press, (1976)
- BOVILL, E.W. The Niger Explored, London, Oxford University Press, (1968)
- BOWEN, T.J. Central Africa Adventures and Missionary Labours in Several Countries in the Interior of Africa from 1849-1856, Charleston, (1857)
- BURDO, A. A voyage up the Niger and Benue, London, (1880)
- BURDON, J.A. Northern Nigeria. Historical Notes on certain Emirates and Tribes, London, (1909)
- BUXTON, T.F. The African Slave Trade and Its Remedy, London, (1840)
- C. M. S. The Yoruba Missions, (1906)
- The Church in the Yoruba Country.
- Proceedings of the Diocesan Conference at Lagos, April, (1887)
- The Niger Mission, (1909).

(KEY)

- COLEMAN, J.S. Nigeria: Background to Nationalism, Los Angeles, University of California Press, (1958)
- COOK, A.N. British Enterprise in Nigeria, Philadelphia, (1943)
- CROWDER, M. The Story of Nigeria, London, (1973)
- CROWE, S.E. Berlin West African Conference, London, (1942)
- CROWTHER, S.A. AND TAYLOR, J.C. The Gospel on the Banks of the Niger, London, (1959)
- DAVEY, C.J. The Methodist Story, London, (1955)
- DENNISS, J.S. Christian Missions and Social Progress, London, (1899)
- DIKE, K.O. Trade and Politics in the Niger Delta, 1830-1885, Oxford, (1956)
- 100 Years of British Rule in Nigeria, 1851-1951, Lagos, (1957)
- DUVAL, L.M. Baptist Missions in Nigeria, Richmond, Virginia, U.S.A. (1928)
- EKECHI, F.K. Missionary Enterprise & Rivalry in Igboland, 1857-1914, London, Frank Cass (1971)
- EPELLE, E.M.T. The Church in the Niger Delta, Port Harcourt, (1955)
- ERNESTO GALLINA Africa Present. A Catholic Survey of facts and figures Translated by Dorothy White, London, (1970)
- FEDERAL MINISTRY OF INFORMATION, Nigeria Handbook 1974, Lagos
- FEUSER, W.F. (trans) Colonialism and Alienation, Benin City, (1974)
- Political Thoughts of Frantz Fanon
- FINDLAY, G. and HOLDSWORTH, W. History of Wesleyan Missionary Society London, (1924)
- GEARY, W.M.N. Nigeria Under British Rule, London, Frank Cass, (1955)
- GRENVILLE, J.A.S. & FULLER, G.J. The Coming of the Europeans, London, Longmans, (1970)
- GROVES, C.P. The Planting of Christianity in Africa, London, 1948-1958

- HALLETT, R. (ed.) The Niger Journal of Richard & John Lander, London, (1965)
- HARRISON, P.W Doctor in Arabia, London, (1943)
- HODGKIN, T. Nigerian Perspectives, London, (1975)
- Nationalism in Colonial Africa, London, (1960)
- HOBBS, S.J. An Introduction to the History of the Islamic States of Northern Nigeria, Oxford University Press, (1967)
- HINDERER, A. Seventeen Years in the Yorubaland, The Religious Tract Society, London, (1877) New Edition.
- HUELIN, G. The Church and the Churches, London, Sheldon Press, (1970)
- IDOWU, EB. African Traditional Religion, London, SCM Press, (1973)
- JODAN, P.J. Bishop Shanahan of Southern Nigeria, Dublin, (1949)
- JOHNSON, S. The History of the Yorubas from the Earliest Times to the Beginning of the British Protectorate, C.M.S. (1973)
(Pastor of Oyo)
- KNIGHT, W. Memoir of Henry Venn, London, (1882)
- LAST, MURRAY The Sokoto Caliphate, London, Longmans, (1967)
- LEWIS, L.J. Society, Schools and Progress in Nigeria, Oxford, Pergamon Press, (1975)
- MARRYAT, CAPT. The Mission or Scenes in Africa, London, (1970)
- MILLER, W.R.S. Yesterday, Today and Tomorrow in Northern Nigeria, (1938)
- An Autobiography, Zaria, (1953)
- MILLIGAN, A.A. FACTs and FALks in our Fields Abroad, Philadelphia, (1921)
- MOTT, J. The Moslem World of Today, London, (1925)
- NWANKITI, B.C. A short History of the Christian Church, Ibadan, (Bishop of Daystar Press, (1975)
Owerri)
- ODUYOYE, Modupe, The planting of Christianity in Yorubaland, Daystar Press, Ibadan, (1969)
- OGUNTUYI, A. History of the Catholic Church in the Diocese of Ondo, Ibadan, Claverianum Press, (1970)
- ORR, Sir Charles. The Making of Northern Nigeria, London, Frank Cass, (1965)

LUGARD,

PERHAM, M. | The Years of Adventure, London, (1956)

— LUGARD, The Years of Authority, London, (1950)

SADLER, G.W. A Century in Nigeria (Baptist) Nashville, U.S.A. (1950)

S.M.A. 100 Years of Missionary Achievement, Cork n.d (1956)

STRIDE, G.T. & IFEKA, C. Peoples and Empires of West Africa,
London, (1973)

THE CHRISTIAN COUNCIL OF NIGERIA, Justice and Peace in Nigeria,
Daystar Press, Ibadan, (1971)

TODD, JOHN M. African Mission, Burn and Oates, London, (1961)

TRIMINGHAM, J.S. Islami In West Africa, London, (1967)

TURNER, H.W. African Independent Church, Vols I & II, London, (1967)

WAISH, H.J. The Catholic Contribution to Education in Western Ni
London, (1951) ((Unpublished))